رجال ومواقف

محمد على

Bibliotheca Alexandrina
0125658

محمد علي رفاعي

Organization of the Alexandria Library (GOAL)
Bibliotheca Alexandrina

رجال ومواقف

***

الكتاب الثاني

***

الطبعة الأولى
اكتوبر سنة ١٩٧٧
القاهرة

تصدير

بقلم الأستاذ الجليل زكى المهندس
رحمه الله

لقد كان من اعز الأماني التى تجيش فى صدرى ، ان أرى فى المكتبة العربية دراسة جادة ممتعة ، تعالج حياة كثير من زعماء مصر والعرب ، الذين سطروا فى مشرقهم وفى مغربهم ، تاريخ الوطن العربى الحديث ، من علماء وساسة وقادة ورجال اعمال ، وأن تصور لنا هذه الدراسة ما عاناه هؤلاء العظماء من صعاب ، وما احتملوه من مشاق ، حتى وصلوا الى ما وصلوا اليه من عظمة وسؤدد ومجد ، فاننى اعتقد ان مثل هذه الدراسة ، هى انفع الدراسات للباحثين والمؤرخين ، واجدى على الشباب نفعا ، من كثير من الكتب التى يشغلون بها أوقات فراغهم .

ان كثيرا من شبابنا يشتهى النجاح من أيسر سبله ، ويتمنى الشهرة والمجد بغير ثمن ، ولكن مثل هذه الدراسة لحياة عظماء مصر والعرب ، خليقة بأن تبين للشباب ، ان النجاح وليد العمل الدائب الجاد ، وان الحياة لا تعطى شيئا بلا مقابل .

ولقد عرفنا عن عظماء الغرب ، حرصهم الشديد على تدوين سيرهم فى حياتهم ، لتنتشر بعد وفاتهم ، حتى تكون نبراسا لبنى اوطانهم ، يوقظ من هممهم ، ويقوى من املهم ، وينير لهم الطريق فى مستقبل ايامهم .

ومما يحزن ، ان جل – ان لم يكن كل – عظمائنا لا يعنيهم من حياتهم الحافلة ، سوى الدنيا العريضة التى يعيشون فى رحابها ، فلا يدون واحد منهم سيرته ، ولا يملى على احد ابنائه أو احفاده ، تفاصيل تدرجه فى عمله حتى بلغ ذروة المجد والعلا ... نعم لم يحفل واحد منهم بتاريخه أو بسيرته وبتاريخ وطنه فى عشرات السنين التى قضاها على ارضه قبل ان تضمه فى باطنها ، فانشاوا ، دون ان يدروا ، صعابا امام المؤرخين لهذه الأمة العربية ولرجالها الأفذاذ .. وهكذا رأينا كم تتطلب كتابة السير من تقص ، وكم تتطلب من تحر ، وكم تتطلب من تنقيب مضن مرهق شاق .

اعود فاقول ، انه كان من أعز أماني ، ان اجد دراسة جادة ممتعة لحياة عظماء مصر والعرب ، حتى وافاني ولدى وتلميذى وصديقى ، الأستـــاذ محمـــد على رفاعى بكتابه هذا الذى اسماه ((رجال ومواقف)) ، فاذا هو كتاب يحقق الامنية التى تمنتها نفسى ، ويشفى غلة فى صدرى .

والصديق الأستاذ رفاعى ، صحافى قديم ، صـادق الرواية ، واديب كبير غزير المادة ، وباحث محقق مدقق ، ولو اعنت نفسـه وارهقها ، فى سبيل الوصول الى الحقيقة خالصة مبرأة من الريب والشك . ولعل آخر ما اذكره من انتاجه التاريخى الأدبى ، كتابه النفيس ((الجامعة العربيـة وقضـايا التحـرير)) فقـد تحلى بالصــدق وبالأمانة ، وبدقة التحـرى والتنقيب .

وهذا الكتاب الذى اقدمـه اليوم لقـراء العربيـة ، هو جـزء اول من اجزاء سوف تصـدر تباعا ان شاء الله ، يختص كل جزء منها بجملة من السير ، لا ينظر فى جمعها معا الى صلة بذاتها ، بل على أنها قطعة من تاريخ أمة واحـدة هى الأمة العربية ، ثم على أنها قطعة من كفاح مشترك ، هو الكفاح من اجل تحقيق امانى الأمة العربية .

وهذا الجزء الأول يضم سيرا اربع ، لمكافحين أربعـة : منهم اثنان لهما الصفة الحاكمة ، واثنان لهما الصفة الاجتماعيـة . اما عن الأولى فستقرأ سيرة حاكمين عظيمين ، هما الأمير عبـد الله السالم الصباح ، امير الكويت الراحل ، والملك محمـد الخامس ، ملك المغرب السابق . واما عن الثانية فستقرأ فيها سيرة اجتماعيين ، احدهما محمـد على علوبة باشا ، وثانيهما الشيخ عبد العزيز جاويش .

وسير الحاكمين ، لا سيما فى هذه الظروف التى تحياها الأمة العربية ، موزعة بين جهاد وجهاد : جهاد من اجل الشعب المحكوم ، وجهاد من اجل الأمة العربية جمعاء ، اذ لا انفصال للجهـاد الأول عن الجهاد الثانى ، وقد احسن المؤلف الحصيف فى الحديث عنهما كل الاحسان .

وسير الاجتماعيين ، أعنى المصلحين الاجتماعيين ، تتوزع اغراضا ، وهى مع هذا التوزع ، تكاد تتصل هدفا . وما من مصلح اجتماعى يكاد لا يشارك فى اغراض شتى ، مع تخصصه فى غرض بذاته . فلقد خص محمد على علوبه باشا نهجه الاصلاحى ، بميادين الاصلاح الاجتماعى ، وان لم يبعد فى كثير من مراحل حياته الطويلة عن ميـدان السياسة . وخص الشيخ جاويش نهجه الاصـلاحى فى ميادين التربيـة والتعليم والدين ، وهو مع هذا ، قد شارك بقلمه المجاهدين السياسيين ، محاربة المستعمر ومناهضته .

ولقد كانت صفة تلميذنا الأستاذ محمد على رفاعى ، الدأب المتصل فى أثر الحقائق ، يجمعها ويدرسها ويستوعبها ، ولكم تنبأت له صغيرا – وهو بعد فى دار العلوم – بما سينتهى اليه أمره كبيرا ، وان هذا الاستيعاب ، وذلك الدأب وراء التقصى ، لا بد أن ينتهيا بصاحبهما ، الى أن يكون ذلك المؤرخ الذى يزف لقراء أمته ، حصيلة ما جمع ، على نمط حق مدروس .

وانى اذ اقدم هذه الصفحات ، أقدم صفحات صادقة مخلصة ، لا امت فيها ولا عوج ، ولا جور فيها عن القصد .. صفحات دبجتها براعة مؤرخ مخلص للحق ، مخلص للتاريخ . وما أزكى كاتبا وما كتب ، ولكنى أترك تلك الصفحات الحافلة ، تحدث ، الى حديثها عن أصحابها ، حديثا آخر عن الذى خطها ، وعنى نفسه فى جمعها ، غير جائر ولا مائل ، ولا مصانع ولا مجامل .

وليس التوفر على مثل هذا العمل ، لا سيما اذا كان عملا يتناول سيرا مليئة بالجهد ، مزدحمة بالنضال .. بالأمر اليسير ، اذا كان مشروطا بتوخى الحق ، وابتغاء النصفة .

كان الله لك أيها التلميذ النجيب والأستاذ الجليل ، فى عملك هذا ، الذى نرجو أن يكتمل ، كى يجتمع للقارىء العربى ، من سير ابطاله وعظمائه، بهذا القلم الصادق ، صفحات ، يعيش على ما فيها من خير وهدى ، كريما ، عزيزا ، معتزا بعروبته ، معتدا بارومته .

زكى المهندس

هـذا الكتـاب

بقلم الباحث المحقق
الأستاذ الكبير إبراهيم الابيارى

هذا كتاب جليل يترجم لأربعة من رجال اجلاء هم :

١ ـ عبد العزيز بن سعود .

٢ ـ سعد زغلول .

٣ ـ طلعت حرب .

٤ ـ عبد المجيد اللبان .

ولا اريد ان ادخل فى تراجم هؤلاء الرجال الاجلاء ، فما انا بمستطيع ان اضيف شيئا . فالكاتب راوية حجة ، ومؤرخ ثبت للقرن الذى نعيشه ، ثم هو الى هذا كله ، له نظرات جامعة ، وصلات موثقة .

والمؤرخ اذا كان معاصرا ، انضم الى ما وقع عليه غيره ، ما يقع عليه هو ، وانتهى من هذا وذاك ، الى تجربة ذاتية ، كان هو مالك زمامها .

من أجـل هـذا كان جل ما يكتبـه المؤرخون المعاصرون عن أحـداث معاصرة ، فيه الكثير من الحق ، وفيه الكثير من التجربة ، وفيه الكثير من الرأى الصحيح ، ان برئوا من الهوى فيما يحكمون به على ما يشاهدون ، ولم يحملوا الاحداث غير ما تحتمل ، ثم اذا استوعبوا ولم يجتزئوا بما يتفق وميولهم ، صادفين عما لا يتفق وتلك الميول .

ومؤرخنا لا شك جـد فى الاستيعاب . ينبئك عن هذا كل ثبت وضعه بعد كل ترجمة أو بين سطورها ، فهو قد وفى كل ترجمة من هذه التراجم حقها من الاستيعاب ، ثم هو بعـد هذا قـد أضـاف الى هذا الاستيعاب ما وقع عليه هو ، وحين اكتملت له المادة استوى له الحكم ، وما تجده ـ كما أرى ـ فى حكم من الأحكام التى حكمها ، أملى عن هوى أو ميل . وقد كان بودى أن أسوق هنا حكما وحكمـا لأدلل على ما اقول ، ولكن سـوق

الحكم وحده لا يكفى دليلا ، بل لا بد من سوق ما قيل له وما قيل عنه ، وفى سوق هذا كله اكثار لا تتسع له مثل هذه الكلمة ، من أجل هذا اجتزىء بهذه الاشارة ، تاركا للقارىء ان يقرأ الأحكام التى حكم بها مؤرخنا ، ما سيق لها وما سيق عنها ، وأنا واثق انه منته الى ما انتهيت اليه فى الحكم على المؤلف .

هذا ولن يفوتنى ان أضيف ان فى هذا القدر الذى ضمه المؤلف ، الى ما اخذه عن غيره ، غنية قل ان نظفر بمثلها الا عند مثله ، ممن لهم غرام بالجمع ، وتتبع الأحداث حيث تكون من مصادرها السليمة .

وأنا مؤمن ان هذه التراجم الأربعة بما اجتمع فيها للمؤلف ، سوف تكون مرجع كل دارس ينشد الأخبار الجامعة أولا التى لا يند عنها شىء ، ثم ينشد الرأى السليم ثانيا .

ولقد عرفت المؤلف منذ مطلع شبابه ونحن طلبة فى دار العلوم ، فأنست فيه هذه النزعات كلها ، وكأنه خلق ليكون بعد ، ذلك المؤرخ الملحوظ .

عرفته مغرما بتقصى حقائق الاحداث السياسية والاجتماعية التى تجرى من حولنا . وكنا ونحن فى مطلع حياتنا ، نعيش أحداثا سياسية واجتماعية حافلة ، وكان منا من يشارك فيها بوجدانه ، ومنا من يشارك فيها بعقله ، ومنا من يشارك فيها بهذين معا ، وكان مؤلفنا من هؤلاء الذين شاركوا فيها بوجدانه وعقله ، وكان هؤلاء الجامعون للصفتين معا قلة قليلة ، وكان هو على راس تلك القلة القليلة . لهذا ضاق بالتدريس ، لأن الانتظام فى سلكه كان قيدا له يحول بينه وبين الحركة الحرة المطلقة ، يجرى هنا وهناك ، يؤكد بعقله ما يحس به وجدانه . وكان لا بد له من أن يشهد الأمور ويقابل الرجال ، ولكنه كما قلت ، لا يعيش بوجدانه وحده ، ولكنه يعيش بعقله مع وجدانه ، فكان لا بد له من أن يرضى عقله بما يرضى به وجدانه .

من أجل هذا كنا نراه بيننا حجة ، وكنا نرجع اليه فى الكثير من امرنا ، وكنا نجد عنده من العقل ، ما نقوم به وجداننا أو نضبطه .

وكم كنا نجلس اليه نستمع ما يعز على أمثالنا معرفته ، وكم كان يقص علينا من أحاديث الساسة والكبراء ، ما يصعب على امثالنا بلوغه .

وأخيرا آثر الصحافة على التدريس ، فلم يلج له بابا ، وسلك سبيله فى ساحتها ، مكملا ما بداه من سيره فيها وهو لا يزال طالبا ، وهكذا تركنا نمضى فى سبيلنا فى التدريس ، ومضى هو فى سبيله ، فاذا نحن شىء ، واذا هو شىء آخر ... واذا هو كما أراد لنفسه ، ذلك الصحافى الصادق ،

والراوية الحجة ، والمؤرخ الثبت ... واذا هو صاحب كتابين فى تراجم الابطال ، أحدهما صدر منذ حين غير بعيد ويضم جملة من اجلاء الرجال ، ثم هذا الكتاب الذى يضم جملة أخرى منهم ، واذا الكتابان يدلان على جهد عظيم ، كان مطلع شبابه يدلنا على أنه سوف يكون صاحبه .

فحمدا لله اذ لم يكذبنى ظنى ، ولم يخذلنى حدسى ، ورأيت محمدا الزميل القديم والصديق الحميم ، كما قدرت له : الراوية الحجة ، والمؤرخ الثبت .

ابراهيم الابيارى

١ - تفضل الأخ الكريم والزميل القديم والصديق الحميم ، الأستاذ الكبير ابراهيم الابيارى ، بكتابة هذه الكلمة الضافية ، مقدما بها الكتاب وصاحبه ، مما أشكره عليه أجزل الشكر ، وأحفظه له يدا بيضاء ، أضمها الى أياديه البيض - ولا يحصيها عد - التى قدمها للادب والتاريخ .

وابراهيم الابيارى هو قمة من قمم مدرسة تحقيق التراث العربى - وهم يعدون على أصابع اليد الواحدة - فقد حقق وحده نحو ستين كتابا من كتب هذا التراث ، فى مقدمتها « تجريد الأغانى » وشهد له بدقة البحث وغزارة العلم وسعة الاطلاع ، كبار أدباء العالم العربى ، قبل كبار أدباء مصر ، وفى مقدمتهم المرحوم الأمير مصطفى الشهابى رئيس المجمع العلمى العربى فى دمشق ، ثم المرحوم الدكتور طه حسين .

هذا عدا نحو أربعين مؤلفا فى الأدب العربى والتاريخ الاسلامى .

وكان الابيارى أول مدير لأول مركز ثقافى اسلامى أنشأته مصر فى مدريد ، فى الأربعينات ، فنجح فى ادارته نجاحا جعله كعبة الاسبانيين ، ورسم له منهاج عمل ، هو الذى يسير عليه اليوم كل من يتولى أمره .

وكان آخر عمل له « مستشار وزارة الثقافة والارشاد » وقد غمر ادارتها الثقافية بفيض من علمه وأدبه .

ولعلى لا أذيع سرا اذا قلت انه صاحب رسائل نال بها بعض حكامنا درجة « الدكتوراه » ، ولم يخطوا فيها حرفا ، بل ولا صلة لدراستهم بموضوعها ، فان الذى اختاره هو ابراهيم ، وكان هو مؤلف الرسالة من ألفها الى يائها ، وكان الحاكم هو الفائز بدرجة الدكتوراه !!!

غفر الله لابراهيم ، ورضى عنه .

مقدمة المؤلف

عندما فكرت فى وضع هذه السلسلة من الكتب التاريخية ، وعندما
لفت الكتاب الأول منها ، متضمنا سير : الشيخ عبد الله السالم الصباح
مؤسس دولة الكويت الحديثة . والملك محمد الخامس ملك المغرب الذى
وقف مع شعبه مطالبا باستقلال بلاده ، وذاق فى سبيل هذا الجهاد عذاب
لنفى والتشريد ، فما لان جانبه ، وظل مكافحا مناضلا يده فى يد الشعب
حتى نال وطنه استقلاله . ومحمد على علوبة باشا المحامى المصرى الكبير
الذى لعب دورا خطيرا وهاما على المسرح السياسى المصرى والمسرح
لعربى ، مناصرا قضية فلسطين منذ الثلاثينات ، مضحيا بماله وبراحته
بوقته الثمين ، حتى قبضه الله اليه فى عام ١٩٥٨ . والشيخ عبد العزيز
جاويش صاحب القلم الجبار فى محاربة الاستعمار ، والمسلم الورع التقى ،
المجاهد فى منفاه الاختيارى ، والذائد عن الحق ، بعزيمة لا تهن
لا تكل ...

أقول : عندما أصدرت الكتاب الأول من هذه السلسلة ، متضمنا سير
ؤلاء الأبطال ، ما توقعت أن يلقى من الاقبال والاستحسان والرضا ،
ا لقى من القارىء العربى فى مصر وفى غيرها من الاقطار العربية ، فقد
فدت طبعتاه الأولى والثانية فى اشهر قليلة لا تجاوز ثلاثة .

ولهذا أحمد الله وأشكره على هذا التوفيق ، واستزيده عز وجل
عون والرعاية ، حتى أكمل حلقات الكتاب العشر ، تضم كل حلقة سير
بعة من العظماء بحق ، الذين اشترطت على نفسى شرطين لكتابة تاريخهم :
أول ان اكون قد عرفت من أؤرخ له واتصلت به وخبرته عن قرب ،
الثانى أن يكون قد ترك أثرا فى وطنه ، لا يمحوه الزمان ، ولا يبعده عن
أذهان ، نسيان أى نسيان .

يضم هذا الكتاب الذى بين يديك : سيرة أربعة من الأبطال : أولهم
لك عبد العزيز آل سعود « اسطورة القرن العشرين » ، فقد غزا الرياض
ربعين رجلا ، وانشأ مملكة عظيمة ووطدها ، حتى غدت اليوم ، هى
أولى بين زميلاتها فى المحيطين العربى والاسلامى ، ولها صوت مسموع فى

العالم . وثانيهم سعد زغلول وقد تحدثت عن تاريخه كمحام ، وكيف ارتفع بالمحاماة من العار الى الفخار ، وهى صفحة لم يقرأها انسان بعد ، عن هذا الزعيم العظيم . وثالثهم محمد طلعت حرب مؤسس بنك مصر وشركاته ، وواضع أساس الاستقلال الاقتصادى لمصر وللشرق العربى . ورابعهم الشيخ عبد المجيد اللبان زعيم الاسكندرية الذى أعاد اليها مصريتها بعد ما كانت ملكا للأجانب .

وفى تاريخى لهؤلاء الأبطال ، أبذل غاية الجهد ، فى ان ابث للقارىء تاريخ وطن البطل منهم ، من خلال تاريخه هو ، لتكتمل الصورة أمام عينيه ، وليتعرف على الحياة التى كان يحياها هذا البطل ، ويحياها معه وطنه .

ولا أريد ان أصف ما لاقيت من عنت ومشقة فى كتابة تاريخ ابطالنا ، فهم لم يتركوا ما ينم على أعمالهم ، ولم يحدثوا قريبا منهم عما صنعوه لأوطانهم . لهذا رجعت الى مراجع كثيرة وعديدة ، حتى لقد قرأت فى سبيل تدوين تاريخ الملك عبد العزيز وحده ، نحو خمسين مرجعا ، تصيدتها من هنا ومن هناك ، واخذت منها ما وثقت انه الصحيح لا مرية فيه ، لبجىء تاريخى له ، مرجعا دقيقا يعتمد عليه الباحثون والدارسون .

هذا الى مذكرات شخصية لى ، عاونتنى فى عملى هذا أجل معاونة ، فلكل من هؤلاء الأبطال دور لى معه ، يتمثل فى المعرفة الشخصية أحيانا ، وفى القرب والصلة الوثيقة أحيانا أخرى .

ولقد كنت اود أن أضمن هذه المقدمة ، كلمة عن الصحافة والصحافيين والذين يتجرون باسم سعد ، بناسبة كتابتى فصلا عنه فى هذا الكتاب ، وعن « المدرسة الحديثة » التى أحدثوها فى الصحافة المصرية ، لأبين بالدليل القاطع ، وبالبرهان الساطع ، أنها مدرسة تضليل وبهتان واثارة وتزييف ... مدرسة هدمت جميع المثل المقدسة فى الصحافة المصرية ، التى كانت تتوخاها ، قبل احترافهم لها واقحام أنفسهم على ميدانها . وساعدنى فى اثبات ضلال هذه « المدرسة الحديثة » وتضليلها ، رجلان فاضلان : أما اولهما فهو الصديق القديم الأستاذ الدكتور سيد محمد باشا ، أول رئيس لأول جمعية سرية لقتل الانجليز الفت فى سنة ١٩١٩ . مد الله فى عمره ، وهو اليوم ومن زمان بعيد رئيس لجنة الترجمة والتأليف والنشر .. أما ثانيهما فهو قطب العروبة ، عبد الرحمن عزام باشا رحمه الله وطيب ثراه ، فقد أمدنى كل منهما بالدليل المادى على هذا التضليل .

ولقد كان يطلق على صحافة هذه المدرسة الحديثة ، « صحافة القصر » ، لأنها كانت تسبح بحمد ربه ، فاطلقت عليه ، دون جميع الصحف المحترمة الصادقة الأخرى ، « الملك الصالح » ، و « العامل الاول » ، بل لقد عهدت الى رسام عالمى هو « دافيد رايت » برسم لوحات لبعض أعضاء الأسرة المالكة ، تزين بها غلاف احدى مجلاتها ، كما فعلت مثلا فى العدد ٨٤٦ الصادر من تلك المجلة فى ١٠ يناير من عام ١٩٥١ ، وكتبت تحت الرسم : « صاحبة السمو الملكى الأميرة فائقة — بريشة الرسام العالمى « دافيد رايت » — رسمت بتكليف خاص من المجلة » وهى بهذا مزهوة فخورة .

واذا « الملك الصالح » ، يصبح فى نظر هذه « المدرسة الحديثة » ، بعد ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ، الملك الفاجر الفاسد الفاسق العربيد ، ولم تدع رذيلة أو وصفا شائنا أو عارا تجلله به ، الا تبرعت باغداقه عليه وعلى أسرته ، بل وعلى أحزاب مصر كلها .

كنت أود أن اكتب كلمة عن هؤلاء الضالين ، لكنى آثرت أن اترك امرهم الى كتاب اضعه الآن عن الصحافة المصرية ، بعد ما ظللت عاملا فى ساحتها المقدسة نصف قرن ، نزيها ، شريفا ، صادقا ، صريحا ، معتزا بكرامتى ، حفيظا على كرامة صناعتى ، مما قد دفعنى الى أن أرفض معاشا استثنائيا شهريا قدرته لجنة المعاشات الاستثنائية لثلاثين من قدامى الصحافيين ، وأنا منهم ، قدره ثلاثون جنيها فقط ، لأن فى هذا التقدير الهزيل ، مهانة للصحافة ولى ، فى الوقت الذى قدرت فيه هذه اللجنة لممثلات ، مائة جنيه فى الشهر ، وسخت الدولة على ٩٩ ضابطا من ضباط الجيش ، منهم من اتهم فى قضايا قلب نظام الحكم ، ومنهم من اتهم بتعذيب المواطنين حتى الموت ، فقررت لكل منهم مائة وخمسين جنيها فى الشهر ، لهذا رفضت هذا المعاش المهين ، وأرسلت الى وزير التأمينات — منذ سنتين — أقول له : اننى أرفض هذا المبلغ الحقير الضئيل ، ولتتصدق به الدولة على يتيم أو فقير أو ذليل .

وكنت الوحيد من الثلاثين صحافيا الذى رفض هذا المعاش الاستثنائى

لقد تخرج على يدى فى نصف القرن هذا زملاء كرام يحتلون اليوم مناصب قيادية فى بعض الصحف ، ومنهم من كان نقيبا للصحافيين ، مما سأفصله فى الكتاب ان شاء الله .

بل ان من هؤلاء القادة ، من عمل معى وهو طالب فى المدارس الثانوية ، ومنهم من كان طالبا فى الجامعة .

وسيكشف الكتاب عن سوءات كثيرين ، وسيفضح خطيئات كثيرين . وسيسجل جهل كثيرين – وهؤلاء جميعا هم اليوم ملء السمع والبصر – مما سيحدث دهشة وهزة بالغتين عند القارىء المصرى والقارىء العربى . عندما تقع عين أحدهما على ما سأقدمه من دلائل مادية – من صنعهم هم ومن أقلامهم هم – على مآثمهم ومنكراتهم وجهلهم ، فان السكوت عما يجرى الآن فى جنبات من ساحة الصحافة المصرية ، هو ، فى نظرى ، خيانة عظمى للرسالة المقدسة لهذه الصناعة الشريفة ، لأنه يطمس كثيرا من الحق ، ويبرز كثيرا من الباطل ، مما يدع ابناء هذا البلد الأمين ، مخدوعين مضللين ، جاهلين بما يجب أن يعرفوه من حقائق ، تزيف لهم عن عمد ، حتى يشبوا وهم فى جهلهم يعمهون .

وهل هناك جريمة فى حق الوطن ، أخطر من العمل على تضليل أبنائه ، والأخذ بأيديهم الى متاهات الزيف والبهتان ؟

* * *

لقد احتفلت فى هذا الأسبوع – الأسبوع الأخير من سبتمبر – بانقضاء نصف قرن على اشتغالى بالصحافة ، وأنا والحمد لله ، لا أملك دراجة ، لا سيارة فارهة ، ولا أملك دارا ، بل اسكن بالأجرة ، ولا أملك جنيها واحدا فى مصرف ، مما لا يعرفه الصحافيون الناعمون فى هذا العهد . زادهم الله من فضله .

أنا لا ازهى بماضى النقى المشرف ، ولا أفاخر مثلا بأننى انا الذى توليت اصدار جريدة « المصرى » فى بدء انشائها فى اكتوبر من عام ١٩٣٦ ، فكانت اول صحيفة مصرية حديثة التبويب ، حديثة الأسلوب ، حديثة الاخراج ، تعنى بالخبر قبل المقال ، واستحدثت فيها ابوابا نقلتها عنها الصحف التى صدرت بعدها مع مسخ وتضليل ، فكانت «المصرى» الرائدة الأولى للصحافة المصرية اليومية الحديثة ، الى ان اغتيلت غدرا فى مارس سنة ١٩٥٤

ولست قائل هذا ، ولكن صاحبه هو الزميل والصديق القديم الأستاذ حسين أبو الفتح ، شقيق المرحوم الأستاذ محمود ابو الفتح صاحب « المصرى » ، وصاحب التاريخ المجيد فى خدمة القضية المصرية فى ثورة ١٩١٩ ، حينما كان مع الوفد المصرى فى باريس ، وكان يقتر على نفسه ، ويطبع مذكرات منه الى رؤساء وفود الدول فى مؤتمر الصلح ، يشرح فيها قضية مصر ، وحقها فى الاستقلال والحرية ، حتى أفلس ، وعاد ذات ليلة ، فاذا غرفته موصدة ، وعليها ورقة من صاحبة المسكن ،

قالت له فيها : انها لن تفتح له الا اذا دفع أجرة الغرفة ، لأنه تأخر كثيرا فى دفعها ، فعاد الى الشارع ، وقضى ليلته نائما على الأرصفة تحت وابل من المطر ، وبين عاصفة شديدة من الصقيع القاسى .

اقول : أن صاحب القول الذى رويته هو الأستاذ حسين أبو الفتح ، فضى به الى الصديق العزيز العلامة ، الأستاذ الدكتور ابراهيم صالح المستشار بمحكمة النقض اليوم ، فقد قال له :

ــ اذا كان محمود أبو الفتح ومحمد التابعى وكريم ثابت ، قد انشأوا « المصرى » بمالهم ، فان الذى أنشأه وأصدره ووطده امام « الاهرام » العتيدة ، فى أقل من شهرين ، هو محمد على رفاعى ، بخبرته وجهوده واخلاصه لفنه ، وحسن ادارته لتحريره ، وسديد توجيهه لمعاونيه .

انني اليوم قانع بحياتى التى احياها فى وطنى وكأننى غريب عنه ، لا اشعر بأحد ، ولا يشعر بى أحد ، اعكف على كتابة التاريخ ما وسعتنى كتابته ، وهذا فضل من الله عظيم ، فى هذا الزمان اللئيم .

***

لقد صدرت هذا الكتاب الثانى ، بكلمة طيبة تفضل بها على استاذى الجليل المرحوم الأستاذ زكى المهندس ، وكنت قد صدرت بها الكتاب الأول .

أما سبب تصديرى هذا الكتاب الثانى بها ، فهو تلبية لرغبة ابداها لى ، رحمه الله ، ووعدته بتحقيقها ، وهى أن تكون كلمته الطيبة هذه ، تصديرا لكل حلقة من هذا الكتاب ، ثم أوصانى بأن احمل نسخة من كل كتاب من هذه السلسلة ، الى كريمته الفاضلة ، السيدة صفية المهندس مديرة الاذاعة ، أعزها الله وزادها من توفيقه .

***

وبعد : فانى لآمل ان أكون عند حسن ظن القارىء ، فيستمتع بقراءة تاريخ شائق لم يسبقنى اليه كاتب أو مؤرخ ، فان رضى عن صنيعى ، فقد تحقق أملى ، والا فقد ارضيت نفسى ، بما قدمت من سيرة عطرة خدمة للتاريخ ، وللأدب وللعلم وللأجيال القادمة .

محمد على رفاعى

موضوعات الكتاب

● **الملك عبد العزيز آل سعود**

اسطورة القرن العشرين ٥

● **سعد زغلول المحامى والفلاح**

سما بالمحاماة من العار الى الفخار ١٣١

● **محمد طلعت حرب باشا مؤسس بنك مصر**

علم نفسه الاقتصاد ١٥٩

● **الشيخ عبد المجيد اللبان زعيم الاسكندرية**

أعاد اليها مصريتها ٢٤٧

بسم الله الرحمن الرحيم

الملك عبد العزيز آل سعود

أسطورة القرن العشرين

أقام ملكاً عتيداً بأربعين رجلاً..

زار مصر فاحتفى به أهلها احتفاءً عظيماً فبكى من فرحه وتأثره

« ما هـذا الذى خلق من القلة كثرة ، ومن الضعف قـوة ، ومن الذل عزا ، ومن الموت حياة ، واخرج من الصحراء شرذمة كانت اعظم مثل فى العظمة والاحسان والعلم والحضارة ؟

« فتسن ما استطعت ، وفكر ما قدرت وقلب حوادث التاريخ كما تشـاء ، فلن تجد الا شـيئا واحـدا ، وامـرا فذا . . لـن تجـد الا سـرا يرجـع اليه كل ما عرفت .. وعمادا استقل بكل ما وصفت .. الايمان المتين ، والخلق الصالح ..

« ان فى ذلك لعبرة »

هذه كلمات صادقة قالها بعد درس وتأمل ، وتحليل وتبصر ، الدكتور عبد الوهاب عزام ، فى الصفحة الحادية والخمسين بعد المائة ، من كتابه الفريد فى نوعه « الأوابد » ، فى فصل صغير عقده فيه ، اتخذ له عنـوانا « مدرسة الصحراء » .

والدكتور عبد الوهاب عزام من الأدباء المصريين العمالقة ، الذين درسوا تاريخ العرب ، ماضيه وحاضره ، قديمه وحديثه ، ونالت الجزيرة العربية من اهتمامه وبحوثه وتحرياته ، أعظم نصيب من جهوده ، لا سيما فى الفترة التى قضاها سفيرا لمصر فى جدة ، حتى لقد اخترق « الربع الخالى » فى محاولة منه لكشفه ، بعد ما أحجم عن هذه المحاولة كثير من الرحالة العالميين

والذين عرفوا الدكتور عبدالوهاب عزام ، شهدوا له بالصدق فى الحديث ، وبالتانى فى الحكم ، وبالبعد عن المبالغة والخيال ، فكان واقعيا طوال حياته ، فلم يقل : استاذا كان ، أم عميدا ، أم سفيرا ، أم رحالة ، الا صدقا وحقا وعـدلا .

***

كان من عادة المغفور له محمد طلعت حرب باشا مؤسس بنك مصر وشركاته ، ان يقيم مادبة افطار فى يوم من أيام شهر رمضان من كل عام ،

فى داره الرحبة بالعباسية ، لجميع موظفى البنك ، ويدعو اليها من يشاء من خلصائه ومن عملاء البنك ، فكانت جلستى فى مأدبة ذلك العام — عام ١٩٣٨ — الى مائدة جمعت الدكتور عبد الوهاب عزام ، واحدى خريجات الجامعة الجميلات ، ممن كان لهن اسم رنان ، فى مجامع الأدب وغير الأدب ، فى ذلك الزمان .

قالت الفتاة الجميلة : لا ادرى ، ماقيمة راى الملك ابن سعود فى حل تسوية معقدة كقضية فلسطين ، وهو رجل بدوى لم ينل من الثقافة والمعرفة والتجربة ، قسطا يؤهله للحكم الصائب ، ويوحى اليه بالرأى السديد ؟

كان هذا فى عام ١٩٣٩ كما قلت ، حين دعت الحكومة البريطانية الى عقد مؤتمر فى لندن يضم العرب واليهود ، للبحث عن حل لقضية فلسطين ، وشهده من الدول العربية ممثلون عن : مصر والعربية السعودية والعراق والأردن واليمن وزعماء فلسطين .

وأسفر المؤتمر عن مشروع وضعت به الحكومة البريطانية « كتابا أبيض » كان الملك عبد العزيز أول من قبلوا به ، وحذا حذوه رئيس وزراء مصر محمد محمود باشا ، وجمال الحسينى عن زعماء فلسطين .

كان هذا الكتاب الأبيض مثار نقاش وأخذ ورد فى الصحف .

فبماذا رد الدكتور عبد الوهاب على الفتاة الجامعية الجميلة ؟

قال لها فى هدوء كعادته ، لكن بلهجة فيها نبرة أستاذ يعاتب تلميذه على حكمه على الأشياء قبل الدرس والبحث والتمحيص :

— هل رأيته يا آنسة ؟ هل استمعت اليه فى جدل أو فى نقاش او فى بحث قضية ؟ انه بدوى لم يتعلم كما تقولين . نعم انه لكذلك ، لكن عقل هذا البدوى ، وسع خبرات الحياة كلها . . لقد ذاق مرها وحلوها . . وعاشر الخفير والأمير . . والصغير والكبير . . والوضيع والرفيع ، فتعلم فى مدرسة الحياة دروسا هى أعظم ما يمكن ان يتلقاه انسان ذكى واع حصيف . لقد بنى مملكة بأربعين رجلا فقط ، هى الآن — ولما يمض عليها أعوام كثيرة — فى الصف الأول بين مثيلاتها التى قامت من أكثر من قرن من الزمان .

ولم يرق هذا الدفاع الحق ، فتاتنا الجميلة ، فاصطنعت حركات من شفتيها ورأسها ، تشف عن تكذيبها له ، أو فى القليل ، عن مبالغة فى دفاعه عن ابن سعود . .

فما كان أسرعه الى النهوض للانصراف غاضبا ، فعدوت خلفه أهدىء من خاطره ، ولمحنا صاحب الدار ، محمد طلعت حرب باشا ، من بعيد ، وهو جالس الى مائدته مع كبار من ضيوفه ، فأسرع يسد عليه الطريق ،

ودعاه الى الجلوس الى مائدته ، وقد استقبله الجالسون اليها جميعا وقوفا، ومنهم الوزير ، والمسؤول الخطير ، والموظف الكبير (١)

فكيف بنى عبد العزيز بن سعود مملكته العتيدة بأربعين رجلا كما قال الدكتور عزام ؟ وكيف ذاق مر الحياة وحلوها ؟ وما هى الدروس التى لقننها له الحياة ، وما كان لمثله أن يعيها فى مثل بيئته ؟

الحق ان حياة هذا الملك العربى ، حلقات متصلة من الوقائع والحروب، والبؤس والنعمى ، والفقر والغنى ، والشقاء والسعادة . فلو أنك تقصيتها

---

(١) ولد الدكتور عبد الوهاب عزام بالشوبك الغربى بمحافظة الجيزة فى عام ١٨٨٣ ، ونشأ نشأة دينية ، فحفظ القرآن الكريم فى صغره ، والتحق بالازهر ، ومنه انتقل الى مدرسة القضاء الشرعى ، وتخرج فيها فى عام ١٩٢٠ ، وكان أول دفعته فاختير مدرسا بها ، وفى الوقت نفسه كان يدرس فى الجامعة المصرية القديمة ، فحصل منها على الليسانس فى عام ١٩٢٣ ، واختير فى ذلك العام اماما فى مفوضية مصر فى لندن ، وهناك التحق بمدرسة اللغات الشرقيه بجامعة لندن ليدرس فيها الفارسية ، ونال منها فى عام ١٩٢٨ درجة الماجستير عن رسالة فى « التصوف عند فريد الدين العطار » . وعاد الى القاهرة ليعمل مدرسا بالجامعه المصرية وقد حصل منها على الدكتوراه فى الادب الفارسى فى عام ١٩٣٢ ، ثم عين استاذا ورئيسا لقسم اللغة العربية واللغات الشرقية ، فعميدا لكلية الاداب فى عام ١٩٤٥ .

وقد شغل مناصب سياسية هامة ، منها انه كان سفيرا فى باكستان ، ثم سفيرا فى المملكة العربية السعودية .

ومن ترجماته عن الفارسية : « بيام مشرق » و « ضرب الكليم » و « ديوان الاسرار والرموز » لمحمد اقبال .

ومن مؤلفاته : « مدخل الشاهنامة العربية للبندارى » و « مهد العرب » و « محمد اقبال » و « موقع عكاظ » و « الشوارد » و « الاوابد » و « ذكرى ابى الطيب من الف عام » و « رحلات عبد الوهاب عزام » .

ومما حققه : « الشاهنامة » التى نقلها الى العربية ، و« ديوان المتنبى » و« مجالس السلطان الغورى » و « مجالس الصاحب بن عباد » .

وقد حرصت المجامع اللغوية العربية الثلاثة على ضمه اليها ، فاختير عضوا مراسلا بالمجمعين العلميين العربيين فى دمشق وفى بغداد ، واختير عضوا بمجمع اللغة العربية المصرى فى عام ١٩٤٦ .

وقد قال عنه الدكتور طه حسين فى حفل تأبينه فى سنة وفاته (١٩٥٩) : « بفضل عبد الوهاب عزام استقر تدريس اللغة الفارسية واللغة التركية بجامعة القاهرة ، وانتقل منها الى جامعات أخرى ومعاهد اخرى للتعليم . وبفضل عبد الوهاب عزام اخذنا نعرف ادب الفرس ، ونعرف من آثارهم وأمورهم شيئا غير قليل » .

وأردت أن تقف عليها سنة بسنة ، لأعياك تقصيك ، ولوجــــدت نفسك فى متاهة لا أول لها ولا آخر .

لقد قرأت سيرته فى أكثر من خمسين كتابا ومرجعا ، فوجدتنى أمام متناقضات من الروايات .. كل كاتب اختار ما رأى ـ أو ظن ـ أنه الصحيح .. والحق أنهم جميعا يرهقون الباحث ، ويكدون ذهن القارىء ، ويغرقونه فى تفاصيل لا شأن له بها ، وعدم ذكرهم لها لا يسىء الى ســيرة الرجل العطرة ، ولا يبخســـه حقـــه ، أو ينزل به عن مكانتـــه العـــالية بين الملوك المصلحين .

وسأجنبك ما لقيت ، وسأبتعد بك عن مزالق تزهدك فى تتبع تاريخ عبـــد العزيز الحافل ، معتمدا على مصادر اثق بصحتها ، وعـــلى مذكرات شخصية لى ، الى جانب ما اخترت من المراجع والمؤلفات العديدة .

سأروى لك من تاريخه الجليل والخطير ، ثم نرى معا : كيف استطاع هذا الرجل العظيم ، أن يؤسس ملكه ويوطده على دعائم من الحق والهداية والخلق القويم ، والايمان واليقين .

ولد عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود فى مدينة الرياض فى شهر ذى الحجة من عام ١٢٩٧ هـ (ديسمبر عام ١٨٨٠ م) فى الوقت الذى دب فيه النزاع بين عميه : عبد الله بين فيصل وسعود بن فيصل ، وانتهى هذا النزاع ـ أو الصراع ـ بينهما ، بزوال دولة سعود التى أسسها وجعل عاصمتها « الدرعية » راعيها الأكبر محمد بن سعود ، بعد حروب ووقائع بينها وبين خصومها الذين خشوا اتساع رقعتها حتى شملت امارة نجد كلها، وبعد تزايد اتباعها وتكاثر أنصارها ، والتفافهم حول ما نادى به شيخ نجدى، هو الشيخ محمد بن عبد الوهاب (١) ، فى أوائل القرن الثامن عشر (حوالى عام ١٧٢٥) ، من الرجوع الى الدين الحق ، والأخذ بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وترك البدع والأباطيل التى ادخلت على الاســلام وليست منه فى شىء .. أى الحرص على أداء العبادات الشرعية كما وردت عن النبى عليه الصلاة والسلام ، بلا زيادة أو نقصان .. فلا لجوء فى الشدة الا الى الله جل شأنه ، لا الى الأولياء والأنبياء ، ولا رجوع الى الأوثان ببناء قباب على القبور .. وغير هذا من البدع التى كانت شائعة فى نجد ، وفى ما جاورها من الامارات والمقاطعات .

---

(١) ولد فى سنة ١٧٠٣ هـ وتوفى فى سنة١٧٩١ .

اليك صورة مما كانت عليه نجد فى تلك الايام ، كما صورها المؤرخ العربى « ابن غنام » فى كتابه « روضة الأفكار » ، لتقدر عظم الرسالة التى نهض بها محمد بن عبد الوهاب ، ولقى فى سبيل نشرها وترسيخها ، العنت والارهاق ، كما لقيهما وبلقاها المصلحون ، من قبل ومن بعد ، ولتعرف اى خدمة جليلة اداها محمد بن سعود امير « الدرعية » للاسلام ، حين اواه ونصره واخذ بيده ووقف بجانبه . بل نستطيع ان نقول بلا حرج او مبالغة ، انه لولا ابن سعود ، ما كتب لدعوة هذا الشيخ النجدى ابن عبد الوهاب ، النجاح والذيوع ، ولولا التقاء ابن عبد الوهاب وابن سعود، لما كانت اليوم فى الجزيرة العربية ، مملكة عزيزة الجانب ، رفيعة المكانة ، فى الصف الأول من دول العالم العربى والعالم الاسلامى معا .

قال ابن غنام : « كان غالب الناس فى نجد وفى الاحساء ، وفى غيرهما من البلدان العربية ، غارقين فى الرجس . منهمكين فى الشرك ، يتبعون ما زينت لهم الأهواء والشياطين ، وتركوا كتاب الله وسنة رسوله ، ولم يعباوا بالدين الصحيح لأنه امرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر ، وهم لا يستطيعون ان ياتمروا بأمره وينتهوا بنهيه ، فنفوسهم مرضى ، وعقائدهم فاسدة ، فعدلوا عن عبادة الله وحده ، الى عبادة الصالحين والأولياء ، وجدوا فى الاستغاثة بهم فى النوازل والخطوب ، واقبلوا عليهم يطلبون قضاء الحاجات والمطالب .

« واستغلق طبعهم ، وفقد ادراكهم وتمييزهم ، حتى اعتقدوا فى الأحجار والأشجار انها تضر وتنفع ، ووهبوها اعمالا يعجز ان يقوم بها الآدميون ، بل يعجز الأنبياء والمرسلون . كما اعتقدوا فيها التصرف التام والحياة والقداسة ، فكانوا ياتونها فى كل حين يتبركون بها ويتمسحون ، ويطلبون منها ما يريدون » .

ثم اخذ ابن غنام يعدد بعض الأمثلة على ما قال ، فاستطرد قائلا :

ـ « فى بلدة « الفدا » ذكر النخل المعروف ب « الفحال » ، ياتى اليه الرجال والنساء زرافات ووحدانا ، ويفعلون عنده من الافعال المنكرة ، مالا يقبله الانسان ذو الضمير الحى ، والذوق السليم .. يرتكبون عنده المنكرات ، ويصلون له ويتبركون !! وتاتيه المراة التى لم يتقدم اليها الخاطبون ، فتعانقه وتقول فى بكاء ولوعة واحتراق : « يا فحل الفحول : ارزقنى زوجا قبل الحول » ، ثم تاخذ فى اغواء بعض الشبان ، حتى اذا اصطادت واحدا منهم وتزوجت به ، خيل اليها ان ذلك من عمل فحل الفحول !!!

« وفى « الدرعية » جبل بسفحه غار كبير ، يزعم الجهلاء انه لفتاة حسناء تدعى « بنت الأمير » يحجون اليه ويستغيثون بها ، اعتقادا منهم أن الفتاة من أولياء الله الصالحين ! وسبب هذا الاعتقاد الزائغ ، أن « بنت الأمير » خرجت ذات يوم تقضى حاجة لها ، ولما كانت بالقرب من الجبل ، ابصر بها نفر من الشبان ، فاستهواه جمالها ، فاقترب منها يريد ان يعبث بشرفها ، ولكن الفتاة زاهدة تؤثر الموت على العار ، فدعت الله أن ينجيها من الفجرة الفاسقين ، وما اتمت دعاءها الحار الا وانفلق فى الجبل غار ، دخلت فيه واعتصمت به !!!

« ويزعم المبطلون أن رجلا فى « الخرج » اعمى ، كان يقطع الفيافى سيرا على قدميه ، من بلده الى « الدرعية » وغيرها ، والى أقاصى نجد ، من غير قائد ، لا يتعب ولا ينى ، ولا يصطدم بصخر أو شجر ، ولا يقع فى هوة ، ولا يستطيع الحيوان المفترس الدنو منه ، ولا اللصوص أيضا ، مع انه كان ذا مال ، لأنه كان يجمع الخراج والزكاة من الناس ، كما أنه لا يتوه فى الصحراء !! لماذا كل ذلك ؟ لأنه من أولياء الله الصالحين ، الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ! حتى اذا مات عكفوا على قبره وعبدوه ، اعتقادا منهم انه ولى ، وهذه كلها من كراماته ، فلولا كرامته وولايته وصلاحه وتقواه ، لما استطاع ان يضرب فى الصحراء ، من غير أن يضل ، ولا يناله اذى أو ضرر » .

وقد كتب الأستاذ احمد أمين فى كتابه « زعماء الاصلاح » وفى الصفحة العاشرة منه ، عن الشيخ محمد بن عبد الوهاب ودعوته ، فقال :

ـ « وقد رأى ـ أى ابن عبد الوهاب ـ فى الحجاز وفى رحلاته الى كثير من بلاد العالم الاسلامى ، ان التوحيد الذى هو مزية الاسلام الكبرى قد ضاع ودخله كثير من الفساد .

« فالتوحيد أساسه الاعتقاد بأن الله وحده هو خالق هذا العالم ، والمسيطر عليه ، وواضع قوانينه التى يسير عليها ، والمشرع له ، وليس فى الخلق من يشاركه فى خلقه ، ولا فى حكمه ، ولا من يعينه على تصريف أموره ، لأنه تعالى ليس فى حاجة الى عون أحد مهما كان من المقربين اليه ، وهو بيده الحكم وحده ، وهو الذى بيده النفع والضرر وحده لا شريك له. فمعنى « لا اله الا الله » ، ليس فى الوجود ذو سلطة حقيقية تسير العالم وفقا لما وضع من قوانين ، الا هو . وليس فى الوجود من يستحق التعظيم والعبادة ، الا هو . وهذا هو محور القرآن : « قل يا أهل الكتاب تعالوا

الى كلمة سواء بيننا وبينكم ، الا نعبد الا الله ، ولا نشرك به شيئا ، ولايتخذ بعضنا بعضا اربابا من دون الله ، فان تولوا ، فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ».

« ويظهر ان محمدا بن عبد الوهاب عرف ابن تيمية عن طريق دراسته الحنبلية . فاعجب به ، وعكف على كتبه ورسائله ، يكتبها ويدرسها . وفى المتحف البريطانى بعض رسائل لابن تيمية مكتوبة بخط ابن عبد الوهاب .

« وكانت دعوة ابن عبد الوهاب حربا على كل ما ابتدع بعد الاسلام الأول من عادات وتقاليد : فلا اجتماع لقراءة مولد ، ولا احتفاء بزيارة قبور ، ولا خروج للنساء وراء الجنازة ، ولا اقامة اذكار يتغنى بها ويرقص ، ولامحمل يتبرك به ويتمسح ، ويحتفل به هذا الاحتفال الضخم ، وهو ليس غير أعواد خشبية لا تضر ولا تنفع .

« كل هذا مخالف للاسلام الصحيح ، يجب ان يزال ، ويجب أن نعود الى الاسلام فى بساطته الاولى وطهارته ونقائه ووحدانيته ، واتصال العبد بربه من غير واسطة ولا شريك . فلا إله الا الله ، معناها كل ذلك . والكتب المملوءة بالتوسلات ، كتب ضارة بالعقائد ، كدلائل الخيرات . ومافى «البردة» من مثل قوله :

يا أكرم الخلق ما لى من ألوذ به سواك ، عند حدوث الحادث العمم

ونحو ذلك ، اقوال فاسدة كاذبة ، فلا التجاء الا الى الله ، ولا اعتماد فى الدنيا والآخرة الا عليه .

« لقد كان محمد بن عبد الوهاب ومن نحا نحوه ، يرون أن ضعف المسلمين اليوم ، وسقوط نفسيتهم ، ليس له سبب الا العقيدة . فقد كانت العقيدة الاسلامية فى أول عهدها صافية نقية من أى شرك ، وكانت « لا اله الا الله » معناها السمو بالنفس عن الاحجار والأوثان ، وعبادة العظماء ، وعدم الخوف من الموت فى سبيل الحق .

« لم ينظر محمد بن عبد الوهاب الى المدنية الحديثة وموقف المسلمين منها ، ولم يتجه فى اصلاحه الى الحياة المادية ، وانما اتجه الى العقيدة وحدها فعنده ان العقيدة والروح هما الأساس ، وهما القلب ، ان صلحا ، صلح كل شيء ، وان فسدا ، فسد كل شيء » .

وكتب الدكتور طه حسين عن هذه الدعوة الوهابية ، خلال بحث له عن « الحياة الأدبية فى جزيرة العرب » ، فقال كما ورد فى كتاب « آل سعود » لمؤلفه الاستاذ احمد على ، فى الصفحة الرابعة والعشرين منه :

ـ « ... على ان الباحث عن الحياة العقلية والأدبيه في جزيرة العرب ، لا يستطيع ان يهمل حركة عنيفة ، نشأت فيها في أثناء القرن الثامن عشر ، فلفتت اليها العالم الحديث في الشرق والغرب ، واضطر ان يهتم بأمرها .. هذه الحركه هي حركة الوهابيين التي أحدثها محمد بن عبد الوهاب ، شيخ من شيوخ نجد ، نشأ في بيت علم وفقه وقضاء ، فسخط عليه الناس ، وانتشر مذهبه ، فانقسموا فيـه قسمين ، فكان له أنصار ، وكان له خصــوم ، وتعرضت حياته آخر الأمر للخطر ، فأخذ يعرض نفسه على الأمراء ورؤســاء العشائر ، ليجيروه ويحموا دعوته ، حتى انتهى به الأمر الى « الدرعيه » ، وهناك عرض نفسه على أميرها محمد بن سعود ، فأجاره وبايعه على المعونه والنصرة . ومن ذلك اليوم أصبح المذهب الجديد مذهبا رسميا يعتمد على سياسية تؤيده وتحميه ، بل تنشره في أقطار نجد ، بالدعـوة اللينة حينا ، وبالسيف وبالحرب في أكثر الأحيان .

« وعن هذا التحالف بين الدين والسياسه ، نشأت في جزيرة العرب دولة سياسية عظم أمرها واشتد خطرها ، حتى أشفق منها الترك اشد الاشفاق فقاوموها ما وسعتهم المقاومة ، فلما لم يفلحوا استعانوا بالمصريين ، وكان أمرهم اذ ذاك الى محمد على الكبير ، فنجح المصريون في اضعاف هذه الحركة وازالة هذه الدولة الجديدة ، ورد امرائها الى ما كانوا عليه من قبل .

« ولا بد من وقفة قصيرة عند هذا المذهب الجديد : لنعرف ما هــو ، وما مبلغ تأثيره في الحياة العقلية العربية ، في هذا العصر الحديث .

« ان هذا المذهب جديد وقديم معا : جديد بالنسبة للمعاصرين ، ولكنه قديم في حقيقة الأمر ، لأنه ليس الا الدعوة القوية الى الاسلام الخالص النقي المطهر من كل شوائب الشرك والوثنية . هو الدعوة الى الاسلام ، كما جاء به النبي خالصا لله وحده ، ملغيا كل واسطة بين الله والناس . هو احياء للاسلام ونطهـير له مما أصابه من نتائج الجهل ، ومن نتائج الاختلاط بغـير العرب ، حتى أصبح الدين اسما لا معنى له ، فأراد ابن عبــد الوهاب أن يجعل من هؤلاء الاعراب الجفاة المشركين ، قوما مسلمين حقا ، على نحو ما فعل النبي بأهل الحجاز منذ أكثر من احد عشر قرونا .

« ان الذي يعنينا من هذا المذهب ، أثره في الحياة العقلية والأدبية عند العرب ، وقد كان هذا الأثر عظيما خطيرا من نواح مختلفة : فهو قد ايقظ النفس العربية ، ووضع امامها مثلا أعلى ، أحبته وجاهدت في سبيله بالسيف وبالقلم وباللسان . وهو قد لفت المسلمين جميعا الى جزيرة العرب » .

وقال الأستاذ عباس محمود العقاد عن هذه الدعوة ، فى كتابه « الاسلام فى القرن العشرين » :

ـ « ظاهر من سيرة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، انه لقى فى رسالته عنتا ، فاشتد كما يشتد من يدعو غير سميع . ومن العنت اطباق الناس على الجهل ، والتوسل بما لا يضر ولا ينفع ، والتماس المصالح بغير أسبابها . واتيان المسالك من غير أبوابها . وقد جاء على البادية زمان كانوا يتكلمون فيه على التعاويذ والتمائم وأضاليل المشعوذين والمنجمين ، ويدعون السعى من وجوهه، توسلا بأباطيل السحرة والدجالين . حتى الاستسقاء ودفع الوباء . فكان حقا على الدعاة ان يصرفوهم عن هذه الجهالة . وكان من أثر الدعوة الوهابية ، انها صرفتهم عن ألوان من البدع والخرافات » .

فلنكتف بهذا القدر من الحديث عن ابن عبد الوهاب ودعوته ، لنمضى فى سبيلنا ..

بسبب الدفاع عن الدين الحق من خلال هذه الدعوة ، وبسبب الحرب الأهلية بين ابناء سعود وحمدنه ، ضاعت الدولة التى انشأها محمد بن سعود فى نجد وجعل عاصمتها « الدرعية » كما رأيت ثم اتسعت رقعتها من بعده ، فشملت الاحساء والرياض ، ودانت لهم نجد كلها ، وامتد نفوذهم الى عسير ، والى عمان ، والى مكة ، واشتبكوا فى حروب ضارية مع والى مصر محمدعلى الكبير ، ومع ابنيه طوسون وابراهيم بأمر من الحكومة العثمانية ، خشية امتداد نفوذها الى ولاياتها ، وهزمهم المصريون ، ثم استردوها منهم فى عهد حفيد من آل سعود ، ثم ولى الرياض فى عام ١٣٠٦ هـ الأمير عبد الرحمن ـ والد الملك عبد العزيز ـ فاستمرت الحرب بينه وبين آل الرشيد نحو عامين اى الى عام ١٠٣٨ هـ (١٨٩٠ م) حتى كانت بينهما موقعة فاصلة فى « المليدة » هزم فيها عبد الرحمن ، بعد أن طوى ابن الرشيد نجدا بلدا بعد آخر ، فخضعت له كلها ، ووجد عبد الرحمن أن حياته فى الرياض فى ظل حكام كانوا عمالا لوالده بالأمس ، مستحيلة ، فغادرها فى العام التالى (١٣٠٩) الى الاحساء ، ثم الى قطر ، ثم الى البحرين ثم الى الكويت ، فاستقر فيها مع أسرته ، فى حمى الشيخ مبارك الصباح .

واذ هو فى الاحساء ، أوعزت الحكومة العثمانية الى واليها عليها ، عاكف باشا ، ان يفاوضه فى عودته ، فارسل اليه الوالى ، الدكتور زخور عازار اللبنانى الجنسية ، فعرض عليه :

١ - ان يكون اميرا على الرياض .
٢ - ان يكون تحت ولاية الحكومة العثمانية .
٣ - ان يعترف بسيادة الباب العالى عليه .
٤ - ان يدفع شيئا من المال ، كالخراج ، اعلانا لخضوعه .
٥ - ان تتعهد الدولة العثمانية بحمايته ، وباعطائه المال والسلاح .

فرفض الامام عبد الرحمن هذه الشروط بكبرياء واباء ، فقد رأى من الخيانة أن يركن الى أجنبى ، وان يقبل منه المساعدة التى تقيده وتقيد بلاده ، فان العربى المخلص لأمته ولوطنه ، ربما يكون عدوا لأخيه ، لكنه ازاء الاجنبى الدخيل ، يد قوية واحدة مع يده (١) .

لقد عانى عبد الرحمن وأسرته ، وفى مقدمتهم أبناه عبد العزيز ومحمد وابن أخيه عبد الله بن جلوى ، من الشدة والحاجة والعسر ، مالا يطيق عليها صبرا ، الا كل ذى قلب كبير عامر بالايمان .. انه ظل شهورا مشردا فى بقاع نجد ، مستثيرا عشائرها وقبائلها ضد آل الرشيد ، فكانت جميعها تصرفه عنها ، وترده عن مضاربها فى لباقة بعد حسن لقاء ! فلم يجد من يسعه الا قبائل «المرة» - بضم الميم وتشديد الراء - فى الربع الخالى ، وهى المنطقة الممتدة فى القسم الشرقى من شبه الجزيرة ، لا يجرؤ على ارتيادها الا من كان بها خبيرا . وهى فى الوقت نفسه لا تصلح لاقامة طويلة ، فغادرها متنقلا بين الاحساء وقطر ولبحرين ، واخيرا القى عصـــاه فى الكويت ، واستقر به النوى فيها .

كان عبد العزيز - وقد أشرف على سن الشباب - يتحدث عن الأيام السود التى قضاها فى « المرة » مع أسرته ، مزهوا مبتهجا ! وكان سامعوه من الكويتيين يبتسمون ابتسامات الاعجاب والتعجب وهم يستمعون اليه ، فان أفراد قبائل « المرة » فى نظرهم شياطين مردة ، تتراءى أخيلتهم فى جوف الصحراء . ومنطقتهم التى يعيشون فيها ليس فيها ماء يصلح للشرب ، وما فى آبارها من الماء شحيح مالح مر المـــذاق لا يصلح لشرب الحيوان . وهـــم لا يتجاوزون حدود موطنهم الا مرة واحدة فى العام ، يزحفون فى خلالها الى واحات النخيل فى « جبرين » بالشمال الشرقى من الربع الخالى ، فيجنون الثمار ، ويتزودون منهـــا بمؤونة العام كله ، وهناك يستقبلون التجـــار الوافدين اليهم من نجد والاحساء ، لمقايضتهم على الجمال والجلود ، مقابل القليل مما يحتاجون اليه فى حياتهم من سلاح وعتاد وقماش ، مكتفين من الملابس بالقليل الذى يستر أجسادهم التى ألفت حر الصيف وقر الشتاء ،

---

(١) كتاب « صقر الجزيرة » للاستاذ احمد عبد الغفور عطـار - الجزء الاول - الصفحة ١٠٠ .

ثم ينسحبون الى موطنهم السحيق ، فيتوزعون جماعات تضرب خيامها حول بئر أو مستنقع آسن ، يروون ظمأ الجمال، ويستدرون النوق، ليتركوها بعد ذلك تطوف بالمناطق كما تشاء بين كثبان الرمال، باحثة عن غذاء لها ، وهيهات أن تجده ، ثم تعود بعد خمسة أيام أو ستة من تلقاء نفسها ، الى موارد المياه لترتوى من جديد . اما البشر من « المرة » فيروون ظماهم بحلب النوق ، ويتغذون بالبلح ، وبما يقتنصونه من الحيوانات كالأرانب وغيرها ، فاذا نفد العشب ، رحلوا الى منطقة أخرى ، وهكذا .. رعاية الماشية من شأن النساء ، والصيد وغزو الجيران الذين هم أسعد منهم حالا ، عمل الرجال ..

هذه هى الحياة التى كان يحياها قبائل « المرة » ، وشاركهم فيها ـ بعد العز والسلطان ـ الامام عبد الرحمن واسرته المكنوبة .

روى عبد العزيز وهو يافع ، انه اضطر الى المساهمة فى « عملية جراحية » خطيرة لواحد من أفراد هذه القبائل ، اثر اصابته برمح فى معدته ، فارسلوا بضعة رجال يبحثون فى الصحراء عن نوع كبير من النمل ، له فكان غليظان ، فعادوا ومعهم نحو ثلاثين نملة ، وشرع « الجراح » العجوز فى اجراء العملية، بعد ما مدد الجريح على الرمال حتى لا تبدو منه حركة ما ، ثم اذابوا كمية من زبد الجمل فى وعاء أضرمت تحته النار ، وكشف « الجراح » عن موضع الاصابة ، وهو يتمتم بالتعاويذ ، بينما كان على عبد العزيز ان يطرد الذباب بقطعة من الجلد يلوح بها فى الهواء باستمرار ، وكان على اخيه محمد وعلى ابن جلوى : أن يمسكا بالجريح الذى كان يتلوى من الألم ، دون أن تصدر عنه آهة أو أنة . أما « الجراح » فقد صب بعض الزبد المغلى على الجرح ، ثم شق بطن الجريح بطعنة واحدة ، ومد يده فأخرج المعدة من جوفه وناولها لعبد العزيز ، الذى كان عليه فى الوقت نفسه ، ان يضغط على طرفى الجرح ليقرب بينهما ، بينما كان آخر يقدم الى « الجراح » نملة بعد اخرى ، يجعل كل واحدة منها تعض طرفى الجرح بفكيها ، ثم يهرس جسمها بابهامه، فيظل الفكان والراس ضاغطة على الطرفين ، وعندئذ تبدأ عملية « الخياطة » فى الجرح الى أن تنتهى فيقفل جدار البطن ببعض الاشواك الكبيرة ، ويصب الزبد فوقه من جديد ، ثم يضمده بقطعة من القماش . وقد شفى المصاب تماما بعد أسابيع، وأصبح فيما بعد من أتباع عبد العزيز ، ورئيسا لحرسه الخاص (١) .

هى دروس من الصبر والعزم ، تلقاها عبد العزيز من حياته بين أولئك القوم الذين وصفت لك حياتهم ، فالف قسوة الطبيعة ، واعتاد تحمل الجوع والعطش ، ولزمته المشقة ، وصحبه عذاب آلام الحرمان والتشريد .

---

(١) كتاب « عبد العزيز » للمستر داكوبرت فون ميكوش ـ ترجمة الدكتور أمين رويحه ـ ص ٣٢ .

ولكنه الى هذا العذاب وتلك المشقة ، حذق ركوب الخيل والجمال فى جوف الصحراء ، وتعلم من القوم الكر والفر والهجوم والدفاع ، بعد ما اشترك معهم فى بعض غزواتهم ، وعرف مسالك الصحراء ومجاهلها ومتاهاتها وما يصلح للمأوى منها ، فاكتمل له من هذا كله ، ومن حياته المتواضعة مع والده فى الكويت ، بدنانير يسيرة كانت تجريها عليهم الحكومة العثمانية ، وبعـــون مشكور من الشيخ مبارك الصباح ، شيخ الكويت .. من هذا كله ، اكتملت له عقلية ناضجة ، وبنية قوية صلبة ، ساعدته على الصمود فى وجه حدثان الزمان .

واذا كانت هذه الحياة الخشنة قد سلحته بسلاح حاد ، فان اباه كان قد سلحه بسلاح حاد آخر ، هو سلاح الدين الحق والحرص عليه ، فقـد عهد به والده الى فقيه « الخزرج » ليلقنه القرآن الكريم ، وبعد أن اتمه قبل ان يبلغ العاشرة ، أسلمه الى عالم من أسرة ابن عبد الوهاب ، ليلقنه عـلوم الدين الصحيح ويفقهه فيها ، فأتقن علوم التوحيد والتفسير والتاريخ والآداب. زيادة على هذا كان والده يحرص على مرافقته له فى مجالس أصـــدقائه واشراكه معهم فى المحاورة الدائرة بينهم ، ليعتاد الصراحة والجراة فى الحديث وبلغ من حرصه على أن ينشىء ابنه النشاة الحسنة التى يريدها له ، متحليا بالشجاعة والاقدام ، أنه كان يشركه فى بعض حروبه ، فقد صحبه معه فى معركة بينه وبين ابن الرشيد ، وكانت سن عبد العزيز لم تجاوز الثانية عشرة بعد ، فاعتلى جملا ومن خلفه أحد عبيده ، واستطاع أن يقتل برمحـه محاربا من الأعداء ..

وفى جميع هذه الصحبة ، كان الامام عبد الرحمن يغذى فى ابنه عبد العزيز الروح الدينية ، ويغرس فى قلبه حب التضحية والجهاد فى سبيل اعلاء كلمة الله ، ويذكره بالعهد الذى تم بين جده محمد ابن سعود وبين الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، من العمل على نشر عقيدة السلف ، والتمسك بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

سلاح جديد آخر ، تسلح به عبد العزيز وهـو فى الكويت ، هـو سلاح الالمام بطرف من سياسة الدول الغربية .. فقـد كان الشيخ مبارك الصباح معجبا بالأمير الشريد عبد العزيز ، مقدرا ذكاءه وفطنته ، فقربه اليه وأدناه منه ، وأجلسه الى يمينه فى مجلسه اليومى الحافل ، الذى جرت التقاليد فى بعض الامارات العربية على عقده فى ضحى كل يوم ، ليسمع الأمير أو الحاكم من رعاياه شكاياتهم ، فيقضى فيها بنفسه قبـل أن يفض مجلسـه . فكان

الكويتيون يرون هذا الفتى طويل القامة عريض المنكبين الى يمين أميرهم ، فيسألون : من هذا الفتى ؟ فيجيء الجواب : له ابن سعود .

وهكذا عرف واشتهر ..

وكان عبد العزيز حريصا كل الحرص على الا يفوته مجلس من هذه المجالس ، فيظل مستمعا صامتا ، مفكرا متأملا . ومن هذه المجالس عرف بعض الأوربيين من القناصل ووكلاء الشركات ، جاؤوا لاستقصاء أمر او استكمال معلومات عنه ، وكان مبارك من ناحيته يتيح الفرصة للامير الصغير حضور جلسات خاصة يناقش فيها أمور امارته ، جلت أم صغرت ، وكان اهمها يوم ذاك ، صراعا بين الألمان والروس ، يريد كل فريق أن يمكن لنفسه من الكويت .

كان الألمان فى مفاوضات مستمرة مع الترك ، ليمدوا خطا حديديا تجاريا يصل خط الاناضول ببغداد ، مارا عبر البلاد العربية حتى الخليج العربى ، حيث ينفذ الى البحر ، ولما كانت البصرة الواقعة عند ملتقى دجلة والفرات غير صالحة لجعلها الميناء الذى ينتهى عنده الخط ، فقد وقع اختيارهم على الكويت لتكون نهاية هذا المشروع الضخم .

أما الروس فكانوا ــ فى محاولتهم الوصول الى منفذ على البحر فى أية بقعة كانت ــ قد اخذوا يوسعون مناطق نفوذهم فى ايران ، فوضعوا أقدامهم على الساحل الايرانى حتى الخليج العربى ، واتخذوا منهما قاعدة لعدد من بوارجهم الحربية ، مظهرا لسيطرتهم وقوتهم . وفى الوقت نفسه وضعوا مشروعا لخط حديدى يمتد من الكويت عبر البلاد العربية الى البحر المتوسط ، أو بعبارة أوضح ، الى المنطقة التى كانت محط آمال الانجليز (١) .

قال الأستاذ احمد عبد الغفور عطار فى كتابه « صقر الجزيرة » فى الصفحة ١١٩ من الجزء الأول :

ــ « .. قال الالمان ، وقال الروس . ولكن الشيخ مبارك ينظر من كثب ضاحكا مستهزئا ، حفيا عن كل دقيق وجليل ، ويرى ولده عبد العزيز ــ كما كان يدعوه ــ تقلبات السياسة وأحابيلها ، وما ينجم عنها من الخصومة والشقاق بين الحكومات ، ويقفه على ما يدور بين الدول من أجل المصلحة ، والوسائل التى اتبعها فى تفريق كلماتها ، وايقاعها فى الورطات ، وجعل اليأس بينها شديدا ، اضعافا لقواهم حتى يسود ، بعد أن يضرب بعضها ببعض ،

---

(١) المصدر السابق ــ ص ٣٩ .

وهو آمن بعيد عن الأذى . فتعلم عبد العزيز كثيرا من المبادىء السياسية ، وحذق لغتها المرنة ووسائلها المختلفة وأساليبها المتنوعة ، وتسنى له الاتصال بممثلى الدول والتحدث اليهم والاحتكاك بهم ، فانكشف له الزيف والصحيح ، والردىء والجيد ، وعرف الحلول الصحيحة لكثير من المشـاكل ، ومن ثم تدرج فى طريق الكمال ، وكانت عبقريته الباكرة الناضجة ، تعينه اجمـل العون على ادراك الأمور ادراكا صحيحا ، وفهمها فهما جيدا » .

ولكن ، هل انسى فتانا الطموح الذكى ، ما لقيه فى سنى التشرد من شقاء وبلاء فى رحيله من بلد الى بلد ، حتى أوى مع أسرته اخيرا الى الكويت ... هل انساه ما يجده فى الكويت من تقدير أميرها مبارك الصباح له وتقريبه منه، وعيشة الكفاف التى يعيشها مع آله ، بعد نفاذ المال وذهاب العز والجاه .. هل انساه كل هذا ، مسقط رأسه « الرياض » ؟

لقد سأله مرة الشيخ عيسى آل خليفة حاكم البحرين فى ذلك الاوان :

ــ أمقامك فى قطر خير ، أم مقامك فى البحرين ؟

فأجابه على الفور بصراحة اليافع طيب السريرة ، خالص النية ، صادق الضمير :

ــ لا هنا ولا هناك ...

قال الشيخ متعجبا : اذن أين المقام الخير ؟

قال : الرياض ، الرياض خير مقاما ...

ان روح العلا ، ونزعة الامارة والسلطان تغليان فى صدره ، وانه ليعد الساعات والليالى والأيام ، بعد أحد عشر عاما فى المنفى الاختيارى ، منتظرا ذلك اليوم الذى يعيد فيه الى أسرته مجدها وعزها وسلطانها .. كثيرا ما شوهد على شواطىء الكويت وحيدا مفكرا . وفيم يفكر الا فى الوطن السليب وطن آبائه وأجداده ؟

لقد كان يحدث أصدقاءه من الكويتيين أحاديث ملؤها العزم والتصميم ، وكان يسرع الى حيث تحط القوافل رحالها ، قادمـة من جوف الصحراء ، ليتزود من أصحابها بما يريد من اخبار ومعلومات .. لقد كان مشهورا فى الكويت كلهابالذكاء والجد ، تحوطه مهابة ويجف به وقار ، وهـو لم يبلغ العشرين بعد ، أضـفتهما عليه قامته المسرفة فى الطـول ، حتى لتبلغ المترين أو أقل قليلا ، ولهذا كثيرا ماتفوق على قرنائه من الكويتيين فى الالعاب

الرياضية التى ألفها البدو ، فاذا فرغوا من اللعب ، عاد الشاب الفارع الى تفكيره ، وسرح ببصره فى الفضاء وكأنه يسأل مولاه فى علاه :

ـ متى أعود الى الرياض ؟

وفجأة حانت الساعة المرجوة ، وحل اليوم المرتقب ..

لقد أغرت الحكومة العثمانية ابن الرشيد ، بالشيخ مبارك شيخ الكويت، لانه مكن للانجليز من السيطرة على امارته ، بعقد معاهدة مع الحكومة البريطانية ـ معاهدة ١٨٩٩ ـ على غرار المعاهدات أو الاتفاقيات التى عقدتها مع شيوخ امارات الخليج . وكان ابن الرشيد يحلم بالاستيلاء على الكويت ، لأن فيه دعما لامارته فى نجد ، فتصبح امارة قوية تسندها الحكومة المركزية وهى الحكومة العثمانية ، وعندئذ ـ اذا تحقق حلمه ـ يرحل عنها الامام عبد الرحمن وأسرته ، فيفقد آل سعود آخر أمل لهم فى المحاولة للعودة الى سلطانهم الذى أخذ منهم قسرا .

وبدأ ابن الرشيد يجهز جيشا كبيرا من قبائل « شمر » المتمرسين بالحرب وبالقتال ، لهذه المهمة الخطيرة . وعلم مبارك الصباح بالأمر ، فسخا من خزائنه المليئة بالذهب ، على بعض القبائل المجاورة ، وفى مقدمتها قبيلة « العجمان » كثيرة العدد ، الضاربة بين نجد والكويت ، وقد عرفت بتمردها على كل حاكم لا يبسط لها يده ، وباستعدادها الدائم للقتال مع من يجيد البذل ويمنيها بالغنيمة النفيسة . كذلك استمال الشيخ مبارك قبيلتى « الضفير » و « والمنتفق » الضاربتين فى الشمال نحو الفرات ، وبعض القبائل التى عرف كرهها الشديد لآل الرشيد ، ثم رأى أن يشرك معه آل سعود ، فاذا انتصر على ابن الرشيد ، عادوا الى امارتهم .. وجار صديق حليف مثلهم ، خير وآمن من جار سوء شرير كابن الرشيد ، صنيعة الترك فى المنطقة العربية .

كان دور عبد العزيز فى هذه المعركة ، هو ان يقود جماعة تمتطى النوق السريعة ، لاثارة أهل نجد والاستيلاء على الرياض اذا أمكن ، مهددا بذلك ابن الرشيد من الخلف .. اذن لقد قربت ساعة العمر التى ظل يترقبها ويحلم بها ، الساعة التى يعود فيها الى الرياض منتصرا ، مجددا ما انقضى من عز مندثر .

... والتحم الجيشان فى « الصريف » ـ بين « حائل » عاصمة ابن الرشيد وبين الكويت ـ واقتتل الفريقان اقتتالا ضاريا ، أسفر فى نهايته عن انتصار ابن الرشيد ، لان قبيلة « العجمان » خذلت مبارك ، وجدت فى الفرار عند

ما رأت الرؤوس تتطاير فى الهواء ، وتبعتها القبائل المرتزقة ، فلم يكن امام مبارك وعبد الرحمن الا الانسحاب الى الكويت ،، بما بقى معهما من الجيش الذى اصطنعه مبارك بماله وذهبه .

أما عبد العزيز فقد استطاع ان ينفذ بتلك الجماعة التى تقدمها ، الى داخل نجد ، واستقبل بترحيب من القبائل التى مر بها فى طريقه ، واعلنوا له استعدادهم للانقضاض على ابن الرشيد ، ثم أخذ يدنو من العاصمة ، من الرياض ، وليس فيها سوى حامية ضعيفة يمكن قهرها . الا أن انباء معركة « الصريف » وانتصار ابن الرشيد فيها ، عمت أنحاء نجد ، فاستبد الخوف والفزع بالجماعات التى كانت قد انضمت الى عبد العزيز ، ورأت اتقاء لعقوبة ابن الرشيد ، اعتقال عبد العزيز وتسليمه اليه . الا أن الله جل شانه ، كان معه ، فلم يدره فردا ، فأنجاه منهم ، وعاد الى الكويت ، جائعا ، مهلهل الثياب (١) .

انقضى عام على واقعة « الصريف » ، والألم يعتصر فؤاد عبد العزيز ، والأمل يزين له المستقبل الباسم الزاهر ، رغم ما لقى ويلقى من قسوة الدهر ، انه مؤمن بالله الايمان كله ، مؤمن بحق آله فى العودة الى وطنهم الايمان كله .. مستحيل ان يزعزع هذا الايمان الراسخ الوطيد ، أو ينال منه ، « سحابة صيف عما قليل تقشع » .

كان لعبد العزيز شقيقة تحتل من قلبه مكانة سامية ، وأدرك أنها تشاركه آلامه وآماله ، فاسر اليها انه معتزم ان يعيد الكرة لغزو الرياض ، فشدت من عزمه ، ودعت الله أن يكون معه فى معركته القابلة ، معركة الحق والعدل . فلما فاتح أباه فى الأمر ، حاول أن يثنيه عنه ، مسميا اقدامه عليه «مغامرة» لا تحمد عقباها .. فلما وجده عاقد العزم ، دعا له بالتوفيق والنصر ... لكن الأمير الفتى خاوى الوفاض ، ليس معه سلاح ولا مال ، فكيف السبيل اليهما ؟

ولى وجهه شطر مبارك الصباح ، واستعانه فأعانه .. زوده بثلاثين بندقية وبأربعين جملا ، فحمد الله واستنصره ، وبدأ مسيرة الغزو بهذه المعونة المباركية ، وبأربعين رجلا اختارهم من أسرته ومن مواليها .

وسار على بركة الله ، فى ليلة ظلماء من ليالى نهاية عام ١٩٠٢م .. طواهم ظلام الصحراء ، ومر بمضارب قبيلة « العجمان » فهاجمها ، واستولى على

---

(١) المصدر السابق - ص ٥٠ .

ما عندها من مؤن ، انتقاما منها لخذلانها مبارك فى معركته مع ابن الرشيد ، ووصل الى مضارب قبيلة «شمر» انصار ابن الرشيد ، فهاجمها وادبها ، واستمر فى تقدمه حتى اقترب من « حائل » ، بعد ان نشر الرعب والذعر والفزع فى القبائل التى مر بها ، بل وفى القوافـــل التى كانت معتزمة اتخاذ طريقها الى هدفها .

وعبثا حاولت عيون ابن الرشيد وارصاده ان تصل اليه ، فقد تعلم من قبائل « المرة » الكثير عن حرب الصـــحراء ، ووسائل الاحتماء فى أخاديدها وكهوفها ، بل وفى رمالها اذا لزم الأمر !!

على العكس ، انضمت اليه قبائل « سبيع » و « بنى مرة » و « السهول » وغيرها ، انتصارا له من جهة ، ومن جهة ، اخرى وهى الأهم ، ابتغاء الفىء والكسب من الغنائم ! فلما وصل الى « حرض » كان جيشه مؤلفا من نحو الف وخمسمائة مقاتل ، مضوا يغيرون على القبائل المجـاورة الموالية لابن الرشيد ، كقبائل « مطير » و « الدواسر » و « قحطان » ، غانمين ما عندها من زاد وعتاد ، ثم يعودون الى الاحساء حيث اتخذوا من بطاحها مستقرا ومقاما .

فماذا يفعل ابن الرشيد ؟

لجأ الى حلفائه الترك ، راجيا منهم ان يغلقوا الاحساء ــ وهى ولاية تركية ــ فى وجه هذا الغازى الشاب الذى أقض مضجعه واقلق راحته .

فلبوا الرجاء ، فلم يعد عبد العزيز يستطيع اجتياز حدودها كما كان يؤمل .. وانتظر الامير الفتى شبوب الثورة التى كان يرجوها من النجديين على ابن الرشيد ، ولكنهم وقفوا منه موقفا سلبيا غير مبالين به وبحركته ، فمالهم وله ، وهم مطمئنون الى حياتهم التى يحيونها ، فلا يهم اذن ، أحكمهم ابن الرشيد أو ابن سعود !!

وتحرك ابن الرشيد ، فشدد الحراسة فى الطرق والدروب ، واقام فى كل قرية حامية مسلحة من سكانها ، فاذا لم يقبلوا الفها من جنـوده ، واطلق جواسيسه يرقبون حركات عبد العزيز ويتنسمون اخباره ، ثم خصص جائزة مالية كبيرة لمن يأتيه برأسه ..

وسدت المنافذ فى وجه عبد العزيز ، والمؤونة فى نقصان ، وهذا الجيش الذى جمعه من القبائل الساعية الى الغنيمة أولا وقبل كل شىء ، بدأ يتفرق ويتسلل افراده ، مخلفينه وحده فى الصحراء ، فلم يبق معه غير المؤمنين به وبما اقدم عليه ، أولئك هم الأربعون رجلا الذين غادر بهم الكويت .. وهل بهؤلاء الأربعين يمكن غزو الرياض ؟

لقد طال الوقت به ، وهو فى مكانه هذا ، وعلى حاله السيئة هذه ، أيعود الى الكويت مرة أخرى ، فيشمت العدو ، ويسىء الى سمعة آله الأمجاد ؟

ففيم كان الخروج ؟ ولم كانت المغامرة اذن ؟

لا ... لن يكون . وفيما هو كذلك مع رفاقه ، أقبل عليهم فارسان موفدان من أبيه اليه ، يحملان رسالة يرجو منه فيها أن يعود سالما ، ما دام لم يأذن الله ان يعود منتصرا غانما ..

وغشيه هم ويأس . أيعصى والده ويمضى فيما استعان الله عليه ، أو يطيعه ويعود حزين القلب مهيض الجناح ، خافض الرأس ذلة وانكسارا ؟

مرة أخرى : لا ، لن أعود الى الكويت ، سأمضى فى طريقى الى غزو الرياض .. قولا لوالدى اننى منفذ ما عزمت عليه ، فليدع الله ان يقف بجانبى .

وما أن غاب الفارسان عن الأعين ، حتى جهز عبد العزيز رفاقه للمسير ، فوصلوا بعد ثلاثة أيام الى واحة « جبرين » فى أطراف الربع الخالى ، حيث تقوم بضعة أكواخ من الطين ، يقطنها قليل من البدو لحراسة النخيل الذى تملكه قبيلة « المرة » فى الواحة ، وهى منطقة يعرفها عبد العزيز خير المعرفة ، حينما سكنها مضطرا مع أسرته ، قبيل رحيلهم الى الكويت .

وفكر فى حيلة يضلل بها ابن الرشيد ، فتظاهر بالخصام دب بينه وبين أخيه محمد وابن عمه ابن جلوى ، وزادوا فمثلوا ان هذا الخصام اشتد بينهم ، حتى دفعهم الى التلويح لبعضهم بعضا بالسيوف ، ثم تفرقوا ، كل منهم مع فريق من الأربعين رجلا ، بعد ما اتفقوا على الاجتماع فى مكان معين قريب من هذا المكان الذى مثلوا فيه الخصام أمام أهل الواحة . وشاع نبأ الخصام ، وان الجمع قد تفرق من حول عبد العزيز ، فتخلى عنه اخوه وابن عمه ، وبقى وحده طريد الصحراء بائسا بائسا .

ونجحت الحيلة ، وابتهج ابن الرشيد بما سمع عن أفول نجم خصمه الشاب العنيد ، فسرح الحاميات المسلحة التى كان قد أقامها فى القرى ، واستعاد من بعضها جنوده الى عاصمته « حائل » .. وظل عبد العزيز مع رجاله خمسين يوما حيث هم ، فى أشق أنواع الحياة ، فلا غذاء لاحدهم سوى تمرة أو تمرتين فى اليوم ، فاذا ساق اليهم الحظ السعيد غزالا أو ارنبا ، اقتنصوه وأكلوا لحمه نيئا ، حتى لا توجه نار الوقود الانظار الى مكانهم . وبعد هذه الأيام الخمسين السوء ، اتفقوا على ان يبدأوا غزوتهم بمهاجمة حاكم

المدينة ، فيقتلوه ، فاذا سال دمه أمام أعين جنوده فى حامية حصنها ، سلموا صاغرين مدحورين .. بعد هذا يصبح احتلال المدينة نفسها أمرا هينا ، لا عسر فيه ولا مشقة .

واخذ الغزاة القلائل فى السرى ، وغاب القمر فى طيات السحب ، ودنا عبد العزيز ورفاقه من الرياض ، ولم يبق بينهم وبينها سوى ساعات قليلة ، وهم يغذون السير فرحين مستبشرين متهللى الأسارير ، وكأنهم لم يلقوا فى مسيرتهم الشاقة هذه عنتا ولا رهقا ، واستقبلوا عيد الفطر (شوال عام ١٣١٩ هـ ـ ١٩٠٢ م) حول بئر ، فلبثوا عندها للراحة ، ليتبلغوا ببعض من التمر ولحم غزال نيء ، ثم واصلوا السير الى بئر « ضلع الشعب » ، حيث تبدأ واحة من النخيل ممتدة مسيرة ساعة ونصف ساعة الى ضواحى الرياض ، وعندها أبقى عبد العزيز الجمال فى حراسة عشرين رجلا ، أمرهم باللحاق به اذا أرسل فى طلبهم ، فان لم يرسل اليهم بعد أربع وعشرين ساعة من مغادرته لهم ، فليعودوا الى الكويت ليبلغوا والده انه : إما قتل أو أسر .

وعلى الاقدام سار عبد العزيز مع العشرين رجلا الباقين الى نهاية واحة النخيل ، وفى الطريق اقتطعوا جذع نخلة ليتسلقوا عليه سور المدينة ، ومضى مع ابن عمه وستة من الرفاق ، مخلفا زملاءهم بقيــادة اخيه محمد ، لكى يحميهم عند الاقتضاء ، فاذا انقطعت أخباره عنه الى صباح اليوم التالى ، فليعد هو الآخر الى الكويت .

.. وانصت عبد العزيز ، فلم يسمع صوتا لسائر ، سوى صوت الحراس وهم ينادون بعضهم بعضا ، حتى لا تأخذ أحدهم غفوة تحول بينه وبين اداء واجبه ، فاذا اطمأن هؤلاء الحراس الى يقظتهم جميعا ، لاذوا بالصمت والدفء فقد كانت الليلة من ليالى ديسمبر القارصة أوى فيها الأهالى الى دورهم هربا من البرد الشديد ، مما زاد فى اطمئنان عبد العزيز ، فتسلق ومن معه سور المدينة فى غفلة من الحراس والسكان الدافئين ، فلم يشعر بهم أحد ، وساروا حذرين مخترقين مسالك المدينة ودروبها ، حتى وقف بهم أمام منزل صغير فى نهاية درب صغير ، طرق بابه ، فسمعوا صوت امرأة هلعة جزعة ، تسأل :

ـ من الطارق فى هذه الساعة المتأخرة من الليل ؟

فقال عبد العزيز : نحن من رجال الأمير عجلان ، نريد شراء أبقــار منك ...

فأجابت المرأة من الداخل : اذهب من هنــا ، فليس فى البيت بغى . انت تريد الفساد ، ولا تريد أبقارا ...

فقال : لا والله ...

قالت : اهـذا وقت بيع وشراء ؟ أبعـد منتصف الليل تطوف بالحى طواف من يريد امرا نكرا مغلفا بالبيع والشراء ؟ اذهب يا رجل ..

قال لها عبد العزيز بحزم : اريد صاحب الدار وكفى ، وليأتنى الآن ، فاذا لم يطع ، فانى أخشى أن يقتله الأمير صباح غد ...

... وفتح الباب بعـد هنيهة من التردد ، عن رجل زنجى ... انه « جويسر » العبد السـابق من عبيـد آل سعود ، وقد أعتقـه الامام عبد الرحمن قبل أن يغادر الرياض ، وعرف العبـد سـيده ، ففتح له ولمرافقيه الباب عن آخره ، ليلجـوه الى داخل البيت وسط سرور أهل الرجل وذويه ، وعلم منه عبد العزيز ما أراد من معلومات عن حاكم المدينة « عجلان » ، ثم غادروا الدار متسلقين سطحها الى أسطح الدور المجاورة، حتى ساقتهم أقدامهم الى دار مجاورة لدار الحـاكم ، فهبطوا اليهـا ، واوثقوا ساكنيها العجوزين بالحبال ، واغلقوا دونهما البـاب ، ثم تسلقوا جدارها الى سطح دار الحاكم ... وبحذر ، وبهدوء ، شـديدين ، هبطوا الى فنائهـا مغافلين الحراس ، فأوثقوهم أيضـا بعد ماكمموا افواههم وحبسوهم فى حجرة قصية ، وعندئذ سمعوا لغطـا وهمهمة صادرين من غرفة قريبة ، فاقتحمها عبد العزيز وابن عمه ، فاذا هما فى غرفة نوم قد تمدد فى سريرها امرأتان ، هما « قطلبة » زوجة عجلان واختها ، فطمأنهما أن لا خطر عليهما اذا هما لزمتا الصمت . وعلم من الزوجة أن زوجهـا يبيت فى الحصن المواجه للدار ، وانه يغادره اليها قبيل الشروق بلحظات ، ثم أغلق الباب عليهما وعلى الباقيات من النساء فى الدار ، وارسل فى طلب أخيه محمد ومن معه من الرجال ، وافترشوا جميعا فنـاء دار الحاكم فى انتظاره للقضاء عليه ، بعد ساعات قليلة قضاها المتربصون فى تناول قليل من زادهم ، وفى احتساء قهوتهم ، والكل يقظ الحواس لأى لمسة أو همسة خشية الفجاءة ...

وعلا صوت المؤذن فى المدينة داعيا الى صلاة الفجر ، فأم عبد العزيز رفاقه ، واتموا صلاتهم ، ورددوا أدعيتهم ، وتلا كل منهم ما تيسر من آى الذكر الحكيم ، وصحت المدينة ، واستيقظ أهلهـا ، وارسلت الشمس خيوطا ذهبية من أشعتها ، فهب رجالنا وقوفا متأهبين وقد سلوا سيوفهم خلف باب الدار ، وهو مواجـه لباب الحصن ، يفصل بينهما ممر طويل اتخذ مربضا لخيل الحاكم ، اعتاد أن يمتع عينيه بمنظرها وهو يتريض فيه

برهة ، ثم يدلف الى زوجته ليوقظها ويتناول معها قهوة الصباح وطعام الافطار ... بعدئذ يمضى الى عمله .

اليوم ، هو الرابع من شوال من عام ١٣١٩ . وفى أول لحظات من نهاره فتح حارس الحصن كوة صغيرة فى الباب الكبير ، خرج منها عجلان متجها الى مربض الخيل ، فاسرع اليه عبد العزيز والسيف فى يمينه ، ومن حوله رجاله يبغون قتله ، لكنه عدا طالبا النجاة فى الحصن من الكوة التى خرج منها ، فجذبه عبد العزيز من قدميه ، وعاجله ابن جلوى بطعنة من خنجر فاخطأه وجاوزه الى الباب فاستقر فيه ، ولا يزال فى مكانه الى اليوم ، رمزا لذكرى يوم الغزو المقدس ... لكن عجلان القوى ، أفلت من يدى عبد العزيز ونفذ كالسهم الى الداخل ، فأطلق عليه حينئذ ابن جلوى — وهو من أشهر الرماة — رصاصة جندلته ، وسقط يتخبط فى دمه ، فأجهز عليه ، وفصل رأسه عن جسده ، وترك جثته نهبا للذباب والطير .

فى هذه الأثناء ، أو فى هذه اللحظات الخاطفة ، دارت معركة بالرصاص بين الغزاة وبين حراس الحصن ، قتل فيها بعض هؤلاء ، واسر الباقون ، ثم ضربت أعناقهم من بعد ...

وبعث عبد العزيز مناديه ، ليعلن فى الناس الخبر العظيم ، فوقف على منصة عالية فى سوق المدينة ، وصاح مبشرا :

— الحكم لله ، ثم لعبد العزيز بن عبد الرحمن بين الفيصل السعود

وذهلت الرياض ، وهى بين مصدقة ومكذبة ، ثم سادها البشر وظللتها البهجة ، وهرعت الوفود الى منقذهم من حكم الطاغية عجلان ، يمطرون وجهه بالقبل الدالة على اخلاصهم لآل سعود ، ويعلنون بيعته لهم ، يسالمون من سالمه ، ويعادون من عاداه ، وهم بينهم بقامته المديدة ، يملأ عطفيه الزهو بالحق ، وتنطق أساريره بشكر الله عز وجل .

ثم تحدث اليهم ، فحضهم على الخير والصلاح والصبر ، ونصحهم بالا يقتلوا عدوا جاء مستسلما ، ولا يؤذوا الشيوخ والنساء والأطفال ، وحذرهم من انتهاك الحرمات ، وسفك الدم بغير حق .

وفى المساء أشعلوا النار أمام الدور ، وفى الميادين نحروا الذبائح ، قرى للضيوف الذين جاؤوا مهنئين من القرى المجاورة ، وأضاءت المدينة كلها المصابيح والشموع ، فبدت قطعة من نور وهاج .

ان ذلك اليوم المشهود الأغر ، يوم ٢ من ديسمبر من عام ١٩٠٢ الذى دخل فيه عبد العزيز الرياض غازيا ، هو السطر الأول فى تاريخ هذا الرجل العظيم ، كما يعتبر غزو الرياض ، حجر الاساس فى بناء هذه المملكة العتيدة التى أسسها على تقوى من الله ورضوان .

الا يعد هـذا العمل فى الأسـاطير التى نقرأها فى كتب الأولين ، من الرواة والمحدثين ، من الرومان واللاتين ؟

ولو شئت أن أتابع تاريخ هذا الغـازى الفريد فى نوعه ، يوما بيوم ، لأضنانى التتبع . فليترفق بى القارىء ، وليتقبل منى مشكورا ، أن أجمل له فتوحاته ، حتى دان له الحجاز كله ، وأصبح « ملك الحجـاز ونجـد وملحقاتهما »، ثم « ملك المملكة العربية السعودية » .

فى تلك السنة التى فتح فيها الرياض ، فتح « شقراء » و « ترمداء » و « الروضة » وسائر مدن سدير .

وفى السنة التالية فتح « عنيزة » و « بريدة » وسائر مدن القصيم .

وفى سـنة ١٣٢٢ هـ (١٩٠٥ م) كانت معـركة « البكـيرية » و « الشـنانة » .

وفى ١٨ صفر سنة ١٣٢٥ هـ (١٤ ابريل سنة ١٩٠٨ م) قتل عبد العزيز ابن الرشيد أقوى خصم له ولأسرته .

وفى ٥ جمادى الأولى سنة ١٣٣١ (١٢ ابريل سنة ١٩١٣) احتـل الاحسـاء .

وفى ٢٥ شعبان سنة ١٣٣٧ (١٩١٩) كانت معركة « تربة » المشهورة التى قضى فيها على جيش الملك حسين بن على ملك الحجاز ، وكان بقيادة ابنه الأمير عبد الله (الملك عبد الله ملك شرق الأردن فيما بعد) .

وفى ٢٩ صفر سنة ١٣٤٠ (٢ نوفمبر سنة ١٩٢٢) ، سقطت « حائل » آخر معاقل آل الرشيد ، وبهذا دانت نجد كلها لعبد العزيز بن سعود .

وفى ٧ صفر سنة ١٣٤٣ (سنة ١٩٢٤) استولى على الطائف ، قاعدة حكومة الشريف حسين .

وفى ١٧ ربيـع الأول سنة ١٣٤٣ (١٦ أكتوبر سنة ١٩٢٤) احتـل جيشه من « الاخوان » مكة المكرمة سلما ، بعد أن جلت عنهـا الحكومة الهاشـمية .

وفى ٥ ديسمبر سنة ١٩٢٥ ، استولى على المدينة المنورة .

وفى ٢٣ من الشهر نفسه ، استولى على جده ...

وبهذا انتهى حكم الشريف حسين وبنيه من الحجاز .

من هذه الفتوح ، أود أن اخص بالذكر ، فتحه الاحساء ، فمنه يتضح كيف كان عبد العزيز يقبل التحدى من المتكبرين المتجبرين ، وكيف كان سبحانه وتعالى ينصره عليهم ، لأنه يدفع عن حق ، وهم يدفعون عن باطل

لقد اشتهر اقليم الاحساء بالخصب والنماء وجودة مزروعاته ، وغزارة عيون مائه القريبة من سطح الأرض ، ولكنه كان مصدر اضطراب وقلق لما حوله من الامارات ، اذ كان وكرا للصوص وقطاع الطرق ينهبون أموال التجار ، ويغتصبون بضائع القوافل ، ويقتلون أصحابها والمرافقين لها .

ومع أن الاقليم ولاية تركية ، الا أن حكامه من الترك كانوا ضعافا لا سلطان لهم ، ولا حول ولا قوة ، بينما جيران سكان الاحساء من أهل نجد ينعمون بالطمأنينة والأمن .

وعلم جمال باشا السفاح ، الوالى التركى على بغداد ، أن ابن سعود ينوى أمرا للاحساء ، وهى فى منطقة نفوذه ، فأرسل اليه ليوفد مندوبا عنه لمفاوضته فيما يريد من هذا الاقليم ، فأوفد ابن سعود مندوبه ، واذا بجمال السفاح يبادره بقوله :

ــ ان ابن سعود لا يعرف مقامه ، فاذا كان لا يقبل ما تعرضه عليه الحكومة التركية ، فان باستطاعتى اختراق بلاد نجد من الشمال الى الجنوب بطابورين فقط ! !

وعاد المندوب لينقل الى عبد العزيز ما سمع من المغرور المتجبر ، جمال السفاح ، فقال له ابن سعود :

ــ لا عليك .. انتظر . سوف نؤدبه باذن الله .

ثم كتب الى وكيله فى بغداد ، عبد اللطيف المنديل باشا ، رسالة كلفه ابلاغها الى جمال ، وقد قال له فيها :

ــ سنقصر لكم الطريق ان شاء الله قريبا .

وقد تم له بعد ذلك فتح الاحساء (١) .

كذلك حينما أرسل الى الشريف حسين فى مكة ، يدعوه الى الاتفاق على الحدود بين نجد والحجاز ، فى رسالة مؤدبة مهذبة ، خاطبه فيها كما يخاطب الابن أباه ، أرسل اليه حسين يقول له :

---

(١) كتاب « صقر الجزيرة » للاستاذ عبدالغفور عطار ــ الجزء الاول ــ ص ٢٥٢ .

ـ يا ابن سعود : انك بكتابتك هذه ، اما أن تكون سكرانا او مجنونا ـ الا تعلم لاى أمر قمنا ، وأى غرض نبغى ؟

وحفظها له ابن سعود ، وتحداه ، حتى اجلاه وأجلى أسرته كلها عن الحجاز .

أعود الى فاتح الرياض بقلة من الرجال ، لا بجيش لجب ، ولا بعتاد وهيب ، فاقول انه أرسل الى ابيه والى أسرته في الكويت ، فلحقوا به ، ولم يقبل الأب ما عرضه عليه الابن البار ، من تولى الامارة ، فاصبح عبد العزيز أميرها ، لكنه ما كان لينفذ أو يبرم أمرا الا بعد مشورة أبيه الجليل .

كان يقول عن والده : « انه كان يعاملنى كأننى انا الوالد وهو الولد ، وما رأيت قط معاملة كهذه بين الآباء والأبناء » .

وكما كان يوم ٢ ديسمبر من عام ١٩٠٢ ، يوم دخل عبد العزيز مدينة الرياض مستردا لها ، يوما تاريخيا لن ينسى ، فان يوم ٥ ديسمبر من عام ١٩٢٥ (٤ جمادى الثانية سنة ١٣٤٤) ، يوم غادر الشريف على ابن الشريف حسين ، جدة مستسلما لعبد العزيز ، ومسلما المدينة له ، ليكمل له بذلك احتلال الحجاز كله ... ان هذا اليوم هو الآخر ، يوم تاريخى لن ينسى ... لقد حاصر عبد العزيز يومذاك جدة حصارا شديدا ، ولم يشأ مهاجمتها حرصا على أرواح ساكنيها من الأجانب ، ووجد الشريف على نفسه في مأزق شديد : فالأرزاق عن المدينة ممنوعة ، ورواتب الجند موقوفة . فأرسل وسطاء الى عبد العزيز ليحملوه على المفاوضة في صلح يرضى كلا منهما : أرسل أمين الريحانى الكاتب اللبنانى المشهور ، والمستر فيلبى وكان لا يزال تاجرا في جدة ، وطالب النقيب باشا من أعيان العراق ثم حسين العوينى التاجر اللبنانى الكبير ، وقد أصبح بعد ذلك رئيسا للوزراء لبنان عدة مرات ...

فقال عبد العزيز للريحانى ـ وهو مسيحى ـ بصراحة :

ـ ان المشكلة اسلامية ، ولا يحلها غير المسلمين .

وقال للتاجر فيلبى :

ـ ليس من المصلحة أن تكون وسيطا في هذه المسألة الاسلامية ـ

وقال للنقيب باشا :

ـ لا فائدة من الوساطة . على الشريف على أن يتخلى عن جده ـ

وقال مثل هذا للحاج حسين العويني .

لكن الشريف على لم ييأس ، فأرسل الى عبد العزيز وزير خارجيته فؤاد الخطيب باشا ، فوجد من الفاتح المعتز بنفسه ، المؤمل فى نصر من الله ، اصرارا على أن يغادر الشريف جدة ، فليس هناك مفر من تخليه عنها .

كان عبد العزيز قد أرسل وهو محاصر مكة المكرمة ، رسالة الى الشريف ، قال له فيها :

— أن الحرمين الشريفين ليسا ملكا لأحد ، لكن الاشراف ، وعلى الاخص والدكم ، اعتبروا الحجاز ملكا خاصا . ولقد عانى المسلمون جميعا وأهل تجد خاصة ، الأمرين من سوء معاملته . نحن لا نريد الا تحرير الحجاز للمسلمين وللعالم الاسلامى (١) .

فأرسل اليه الشريف على يطلب « جلاء النجديين عن الأراضى الحجازية المحتلة ، والا فنستردها بالسيف ، وانا مضطر الى الاصطلاء بنار الحرب بلا شفقة ولا رحمة » .

فرد عليه عبد العزيز قائلا فى تواضع :

— « اذا كنتم تحبون السلام وحقن الدماء ، فأخلوا الحجاز ، وانتظروا حكم العالم الاسلامى ، فان اختاركم أو اختار غيركم ، فنحن نقبل حكمه بكل ارتياح . أما اذا بقيتم فى أرض الحجاز ، فان مسؤولية ما يقع من الحوادث ، تقع على غيرنا » ...

واخيرا لم يجد الشريف على الا أن يوسط الانجليز ، علهم يفلحون مع هذا الغازى العنيد . فدعا اليه المستر جوردون نائب المعتمد البريطانى فى جده ، وابلغه رغبته فى توسطه بينه وبين عبد العزيز فى التسليم ، لكن بشروط ، هى :

١ — اعلان عفو عام عن الموظفين الملكيين والعسكريين والاشراف ، وكل من والى الحكومة الحجازية — حكومة ابيه — أو ناصرها من المدنيين واهل القبائل ، وتأمين أرواحهم وأموالهم .

٢ — ترحيل جميع الضباط والجنود الذين جىء بهم من الأقطار العربية الى أوطانهم ، مع تأمين نفقاتهم ومصاريف سفرهم ، وأن يوزع عليهم خمسة آلاف جنيه ، مكافأة لهم ، بنسبة معتدلة .

---

(١) كتاب « الملك العادل » للسيد عبدالحميد الخطيب — ص ٧٩ .

٣ ـ تأمين سائر الموظفين على وظائفهم ، وعدم اخراج احد منهم من عمله ، الا بجنحة أو بسبب معقول .

٤ ـ سريان الشروط السابقة على جميع السكان والموظفين والضباط والجنود الموجودين فى ينبع ، ما عدا المكافأة النقدية فانهم لا يدخلون فيها .

٥ ـ الاحتفاظ بممتلكات العائلة الهاشمية فى الحجاز ، لأصحاب الحقوق فيها ، وعدم الاعتداء عليها أو مصادرتها .

واستقبل الفاتح المنتصر ، المستر جوردون ، وقبل الشروط مرحبا بها ، لأنه انسان أولا ، ولأنه ثانيا ، ليس فيها ما يخالف خلقه ومبادئه وتقاليده التى ورثها عن أجداده ولقنها له ابوه . وأقر معاهدة التسليم ، بعد ما وقعها المهزوم الشريف على ، فى اول جمادى الثانية . وفى اليوم الرابع منه ، وصلت البارجة البريطانية « كورن فلاور » ، فحملته الى العراق ، لينزل ضيفا على أخيه فيصل .

أما عبد العزيز فقد قصد الى جدة ، ودخلها وسط اطلاق المدافع ، يظلله العلم النجدى ، واستقبل قناصل دول بريطانيا وروسيا وفرنسا وايطاليا وهولندا ومصر وايران . وقد ناب عنهم قنصل ايطاليا ـ وكان يجيد العربية ـ فى تهنئته بنصره ، وشكره على حقن الدماء ، بقبوله تسليم الشريف على المدينة بلا حرب أو قتال .

وكذلك ملك عبد العزيز الحجاز جميعه ...

وبعد ظهر يوم الجمعة ٨ يناير ١٩٢٦ ، أقيمت حفلة بيعته على الحجاز ، فى مكة أمام باب الصفا ، فالقيت خطب التهنئة والترحيب بين يديه ، ورفع اليه المواطنون بيعتهم مكتوبة وموقعة من أعيانهم ، وفيها :

« بسم الله الرحمن الرحيم

« الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على من لا نبى بعده ، نبايعك يا عظمة السلطان عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل السعود ، على أن تكون ملكا على الحجاز ، على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وما عليه الصحابة ، رضوان الله عليهم ، والسلف الصالح ، والأئمة الأربعة رحمهم الله ، وأن يكون الحجاز للحجازيين ، وأهله هم الذين يقومون بادارة شؤونه ، وأن تكون مكة المكرمة عاصمة الحجاز ، والحجاز جميعه تحت رعاية الله ، ثم رعايتكم » .

فكتب فى نهاء هذه البيعة :

« بسم الله الرحمن الرحيم

« من عبد العزيز بن عبد الرحمن آل فيصل ، الى اخواننا الموقعين أسماءهم :

« سلام عليكم وبعد ، فقد أجبناكم الى ما طلبتم ، ونسأله سبحانه وتعالى ، المعونة والتوفيق للجميع » .

ثم رد على الخطباء بكلمة ضمنها المبادىء التى اعتزم السير على هداها ، هو ورعاياه معا ، فقال :

ـ اسمع خطباءكم يقولون : هذا امام عادل ، وهذا كذا ، وهذا كذا ... فكل رجل مهما بلغ من المنازل العليا ، اذا لم يخش الله ويطلب مرضاته ، فلا أثر له ولا لعمله . فمتى تركنا الشهوات وهجرنا المحرمات ، وعبدنا الله على بصيرة ، لاقينا الخير كله . وهل جاء البلاء للناس الا من اتباع الشهوات ، شهوات النفوس التى فيها خراب الدين والدنيا ؟ لذلك ادعوكم الى الدين ، والى اتباع آثار السلف الصالح ، واتخاذ الصراحة فى القول ، والاخلاص فى العمل ، وترك الرياء والملق ... فمتى اتفق العلماء والأمراء على أن يستر كل منهم على الآخر ، فيمنح الأمير الرواتب ، والعلماء يدلسون ويتملقون ، ضاعت أمور الناس ، وفقدنا ، والعياذ بالله ، الآخرة والأولى .

« لم يفسد الممالك الا الملوك وأحفادهم وخدامهم ، والعلماء واعوانهم ، وانني ، والله ، لا أود أن أكون منهم .

« ان التمدن الذى فيه حفظ ديننا وأعراضنا وشرفنا ، مرحبا به وأهلا . أما التمدن الذى يؤذينا فى ديننا وأعراضنا وشرفنا ، فوالله لن نرضخ له ، ولن نعمل به ، ولو قطعت منا الرقاب .

« أيها الاخوان : انى أحمد الله الذى جمع الشمل وأمن الأوطان ، وان لكم على ، عهد الله وميثاقه ، انني أنصح لكم ، كما أنصح لنفسى ولأولادى ، وأحبكم فى الله ، وأعاديكم فيه » .

وفى مساء اليوم نفسه ، ألفت « هيئة التاسيس » لبحث المسائل الأربع التالية :

١ ـ وضع اسم لرئيس حكومة الحجاز .

٢ ـ وضع ترتيب لتحديد العلاقة بين نجد والحجاز .

٣ – تعيين شكل الحكومة ، والبحث في الموقف الذى يجب أن يكون دوليا .

٤ – تعيين شكل العلم والنقود .

فاتفقوا على أن يلقب رئيس حكومة الحجاز بـ « ملك الحجاز وسلطان نجد وملحقاتهما » .

ونشرت جريدة « أم القرى » – المعبرة عن رأى الحكومة – النظام السياسى ، أو « دستور الحجاز » الذى أصدره عبد العزيز فى ٢١ صفر سنة ١٣٤٥ (٢٩ اغسطس سنة ١٩٢٦) ، ألخصه فيما يلى :

القسم الأول – مملكة الحجاز بحدودها المعروفة ، هى وحدة غير قابلة للتجزؤ ، وهى مملكة دستورية اسلامية ، لها استقلالها الداخلى والخارجى ، وعاصمتها مكة ، ولغتها الرسمية العربية .

القسم الثانى – تلقى مقاليد ادارة المملكة الى جلالة عبد العزيز الأول نجل عبد الرحمن آل فيصل آل سعود . ويجب عليه أن يحترم الشريعة الاسلامية ، بمزاولة أوامر ونواهى كتابه تعالى (القرآن) والسنة ، وعادات الصحابة والسلف الصالح .

ويعين جلالته نائبه العام والمديرين ورؤساء الخطط فى الدولة ، ويكون موظفو المصالح المختلفة مسؤولين تجاه النائب العام ، ويكون الملك مرجعه .

القسم الثالث – تشتمل خطط الدولة على ستة أقسام هى : الأديان ، والداخلية ، والشؤون الخارجية ، والمالية ، والمعارف ، والجيش .

ويدخل فى قسم الداخلية : الأمن العام ، والبريد ، والبرق ، والصحة والبلديات ، والأشغال العامة ، والتجارة ، والزراعة ، والصنائع ، والمعادن ، وجميع المؤسسات الخاصة . ويكون النائب العام مرجع هذا القسم .

وتنشأ ادارة الحج برياسة النائب العام ، وهى تتناول مديرى الخطط يعاونهم أشخاص أكفاء يعينهم الملك فيما بعد . ولهذه الادارة سلطة تامة للاهتمام بجميع الشؤون المتعلقة بالحجاج وبالحج . ويضع النائب العام قراراتها موضع الاجراء ، بعد موافقة الملك عليها .

ويحتوى قسم الشؤون الخارجية على أربع ادارات : سياسية ، وادارية ، وقنصلية ، وقضائية . ويكون الملك مرجعه رأسا . الا أن الادارتين الادارية والقنصلية ، تتلقيان التعليمات من النائب العام .

ويتألف قسم المالية من أربع ادارات : المالية ، والودائع ، ودخل الحكومة ، ورسوم الجمارك . وتكون جميعها مرتبطة بالنائب العام .

ولا يكون فى قسم المعارف الا ادارة واحدة ، يكون مرجعها النائب العام . وسيوضع فيما بعد برنامج التعليم ، ويوضع موضع الاجراء . ويكون التعليم الأولى مجانيا فى جميع المملكة .

القسم الرابع — ينشأ فى العاصمة مجلس كبير (مجلس الشورى) يتألف من النائب العام ومستشاريه ، ومن ستة اعيان اكفاء يعينهم الملك . ومن خصائص هذا المجلس ان يجتمع مرة فى كل اسبوع ، واكثر من مرة اذا اقتضى الأمر ذلك ، برياسة النائب العام أو أحد مستشاريه ، ويصدر قراراته باكثرية الاصوات . ويمكن أن يحضر مديرو الخطط مباحثاته حين يكون البحث دائرا على مصالح خططهم . وتصبح قراراته مرعية الاجراء ، بعد موافقة الملك عليها .

ويكون فى كل من جدة والمدينة مجلس ادارة يتألف من القائمقام ومعاونه ومديرى المصالح المحلية واربعة من الذوات المحليين ، يعينهم الملك ، وتكون له الوظائف نفسها التى للمجلس الكبير . ويعين أعضاء المجلس لسنة واحدة .

ويكون لكل ناحية ، ولكل قرية ، ولكل قبيلة ، مجلس يعنى بالشؤون المحلية ، ويتألف من الموظفين ، ومن الذوات المعينين .

القسم الخامس — يتألف تفتيش المالية العام من رئيس وثلاثة أعضاء يعينهم الملك ، ويكون مرجعهم النائب العام ، وتكون لهم السيطرة على مالية الدولة ، ولا يعمل شىء من دون ترخيص منهم ، ما عدا القرارات الملكية (١) .

وتتابعت الحوادث ، وتوالت السنون والأعوام ، فرأى عقلاء البلاد أن هناك نقصا يجب تداركه ، هو فى تسمية الملك نفسه ،، فلا حجاز ، ولا نجد ، ولا ملحقات ، امام أمة واحدة ، دينها واحد ، متفقة فى العادات والتقاليد والمنازع والأهواء والامانى ، فاجتمع اقطاب الأمة فى مكة ، وابرقوا الى الملك ، برغبتها بجميع طوائفها ، فى توحيدها ، فاجابهم بموافقته على هذه الرغبة النبيلة الوطنية ، واصدر مرسوما فى ١٧ جمادى الأولى سنة ١٣٥١ (١٨ سبتمبر سنة ١٩٣٢) باطلاق اسم « المملكة العربية

---

(١) كتاب « الاسلام وآسيا أمام المطامع الاوربية » للكاتب الفرنسى اوجين يونغ — ص ١٩١ .

السعودية » على جميع أجزاء الوطن فيشملها جميعا ، على أن ينفذ اطلاق هذا الاسم الجديد بعد أربعة أيام من صدور المرسوم ، أى من يوم ٢٣ سبتمبر .

وفى اليوم نفسه أمر الملك باجتماع مجلس الشورى لاختيار من يصلح لولاية العهد ، فاجتمع فى ١١ مايو سنة ١٩٣٣ ، واصدر قراره فى هذا الشأن ، وقد جاء به :

« أما بعد ، فان حضرة صاحب الجلالة مليكنا العادل الموفق ، الناصر للسنة ، قامع البدعة ، عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود ، ملك المملكة العربية السعودية ، أيده الله وأمد فى عمره ، وأدام تأييده ، ونصره ووفقه الى طاعته ورضائه ... رأى بعين الحكمة الساهرة على راحة رعاياه ، والعاملة على تثبيت دعائم هذا الملك العربى الوطيد ، وتشييد أركانه ، وادامة تسلسله ، أن يجيب طلب رعاياه ، ويوافق على تعيين شكل واضح ثابت لولاية العهد ، كما ورد فى أمره الكريم الصادر فى ١٧ جمادى الأولى سنة ١٣٥١ هـ الموافق ١٨ سبتمبر سنة ١٩٣٢ م ، وأن يعقد البيعة لولاية العهد ، على من كان مستجمعا للشروط الشرعية المرعية . هذا ولما كان حضرة صاحب السمو الملكى الأمير سعود ، النجل الأكبر لحضرة صاحب الجلالة ، قد تحلى بكافة الأوصاف الشرعية الواجب توفرها فيمن يخلف ولى الأمر ، أمد الله فى عمره ، وقد اشتهرت عدالته وصفاته الممتازة بين الجميع ، فاننا ، عملا بالمأثور من المبايعات ، نبايعه وليا لعهد المملكة العربية السعودية ، نبايعه على السمع والطاعة على كتاب الله وسنة رسوله . وقد أخذنا هذه البيعة على أنفسنا لسموه ، وعلقناها بأعناقنا ، ونشهد الله على ذلك ، وهو خير الشاهدين »(١) .

وظل عبد العزيز هو الحامل عبء تسيير دفة الأمور فى مملكته الفتية ، حتى كان يوم ٩ أكتوبر من عام ١٩٥٣ ــ أى قبل انتقاله الى الرفيق الأعلى بنحو شهر ــ فرأى أن يأخذ الحكم فى المملكة بمبدأ المسؤولية الوزارية فاصدر فى هذا اليوم مرسوما تشريعيا جاء فى مادته الأولى :

١ ــ « يؤلف مجلس وزراء تحت رياسة ولدنا الأمير سعود ولى عهد المملكة والقائد الأعلى للقوات المسلحة . ويتألف المجلس من جميع وزراء

---

(١) كتاب « الملك العادل » للسيد عبدالحميد الخطيب ــ الجزء الثانى ــ ص ١٥.

الدولة المكلفين بارادة ملكية بادارة شؤون الوزارات المعطاة لهم ، للنظر فى شؤون الدولة خارجية كانت أم داخلية ، ليقرر بشأنهـــا ما يراه موافقا لمصلحة البلاد لأجل عرضه علينا (٢) .

فلندع « ملك المملكة العربية السعودية » آخذا فى تنظيم شؤون الحكم فى مملكتـــه ، ولنر آثاره فى مجالات شتى ، وهى آثار ناطقـــة بايمانه بما يعتقد ، ايمانا سنده الدين القويم ، والخلق الكريم .

لقد ظل ابن سعود عدة سنوات فى عزلة تامة عن العـــالم الخارجى ، لكن دخوله الاحساء والقطيف ، جعله يشرف على الخليج العربى ، ومنـــه بدأ اتصاله بالبريطانيين ، فعقدوا معه معاهدة فى ٢٦ ديسمبر سنة ١٩١٥ على غرار معاهداتهم مع أمراء الخليج ، ثم ألغيت فى ١٧ سبتمبر ١٩٢٧ ، وحلت محلها « معاهدة جدة » وفيها اعتراف من « بريطانيـــا العظمى » ــ يومذاك ــ باستقلاله ، وهذا نصها :

« جلالة ملك بريطانيـــا العظمى وايرلندا والممتلكات البريطانية فيما وراء البحار وامبراطور الهند ، فريق أول .

---

(٢) فى سنة ١٩٣٠ أصدر عبد العزيز امرا الى نجله الثانى الامير فيصـــل بتولى الشؤون الخارجية للدولة ، فظل يمارسها حتى بويع ملكا فى ٢٧ جمادى الثانية سنة ١٣٨٤ ــ ٢ نوفمبر سنة ١٩٦٤ ، فوجه الى العلماء والامراء والحضور فى حفل كبير اقيم احتفالا بمبايعته ، كلمة قال فيها عن سياسة الدولة الخارجية :

ــ « .. ولســـنا فى حاجة الى تكرار الاساس الذى تسير عليه سياستنا الخارجية، فنحن منذ اسس هذه الدولة بانيها ، وواضع اساس نهضتها ، المغفور له الملك عبد العزيز، قد اثبتنا فى المجال الدولى ايماننا بالسلام العالمى ، ورغبتنا فى تدعيمه وتقويته ونشره فى ربوع العالم . وكنا ولا نزال نفعل ذلك بوحى من تعاليم ديننـــا وتقاليدنا العربية الاصيلة . واننا نؤيد فى سبيل ذلك نزع الســـلاح وتجنيب البشرية مخاطر الاسلحة الفتاكة . وندعو الى حرية تقرير المصير لكل الشعوب ، وحل المنازعات الدولية بالوسائل السلمية المرتكزة على الحق والعدل .

« ومن اهداف سياســـتنا الخـــارجية المعروفة ، التعاون الى اقصى الحدود مع الدول العربية الشقيقة ، وتنفيذ مقررات مؤتمرات القمة العربية ، والسعى الى تحرير جميع اجزاء الوطن العربى التى لا تزال تحت نير الاستعمار ، والسير مع الدول الاسلامية فى كل ما يحقق للمسلمين عزتهم ورفعة شانهم ، ونؤيد ميثاق جامعة الدول العربية وندعمه ونسنده ، ونؤيد ميثاق هيئة الامم المتحدة ، ومقررات مؤتمر باندونج ودول عدم الانحياز » ــ كتاب « فيصـــل العظيم » للاستاذ امين سعيد ــ ص ٩١ .

« وجلالة ملك الحجاز ونجد وملحقاتهما ، فريق ثان » .

« يرغبان فى توطيد دعائم العلاقات الودية بينهما وضمان مصالحها . وقد قررا عقد معاهدة ودية واتفاق ، وعينا مفاوضين لهذه الغاية . فصاحب الجدلة البريطانية عين السر جلبرت فلكنهام كلايتون ، وجلالة ملك الحجاز ونجد وملحقاتهما عين صاحب السمو الملكى الأمير فيصل بن عبد العزيز نجله ونائبه فى الحجاز .

« وبعد ما فحص سمو الأمير فيصل بن عبد العزيز والسر جلبرت فلكنهام كلايتون أوراقهما الرسمية ، المخول اليهما بموجبها تفويض تام ، ووجداها قانونية ، اتفقا على المواد الآتى نصها :

« **المادة الأولى** : يعترف صاحب الجلالة البريطانية باستقلال بلاد صاحب الجلالة ملك الحجاز ونجد وملحقاتهما ، استقلالا تاما مطلقا .

« **المادة الثانية** : بين صاحب الجلالة البريطنية وجلالة ملك الحجاز ونجد وملحقاتهما ، سلام وصداقة ، وكل من المتعاقدين الساميين يعاهد على المحافظة على حسن العلاقات بالآخر ، وعلى بذل المجهود بكل ما لديه من الوسائل لكى لا يدع بلاده تستعمل قاعدة لأعمال غير شرعية ، وموجهة لبلبلة السلام والسكينة فى بلاد الآخر .

« **المادة الثالثة** : يعاهد جلالة ملك الحجاز ونجد وملحقاتهما على المحافظة على الحجاج المسلمين الذين من الرعايا البريطانيين ، أو من المشمولين بحمايتهم ، ويسهل لهم الوسائل التى يتمتع بمثلها الحجاج الآخرون ، ويصرح بانهم سيكونون راتعين فى حمى الأمان ، هم ومقتنياتهم فى أثناء اقامتهم فى الحجاز .

« **المادة الرابعة** : يوافق جلالة ملك الحجاز ونجد وملحقاتهما على أن أموال الحجاج المذكورين الذين يلقون منيتهم فى بلاده ولا يكون لهم فيها وكلاء شرعيون ، ترسل الى المتعمد البريطانى فى جدة ، أو الى أى موظف كان ، يفوض اليه المعتمد المشار اليه تسلم هذه الأموال ، بحيث يعاهد هذا الموظف على تسليمها للورثة الشرعيين للحجاج المتوفين ، مع الاحتفاظ بعدم تسليم هذه الأموال الى المعتمد البريطانى ، الا بعد انهاء المعاملات المطلوب انهاؤها فى المحاكم ذات الاختصاص ، وبعد دفع الرسوم المنصوص عنها فى انظمة الحجاز ونجد .

« **المادة الخامسة** : يعترف صاحب الجلالة البريطانية بالجنسية الحجازية والنجدية لجميع رعايا جلالة ملك الحجاز ونجد وملحقاتهما ،

حين يكونون فى بلاد صاحب الجلالة البريطانية ، أو فى البلدان المشمولة بحماية جلالته . ويعترف أيضا جلالة ملك الحجاز ونجد وملحقاتهما بالجنسية البريطانية لجميع رعايا صاحب الجلالة البريطانية وجميع الذين يتمتعون بحماية جلالته ، حين يكونون فى بلاد جلالة ملك الحجاز ونجد وملحقاتهما ، اذ أن من المقرر أن مبادىء الحق الدولى المعمول بها بين الحكومات المستقلة ، تكون محترمة .

« **المادة السادسة** : يعاهد جلالة ملك الحجاز ونجد وملحقاتهما على المحافظة على العلاقات الودية والسلمية ببلاد الكويت والبحرين وسواحل عمان ، فان لحكومة صاحب الجلالة البريطانية ، علاقات بها تقررت فى معاهدات .

« **المادة السابعة** : يعاهد جلالة ملك الحجاز ونجد وملحقاتهما على التعاون مع صاحب الجلالة البريطانية ، بكل ما لديه من الوسائل ، لالغاء النخاسة .

« **المادة الثامنة** : يصادق كل من الفريقين الساميين على هذه المعاهدة، ويتم تبادل المصادقة حالما يستطاع ذلك ، وتصبح مرعية الاجراء حين يتم تبادل المصادقة ، وتظل معمولا بها سبع سنين تبتدىء من تاريخها ، واذا لم يشعر أحد الفريقين المتعاقدين الساميين ، الآخر ، قبل انقضاء السنين السبع المذكورة بستة اشهر ، بنيته على الغاء المعاهدة ، بقيت هذه المعاهدة مرعية الاجراء ، ولا يعتبر انتهاء مدتها قبل انقضاء ستة أشهر على تاريخ اشعار احد الفريقين الآخر ، برغبته فى فسخها .

« **المادة التاسعة** : يبطل عمل المعاهدة المعقودة بين صاحب الجلالة ، البريطانية ، وجلالة ملك الحجاز ونجد وملحقاتهما (حين كان سلطان نجد والبلاد التابعة لها فى ذلك العهد) فى ٢٦ ديسمبر سنة ١٩١٥ ، من تاريخ المصادقة على هذه المعاهدة .

« **المادة العاشرة** : حررت هذه المعاهدة باللغتين : الانجليزية والعربية ، باعتبار النصين قانونين . واذا وقع خلاف على تأويل شىء من نصوص هذه المعاهدة ، اعتبر النص الانجليزى حاسما للخلاف .

« **المادة الحادية عشرة** : تعرف هذه المعاهدة باسم « معاهدة جدة »

« وفقت في جدة في يوم الجمعة ٢٠ مايو سنة ١٩٢٧ م الموافق لليوم الثامن عشر من ذى العقدة سنة ١٣٤٥ هـ » .

التوقيع

جلبرت فلكنهام كلايتون فيصل عبد العزيز السعود

ومع هذا فانه الى سنة ١٩٣٢ لم يكن للملك عبد العزيز وزير مفوض في لندن .

ولم ينشيء علاقة ديبلوماسية مع أمريكا الا في ٤ مايو سنة ١٩٣١ .

الملك فؤاد في مصر لم يعترف به ، ولم تعترف مصر به الا بعد وفاة ملكها في عام ١٩٣٦ .

فلماذا لم يعترف الملك فؤاد به ؟

كان فؤاد متتبعا خطوات عبد العزيز ، وجلا من أن ينادى بنفسه خليفة للمسلمين أو ملكا عليهم ، كما فعل الشريف حسين من قبل في آخر أيامه في الحجاز ، وفؤاد يمهد الطريق ليصبح صاحب هذا اللقب ، بعد الغاء تركيا الخلافة .

وعبد العزيز لا مطمح له الا اخراج شعبه من الظلمات الى النور ، وتوفير وسائل العيش الكريمة ، ثم هو يرجو الخير للعرب أجمعين ، ويمد يد المودة الى جيرانه من الملوك والأمراء .

فلا يريد أن يكون خليفة للمسلمين ، أو ملكا عليهم .

وما أن افتتح أول برلمان مصرى في ١٥ مارس من عام ١٩٢٤ ، حتى أرسل برقية الى ملك مصر يهنئه فيها بالعهد الجديد السعيد ، ولم يكتف بهذا بل أرسل الطبيب المصرى الدكتور عبد الهادى خليل طبيب النكبة المصرية ، يحمل تحياته الى الملك فؤاد ، مع رجاء ، أن ينظر ملك مصر الى الحجاز الذى يعانى من عسر شديد ، فيُرسل الى أهله « شيئا » من أوقاف الحرمين الشريفين لاعانة المستحقين من أهلهما .. وعاد الرسول من القاهرة، يحمل أطيب الأمانى وأجزل الشكر ، والهواء يصفر في حقيبته !!

فاذا بايع الحجازيون عبد العزيز ملكا على الحجاز في ٨ يناير من عام ١٩٢٦ ، غضب فؤاد ، لأن في هذا نقضا لعهد قطعه عبد العزيز على نفسه، بانه سيدعو المسلمين الى مؤتمر يقررون فيه مصير الحجاز ونوع الحكم فيـه .

لكن عبد العزيز يقول فى برقية منه الى رسوله فى مصر : « ان العهود المتكررة منا للعالم الاسلامى لم نخالفها ، ودعونا العالم الاسلامى دعوات عامة ودعوات خاصة متكررة ، فلم يصل الينا جواب من أحد فى تلبية دعوتنا .. ان أهل الحجاز قاموا قومة رجل واحد يلزموننا قبول البيعة ، فطلبنا منهم التريث الى أن يجمع المسلمون امرهم ، فاجابونا : انك أعطيتنا الحرية فى اختيار حاكم لنا ، وهذا حق لنا لا يشاركنا فيه أحد ، ونحن لا نبغى بك بديلا . ومع ذلك توقفنا قليلا عن الجواب ، فبلغ أهل نجد توقفى ، فقامت قيامتهم على ، وأعلنونى أن حربهم فى الحجاز لم تكن الا لحفظ استقلال الحجاز ، ومنع أى تدخل أجنبى فيه ، لتكون كلمة الله هى العليا ، وليعمل فى هذه البلاد بشرع وسنة الله ورسوله ، ولتأمين الطريق ، ولمنع الالحاد من الحجاز » .

فى تلك الأيام عقد فى القاهرة « المؤتمر الاسلامى العام للخلافة » ، فى اليوم الأول من ذى القعدة من عام ١٣٤٤ م ـ مايو سنة ١٩٢٦ ، للنظر فى أمر الخلافة ، وتولى رياسته شيخ الأزهر الشيخ محمد ابو الفضل الجيزاوى رحمه الله ، فلم يلب عبد العزيز الدعوة اليه ، فلم يرسل اليه مندوبا .

فشل المؤتمر وانفض ، مؤجلا جلساته الى أجل غير مسمى ، لأن مندوبى الأقطار الاسلامية التى لبت الدعوة اليه ، لم تقتنع بكفاءة الملك فؤاد فى تحمل أعباء الخلافة ـ وكان قد بث الدعوة لاسناده اليه ـ ولأن ـ كما قال بعضهم يومذاك ـ خليفة المسلمين يجب أن يكون مستقلا استقلالا تاما ، والملك فؤاد تربع على عرشه بمساعدة الانجليز ، وبلاده محتلة بجنودهم ، فكيف يكون خليفة للمسلمين ؟

ياذل المسلمين اذا أصبح فؤاد خليفة .. قالها لى يومها المرحوم الشيخ على سرور الزنكلونى من كبار علماء الأزهر ، وكان من أشد المعارضين للدعوة الى ان يكون فؤاد خليفة للمسلمين .

وقد ظهر فى تلك الآونة كتاب لقاض شرعى جليل ، هو المرحوم الشيخ على عبد الرازق عنوانه « الاسلام وأصول الحكم » أثبت فيه أن الخلافة ليست من أصول الحكم فى الاسلام ، فحوكم أمام هيئة من كبار العلماء ، وجردوه من شهادة العالمية ، وعزل من وظيفته ، وأحدث هذا الحكم الجائر هزة فى الوزارة القائمة بالحكم(١) ، ولا أرى داعيا للافاضة فى موضوع

---

(١) فى ٣ مارس سنة ١٩٤٧ تولى الشيخ على عبد الرازق وزارة الاوقاف فى وزارة محمود فهمى النقراشى باشا الثانية وانعم عليه برتبة الباشوية .

قضية هذا الكتاب ، فليس هنا مجالها ، انما هذه اشارة عابرة ، أردت أن اسجل بها أن علماء دين من المصريين ، كانوا ضد الدعوة الى أن يكون فؤاد خليفة للمسلمين ، الى جانب مندوبى الأقطار الاسلامية .

ومن طريف ما يروى فى هذا الصدد ـ موضوع الخلافة ـ ما ذكره الشيخ حافظ وهبة فى كتابه « خمسون عاما فى جزيرة العرب » وفى الصفحة ١٣٦ منه عن مقابلته الملك فؤاد فى ذلك الحين ، وقد كان رسول عبد العزيز للتفاوض فى جميع ما يتعلق بشؤون الحج وتسهيل وسائله للحجاج المصريين ، وكانت المقابلة قبيل عقد مؤتمر الخلافة المشار اليه . قال حافظ وهبة :

ـ « وصلت الى مصر ، فقابلت الملك فؤاد فى ١٩ ديسمبر سنة ١٩٢٥ ، وابلغته ما حملنى سلطان نجد ـ لم يكن عبد العزيز قد بويع ملكا على الحجاز بعد ـ من أطيب الأماني والآمال لملك مصر وشعب مصر ، وانه يمد يده للتعاون مع أخيه ملك مصر ، وانه اذا كان ملك مصر يرغب فى تحمل أعباء الخلافة ، فسلطان نجد يسره أن يرى ملك مصر خليفة للمسلمين ، اذا وافق المسلمون على ذلك ، وهو أول من يوافق على ذلك ، كزعيم من زعماء المسلمين .

« فارتاح الملك فؤاد لذلك ، وقال : « انى لا ارغب فى الخلافة ، فقد عرضها على سعد باشا ـ يقصد سعد زغلول ـ ولكنى رفضت » !! ثم أشار الى جميع ملوك وسلاطين المسلمين ، وغمز كل واحد منهم بما يبعده عن الخلافة ، اما لتشيعه كشاه ايران وامام اليمن ، واما لانه وهابى ، اى متطرف ـ يقصد الملك عبد العزيز ـ فكان هذا منه اشارة خفية الى أنه أحق ملوك المسلمين بالخلافة » .

كل ما فعله هذا المؤتمر الذى عقد بالقاهرة لينصب الملك فؤاد خليفة على المسلمين ، ففشل ، هو انه أرسل برقية الى عصبة الأمم ـ مثل هيئة الأمم المتحدة اليوم ـ والى الحكومة الفرنسية ، والى صحافة العالم ، قال فيها :

« تلقى مؤتمر الخلافة الاسلامى العام المعقود فى القاهرة برياسة شيخ الازهر ، برقيات تنبىء عن الفظائع المرتكبة فى الشام عاصمة الخلفاء الأمويين ، ومدينة الاسلام الرابعة المقدسة ، فقد حرقت فيها المساجد ، وذبح الأبرياء ، شيوخا ونساء واولادا .

« وعليه قرر المؤتمر أن يحتج على هذه الفظائع لعصبة الامم وللحكومة الفرنسية ، وللرأى العام فى العالم أجمع ، وان يطلب باسم الانسانية انصاف سوريا الشهيدة ، المستنجدة بالعالم كله » .

***

بعد أن بويع عبد العزيز ملكا على الحجاز ، تعهد بعقد مؤتمر فى مكة ليقرر فيه المؤتمرون نوع حكومة الحجاز ، وأسس استقلالها السياسى والاقتصادى والعسكرى ، « على أن يكون استقلالها الادارى تحت اشراف العالم الاسلامى ، ليطمئن الى صحة قولنا : اننا لا نقصد بانقاذ الحجاز والتسلط عليه ، المعنى الذى كان معهوداً فيه » .

وامام هذه البيعة ، عدل عن عقد المؤتمر : « واضطررت الى قبول البيعة ، ولم أر لى عنها اية مندوحة ، لأننا آل سعود ، لسنا ملوكا مستبدين ، ولا حكاما شخصيين ، بل نحن فى بلادنا مقيدون بأحكام الشرع ، وبرأى اهل الحل والعقد . ولم تكن تلك الدعوة الشخصية الى عقد المؤتمر بعذر شرعى يبيح لى مخالفتهم ، واذا انا خالفتهم بغير حجة شرعية يقبلونها ، فانهم لا يطيعوننى ، وفى ذلك من الفساد مالا يخفى » .

ثم عاد ورأى الدعوة الى عقد مؤتمر ثان ، دعا اليه الحكومات الاسلامية: « على اننى رأيت ان قبول البيعة ، والعمل مع أهل البلاد بمقتضاها ، لا بمقتضى الغلب والقوة ، لا يمنعنى من الاستفادة من رأى أهل العلم والبصيرة من العالم الاسلامى ، لذلك وجهت الدعوة الثانية الى عقد هذا المؤتمر » .

ثم استرسل فى رسالته الى المؤتمرين قائلا :

ــ « انكم تشاهدون بأعينكم ، وتسمعون بآذانكم ، ممن سبقكم الى هذه الديار للحج والزيارة ، أن الأمن العام فى جميع بلاد الحجاز ، حتى بين الحرمين الشريفين ، بدرجة الكمال التى لم يعرف مثلها ولا ما يقرب منها منذ قرون كثيرة ، بل لا يوجد ما يفوقها فى أرقى ممالك الدنيا نظاما وقوة ، ولله الفضل والمنة . ففى بحبوحة هذا الأمن والحرية التى لا تتقيد الا بأحكام الشرع ، أدعوكم الى الائتمار والتشاور فى كل ما ترون من مصالح الحجاز الدينية والعمرانية (١) » .

---

(١) من معالم الملك عبد العزيز التى يتحدث عنها العالم باعجاب ، استقرار الامن فى مملكته ، مما ليس له مثيل فى العالم . وسيرى القارىء فى صفحات قادمة اسهابا فى هذا الموضوع .

وقد اجتمع هذا المؤتمر فى يوم ٢٦ من ذى القعـدة من عام ١٣٤٤ ، وعقد اثنتى عشرة جلسة لم يتفق فيها المجتمعون على شيء ، وبدأ بعض الوفود فى الاستعداد للعودة الى بلاده ، فوجه الملك اليهم بيانا قال لهم فيه :

ـ « ايها الاخوان : ارجو الا تضيع الفرصة الباقية ، قبل ان تستفيد البلاد المقدسة منكم ، حتى يجيء الحج القادم ، وقد شعر المسلمون الوافدون انكم قمتم بواجبكم نحو هذه البلاد . وبهذه المناسبة اقدم لكم خطتنا السياسية لهذه البلاد ، لترشدونا ان اخطانا ، وتؤيدونا ان اصبنا :

١ ـ اننا لا نقبل أى تدخل أجنبى فى هذه البلاد الطاهرة أيا كان نوعه .

٢ ـ اننا لا نقبل امتيازا لأحد دون أحد ، بل جميع الوافدين لهذه البلاد يجب أن يخضعوا للشريعة الاسلامية .

٣ ـ ان بلاد الحجاز يجب أن يوضع لها نظام حيادى خاص ، لا تحارب ـ بكسر الراء ـ ولا تحارب ـ بفتحها ـ ويجب أن يضمن هذا الحياد جميع الحكومات الاسلامية المستقلة .

٤ ـ النظر فى مسائل الصدقات والمبرات من سائر الأقطار الاسلامية ، ووجوه صرفها وانتفاع البلاد المقدسة منها » .

بعد هذا البيان ، عقد المؤتمرون ست جلسات اخرى ، دون أن يصلوا الى رأى حاسم فيما وضعه الملك إمامهم من خطته السياسية .

وانفض المؤتمر دون الوصول الى رأى فى نوع الحكم فى بلاد الحجاز ، فأصبح عبد العزيز السيد المطاع ، فى هذه البقاع ، مؤيدا من الحجازيين الذين بايعوه طائعين مختارين .

* * *

لعل من أروع آثار قيام عبد العزيز بغزوته المباركة للحجاز ، هو أن يرغب الشعب الأعزل من السلاح ، الى ملكه فى التنازل عن عرشه ، مما لم يحدث فى العالم العربى من قبل ، بل ولم يحدث من بعد الى اليوم ، فلا يسع الملك الا تلبية الرغبة « بكل ارتياح » .

حدث هذا عندما ذاع خبر تراجع جيش الشريف حسين الى « بازان » وتصميم الرجل على مقاتلة جيش ابن سعود فى شوارع مكة ، وحول جدران الكعبة اذا اضطر اليها ، كما قال فى برقية منه الى معتمده فى مصر السيد عبد الملك الخطيب : « قابل المندوب السامى الانجليزى ، وأبلغه اننا نعتبر

اعتداء ابن سعود علينا ، هو من جانب الانجليز ، وانى سأتولى الدفاع بنفسى عن مكة ، ولو حول جدران الكعبة ، وأحملهم مسؤولية ذلك أمام العالم الاسلامى » .

وذاع خبر هذه البرقية وشاع حتى وصل الى مكة ، فدب الذعر فى نفوس أهلها ، وتملكهم رعب وخوف وهلع ، وشرعوا فى الهرب الى جدة . أما اغنياؤهم فكانت قبلتهم : مصر ومصوع واسمرة وسوريا والملايو والجزائر وبور سودان . وهكذا استفحل الأمر وتفاقم ، ولم يبق فى مكة من ذوى الجاه واليسار ، سوى عدد يسير جدا آثروا البقاء الى جانب مواطنيهم يشجعونهم على المقام فى البلد المقدس ، فلا يتركونه هكذا خرابا يبابا . والف بعض اعيان جدة « الحزب الوطنى الحجازى » ، وعقدوا ، ومنهم بعض كبار الموظفين ، عدة اجتماعات امتدت عشرات الساعات ، تدارسوا فيها الأمر من جميع وجوهه ، وانتهوا الى أن يرسلوا البرقية التالية الى الملك حسين فى مكة فى ٤ ربيع الأول سنة ١٣٤٣ :

« صاحب الجلالة المعظم : بما أن الشعب الحجازى بأجمعه واقع الآن فى الفوضى العامة بعد فناء الجيش المدافع ، وعجز الحكومة عن صـون الأرواح والأموال ، وبما أن الحرمين الشريفين خاصـة ، وعموم البـلاد مستهدفة لكارثة قريبة ساحقة ، وبما أن الحجاز بلد مقدس يعنى أمره حميع المسلمين ، . لذلك قررت الأمة نهائيا طلب تنازل الشريف حسين ، وتنصيب ابنه الشريف على ، ملكا على الحجاز فقط ، مقيـدا بدسـتور ومجلسين وطنيين . فنرجو التكرم بتنفيذ هذه الرغبة ، لتضيفوا هذه المكرمة الى سابق خدماتكم للاسلام والأمة » .

فرد عليهم فى اليوم نفسه بالبرقية التالية :

« جدة ــ الحزب الوطنى الحجازى

« لا بأس ، قبلنا التنازل بكل ارتياح ، اذ ليس لنا رغبة الا فى سكينة البلاد وراحتها وسعادتها . فالآن عينوا لى مأمورين من هنا يتسلمون البلاد بكل سرعة ونحن نتوجه فى الحال . اذا تأخرتم ووقع حادث فأنتم المسؤولون، والاشراف عندكم كثيرون ، فارسلوا واحدا منهم أو من سواهم . وعلاوة على هذا ، اذا قبل منكم « على » الأمر ، فعينوه رأسا » .

وارسل الى معتمده فى القاهرة ، عبد الملك الخطيب ، برقية قال له فيهـا :

« ان أصحابك (يعنى الانجليز !!) لم يرضـهم أن أكون على الملك ، ورغبوا فى تعيين ابننا على ، فلا بأس . اعتمدوا ما يأتيكم منه (١) » .

لقد عز عليه أن يعترف بأن شعبه هو الذى طلب اليه التنحى لمصلحة الوطن ، فعزاه الى الانجليز !!

وبعدها سافر الى العقبة ، مخلفا البلاد وراءه لابنه على ، عله يستطيع الصلح مع عبد العزيز ، والابقاء على الحجاز فى أيدى الاشراف ، فرفض عبد العزيز مثل هذا الصلح اذ كان أساسه أن يتوارث أبناء الملك حسين حكم الحجاز ، وكان ما كان من تسليمه للفاتح المنتصر فى يوم ٥ ديسمبر سنة ١٩٢٥ ورحيله الى العراق كما سبق القول .

لقد نال حسين الذل فى نهاية عمره ، وما كان أغناه عنه ، لو أصاخ السمع وأطاع عبد العزيز من أول الأمر ، اذن لشعبه تشييعا كريما .

أي ذل وأية مهانة أشـد واقسى ، من ان يجىء اليه وهو فى العقبة ــ بعد ما اهملت « عصبة الأمم » استغاثته بها ــ فى صباح يوم ١٦ يونيو سنة ١٩٢٥ ، قائد المدرعة البريطانية « دلهى » ويأمره بالاستعداد للسفر غدا الى الجهة التى اختيرت له ، فاذا ابى فستتخذ معـه تدابير اخـرى لترحيله ، فطلب أن تسير المدرعة به الى حيفا أو يافا ، ليقضى فى أيهمـا بقية عمره ، فرفضت لندن طلبه ، « وعليه أن يسافر الى قبرص » .

عندئذ قال حسين : « أنا مستعد للسفر الى المريخ اذا ارادت بريطانيا ، وما دامت تريد ارسالى الى قبرص ، فأنا لا أعارض ، لأن المسألة مسألة قوة ، لكنى أطلب امهالى يومين اثنين ، أعد نفسى فيهما للسفر » .

فرفض قائد المدرعة ، فطلب ان يسافر على باخرته العربية « الرقمتين » ، فرفض القائد كذلك . وسافر حسين من غده الى قبرص ، وعلى المدرعة البريطانية « دلهى » ، كما أراد الانجليز له .

ومما لا تنساه له مصر فى أيام حكمه ، انه منع حجاجها من أداء الفريضة المقدسة ، ومنع البعثة الطبية المصرية من أداء واجبها الانسانى نحو الحجيج ، ورفع اسم ملك مصر من على كسوة الكعبة .

وما اتبعه مع الحجاج المصريين ، اتبعه مع سائر الحجاج من جميع بقاعهم ، وفى مقـدمتهم النجديون ، بعد موقعـة « تربة » حتى اسخطهم

---

(١) كتاب « الملك العادل » للسيد عبد الحميد الخطيب ــ الجزء الثانى ــ ص ٥٦ .

عليه ، غفر الله له ، فقد كان حاكما اتبع هواه فأضله ، ولم يستعن بمن حوله ليستشيرهم ، ويشركهم معه فى ادارة البلاد .

فهل كان عبد العزيز حاكما ديكتاتوريا هو الآخر ، حتى استقام له الامر ؟ .

لو قال مؤرخ بهذا ، لكان مزيفا للتاريخ مضلا ..

لقد كان من خصائص عبد العزيز ، انه لم يكن مستبدا برأيه ، لأنه كان مؤمنا بالشورى ، مقدرا نفعها للمحكومين ، مطبقا فى هذا ما جاء بالقرآن الكريم : « وأمرهم شورى بينهم » ، ناهجا نهج الرسول الكريم ، عليه الصلاة والسلام .

اننا نراه قبل الاقدام على فتح الأحساء ، يستشير أولى الحل والعقد

ونراه قبل دخول مكة ، يعقد مجلسا للعلماء لاستفتاءهم فى أمر هذا الدخول ، فيقولون له : لا يجوز دخول الحرم الشريف بقصد القتال . فظل حائرا ، حتى افتحمها قائدا جيشه : سلطان بن بجاد ، وخالد بن لؤى ، سلما لا حربا ، فى يوم ١٦ اكتوبر سنة ١٩٢٤ م (١٧ ربيع الاول سنة ١٣٤٣ هـ) ، فدخلها محرما دخول العبد الخاضع ، لا الملك الفاتح ، واستقبله أهلها مرحبين ، مهللين ، مكبرين ، وبايعوه .

ثم نراه يؤلف مجالس استشارية فى سائر المدن الهامة) « قراراتها نافذة على الحكام الاداريين ، بمالا يتعارض مع الدين » ويقول لهم : « تجدون بعض الحكومات تؤلف مجالس استشارية ، لكن كثيرا منها يكون وهميا ، تؤلف ليقال أن هناك مجالس وهيئات للشورى ، والحقيقة ان العمل والرأى لواحد فقط ، فى حين انه ينسب الى المجموع كذبا وزورا . أما انا فلا أريد مثل هذه المجالس الوهمية ، أريد مجلسا حقيقيا ، يجتمع فيه أعضاؤه ، باذلين جهدهم لتحرى المصلحة العامة . لا أريد أوهاما ، انما أريد حقائق » .

ثم هو رجل لا يفرض رأيه على أحد ..

عند ما دخل مكة المكرمة ، خطب فى أهلها ، فقال :

— « ان الأمور كلها بيد الله ، وان الله قد ضرب الأمثال فى القرآن ، ولم يترك شيئا لتأديبنا الا ذكره فى كتابه . ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذى من أحبه فقد أحب الله ، ومن أطاعه فقد اطاع الله ، يأخذ نفسه بآداب القرآن الذى نزل به أمين السماء جبريل ، على أمين

الأرض محمد صلى الله عليه وسلم . ولا أظن مسلما عنده ذرة من عقل ، وعرف ما جاء فى كتاب الله ، الا قدر هذه الآداب حق قدرها ، ورأى أن الخير كل الخير فى اتباع الهدى الحكيم . وانتم تعلمون أن نبينا محمدا عليه الصلاة والسلام ،ما جاء الا ليدلنا على طريق الخير ، ويبين لنا السبيل الأقوم .

« لقد أشاع الترك عنا كثيرا ، وقالوا فى جملة ما افتروه علينا ، اننا لا نصلى على محمد ، واننا نعد الصلاة عليه شركا بالله . نعوذ بالله ، نعوذ بالله من ذلك .. أو ليست الصلاة على محمد صلى الله عليه وسلم ، ركنا من أركان الصلاة لا تتم الا بها ؟ ويقولون اننا ننكر شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم يوم القيامة . معاذ الله ان نقول هذا ، وانما نطلب من الله أن يشفع فينا نبينا « من ذا الذى يشفع عنده الا باذنه » ، بل ندعو الله ان يشفع فينا الولد الصغير ، ونقول : « اللهم اجعله فرطا لأبويه ، وشفيعا مجابا » ، ولا نطلب الشفاعة من الطفل .

« وأما محبة الأولياء والصالحين ، فمن ذا الذى يبغضهم منا ؟

« فان كان هذا مقبولا عندكم فتعالوا نتبايع على كتاب الله وسنة رسوله ، وسنة الخلفاء الراشدين من بعده » .

فصاح الحاضرون : كلنا نبايع ، كلنا نبايع ..

فقال لهم عبد العزيز : قولوا لنا بصريح القول : ما عندكم ؟

قالوا : ما عندنا غير هذا ..

فقال : اعيذكم بالله من التقية . لا تكتمونا شيئا .

فقال احد العلماء : اننا نريد أن نجتمع بعلماء نجد ، فنتباحث فى الاصول والفروع ، ونقر ما نتفق عليه ان شاء الله .

قال عبد العزيز على الفور مبتهجا مسرورا : جميل ..

قال العالم : اذا اردنا المناظرة مع علماء نجد ، فيقتضى أن يعرف كل منا طبيعة الآخر ، حتى اذا اقيمت الحجة عليه ، أذعن بدون سخط أو غضب .

قال عبد العزيز : ما دام المرجع كتاب الله ، فلا سخط ولا غضب .

واجتمع علماء مكة وعلماء نجد ، وتباحثوا فى الأصول والفروع كما قال العالم المكى ، فتبين أن ما يدعو اليه « الوهابيون » ، هو الحق الذى دعا اليه كافة الأئمة ، وصرحت به جميع المذاهب ، وانتهوا الى :

١ - ان عقيدة السلف الصالح أسلم ، وهى التى يجب أن تتبع .

٢ - ان أركان الاسلام الخمسة معروفة ، فمن جحد ركنا من هذه الأركان، فهو كافر يستتاب ، فاما تاب والا قتل .

٣ - ان دعاء غير الله لجلب المنافع ودفع المضار ، وعبادة غير الله ، ولو بقصد التقرب من الله ، كفر .

٤ - ان البناء على القبور ، واتخاذ السرج عليها ، واقامة الصلاة فيها ، بدعة محرمة فى الشرع .

٥ - ان من يسأل الله بجاه أحد من خلقه ، مبتدع ، مرتكب جرما .

واصدر العلماء من الفريقين بيانا ذيلوه بأسمائهم جميعا ، قالوا فيه ان كل ما يذاع عن الوهابيين ، ما هو الا مجرد دعاية لا نصيب لها من الصحة وقد اخترعه المغرضون بقصد تفريق الكلمة ، وتمزيق شمل العرب .

ثم وجه عبد العزيز بيانا الى أهل الحجاز أعلن فيه الغاية من مجيئه الى وطنهم ، وأوضح الخطة التى يريد أن تسير فى ضوئها البلاد المقدسة

المنهاج نفسه ، اتبعه فى المدينة المنورة بعد استسلامها ، فقد وجه شيخ قضاتها ، الشيخ عبد الله بن بليهد ، باسم عبد العزيز ، الى علمائها بعض الأسئلة ليجيبوا عنها ، وهى :

« بسم الله الرحمن الرحيم

« ما قول علماء المدينة المنورة ، زادهم الله فهما وعلما ، فى البناء على القبور واتخاذها مساجد ؟ هل هو جائز أم لا ؟ واذا كان غير جائز ، بل ممنوع منهى عنه نهيا شديدا ، فهل يجب هدمها ومنع الصلاة عندها أم لا ؟ واذا كان البناء فى أرض مسبلة كالبقيع ، وهو مانع من الانتفاع بالمقدار المبنى عليه ، فهل هو غصب يجب رفعه لما فيه من ظلم المستحقين ومنعهم استحقاقهم ، أم لا ؟ وما يفعله الجهال عند الأضرحة من التمسح بها ودعائها مع الله ، والتقرب بالذبح والنذر لها ، وايقاد السرج عليها ، هل هو جائز أم لا ؟ وما يفعل عند حجرة النبى صلى الله عليه وسلم من التوجيه اليها عند الدعاء وغيره ، والطواف بها وتقبيلها والتمسح بها ، وكذلك ما يفعل فى المسجد الشريف من الترخيم والتذكير بين الأذان والاقامة ، وقبل الفجر ويوم الجمعة ، هل هو مشروع أم لا ؟

« أفتونا ماجورين ، وبينوا لنا الأدلة المستند اليها .

« لا زلتم ملجأ للمستفيدين » .

بماذا أجاب علماء المدينة المنورة ؟

قالوا : « اما البناء على القبور فهو ممنوع ، اجماعا لصحة الأحاديث الواردة فى منعه ، ولهذا أفتى كثير من العلماء بوجوب هدمه ، مستندين فى ذلك الى حديث على رضى الله عنه ، اذ قال لأبى الهياج : « الا ابعثك على ما بعثنى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ أن لا تدع تمثالا الا طمسته ، ولا قبرا مشرفا الا سويته » رواه مسلم .

« وأما اتخاذ القبور مساجد والصلاة فيها ، فممنوع مطلقا ، وايقاد السرج عليها ممنوع ايضا ، لحديث ابن عباس : « لعن الله زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج » رواه أهل السنن .

« وأما ما يفعله الجهال عند الأضرحة من التمسح بها والتقرب لهـا بالذبح والنذر ودعاء أهلها مع الله ، فهو حرام ممنوع شرعا ، لا يجوز فعله أصـلا .

« وأما التوجه الى حجرة النبى صلى الله عليه وسلم عنـد الدعاء ، فالأولى منعه كما هو معروف من معتمدات كتب المذهب ، ولأن افضل الجهات جهة القبلة . وأما الطواف بها والتمسح بها وتقبيلها ، فهو ممنوع مطلقا . واما ما يفعل من التذكير والترخيم والتسليم فى الأوقات المذكورة فهو محدث .

« هذا ما وصل الى فهمنا السقيم ، وفوق كل ذى علم عليم » .

والرجل العظيم حريص على ان يكون عمله فى وضح النهار ، لا تشوبه شائبة أو تعلق به ريبة ، فقد خشى ان يقال ان فتوى علماء المدينة المنورة ، كانت بضغط منه او تأثير ، لهذا أبرق الى وزارة الداخليـة المصرية يرجو استفتاء علماء الأزهر ، فى أمر زيارة القبور والتمسح بها وتقبيل أحجارها ، وشرب الدخان ، وسماع الموسيقى .

فأرسلت اليه بردهم فى ١٢ مايو سنة ١٩٢٦ ، وقد جاء به :

ـ « ... أما ما يتعلق بزيارة القبور ، فنقول انهـا مندوب اليهـا شرعا ، لقوله صلى الله عليـه وسلم : كنت نهيتكم عن زيارة القبـور ، الا فزوروها » . وكان صلى الله عليه وسلم يزور قبور المسلمين ببقيع الفرقد ويقول : « السلام عليكم دار قوم مؤمنين ، وانا ان شاء الله بكم لاحقون . اسأل الله لى ولكم العافية » . وكان يزور شهداء احد على رأس كل حول

ويقول : « السـلام عليكم بما صـبرتم فنعم عقبى الدار » . ونقل عن القهستانى ما نصه : قال فى الاحياء : والمستحب فى زيارة القبور أن يقف مستدبر القبلة ، مستقبلا وجه الميت وان يسلم ، ولا يمسح القبر ولا يقبله ولا يمسه . وبين الفقهاء جملة مما يكره عند زيارة القبور ، ثم أجملوا ذلك بقولهم : « وكذا كل ما لم يعهـد من فعل السنة » ، وهى قاعدة كليـة ينبغى تطبيقهـا على أى فعل لم يعهـد فى السنة ، وقد مثلوا له بالمس والتقبيل . ومعلوم انه لم يعهد من فعل السنة ، الطواف بغير الكعبة .

« أما ما يتعلق بشرب الدخان ، فنقول : انه لم يكن موجودا فى عهـد النبى صلى الله عليه وسلم ، ولا فى عهد خلفـائه الراشدين ، ولا فى عهد الصحابة والتابعين لهم باحسان ، ولا فى زمن الائمـة المجتهدين ، وانما حدث فى القرون الاخيرة ، واختلف العلماء فيه اختلافا كثيرا . فمنهم من قال بحرمته ، عمـلا بحديث احمد ، المروى عن أم سلمة رضى الله تعالى عنها : « نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كل مسكر ومفتر ، وقال انه ان لم يكن مسكرا كان مفترا » . وجنحوا مع هـذا الى نهى ولى الأمر عنه . والقواعد الفقهيـة تقضى بأن ولى الأمر لو نهى عن مباح لمصلحة دينية ، حرم . ومنهم من ذهب الى انه مكروه ، نظرا لما فيـه من الضرر الظاهر للأبدان واضاعة الأموال . ومنهم من لا يرى انه مفتر فقال باباحته ، أخذا بالقاعدة العامة ، وهى ان الأصل فى الأشياء الاباحة أو التوقف ، ورد على من قال بالحرمة أو بالكراهة ، بأنهما حكمان شرعيان لا يثبتان الا بدليل ولم يوجد . والذى يظهر ان أعدل الأقوال ، هو القول بالكراهة ، فينبغى تركه ، وعدم الاصرار على تعاطيه ، فان الاصرار على الصغائر ، يقلبهـا كبـائر .

« وأما الموسيقى فحكمها من جهـة الايقـاع والاستماع ، حكم اللهو واللعب ، وهو الكراهة التحريميـة . فان فقهاءنا نصوا على كراهـة كل لهو ، كالرقص والسخرية والتصفيق وضرب الأوتار من الطنبور والبربط والرباب والقانون والمزمار والصنج والبوق ، فانها كلها مكروهة تحريما ، ولم يستثن من ذلك الا ضرب الدف فى الأعراس والاعياد الدينيـة ، والا ملاعبة الرجل زوجته ، وتأديبه لفرسه ، ومناضلته لقوسه » .

وقد أمضى هـذه الفتوى الشيخ محمـد أبو الفضل الجيزاوى شيخ الجامع الأزهر ، والشيخ عبد الرحمن قراعة مفتى الديار المصرية .

وبعد :

فلنقرأ معا صفحات مشرقة من تاريخ هذا الملك العظيم .

انه لما يزين تاريخ عبد العزيز ويشرفه ، ويضعه فى المكان الأسمى بين ملوك العرب ورؤسائهم ، موقفه الفريد الخالد من قضية فلسطين . فقد اتسم بالاخلاص لها ، وبالحرص على هذه الأرض الحبيبة السليبة أن تعود الى أهلها ، وأن يطرد منها أولئك الصهيونيون الأفاقون الذين اغتصبوها منهم ، بعون من الانجليز ومن الأميركيين معا . لقد كان صريحا كل الصراحة فى لقاءاته مع زعيمى هاتين الدولتين الكبيرتين اللتين أعانتا اللصوص الباغين ، على سرقة وطن وتشريد شعبه ، فى عصر تناديان فيه بأنهما نصيرتا الحق والعدل ، وما أبعدهما عنهما .

كان أول تصريح للملك عبد العزيز عن فلسطين ، هو ما نشرته له مجلة « العالمين » الانجليزية ، وترجمته جريدة « المصرى » ونشرته فى يوم ٨ نوفمبر من عام ١٩٣٨ ، قال فيه :

— « أن « تصريح بلفور » أعظم ظلم ارتكبته بريطانيا . وهل يمكن تصور كارثة أعظم من أخذ أراضى العرب ومساكنهم غصبا وتسليمها الى آخرين ؟ وكيف تلوم أوربا ، ألمانيا وغيرها على اخراج اليهود من أوطانهم ، حيث هم أقلية ، ولا تلوم نفسها على السعى فى اخراج العرب من بلادهم ليسكنها اليهود ؟ أما من جهة وعود الانجليز للعرب وعهدهم لهم ، فانهم لم يعطوهم أرضا جديدة سوى أرضهم ومساكن آبائهم وأجدادهم من قبلهم . وقد استوطن العرب تلك الأراضى بعد أخذها من الرومانيين ، مئات السنين ، من غير منازع لهم فى حقوق ملكيتها » .

فلما سأله محرر المجلة :

— « وماذا تكون خطتك اذا قررت بريطانيا تقسيم فلسطين ، وانشأت دولة يهودية ، وطلبت اليك الاعتراف بها » ؟

أجابه : « الجواب عن ذلك بسيط ظاهر . ان العرب كثير ، والاسلام ذو عدد . واذا أبى العرب الاعتراف بالدولة اليهودية ، فبالطبع أنا معهم ومنهم . واذا اتفقوا على هذا الاعتراف ، فاننى أبقى وحدى على رأيى ، وهو عدم الاعتراف بها . وكل أحد يعلم تمام العلم أن عملا مثل هذا — أى الاعتراف — لا يطابق دينى ، ولا هو يلائم الموقف الذى أجدنى فيه » .

ارأيت الصراحة الصادقة التى يواجـه بهـا عبد العزيز اخوانه ملوك العرب ورؤساءهم ؟ انه سيبقى وحـده بعيـــدا عنهم ، اذا هم اعترفوا بالدولة اليهودية ، اذا قامت ...

فاذا حملت برقيات وكالات الأنباء العالمية أن الحكومة الأميركية موافقة على تقسيم فلسطين ، أرسل فى يوم ٢٨ نوفمبر سنة ١٩٣٨ ، الى رئيسها روزفلت يقول له :

ـ « لقد ظهر لنا من البيـان الذى نشر عن موقف اميركا ، أن قضية فلسطين قد نظر اليها من وجهة نظر واحدة ، هى وجهة النظر الصهيونية ، وأهملت وجهات نظر العرب . وقد رأينا من آثار الدعاية الصهيونية واسعة النطاق ، ان الشعب الأميركى الديمقراطى ، وقد ضلل تضليلا عظيمـــا ، ادى الى اعتبار مناصرة الصهيونية على سحق العرب فى فلسطين ، عمـلا انسانيا ، فى حين أن مثل ذلك ظلم فادح ، موجه ضد شعب آمن مستوطن فى بلاده ، كان ولا يزال يثق بعدالة الرأى العـام الديمقراطى فى العـــالم عامة ، وفى أميركا خاصة » .

وبعد تفنيد من جلالتـــه لآراء بعض الصهيونيين ومشايعيهم ، ختم رسالته بقوله :

ـ « ان عرب فلسطين بافخامة الرئيس ، ومن ورائهم سائر العرب ، بل وسائر العالم الاسلامى ، يطالبون بحقهم ، ويدافعون عن بلادهم ، ضد دخـلاء عليهم وعليها . ومن المستحيل اقرار السـلام فى فلســطين ، ما لم ينل العـرب حقوقهـم ، ويتأكدوا أن بلادهم لن تعطى لشعب غريب افاق ، تختلف مبادئه وأغراضه وأخلاقه ، عنه كل الاختلاف » .

وفى ٢٩ مارس من عام ١٩٤٣ ، زار مندوب مجلة « لايف » الأميركية ، الملك عبد العزيز ، مستطلعا رأيه فى قضية فلسطين ، فقال له :

ـ « أحب أن تطلعوا على ما عندى فى هذا الموضوع لتوضحوه للشعب الأميركى الصديق ليفهم الحقيقة :

« أولا : اننى لا أعلم أن لليهود أمرا يبرر مطالبتهم بفلســطين ، لأن فلسطين كانت من قبل البعثـة المحمـدية بقرون ، لبنى اسرائيل ، وقد تسلط عليهم الرومان فى ذلك الوقت وقتلوهم وشتتوا شملهم ، ولم يبق أثر لحكومتهم فيها ، ثم استولى العرب عليها من الرومان وملكوها من الف وثلاثمائة سنة وكسور ، وهى من ذلك الوقت بيد المسلمين . ومن هـــذا يظهر أنه ليس لليهود حق فى دعواهم هذه ، لأن جميع بلدان العالم تقلبت عليها شعوب تملكتها وصارت وطنا لهم لا منازع لهم فيه ، فلو أردنا تطبيق

نظرية اليهود ، لوجب على كثير من شعوب العالم المستقرة أن ترحل من بلادها ، وفلسطين من ضمن هذه البلاد .

« ثانيا : ان تشبث اليهود بهذه البلاد خطأ ، لأن فى ذلك ظلما للعرب وللمسلمين ، ولأنه يورث الفتن والقلاقل بين المسلمين واصدقائهم الحلفاء . واذا كان اليهود مضطرين الى محل يسكنونه ، فان بلاد أوربا وأميركا وغيرها أوسع وأخصب من فلسطين ، واتم لمصالحهم . اما سكان فلسطين القدامى من اليهود ، فمن رأيى أن يتفق العرب مع أصدقائهم لحفظ مصالحهم ، على شرط الا يعمل اليهود أعمالا تنشأ منها مشاغبة وفتن لا تكون فى صالح الجميع ، وأن يعطوا ضمانا بكفالة الحلفاء ، بألا يسعوا فى شراء أملاك العرب ، التى هى حياتهم ، بما لهم من قدرة بالأموال الطائلة ، لأجل تنفيذ مقاصدهم ، لأن فى ذلك ضياعا ومضرة لأهل فلسطين ، ويسبب لهم الفقر والاضمحلال » .

ولما نشبت الحرب العالمية الثانية فى ٣ سبتمبر سنة ١٩٣٩ ، حاول هتلر زعيم المانيا وموسولينى زعيم ايطاليا ، أن يجذباه اليهما ، وأن يضماه الى صفيهما ، وأن يعلن الحرب على الحلفاء ، باذلين له وعدهما « الصادق » بانه بعد النصر — اى نصرهما على أعدائهما الحلفاء — سينصبانه ملكا على العرب أجمعين ! !

لكن الرجل العظيم يرد رسلهما على أعقابهم خاسرين ، مؤكدا لهم أن مصلحة شعبه ووطنه أمانة فى عنقه وفى ذمته ، فهى فوق كل شىء ، ولا يعنيه أن يكون ملك العرب أجمعين ، انما الذى يعنيه أن يجنب شعبه ووطنه ويلات هذه الحرب ، ولن يتحقق هذا الا بحياده بين الفريقين المتحاربين . ذلك ان الأسطول الانجليزى يمد بلاده بالمؤن ، فاذا ضرب عليه حصارا لمصلحة الألمان والطليان ، أمات بلاده من الجوع والحرمان . واذا وقف هذا الأسطول الانجليزى دون وصول الحجاج الى جدة لأداء فريضة الحج ، فعلى اى مورد يعيش اهل الحجاز (١) ؟

---

(١) لقد اعترف الملك عبد العزيز بفضل بريطانيا على بلاده فى اثناء تلك الحرب فى خطاب القاه فى وفود كبار الحجاج فى مأدبة اقامها لهم فى ١٤ ديسمبر سنة ١٩٤٥ ، فقال : « اننا لنذكر مع الشكر للحكومة البريطانية ما بذلته من المساعدات ، ولولا الله ، ثم مساعدة الحكومة البريطانية بالمؤن والارزاق ، لما أمكن ان يجد المسلمون هذا الرخاء فى هذا الوادى غير ذى الزرع . ولو قارنا حال هذه البلاد فى الحرب الحاضرة ، وحالها فى الحرب العالمية الاولى ، لوجدنا الفرق كبيرا جدا . وهذا من فضل الله . ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله » .

لقد صارح مبعوثى هتلر وموسولينى والحلفاء بحيـــاده هذا ، وعبثا حاول الحلفاء معه ما حاوله هتلر وصاحبه ، فرفض طلبهم اليـه أن يعلن الحرب عليهما ، ولم ينجح معه مندوبو رئيس الولايات المتحـدة الأميركية روزفلت ، عندما زاروه فى الرياض ، فى اقناعه بالتخلى عن حياده ، وظل متمسكا برأيه السـديد هذا ، فمنع كل دعاية أجنبية تتسلل الى بلاده ، وأمر باحراق منشورات هذه الدعاية ومجلاتها فور وصولها الى جـدة أيا كان مصدرها . هذا من ناحية . ومن الناحيـة الأخرى ، رفض عودة وزير المانيا المفوض « الدكتور جوبا » الى جـدة لاستئناف عمله ، بعد اعلان الحرب ، وقد كان غائبا عنها يومها .

لكن روزفلت وتشرشل ــ رئيس الوزارة البريطانيـة طوال سنوات الحرب ــ عنـدما قابلاه فى مصر ــ كما سيجىء ــ فاتحـاه فى أمر اعلانه الحرب على المانيا وايطاليا واليابان ــ وكانت الحرب قد أوشكت أن تضع أوزارها ــ وأفهماه أن من شروط الانضمام الى هيئة الأمم المتحـدة التى ستنشأ عقب انتهاء الحرب ، اعلان الحرب على هذه الدول الثلاث ــ دول المحور ــ فأصدر بلاغا رسميا عقب عودته من لقائهما فى مصر ، الى جدة ، هـذا نصه :

ــ « ان الحكومة العربية السعودية أصبحت ابتـداء من أول مارس سنة ١٩٤٥ ، فى حالة حرب مع المانيـا وايطاليا واليابان ، وذلك باستثناء الاماكن المقدسة ، فهى لا تزال على حيادها ، لا تحارب ولا تحارب » .

فلما عقد مندوبو الدول التى أعلنت الحـرب على دول المحور بجانب الحلفاء ، اجتماعا فى « ليك سكس » بسان فرانسسكو فى ٢٥ ابريل سنة ١٩٤٥ ، لوضع ميثاق هيئة الامم المتحدة ، كان سمو الأمير فيصل رئيس وفد بلاده فى الاجتماع .

ومما يذكر بهذه المناسـبة أن الملك عبد العزيز رفض الانضمام الى « عصبة الأمم » التى انشئت بعد الحرب العالمية الأولى ، عنـدما زين له بعض مستشاريه الانضمام اليها ، لايمانه بعدم فاعليتها .

لقد قدر له الانجليز والأميركيون حياده ، المغلف بالتعاطف مع بريطانيا وأميركا وحلفائهما ، وان لم يظهره على الملأ ، فرغب رئيس الولايات المتحدة الأميركية ، المستر روزفلت ، والمستر تشرشل رئيس الوزارة البريطانية ، فى أن يتعرفا على هذا الرجل الفريد ، ذى الرأى السديد ، وأن يقفا على رأيه فى قضية فلسـطين ، وأعربا له عن رغبتهما هـذه ، فلباها لهما دون تردد .

وللمرة الثانية يركب البحر فى حياته (فقد ركبه فى المرة الأولى حينما جمع الانجليز بينه وبين الملك فيصل الأول ملك العراق على ظهر البارجة « لوين » فى سنة ١٩٣٠ ، فى محاولة منهم لتسوية أزمة الحدود بين بلديهما ، ولتسليم الثائر فيصل الدويش الى ابن سعود) اذ أرسل اليه روزفلت المدمرة الأميركية « أوجست » لتقله من ميناء جدة الى مياه البحيرات المرة فى قناة السويس ، حيث كان ينتظره فى الطرادة الأميركية « كوفيرى » فى ١٤ فبراير سنة ١٩٤٥ ... ووصل الملك ، واستقبله مضيفه استقبالا عظيما ، واعجب الرئيس الأميركى بالملك العربى اعجابا لا حد له ، فقال له :

ــ اننى أرى اليوم أكثر مما سمعت . لقد كنت أود أن اجتمع بك قبل اليوم .

وبدأ الحديث ، فى جو يسوده الصدق والصراحة ، وتناولا ما بين بلديهما من روابط ، ثم تناولا قضية فلسطين ، فدلل عبد العزيز على عدالتها ، فسأله روزفلت النصيحة فيما يراه بشأن هجرة اليهود الذين جلوا عن أوطانهم فى أوربا ، فقال له على الفور :

ــ يعود هؤلاء اليهود المبعدين عن بلادهم ، ليعيشوا فى البلدان التى أخرجوا منها . أما اليهود الذين دمرت أوطانهم تدميرا تاما ، والذين لا تواتيهم الفرص لأن يعودوا للعيش فى أحضانها ، فيجب أن يمنحوا أماكن يعيشون فيها ، فى أراضى دول المحور التى اضطهدتهم .

ومما قاله الملك لروزفلت يومذاك :

ــ ان العرب يختارون الموت على أن يسلموا بلادهم لليهود ، وان أمل العرب قائم على كلمة الشرف التى قالها الحلفاء لهم .

فقال روزفلت انه يود أن يؤكد لجلالته انه لن يقدم على عمل أى شىء يساعد به اليهود ضد العرب ، وانه لن يتحرك أية حركة عدائية ضدهم .

وانتهى اللقاء ، وصدر عنه بلاغ سعودى نوه بالموضوعات التى بحثت فيه .

وركب الملك سيارة مصرية فارهة من سيارات القصر الملكى كانت بانتظاره ، وسط موكب حافل من راكبى الموتوسيكلات ، ميمما شطر الفيوم ، ليجتمع بالزعيم البريطانى تشرشل ، فى فندق « أوبرج الفيوم » .

وفى اليوم التالى لوصوله – يوم الجمعة ١٦ فبراير سنة ١٩٤٥ – زاره الملك فاروق وبصحبته عبد الرحمن عزام بك (كان يومذاك سفيرا بوزارة الخارجية ، ثم اختير أمينا للجامعة العربية عند قيامها بعد أسابيع ، وانعم عليه برتبة الباشوية) واجتمع بهما اجتماعا طويلا بحثوا فيه شؤونا شتى وسجل بلاغ رسمى سعودى ، هذا الاجتماع ايضا .

وفى غد – السبت – اجتمع الملك بالمستر تشرشل اجتماعا طويلا ، دار فيه معظم الحديث عن قضية فلسطين ورأى جلالته فيها .

بدأ تشرشل حديثه بقوله :

– الا تعلمون جلالتكم اننى أول واضع للسياسة الفلسطينية ، بايجاد وطن قومى لليهود ؟

فقال الملك : لا أعلم ، ولكن الذى أعلمه هو أن فلسطين وطن عربى ، وانه ليس لليهود حق فى سلخ جزء من الوطن العربى ليكون وطنا لهم . لهم أن يسكنوا كمواطنين مسالمين ، لا طامعين ، ولقد عاشوا قرونا طويلة تحت كنف العرب والمسلمين فى اسبانيا ، وفى شمال افريقيا .

قال تشرشل : انا لا اقصد أن تكون فلسطين لليهود ، ولكنى أقصد ايجاد وطن لليهود فى فلسطين .

فاندفع الملك مبينا له خطر وجود اليهود فى الشرق الأوسط ، فان اطماعهم لا حد لها ، وسيكونون مثار شغب وفساد فى ربوعه ، « واننا نعلم أن معظم اليهود الذين يفدون على فلسطين ، شيوعيون » .

وصدر بلاغ رسمى سعودى كذلك عن هذا اللقاء ، بعد أن عاد الملك الى وطنه .

لكن عبد العزيز ، لم يشأ أن يقتصر اقناعه لروزفلت على الحديث الذى تبادلاه فى مياه البحيرات المرة ، فارسل اليه رسالة تاريخية فى ١٠ مارس سنة ١٩٤٥ ، اى بعد أقل من شهر من لقائهما ، بسط له فيها تاريخ فلسطين ، ممهدا له بتذكيره « بحق صريح قائم منذ عرف التاريخ ، ويراد الآن القضاء على هذا الحق ، بظلم لم يسجل له التاريخ مثيلا ولا نظيرا ، ذلك هو حق العرب فى فلسطين ، الذى يريد دعاة اليهودية الصهيونية غمطه وازالته ، بشتى وسائلهم التى اخترعوها وبيتوها ،

وعملوا لها فى أنحاء العالم من الدعايات الكاذبة ، وعملوا فى فلسطين من المظالم ، وأعدوا العدوان على العرب ما أعدوا ، مما علم بعضه الناس ، وبقى الكثير منه تحت طى الخفاء . وهم يعدون العدة لخلق شكل نازى فاشستى بين سمع الديمقراطية وبصرها ، وفى وسط بلاد العرب ، بل فى قلب بلاد العرب ، وفى قلب الشرق الذى اخلص العمل لقضية الحلفاء فى هذه الظروف الحرجة .

« ان حق الحياة لكل شعب فى موطنه الذى يعيش فيه ، حق طبيعى ، ضمنته الحقوق الطبيعية ، واقرته مبادىء الانسانية ، واعلنه الحلفاء فى ميثاق الأطلنطى ، وفى مناسبات متعددة . والحق الطبيعى للعرب فى فلسطين لا يحتاج الى بيانات ، فقد ذكرت غير مرة لفخامة الرئيس روزفلت وللحكومة البريطانية ، فى عدة مناسبات ، ان العرب هم سكان فلسطين منذ أقدم عصور التاريخ ، وكانوا سادتها ، والاكثرية الساحقة فيها فى كل العصور . واننا نشير اشارة موجزة الى هذا التاريخ ، القديم والحديث ، لفلسطين حتى اليوم ، ليتبين ان دعوى الصهيونية فى فلسطين ، لا تقوم على أساس تاريخى صحيح ...

« يبتدىء تاريخ فلسطين المعروف ، من سنة ٣٥٠٠ قبل الميلاد ، واول من توطن فيها الكنعانيون ، وهم قبيلة عربية نزحت من جزيرة العرب ، وكانت مساكنهم الأولى فى منخفضات الأرض ، ولهذا سموا كنعانيين . وفى سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد ، هاجر من العراق بقيادة النبى ابراهيم ، فريق من اليهود ، واقاموا فى فلسطين ، ثم هاجروا الى مصر ، بسبب المجاعات ، حيث استعبدهم الفراعنة ، وظل اليهود مشردين فيها ، الى ان انقذهم النبى موسى من غربتهم ، وعاد بهم الى ارض كنعان ، عن طريق الجنوب الشرقى ، فى زمن رمسيس الثانى سنة ١٢٠٠ ، أو ابنه منفتاح سنة ١٢٢٥ قبل الميلاد .

« واذا سلمنا بنص التوراة ، وجدنا ان قائد اليهود الذى فتح فلسطين ، كان يشوع بن نون ، وهو الذى عبر بجيشه واحتل اريحا من الكنعانيين ، بقسوة شديدة ووحشية ، يدل عليها قوله لجيشه : « احرقوا كل ما فى المدينة ، واقتلوا كل رجل وامراة وكل طفل وكل شيخ ، حتى البقر والغنم ، بحد السيف ، واحرقوا المدينة بالنار وكل ما فيها » (يشوع ١٦ ــ ٢١ ــ ٢٤) .

« وقد انقسم اليهود بعد ذلك الى مملكتين : مملكة اسرائيل وقصبتها « السامرة » (نابلس) ودامت ٢٥ سنة ، ثم سقطت فى يد « شلمناصر » ملك أشور سنة ٧٢٢ قبل الميلاد ، وسبى شعبها الى مملكته . ثم مملكة يهوذا وقصبتها « أورشليم » (القدس) ودامت ١٣٠ سنة بعد انقراض مملكة اسرائيل ، ثم أبيدت بيد « بنوخذناصر » ملك بابل ، الذى أحرق المدينة والهيكل بالنار ، وسبى الشعب الى بابل سنة ٥٨٠ قبل الميلاد ، ودام السبى البابلى مدة سبعين سنة ، ثم عاد اليهود الى فلسطين بأمر « قوش » ملك الفرس . وتلا ذلك ، الفتح اليونانى بقيادة اسكندر المقدونى فى سنة ٣٣٢ قبل الميلاد ، ودام حكمه فى فلسطين مدة ٢٧٢ سنة. وجاء بعده الفتح الرومانى سنة ٦٣ قبل الميلاد بقيادة « بومبى » ، ودام حكم الرومان فى فلسطين مدة ٧٠٠ سنة . وفى سنة ٦٣٧ ميلادية احتل العرب فلسطين ، ودام حكمهم فيها ٨٨٠ سنة متواصلة . وكانت وصية الخليفة للفاتح : لا تخونوا ولا تغدروا ، ولا تغلوا ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلا ولا شيخا كبيرا ، ولا تعتروا نخلا وتحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا . وسوف تمرون بأناس قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع ، فدعوهم وما فرغوا له أنفسهم » . وقد ذكر هذا ابن الأثير المؤرخ المشهور .

« ثم انتقل الحكم فى فلسطين الى الأتراك سنة ١٥١٧ ميلادية ، فى زمن السلطان سليم الأول ، وظلت فى حوزتهم مدة ٤٠٠ سنة ، وكان العرب سكانها ، وكانوا شركاء مع الأتراك فى حكمها وفى ادارتها . وفى سنة ١٩١٨ احتلها البريطانيون ، ولا يزالون فيها الى الآن .

« ذلك تاريخ فلسطين العربية ، يدل على أن العرب أول سكانها ، سكنوها ٣٥٠٠ قبل الميلاد ، واستمر سكناهم فيها بعد الميلاد الى اليوم ، وحكموها وحدهم مع الأتراك ١٣٠٠ سنة تقريبا . أما اليهود فلم تتجاوز مدة حكمهم المتقطع فيها ٣٨٠ سنة ، وكلها اقامات متفرقة مشوشة ، ومن سنة ٣٢٢ قبل الميلاد ، لم يكن لليهود فى فلسطين اى وجود أو حكم ، الى ان دخلتها القوات البريطانية فى سنة ١٩١٨ .

« ومعنى هذا أن اليهود منذ ألفين ومائتى سنة ، لم يكن لهم فى فلسطين عدد ولا نفوذ . ولما دخلها البريطانيون لم يكن عددهم يزيد على ثمانين الفا ، كانوا يعيشون فى رغد وهناء ورخاء ، مع سكان البلاد الأصليين من العرب . ولهذا ، فاليهود لم يكونوا الا دخلاء على فلسطين فى حقب متفرقة من الزمان ، ثم أخرجوا منها منذ أكثر من الفى سنة .

« أما الحقوق الثابتة للعرب فى فلسطين ، فتستند :

١ ـ الى حق الاستيطان الذى استمرت مدته منذ سنة ٣٥٠٠ قبل الميلاد ، ولم يخرجوا منها فى يوم من الايام .

٢ ـ والى الحق الطبيعى فى الحياة

٣ ـ والى وجود مقدسات لهم فيها

٤ ـ والى أن العرب ليسوا دخلاء على فلسطين ، ولا يراد جلب احد منهم من أطراف المعمورة لاسكانه فيها

« أما اليهود فان دعواهم التاريخية هى مغالطة ، ثم ان حكمهم القصير فى فترات متقطعة كما ذكرنا لا يمنحهم اى حق فى ادعائهم انهم اصحاب البلاد ، لأن احتلال بلد ما ، ثم الخروج منه ، لا يخول اى شعب ادعاء ملكية ذلك البلد والمطالبة به ، وتاريخ العالم ملىء بمثل هذه الأمثال .

« ان حل قضية اليهود المضطهدين فى العالم ، تختلف عن قضية الصهيونية الجائرة . فان ايجاد اماكن لليهود المشتتين يمكن ان يتعاون عليه جميع العالم ، وفلسطين قد تحملت قسطا فوق طاقتها . اما نقل هؤلاء المشتتين ووضعهم فى بلاد آهلة بسكانها ، والقضاء على اهلها الأصليين ، فأمر لا مثيل له فى تاريخ البشرية .

« واننا نوضح بصراحة ، ان مساعدة الصهيونية فى فلسطين ، لا يعنى خطرا يهدد فلسطين وحدها ، بل انه خطر يهدد سائر البلاد العربية . وقد اقام الصهيونيون الحجة الناصعة على ما ينوونه فى فلسطين ، وفى سائر البلاد المجاورة ، بتأليفهم تشكيلات عسكرية خطيرة . ومن الخطأ ان يقال ان هذا عمل شرذمة متطرفة منهم ، وانه قوبل باستنكار من جمعياتهم وهيئاتهم . واننا نقول : ان اعمال الصهيونيين فى فلسطين وفى خارجها ، صادرة عن برنامج متفق عليه ، ومرضى عنه من سائر اليهودية الصهيونية ، وقد بدأ هؤلاء أعمالهم المنكرة بالاساءة الى الحكومة التى احسنت اليهم وآوتهم ، وهى الحكومة البريطانية ، فأعلنت جمعياتهم الحرب على بريطانيا ، وألفت لهذا فرقا عسكرية خطيرة ، تملك فى فلسطين فى الوقت الحاضر ، كل ما تحتاج اليه من الأسلحة والمعدات الحربية ، ثم قام افرادها بشتى الاعتداءات على الآمنين ، كان من أفظعها الاعتداء على الرجل الفذ ،

الذى كان ممتلئا بالحب وبالخير لصالح المجتمع ، وكان من أشد من يعطفون على اليهودية المضطهدة ، وهو « اللورد موين » (١) . ومما يدل على أن فعلتهم المنكرة كانت مؤيدة من مجموع اليهود ، المظاهر والمساعى التى قام بها رجال الصهيونية فى كل مكان ، فى طلب تخفيف العقوبة عن المجرمين ، ليجراوا على امثالها .

« فهذه افعالهم مع الحكومة التى احسنت اليهم كل الاحسان ، فكيف تكون الحال اذا أعينوا على تحقيق أغراضهم ، وأصبحت فلسطين بلدا خالصا لهم ، يفعلون فيها وفى جاراتها ما يريدون ؟

---

(١) يشير جلالته الى حادث كان له دوى عظيم فى مصر وفى العالم كله . ذلك انه فى الساعة الواحدة والربع من بعد ظهر يوم ١٦ نوفمبر من عام ١٩٤٤ ، أطلق شابان يهوديان الرصاص على اللورد والتر موين ، وزير الدولة البريطانى فى الشرق الاوسط ، وهو يهم بمغادرة سيارته فى حديقة داره بشارع حسن صبرى بالزمالك ، فاصابا سائق السيارة فسقط قتيلا . أما اللورد فقد اصيب فى صدره وفى عنقه ، فنقل الى مستشفى الانجلو امريكان لاسعافه ، لكنه توفى فى الساعة ٣٠ : ٩ من مساء اليوم نفسه ، وهرب القاتلان بعجلتيهما (بسكليت) . لكن ونشابلا من حرس الوزارات سودانى الجنسية ، اسمه الامين محمد عبد الله فى الرابعة والعشرين من عمره ، سمع بالحادث وهو فى نقطة وليس الجزيرة ، فانطلق بموتوسيكله وراء القاتلين ، مسترشدا من المارة عن الطريق التى سلكاها فى هربهما ، واستطاع اللحاق بهما عند كوبرى بولاق ، وقبض عليهما بمساعدة جندى المرور وعامل نظافة بعد ما تبادل معهما اطلاق النار ، محاولين قتله ، وساقهما الى قسم بولاق .

وعندما بدأ التحقيق معهما باشراف عبد الرحمن الطوير باشا النائب العام ، امتنعا عن الاجابة عن أى سؤال وجه اليهما ، قائلين انهما لن يتكلما الا امام المحكمة عند محاكمتهما . لكن رجال البوليس الانجليز فى محافظة القاهرة استطاعوا حملهما على الكلام . فقالا انهما من المحاربين فى سبيل حرية اسرائيل ، وانهما تسللا الى مصر من فلسطين ، وارتكبا جريمتهما تنفيذا لتعليمات من هيئة ارهابية يتبعانها . وقال احدهما واسمه « الياهو بتسورى » من تل ابيب : ان سبب القتل سياسى ، وانهما ارسلا من فلسطين بأمر خاص ، هو قتل اللورد موين .

وقال الثانى واسمه « الياهو حكيم » من حيفا : اننا لا نحارب الحكومة الانجليزية فى فلسطين لانها حكومة سيئة فقط ، فانها فى الواقع حكومة سيئة جدا ، لكن الواقع انها حكومة غريبة عن فلسطين ، ولنا الحق فى أن نحاربها ، ولهذا لم نضع فى حسابنا اذا كان اللورد موين رجلا طيبا او غير طيب ، لكننا اعتبرناه ممثل الحكومة البريطانية الذى يحكم الشرق الاوسط ، وهو لهذا مسؤول عن سوء الحكم ، وعما هو حاصل فى فلسطين .

فلما سأله المحقق : هل تعتقد ان قتل اللورد موين يؤثر فى الحكومة الانجليزية او يرهبها ، حتى تغير سياستها بالنسبة اليكم ؟

« لو ترك الأمر بين العرب وبين هؤلاء المعتدين ، لربما هان ، ولكنهم محميون من قبل الحكومة البريطانية صديقة العرب !! فاليهودية الصهيونية لم تراع حرمة هذه الحماية ، بل قامت بتدبير حبائل الشر ، وبدأتها ببريطانيا ، وأنذرت العرب بعد بريطانيا ، بمثلها وبأشد منها . فاذا كانت الحكومة المتحالفة التى تشعر العرب بصداقتها ، تريد أن تشعل نار الحرب والدماء بين العرب واليهود ، فان تأييد الصهيونية سيوصل الى هذه النتيجة . وان أخشى ما تخشاه البلاد العربية من الصهيونية ، هو :

١ — أن يقوموا بسلسلة من المذابح بينهم وبين العرب .

٢ — أن تكون اليهودية الصهيونية من أكبر العوامل فى افساد ما بين العرب والحلفاء . وأقرب دليل على ذلك ، قضية اليهوديين فى مقتل « اللورد موين » فى مصر .

قال : المسألة ليست تغيير سياسة ، انما نحن نريد من الحكومة الانجليزية أن تترك فلسطين بالمرة ، تترك اورشليم (القدس) واتضح فى التحقيق ان الجماعة التى يتبعانها هى جماعة « شترن » ، وهو اسم ارهابى اسرائيلى انشأها وظل رئيسا لها ، حتى قتله ضابط بريطانى اسمه مورتون .

وقد استغرق التحقيق معهما الى يوم ٢٠ ديسمبر ، أى شهرا ونصف شهر ، واستغرق من الصفحات ١٢٨ صفحة . وفى هذا اليوم اصدر النائب العام قراره باتهامهما بقتل اللورد موين وقتل سائق سيارته الاومباشى « ارثر مولر » ، عمدا مع سبق الاصرار والترصد ، وبالشروع فى قتل الكونستابل الامين محمد عبد الله ، وخاب اثر الجريمة لسبب لا دخل لارادتهما فيه ، وهو عدم احكام الرماية .

وفى يوم ٢٢ يناير سنة ١٩٤٥ عقدت محكمة الجنايات برياسة محمود منصور بك لمحاكمتهما ، وندب للدفاع عن أولهما توفيق دوس باشا وعبد الفتاح السيد بك ، وعن ثانيهما المحاميان حسن حسنى بك وحسن الجداوى .

وبعد المرافعة والدفاع ، أصدرت حكمها بمعاقبة كل منهما بالاعدام ، وفى يوم ٢ مارس صدق رئيس الوزراء محمود فهمى النقراشى باشا — بوصفه الحاكم العسكرى العام — على الحكم ، وقد نفذ فيهما بعد يومين .

نعود الى اللورد موين فنقول ان رئيس الوزراء ذهب الى السفارة البريطانية معزيا فيه . وفى اليوم التالى شيع جثمانه فى جنازة عسكرية مصرية انجليزية مهيبة ، وابنه تشرشل رئيس الوزارة البريطانية فى مجلس العموم ، وأشاد بمصر وببوليسها .

وطلبت الوزارة ترقية الكونستابل الى « كونستابل ممتاز » ، فرأى الملك فاروق ان يرقى الى رتبة « ملازم تان » علاوة على منحه نوط الواجب الذهبى .

وتبرع النبيل عباس حليم — من الاسرة المالكة — بمائة جنيه ، مفتتحا بها اكتتابا شعبيا لمكافأة الكونستابل الشجاع ، وانهالت التبرعات عليه تقديرا لشجاعته وبسالته .

٣ ـ ان تمتد مطامع اليهود الى غير فلسطين ، فان ما أعدوه من العدة ، يدل على أنهم ينوون العدوان على جيرانها من البلاد العربية .

٤ ـ الا يجدوا مانعا للاتفاق مع اى جهة قد تكون معادية للحلفاء وللعرب، لتنفيذ هذا العدوان ، وقد بدأوا بعدوانهم على بريطانيا ، وهم تحت حمايتهـــا ورحمتهـــا ... هذا لو تصورنا استقلالهم فى مكان ما فى فلســـطين .

« لا شك ان هذه أمور ينبغى أخذها بعين الاعتبار ، فى اقرار السلام فى العالم ، عندما ينظر فى قضية فلسطين . ففضلا عن أن حشـــد اليهود فى فلسطين لا يستند الى حجة تاريخيـــة ، ولا الى حق طبيعى ، وانه ظلم مطلق ، فهو فى الوقت نفســـه يشكل خطرا على العـــرب وعلى الشرق الأوســـط .

« وصفوة القول : ان تكوين دولة يهودية بفلسطين ، ســـيكون ضربة قاضية على كيان العرب ، ومهددا للسـلم باستمرار ، لأنه لابد ان يسود الاضطراب بين اليهود والعرب ، فاذا نفد صبر العرب فى يوم من الأيام ، ويئسوا من مستقبلهم ، فانهـــم سيضطرون للدفاع عن انفسهم ، وعن اجيالهم المقبلة ، ازاء العدوان عليهم ، وهذا بلا شك لم يخطر ببال الحلفاء العاملين على سيادة السلم واحترام الحقوق . ولا نشك فى أنهم لا يرضون بهذه الحالة المقلقة لسلام الشرق الأوسط .

« وما كنت أريد فى هذا المعترك العظيم ، ان أشغل فخامتكم ورجال حكومتكم العاملين فى هذه الحرب العظمى بهذا الموضوع . وكنت افضل ـ وانا واثق من انصاف العرب من قبل الحلفاء ـ أن يستمر سكوت العرب الى نهاية الحرب ، اولا ما نراه من قيام هذه الفئة الصهيونية اليهودية بكل عمل مثير مزعج ، غير مقدرين الظروف الحربية ومشاغل الحلفـــاء ، حق قدرهما ، عاملين للتأثير فى الحلفـــاء بكل أنواع الضغط ، ليحملوهم على اتخاذ خطة ضد العرب ، تختلف عما اعلنه الحلفـــاء من مبـــادىء الحق العـــدل .

« لذلك اردت بيان حق العرب فى فلسطين على حقيقته ، لدحض الحجج الواهية التى تدعيها هذه الشرذمة من اليهودية الصهيونية ، دفعـــا لعدوانهم ، وبيانا للحقائق ، حتى يكون الحلفاء على علم كامل بحق العرب فى بلادهم ، وبلاد آبائهم واجدادهم ، فلا يسمح لليهود أن ينتهزوا فرصة سكوت العرب ، ورغبتهم فى عدم التسويش على الحلفاء فى الظروف الحاضرة ، فيأخذوا من الحلفاء ما لا حق لهم فيه .

« وكل ما نرجوه ، هو أن يكون الحلفاء على علم بحق العرب ، ليمنع ذلك تقدم اليهود فى أى أمر جديد ، يعتبر خطرا على العرب ، وعلى مستقبلهم فى سائر أوطانهم ، ويكون العرب مطمئنين من العدل والانصاف فى بلادهم (١) » .

لقد تعمدت نشر نص هذه الرسالة المسهبة التاريخية ، متجاوزا عن طولها ، لأن فيها كل شىء عن فلسطين : تاريخ مفصل ، دفاع حار ، حق مؤيد بالدليل والبرهان ، حقائق تنبأ بها عبد العزيز ، حدثت فى حياته، وحدثت بعد ذهابه الى مولاه . فهى رسالة شاملة ، أو هى دراسة مستفيضة عن فلسطين وقضيتها وحق شعبها ، لم يسبقه اليها رئيس عربى

رد روزفلت على عبد العزيز برسالة اكد فيها ما سبق أن قاله له من انه لن يقدم على عمل فيه ضرر للعرب

قال روزفلت فى رسالته وقد بعث بها فى ٥ ابريل سنة ١٩٤٥ :

« الصديق الطيب العظيم

« تلقيت الرسالة التى بعثتموها جلالتكم الى بتاريخ ١٠ مارس سنة ١٩٤٥ ، والتى أشرتم فيها الى قضية فلسطين ، واهتمام العرب المستمر بسير التطورات التى تؤثر فى تلك البلاد

« انى مغتبط لأن جلالتكم انتهزتم هذه الفرصة لتوجيه انتباهى الى آرائكم فى هذه القضية . وقد منحت عظيم الانتباه الى البيانات التى ضمنتموها كتابكم . وانى أيضا لملىء الخاطر بالمحادثات التى لا تنسى ، التى جرت بيننا منذ أمد غير بعيد ، والتى فى أثنائها تهيأت لى الفرصة لأدرك أى اثر حى لآراء جلالتكم فى هذه القضية

« تتذكرون جلالتكم انه فى مناسبات سابقة ، أبلغتكم موقف الحكومة الاميركية تجاه فلسطين ، وأوضحت رغبتنا بأن لا يتخذ قرار فيما يختص بالوضع الأساسى فى تلك البلاد ، بدون استشارة تامة مع كل من العرب واليهود . ولا شك أن جلالتكم تتذكرون أيضا أنه فى خلال محادثاتنا الأخيرة ، اكدت لكم أنى لن اتخذ اى عمل ــ بصفتى رئيسا للفرع التنفيذى لهذه الحكومة ــ يتضح انه عدائى للشعب العربى

---

(١) كتاب « الملك العادل » للسيدعبد الحميد الخطيب ــ الجزء الاول ــ ص ٢٢٧ .

« وانه لما يسرني أن أجدد لجلالتكم التأكيدات التى تلقيتموها جلالتكم سابقا بخصوص موقف حكومتى ، وموقفى كرئيس للسلطة التنفيذية ، فيما يتعلق بقضية فلسطين ، وان أعلمكم أن سياسة هذه الحكومة غير متغيرة » .

لكن الموت عاجله فى ١٢ أبريل ، أى بعد أسبوع من ارساله رده على الملك عبد العزيز ، فلم يعش حتى يرى العرب : أكان صادقا فيما قطعه على نفسه من عهد للملك العربى ؛ من انه لن يقدم على عمل فيه عداء للعرب ، أم أنه كان خادعا ، كما خدع العرب قبله ، رئيس أميركى سابق له ، هو الرئيس ولسون ، بمبادئه الأربعة عشر التى نصت المادة الثانية عشرة منها ، على حق الشعوب فى الحرية والسيادة وتقرير مصيرها بنفسها ، فلم ينل شعب عربى واحد بعد الحرب العالمية الأولى ، التى أعلن ويلسون مبادئه هذه قبيل نهايتها ، استقلاله وحريته ، بل كان عونا لحلفائه على استمرار استعمارها ، واحتلالهم للشعوب والأقطار التى شقيت بهم

واقرب مثل على ذلك ما صنعه ويلسون نفسه مع الوفد المصرى برياسة سعد زغلول باشا ، فقد سافر الى باريس فى ابريل سنة ١٩١٩ ليقابله ويشرح له عدالة مطالب مصر وحقها فى الاستقلال ، وقدرتها على حكم نفسها بيد أبنائها ، بعد تضحياتها الجليلة بجانب الحلفاء ، حتى لقد استشهد من شعبها فى تلك الحرب ١٫٢٠٠٫٠٠٠ مصرى ، قاتلوا مع الحلفاء ، دفاعا عن الحرية التى خنقها خصومهم الألمان والطليان والترك !!

فماذا صنع ويلسون صاحب تلك المبادىء الخادعة ، للوفد المصرى ؟

اعتذر عن عدم مقابلة الوفد ، مجاملة للانجليز ، ثم فاجأ الوفد ومصر كلها فى الشهر نفسه ، بأنه يؤيد احتلال انجلترا مصر ، ووضعها تحت حمايتها ، تنفيذا لما أعلنته الحكومة الانجليزية يوم اعلان الحرب فى ٤ أغسطس سنة ١٩١٤ ... !!

بعد وفاة روزفلت ، عرف أنه كان قد اتفق مع الحكومة البريطانية على ارسال لجنة تحقيق أميركية بريطانية الى الدول العربية ، لمقابلة ملوكها وزعمائها ، للوقوف على آرائهم فى هذه القضية الخطيرة ، قضية فلسطين ، واقتراح حل لها ، ثم ترفع ما تجمعه من آراء الى الحكومتين . .

وصلت اللجنة الى الرياض فى ١٩ مارس ١٩٤٦ لمقابلة الملك عبد العزيز ، وكانت مؤلفة من السرجون سنجلتون رئيسا ، والميجور ماتنجهام بولور والمستر باسكتر ، عضوين

قال لهم جلالته فى اثناء المناقشة : ان امر فلسطين يهمه كثيرا ، لأنه عربى مسلم قبل كل شيء ، والعربى للعربى والمسلم للمسلم .

ثم :

ـ ان قضية الصهيونية فى فلسطين تهم المسلمين والعرب ، والعداوة بين المسلمين واليهود ليست وليدة عهد جديد ، انما هى نتيجة عداء قديم يرجع الى آلاف السنين

ـ ان اليهود أعداؤنا فى كل مكان ، وهم فى كل بقعة يأتون اليها يفسدون ويعملون ضد مصلحتنا .. ثم قال : وانى لعلى يقين :

أولا : من أن اليهود الصهيونيين لا يدخرون وسعا فى احداث الاختلافات بين العرب ، وبين كل من صديقتيهم بريطانيا وأميركا . وهذا ما يتجنبه العرب ولا يريدونه

ثانيا : من أن هجرة اليهود اذا استمرت على ما هى عليه ، وتوسعت املاكهم فى فلسطين ، فسيكونون خطرا على العرب كافة ، لأن لديهم جميع الوسائل لامدادهم بالأسلحة وبالمال وبغيرهما . ولا شك فى انهم سيستعملون هذا ضد العرب ، وهو فى الوقت نفسه احراج للبريطانيين . والدليل على هذا ما رأيتموه فى زيارتكم فلسطين : كيف رأيتم حال العرب وحال اليهود ؟ هل رأيتم اليهود فى ترفهم ومساكنهم وسلاحهم وأموالهم وقوتهم ؟ وهل رأيتم أصحاب البلاد الشرعيين وما هم عليه من الفقر والعوز ؟ ألم يصرح لكم اليهود بأنهم أصحاب زراعات وأملاك ، وانهم يعملون ويصلحون ، على نقيض ما يفعله « هؤلاء الأشقياء » ويعنون بهم العرب ؟

وأردف جلالته : اذا رأت اللجنة أن تسأل عن أسباب ذلك شرحتها لها . انها تتلخص فى جملة واحدة ، هى أن العرب هبوا للدفاع عن بلادهم ، وللمطالبة بحقوقهم ، ولاستعادة ما سلب منهم ، فكيف يتسنى لهم مباراة اليهود ، وهم ما بين مصلوب على أعواد المشانق ، وسجين وشريد وطريد ؟ كيف يتسنى لهم أن يتقدموا وهذه حالهم ، بينما اليهود تسهل لهم جميع الوسائل ؟ وكلما تكلم العرب مطالبين بحقوقهم ، لا يجدون من يعينهم على أمرهم أو يسمع شكواهم . أما اليهود فانهم على مرأى ومسمع منكم أيها الانجليز ، يقتلون جنودكم وكبراءكم ، ويحاربونكم بشتى الأساليب ، وانتم لا تجيبونهم الا باطلاق الرصاص فى الهواء ، كأن لم يكن بينكم وبينهم حساب !!!

بعد هذا القول الحق الصريح ، رد رئيس اللجنة ردا عجيبا مضحكا فقــال :

ـ ان الانجليز متساهلون كثيرا ، وهذا ما يجعل الناس يطمعون فيهم !!

فأفحمه الملك بقوله :

ـ ان التساهل فى بعض الأحيان والأحوال ، يجعل الخطر أعظم ، والبلية أعم . واضرب لكم مثلا بانسان تحلق فوق رأسه الطائرات ويده مغلولة وخالية من السلاح ، وانسان آخر يده طليقة وقابضة على السلاح ، فهل يتساوى الرجلان ؟ تلك هى حال العرب واليهود فى فلسطين . انني منذ أوجدنى الله ، وصرت أسعى لاستعادة ملك آبائي وأجدادى ، ما عرفت من الدول غير بريطانيا ـ وكانت صديقتى ـ رأيت منها ما سرنى ، ورأت منى ما سرها . ولما نشبت الحرب أيدت سياستها وسياسة حلفائها ، وثوقا منى بأن هذا فى مصلحتى وفى مصلحة العرب جميعا . لهذا كانت الحكومة البريطانية ، ولا تزال ، راغبة فى أن أسعى للتوفيق بينهــا وبين العرب ، منذ بدأت الحرب وحتى انتهائها ، اتقاء لحدوث المشكلات بينها وبينهم . وكنت أبذل ما فى وسعى لاقنــاع اخوانى العــرب ، وانصحهم بألا يجعلوا سبيلا لحدوث اختلاف بينهم وبين بريطانيا ، لأن أعداء الحلفاء هم أعداء العرب ، ويجب علينا الصبر والتروى . ولقد بلغ بى الأمر انى تحدثت بهذا أمام جمع من المسلمين فى مكة المكرمة ، ونصحتهم بأن يكونوا الى جانب بريطانيا وحلفائها ، لأنها صديقتهم ، وتدافع فى حربها عن حقوقهم ومصالحهم ، وأن لا يدعوها فى حرج من أمرها . وعلى اثر ذلك تلقى علماؤنا كتبا ورسائل من علماء المسلمين ، ينتقدون فيها موقفى ، وفاتحنى العلماء بما تلقوا من شتى الأقطار الاسلامية ، وقالوا لى : انهم لا يتعرضون للمسائل السياسية ، ولكنهم أعربوا عن عجبهم من معاضدتى لبريطانيا ، فى الوقت الذى تؤوى هى فيه اليهود ، وتوليهم على فلسطين . فأوضحت لهم الأخطار التى تستهدف لها أوطاننا اذا انتصر أعداء بريطانيا عليها . فقالوا : هل تضمن اذا انتصرت بريطانيا ، تعدل عن تأييد اليهود ، ولا تؤويهم فى بلادنا ، وأن تعامل العرب فى فلسطين بالعدل ؟ فأجبتهم : أنا لا أضمن لكم أن تفعل بريطانيا هذا أو ذاك ، ولكن ما أعرفه عن بريطانيا ووعودها التى قطعتها على نفسها ، هو انه اذا لم يقم العرب بأعمال ضدها ، فانها ستعاملهم بالانصــاف .

واستمر الملك فى حديثه لأعضاء اللجنة :

ـ واذكر لكم امرا واقعا ، وهو أن الوزير البريطانى المفوض فى جدة ، زارنى بعد انتهاء الحـرب بمدة وجيزة ، وقال لى : ان حكومتى ترى أن حركات اليهود الحاضرة ، ربما كانت من حظ العرب ، فكلما ازدادت حركاتهم ، انكشفت نياتهم ! ورجا منى أن ابذل جهدى لدى العرب لالتزام الهدوء ، واقنعنى بأن هذا خير لمصلحتهم . فلم ادخر وسعا فى هذا السبيل ، الى أن وصلنا الى الموقف الذى نقفه اليوم

لقد وقعت الآن فى مازق خطير امام شعبى وجماعتى ، وامام العرب والمسلمين . فاذا كانت بريطانيا تريد أن تعدل عن الحق الواضـح ، وأن تذهب وعودها فى الهواء ، فليس أمامى الا أن اقول للمسلمين : دونكم نفسى ، اقتلونى ، أو انزلونى عن الملك ، لاننى مستحق هذا ، وانا الذى جنيت عليكم ، وثبطت عزمكم وهمتكم

هذه هى حقيقة موقفى شرحتها لكم بوضوح ، ثم :

ـ اليهود اليوم قوتهم بالدينار ، ونحن حجتنا بحقنا فى فلسطين ، حجة شرعية . بلاد اخذناها من الرومان بالسيف ، قاتلنا دونها وملكناها بعد أن سفكت دماء زكية منا وعزيزة علينا ، فكيف يجىء الينا تاجر ويأخذها بالفلوس ؟ ليس هذا من الانصاف فى شىء

ـ لقد تحدثت مع الرئيس روزفلت حديثا طويلا فى قضية فلسطين ، سجلت خلاصته فى محضر خاص ، وشهد حديثنا الوزير الأميركى المفوض فى جدة ، واطلعت المستر تشرشل على حديثى مع روزفلت ، وعلى الوعد الذى وعدنى به ، فوعد هو الآخر بأن ينهض بالواجب من ناحيته فى مساعدة العرب وعدم الاجحاف بحقوقهم . لقد كان روزفلت يسعى لايجاد مكان لايواء اليهود ، وكان مقتنعا بأن فلسطين لا تصلح أن تكون مأوى لهم ، وأن فى بلاد أوربا متسعا لهم ، اذ يمكنهم الاقامة فى الأماكن التى خلت من الذين ابيدوا من اليهود بسبب الحرب

ـ الموت خير لنا من قبول هجرة اليهود ، وكل جهادنا لمنع هجرة اليهود الى فلسطين ، حتى لا يتملكوا اراضيها

ـ اذا أرادت بريطانيا ان تحافظ على صلاتها الحسنة بالعرب ، فلتقف الهجرة فى الحال ، ولتمنع بيع الأراضى ، فان هذين الأمرين هما أساس المشكلات ومنبع الاضطرابات ، ولتعقد مؤتمرا من رؤساء العرب والبريطانيين والأميركيين ، يتفق على الطريقة التى تضمن الراحة والطمانينة فى فلسطين ، ويزيل ما هنالك من خلاف ، حتى يحل محله السلام

ــ اننا نرى رئيس الولايات المتحـــدة الأميركية ، المستر ترومان ، يعلن ــ وتأثيره فى هـــذا الصراع التاريخى معروف ــ ويطلب دخول مائة الف يهودى الى فلسطين الضيقة ، باسم الانسانية والرحمة على حساب العرب الضعفاء ، بينما لا يقبل هو فى الوقت نفســه ، فى وطنـــه أميركا الواسعة الغنية ، الا دخول ٣٩ الف نسمة ! !

ــ احب أن تكونوا على يقين من انه اذا استمرت هذه السياســة ، سياسة استمرار الهجرة وبيع الأراضى ومنع العرب من حقوقهم الطبيعية التى وعدوا بالمحافظة عليهـــا ، فان الحكومتين البريطانيـــة والأميركية ، لا تستهدفان لنقمة العرب وحدهم فحسب ، بل انهما ستستهدفان لنقمة كل من يقول : لا اله الا الله محمد رسول الله ، من عرب وعجم وهند وسند وصين ، وكل مسلم على وجه الكرة الأرضية فى مشرق الأرض ومغربهـا وشمالها وجنوبها . والصهيونيون لا يهمهم مصلحة بريطانيا ، ولا مصلحة اميركا ، ولا مصلحة العرب ، لأنه لا يهمهم الا مصلحة انفسهم . ولو قوى اليهـود فى هذا المكان الدقيق وصارت لهم دولة ، فمن السهل عليهم أن يكونوا فى جانب أى قوة تعادى بريطانيـــا واميركا ، لأن الذين يقـاتلون البريطـــانيين الذين احسنوا اليهم وآووهم ، وقاموا فى وجوههم فى أيام الحرب ، من السهل عليهم أن ينقلبوا عليهم ويتنكروا لهم فى أحرج من هذه الأوقـات .

واخيرا زود الملك اعضاء اللجنة بمذكرة اضافية فى الموضوع

اننى اطيل فى تسجيل راى الملك عبد العزيز فى قضية فلسـطين ، لأن دفاعه عنها كلما واتته الفرصة ، هذا الدفاع الصادق الحار ، مفخرة من مفاخره . ولا اذكر ملكا عربيا أو رئيسا عربيا فى عصره أو بعد عصره ، بذل ما بذله من حجج فى سبيل قضية فلسطين ، أو جاهر برأيه مثله صريحا عاليا ، لأصدقائه من البريطانيين والأميركيين ، محذرا اياهم من عاقبـــة تأييدهم لليهود الصهيونيين . وليتهم نفذوا آراءه ، ووعوا تحذيره ، اذن لما وصل الحال بهم وبنا الى هذا الموقف السوء .

لم يكتف الملك بهذا ، بل أرسل الى المستر ترومان الرئيس الجـديد الجديد للولايات المتحدة الأميركية ، ونصير الصهيونية الأول ، رســالة فى ٢٧ سبتمبر سنة ١٩٤٦ ، قال له فيها :

ــ « ان الصداقة التى تربط بلادى ببلاد الولايات المتحدة الأميركية ، والصداقة التى تأسست بينى وبين الرئيس الراحل ، الرئيس روزفلت ،

والصداقة التى تجددت بينى وبينكم ، تجعلنى شديد الحرص فى المحافظة على هذه الصداقة وتغذيتها ، والعمل على تقويتها بجميع الوسائل الممكنة ، ولهذا تجدوننى الح واكرر فى كل مناسبة أشعر فيهـــا بما يخل بصداقة الولايات المتحدة مع بلادى ومع سائر البلاد العربيـــة ، لكى أزيل ما يمكن أن يعرقل هذا الصفاء .

« ولقد كتبت للراحل العظيم ولفخامتكم عن حقيقة الموقف فى فلسطين والحق الطبيعى للعرب فيها ، وأنه يرجع الى آلاف السنين ، وأن اليهود ليسوا الا فرقة ظالمة باغية معتدية : اعتدت فى أول الأمر باسم الانسانية ، ثم أخذت تظهر عدوانها الصريح بالقوة والجبروت والطغيــان ، مما ليس يخاف على فخامتــكم ، وعلى شعب الولايات المتحـــدة . أضف الى هذا أطماعهم التى بيتوها ، ليس لفلسطين وحدها ، بل لسائر البلاد العربيـــة المجاورة ، ومنها أماكن فى بلادنا المقدسة ...

« لقد دهشت للاذاعات الأخيرة التى تسبت تصريحـــا لفخامتـكم ، بدعوى تأييد اليهـــود فى فلسطين وتامين هجرتهم اليهـــا ، بما يؤثر على الوضع الحاضر ، خلافا للتعهدات السابقة .

« وزاد فى دهشتى أن التصريح الذى نسب أخـيرا الى فخامتــكم ، يتناقض مع البيان الذى طلبت مفوضية الولايات المتحدة الأميركية فى جدة من وزارة خارجيتنا ، أن ينشر فى جريدة « أم القرى » على أنه صادر من البيت الأبيض فى ١٦ أغسطس سنة ١٩٤٦ ، وهو صريح فى أن حكومـــة الولايات المتحدة لم تتقيد بأية فكرة من جانبهـــا لحل مشكلة فلسطين ، واظهرتم أملكم بحلها بواسطة المحادثات بين الحكومة البريطانية وبين وزراء خارجية الدول العربيـــة ، وبين الحكومة البريطانيـــة والفريق الثالث ، واظهرتم فخامتكم رغبتكم فى اتخـــاذ تسهيلات فى الولايات المتحدة لايواء المشردين وفى جملتهم اليهود . ولذلك كانت دهشتى عظيمـــة حين اطلاعى على البيان الأخير الذى نسب الى فخامتكم ، مما جعلنى أشك فى صحـــة نسبته اليكم ، لأنه يتناقض مع وعود حكومة الولايات المتحدة ، والتصريح الذى صدر فى ١٦ أغسطس سنة ١٩٤٦ من البيت الأبيض .

« وانى لعلى يقين من أن شعب الولايات المتحدة الذى بذل دمه وماله فى مقاومة العدوان الغاشم ، لا يمكن أن يسمح بهذا العـــدوان الصهيونى على بلد عربى صديق ، لم يقترف ذنبا غير ايمانه بمبادىء العدل والانصاف

التى قاتلت من أجلها الأمم المتحدة ، وكان من أركانها الولايات المتحدة ، وكان لفخامتكم ــ بعد سلفكم العظيم ــ المجهود العظيم فى هذا السبيل .

« ورغبة منى فى المحافظة على صداقة العرب والشرق مع الولايات المتحدة ، أوضحت لفخامتكم بهذا البيان ، الظلم الذى يمكن أن يحيق بالعرب اذا بذلت اى مساعدات لهذا العدوان الصهيونى .

« وانى لعلى يقين كذلك ، من أن فخامتكم ومن ورائكم شعب الولايات المتحدة ، لا يمكن ان يقبل أن يدعو للحق والعدل والانصاف ، ويحارب من اجل اقرار هذه المبادىء النبيلة فى سائر انحاء الأرض ، ثم يمنع هذا الحق والعدل والانصاف عن العرب فى بلادهم فلسطين التى ورثوها عن آبائهم واجدادهم منذ العصور القديمة » .

وفى ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٤٧ وافقت هيئة الأمم المتحدة على مشروع بتقسيم فلسطين ، فوقف رئيس وفد المملكة العربية السعودية الأمير فيصل ، على منبر الهيئة ليقول فى حزم :

ــ « لقد اتينا الى الجمعية العامة للهيئة ، يملؤنا الأمل بأن الدول الكبرى والصغرى على السواء ، توجه قصارى جهدها لرفع المستوى الأخلاقى . لقد اتينا الى هنا ملؤنا الامل بأن جميع الأمم ستخدم وتؤكد حقوق الانسان والعدالة ، وبأن هذه المنظمة ستكون اداة لتحقيق الأمن والسلام الدوليين . وفى الوقت نفسه كان يحدونا الأمل بأن المنظمة ستكون عبارة عن أساس قوى لتحقيق التفاهم المشترك بين جميع الشعوب .

« لقد تعهدنا أمام الله والتاريخ ، بأن ننفذ الميثاق باخلاص وبحسن نية ، وبذلك نحترم حقوق الانسان ، وندفع كل عدوان . ولكن للأسف ، فان قرار اليوم قد هدم الميثاق وجميع المواثيق التى سبقته .

« لقد شعرنا ، كما شعر الآخرون ، بالضغط الذى جرى على عدة مندوبين فى هذه المنظمة ، من قبل بعض الدول الكبرى ، ليكون تصويتهم فى صالح مشروع التقسيم . ولهذه الأسباب فان المملكة العربية السعودية تود أن تسجل فى هذه المناسبة التاريخية ، بأنها لا تعتبر نفسها ملزمة بالقرار الذى تبنته الجمعية العامة اليوم ، وبأنها تحتفظ لنفسها بكامل الحق فى حرية التصرف ، بالطريقة التى تراها ملائمة لمبادىء الحق والعدالة .

« ان حكومتى تلقى كامل المسؤولية على الأطراف التى عاقت كل وسائل التفاهم والتعاون » .

ثم صرح سموه يومذاك أيضا للصحافيين ، وهو غاضب ، قائلا :

ــ « هناك أمر واحد لا سبيل الى فهمه أو تسويغه ، ذلك هو تدخل حكومة الولايات المتحدة فى مسالة فلسطين وتأييدها الصهيونيين . كما أنه لا يمكن فهم الصمت الذى تلوذ به ازاء اعتداء الصهيونيين وأساليبهم الارهابية .

« فاذا كانت البواعث الانسانية هى التى تدفع الولايات المتحدة الى هذه الساسة ، فلم لا تفتح أبوابها للاجئين البؤساء ، وهى أغنى وأوسع وحابا من فلسطين ، التى اكتظت وابتليت بأولئك المعتدين الغرباء ؟

« وماذا سيكون موقف الولايات المتحدة وشعبها ، اذا جاء برلمان احدى الدول الأجنبية ، واقر قانونا بفتح الأبواب ــ أبواب الولايات المتحدة ــ أمام هجرة اليهود ، لاجئين وغير لاجئين ، لا لشىء ، الا لأن الولايات المتحدة ، رحبة ، فى امكانها استيعاب الملايين ؟

« الا تنهض الحكومة الأميركية والشعب الأميركى فى هذه الحالة ، ويندادان بمثل هذا التدخل ؟

« وما خطب ميثاق الأطلنطى وميثاق هيئة الأمم المتحدة ؟ ان المداد الذى كتبت به موادهما لم يجف بعد ...

« اننا نرى مندوب الولايات المتحدة يحاول اثارة العالم كله من أجل المسألة اليونانية (١) ، فما ظنه بفلسطين ؟ هل نسى مبادىء الميثاق أم أنه ينكرها ؟

---

(١) عندما ضمت ايطاليا البانيا اليها فى نهاية سنة ١٩٣٩ عقب نشوب الحرب العالمية الثانية ، أعلنت بريطانيا ضمانها لاستقلال اليونان ، وصدت اليونان الحملة التى شنتها عليها ايطاليا من الاراضى الالبانية ، لكنها لم تستطع مقاومة الغزو الالمانى فى أوائل سنة ١٩٤١ الذى انتهى فى أواخر مايو من السنة نفسها الى احتلال الالمان جميع الاراضى اليونانية وكذلك جزيرة كريت ، وهرب ملك اليونان الى مصر فاقام فيها لاجئا . وفى أواخر سنة ١٩٤٤ انسحبت الجيوش الالمانية من الاراضى اليونانية وحلت محلها الجيوش الانجليزية ، واقامت انجلترا مجلس وصاية على العرش برياسة رئيس الكنيسة .

وفى ديسمبر ١٩٤٤ وفى يناير ١٩٤٥ قامت اضطرابات شيوعية فى اليونان . وفى ابريل ١٩٤٦ جرت فيها انتخابات حرة ، بعد استقرار الحالة فيها نوعا ما ، أسفرت عن اعادة الملك جورج الثانى الى عرشه ، لكنه توفى بعد اشهر فى عام ١٩٤٧ وخلفه أخوه الملك بول الاول . الا أن حرب العصابات والاضطرابات الشيوعية اشتعلت مرة أخرى فى البلاد واتسع نطاقها ، مما دفع الولايات المتحدة الاميركية الى امداد الحكومة اليونانية بالاسلحة ، وبالعتاد الحربى ، للتغلب على هذه العصابات الشيوعية ، وقد أمكن التغلب عليها فعلا فى النهاية بعد قتال مرير.

« انى لأعجب لشعب يمنع الهجرة الى بلده ، ولكنه يفرضهـا على بلد غـيره » .

وامر الملك عبد العزيز وفده فى هذه الهيئة العالمية السلبية ، بمغادرة نيويورك حالا ، والسفر الى القاهرة للاشـتراك فى اجتماع طارىء لمجلس الجامعة العربيـة . ثم دعا وزير اميركا المفوض فى جدة ، الى مقابلتـه فى الرياض ، واعرب له عن استيائه من موقف بلاده . ثم استصـدر فتوى شرعيـة فى ٢٧ محرم سنة ١٣٦٧ من علماء مملكتـه وقضاتها ، بوجوب الجهاد على المسلمين جميعا ، ضد اليهود المعتـدين على فلسطين . فما أن نشرت الفتوى ، حتى هب الشعب فى المملكة ثائرا لفلسـطين ، وقصـد نوابه ـ أعضاء مجلس الشورى ـ الى القصر الملكى فى جدة ، وقابلوا ولى العهد الأمير سعود ، وعرضوا عليه استعداد الأمة لبذل النفس والنفيـس فى سبيل فلسطين ، تحت لواء المملكة العربية السعودية .. فقال لهم :

ـ « اننا مهتمون بقضية فلسطين اكثر من كل احد ، ونحن جادون فى انقاذها ، وقد تعودنا العمل فى صمت ، وأن تكون أعمالنا اكثر من أقوالنا ، كما تشهد بذلك سيرتنا ، متأسين فى هذه الخطة بالسلف الصالح . وأؤكد لكم اننا لا نود أن نكلف أحدا من سكان هذه البلاد المقدسة بشىء ، واننـا مستعدون لانقـاذ فلسطين بأموالنا وبأرواحنـا ، متكلين على الله الذى نستمد العون منه وحده » .

والف مجلس الشورى لجانا لجمع التبرعات من الشعب لصالح عرب فلسطين ، فجمع فى اليوم الأول ٤١ر٠٣٩١ر١ ريالا سـعوديا ، عدا حلى النساء التى تبرعن بهـا ، والسـيارات والمؤن التى قـدمها اصحابها ، وأرسلت الدفعة الأولى من هذه التبرعات فى أوائل شهر ربيع الاول سنة ١٣٦٧ ، وقدرها مائة الف جنيه ومليون ليرة سـورية ، الى الجامعـة العربية ، لتتولى ارسالها الى عرب فلسطين . وارسلت دفعـة مماثلة فى الشهر التالى .

وسافر كثير من شباب المملكة على نفقتهم الخاصـة الى فلسطين ، للانضمام الى اهلها فى الدفاع عن وطنهم ، فالفوا نحو ثمانين فى المـائة من « فرقة اليرموك » ، اهم فرق المقاومة فى تلك الـسنة .

فلما قرر العرب أن يدخلوا بجيوشهم فلسطين فى ١٥ مايو سنة ١٩٤٨، كان جيش الملك عبد العزيز فى مقدمتها ، وارسل جلالته الى الملك فاروق ملك مصر ، كتابا قال له فيه :

« حضرة صاحب الجلالة الأخ الملك فاروق حفظه الله .

« فى الوقت الذى تتقدم فيه جيوش جلالتكم وجيوش الدول العربية لانقاذ فلسطين ، أضرع الى الله أن يؤيد هذه الجيوش بنصر من عنده ، وأن يثبت أقدام المجاهدين فى سبيله . وانى اذ أحمد الله الذى الف بين قلوبنا للجهاد فى سبيله ، أحمده تعالى على ما وفق اليه جيش مصر الظافر باذن الله ، سائلين الله أن يتابع نصره الذى وعد به عباده المؤمنين .

« وانه يسرنى – كما اعتقد انه يسر جلالتكم – أن يكون سير الجيش السعودى ، فى الجهة التى يسير فيها الجيش المصرى . والله يعلم أننا جميعا لم نكن باغين ولا معتدين ، ولكنا نسير لدفع العدوان ، « أذن للذين يقاتلون بانهم ظلموا ، وان الله على نصرهم لقدير » .

« حفظكم الله وأبقاكم » .

***

وكما كان عبد العزيز مجاهدا فى سبيل فلسطين ، حبا لها واعزازا لأرضها ، واجلالا للمسجد الأقصى المتشرفة به على أرضها ، وتقديرا منه لشعبها ، كان محبا لمصر واهلها ، حريصا على حسن العلاقات بينه وبين ملكها ، وبين شعبه وشعبها ، مع أن الملك فؤاد لم يعترف به ملكا على الحجاز ، الى ان استأثرت به رحمة الله فى ٢٨ ابريل من عام ١٩٣٦ ، وقد ارسل الى فؤاد عدة رسائل فى ظروف شتى ، فلم يجب على واحدة منها ، كما قال الشيخ حافظ وهبه فى كتابه « خمسون عاما فى جزيرة العرب » وفى الصفحة ١٤٦ منه .

ومما زاد فى سوء العلاقة بين عبد العزيز وفؤاد ، حادث المحمل المصرى الذى حدث فى ذى الحجة من عام ١٣٤٤ . فقد وصل ركب المحمل الى جدة ومنها الى مكة ، فاستقر فى مكانه ، وزاره الملك مع ابنائه وحاشيته مرحبا . وفى الثامن من ذى الحجة سار المحمل من مكة الى منى فى طريقه الى عرفات . وفى منى كان « الاخوان » من اهل نجد يملأون الوادى بخيلهم ، فظنوا أن المحمل صنم يعبده المصريون ، ثم فوجئوا بالبوق ينفخ فيه بعض رجال المحمل لدعوة الجنود الى التجمع للمسير ، فقال « الاخوان » عن صوت البوق انه صوت الشيطان ، فأخذوا يرجمون المحمل ورجاله بالحجارة وهم يهللون ويكبرون ، فلم يسع أمير الحج المصرى اللواء محمود عزمى باشا رحمه الله ، الا أن يأمر جنوده باطلاق المدافع عليهم . وانهال الرصاص فى الوادى ، فارسل الملك نجله الأمير

فيصل ليهدىء « الاخـوان » فلم يستطع ، وتفاقم الخطب ، فسار اليهم عبد العزيز غير مبال بالرصاص يسقط يمينـا وشـمالا فى الليل البهيم ، معرضا حياته للخطر ، فناشـد « الاخوان » قائلا لهم : « أذكركم الله فى هـذا الموقف . أذكركم دينـكم . أذكركم حميتكم الاسـلامية وشيمتكم العربية . ان حجاج بيت الله ضيوفنا ، وهم فى وجوهنا ، فلا تمدوا اليهم يدا بأذى . اننى سأقف أمام ركب هذا المحمل ، واعلموا اننى لا ارضى أن تمتد اليه يد بسوء ، وفى عنقى دم يجرى » .

وهدأ « الاخوان » بعد أن قتل من رجالهم خمسة وعشرون ، وفقدوا اربعين بعيرا . ولم يصب من المصريين سوى جنـديين ، أحدهمـا أصيب بحجر فى انفه ، والثانى برصاصة فى يسراه .

وسار المحمل الى عرفات ، ومنهـا عاد الى منى فالى مكة ، ثم الى جدة ، فى طريق عودته الى مصر .

من ذلك اليوم منع الملك فؤاد ارسال المحمل وكسوة الكعبة والصدقات التى كانت تغلهـا أوقاف الحرمين الشريفين ، وظل هذا المنع نحو عشر سنوات ، حتى حلت سنة ١٩٣٦ ، وفيهـا توفى الملك فؤاد كما ذكرت ، وتولت الحكم « وزارة الشعب » برياسة مصطفى النحاس باشا ، طيب الله ثراه ، فسعى فى تحسين العـلاقات بين البلدين ، فأرسل فى ١٨ نوفمبر سنة ١٩٣٦ (٤ رمضان سنة ١٣٥٥) ، عـدة كتب الى فؤاد حمزه بك وكيل الخارجية السعودية ، قال فى أولهـا ان الحكومة المصرية اعتزمت ارسال الكسوة الخاصـة بالكعبة المشرفة من الموسم القـادم للحج ، « وسيقوم المحمل المرافق لهـذه الكسوة من القاهرة فى الوقت الذى كان معتادا أن يقوم فيه ، وعند وصولهما الى جـدة ، يستقر المحمل فيهـا ، وتتوجه الكسوة الى مكة حيث توضع على الكعبـة بالاحتفال اللائق بكرامة المكان ، وبمقام الجالس على عرش الحجاز . وسيطرز على الكسوة اشارة الى انها أهديت الى الكعبة المشرفة ، فى عهد حضرة صاحب الجلالة الملك عبد العزيز آل السعود ، ملك المملكة العربية السعودية » .

وقال فى ثانيها : « ان حكومة مصر تعتزم اتخاذ التدابير اللازمة لاعادة صرف الصدقات لفقراء الحجاز ، ولاستئناف صرف غلة أوقاف الحرمين الشريفين فى الأراضى المقدسة ، وذلك ابتداء من موسم الحج القـادم . وستعين الحكومة المصرية من يتولى الاشراف على صرف الصدقات التى ترسلها ، وهى تعتزم أن تنفق من الأموال التى كانت تخصصها للصدقات ،

ومن فاضل غلة الأوقاف المذكورة ، في حدود القواعد الشرعية لعمارة الحرمين الشريفين واصلاح المرافق المتصلة بهما ، وستبلغ الحكومة المصرية الحكومة السعودية ، ما تضعه من البرامج لأعمال العمارة والاصلاح في حينه ، تمهيدا لاتفاق الحكومتين على التصميمات الخاصة بتلك الأعمال ».

وكذلك عادت المياه الى مجاريها بين الدولتين ، « واسترجعت مصر ما كان لها من شرف كسوة البيت الحرام الذى تغبطها عليه جميع دول الاسلام ، واستطاعت أن تساهم فى خدمة البلد الأمين ، بتعليم جمهرة من ابنائه مختلف العلوم والمعارف ، وبما قامت به من مساعدة المملكة العربية السودية في مختلف النواحى ، وصرف ما لديها من أوقاف الحرمين فى انفع طرقها » (١) .

وقبيل يوم ٨ أكتوبر من عام ١٩٤٤ — وفيه اتفقت الدول العربية المستقلة على انشاء « جامعة الدول العربية » وأصدروا « بروتوكول الاسكندرية » حيث اجتمع مندوبوها متضمنا هذا الاتفاق — بدا التردد على عبد العزيز فى الانضمام الى هذه الجامعة ، فسافر اليه عبد الرحمن عزام بك — السفير بوزارة الخارجية يومذاك — مستغلا تقدير الملك العربى له واعزازه ، فاقنعه بالانضمام ، ورأى الفرصة سانحة ليدبر لقاء بين الملكين : عبد العزيز وفاروق ، لتوثيق العلاقة بين بلديهما .

وقد تم هذا اللقاء فعلا فى سفح جبل « رضوى » . ولندع جريدة « أم القرى » الناطقة باسم الحكومة السعودية ، تصف هذا اللقاء ، فقالت تحت عنوان : « اجتماع رضوى التاريخى » :

— « سجل التاريخ حادثا من أروع حوادثه ، وذكرى من أجمل ذكرياته . ففى الساعة الخامسة — حسب التوقيت العربى — من صباح الأربعاء ١٠ صفر سنة ١٣٦٤ هـ (٢٤ يناير سنة ١٩٤٥ م) ، التقى الملكان الاخوان : حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق ، وحضرة صاحب الجلالة الملك عبد العزيز ، على صعيد الأرض المقدسة ، وعلى مرأى من جبل رضوى الشامخ ، فتعانقا ، وكان ذلك رمزا لما بينهما من محبة ، وما بين شعبيهما من اخاء . وانه لحقيق بالمسلمين جميعا ان يغتبطوا بلقاء ملكين عظيمين من ملوكهم فى الأرض المقدسة ، كما أن العرب فى المشرق والمغرب ، سيستقبلون بهذا اللقاء عهدا من التعاون والاتحاد والعزة .

---

(١) كتاب « الملك العادل » للسيد عبدالحميد الخطيب — الجزء الاول — ص ٢٥٦.

« لقد تجلت الاخوة الاسلامية والرابطة العربيـــة بأجلى مظاهرها في الاجتماعات المتبادلة ، وفى الأحاديث الودية المتعـددة بين صاحبى الجلالة الملكين العظيمين فى المخيم الملكى فى سفوح رضوى . وقد ترك حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق المخيم الملكى بعد ظهر يوم الخميس ، قاصدا المدينـة المنورة لزيارة المسجد النبوى وأداء فريضة الجمعة فى حرمه المبارك » .

وعاد فاروق من المدينة المنورة ، ووجه الدعوة الى عبد العزيز لزيارة مصر ، فقبلهـــا ، على أن يحدد موعدها فيما بعد ، وركب يختـه الملكى « فخر البحار » تحرسه الطوافة « فوزية » فى طريقه الى السويس ، بعد أن أهدى الى عبد العزيز قلادة محمد على الكبير ، وتلقى من جلالته سيفا وخنجرا مرصعين بالجواهر والحجارة الكريمة ، وتبادلا علمى بلديهمـا ، رمزا للصداقة المتينـــة التى تربط بين الأسرتين المالكتين ، وبين الشعبين الشقيقين ، برباط الود الوثيق .

لكن قدر للملك عبد العزيز أن يزور مصر بعد هذا اللقـاء بقليل ، اذ سافر اليهـا ليلقى روزفلت وتشرشل كما سبق القول ، وزاره فاروق فى فندق « أوبرج الفيوم » مكررا دعوته الى زيارة مصر زيارة رسمية .

وقد ذاع يومئذ فى المحافل السياســـية فى القاهرة ، ان اجتمـــاع « رضوى » كان تمهيدا قام به فاروق لاجتمـــاع الزعيمين الغربيين بالملك العربى الخطير .

ولعله من حق التاريخ على أن اذيع سرا أفضى الى به يومذاك الأستاذ كريم ثابت ـ وقد كان زميلى فى جريدة « المقطم » لعدة سنوات ، مندوبا لها فى الدوائر الرسمية العليا ، مصرية وغير مصرية ، قبل أن يختاره الملك مستشارا صحافيـا له فى مايو سنة ١٩٤٦ ، وقبل أن ينعم عليه برتبـة الباشـوية ، وقد صحب الملك فى رحلته الى « رضوى » ـ فقال ان الملك عبد العزيز اقترح على الملك فاروق ، أن تقوم وحـدة بين الدولتين ، على أن تكون الولاية من بعده فى السـعودية لأولاده بهذا الترتيب : سـعود ثم فيصـل ثم خالد ثم محمـد . فوعـــده فاروق ببحث الاقتراح ، ثم طواه الزمـــان .

***

لقد حان أوان تلبية عبد العزيز دعوة أخيه فاروقا ، فاختار لها شهر يناير من عام ١٩٤٦ ، أى بعد نحو عام من لقاء « رضوى » .

ففى عصر يوم الاثنين السابع من هذا الشهر ، غادر الملك عبد العزيز ثغر جدة ، ميمما وجهه شطر مصر ، باليخت الملكى المصرى « المحروسة » ،

تحرسه الطوافتان « فاروق » و « فوزية » ، ومعه تسعة عشر من أنجاله الامراء ورجال حاشيته ، وبعثة شرف مصرية برياسة مراد محسن باشا ناظر الخاصة الملكية ، ظلت فى معيته حتى انتهاء الزيارة بعد أسبوعين .

وقبل ظهر الخميس العاشر من يناير ، وصل اليخت الى ميناء بور توفيق ، حيث جرى الاستقبال العظيم للضيف العربى العظيم .

لقد كنت واحدا من خمسة من الصحافيين ، دعاهم القصر الملكى ليسعدوا بالاشتراك فى هذا الاستقبال ، وبصحبة الضيف الكبير فى القطار الملكى من السويس الى القاهرة ، وكنا جميعا بالملابس الرسمية « الردنجوت » — كما كان جميع المستقبلين — وكتبت يومئذ وصفا فى جريدة الكتلة الوفدية » التى كان يصدرها المرحوم مكرم عبيد باشا ، وكنت مشرفا على تحريرها ، قلت فيه ، وقد نشر فى صباح يوم ١١ يناير :

— « سعدت مصر أمس بوصول ضيفها فى رعاية الله ، فاستقبلته استقبالا دل على ما تكنه من حب له وتقدير ، وتبارى أبناؤها الكرام فى الترحيب بالعاهل العربى مباراة كريمة ، فكل انسان أراد أن يعرب للضيف الخطير عما تنطوى عليه جوانحه من اعزاز له وتكريم ، بل ود كل منهم لو استأثر بهذا الشرف ، فلم يسمع الضيف سوى الهتاف بحياته الغالية المفداة .

« لقد كان استقبال مصر ومليكها أمس للملك العربى عبد العزيز ، آية جديدة ناطقة بقوة الجامعة العربية ، وبرهانا منيرا على ما يسود البلاد العربية جميعا من وئام واخاء ، وود وولاء .

« فمن لم يشهد هذا الاستقبال الرائع العظيم الجليل ، فقد فاته شىء كثير فى حياته . وهل فى مصر من لم يشهده ؟ لقد حرص كبراؤها وسادتها وشيوخها وشبابها ونساؤها ورجالها ، وعمالها وطلبتها ، وكل طبقة فيها ، على أن يشهدوا هذا اليوم الخالد .

« ان الواصف ليحتار كيف يبدأ وصفه ... أيبدأه من عرض البحر وقد خرج أهل السويس فى الزوارق لتحية الضيف الرابض فى اليخت على بعد ساعة من الميناء ؟ أم يبدأه من السويس وقد أقفرت دورها وعماراتها ، وازدحم بساكنيها طريق القطار الملكى ، حتى لم تصبح العين ترى غير كتل بشرية متراصة ، وجسوم تتدافع وتتزاحم ، وأكف تصفق حتى يكاد الدم يتفجر منها ، وحناجر ارتفعت منها الأصوات بالدعاء الى الله أن يحفظ الضيف والمضيف ، وأن يرعى الشرق وأهله برعايته ، فى ظل هذين الفرقدين النيرين .

« أم يبـــدأ الواصف وصفه من القاهرة عاصمة مصر ، حيث اجتمع فيها أهلها لاستقبال ضيفها ؟

« لم أعتد المبالغة ، بل انى لأنفر من المبالغة ، ولكن ما رأيته أمس من السويس الى عابدين ، يزيد على المبالغة ، لأنه كان فوق ما كان منتظرا .

« لقد استقبلت مصر قبل اليوم ملوكا كثيرين شهدنا الحفـاوة بهم ، والترحيب بمقدمهم ... فرأينا قدوم ملك الأفغان (أمان الله خان) وملك الطليان (فيكتور عمانوئيل) ، وغيرهما ، فلم نر يومذاك عشر ما رأينـاه أمس ، ولعل السبب هو الايمان أولا بتضافر الجامعة العربية ، ففيه قوة لها ولشعوب أعضائها ، والاعتزاز ثانيا بملك غيور مخلص للعرب وللعروبة. هو أسد الجزيرة وصقر العرب ، عبد العزيز آل سعود .

« ولقد عرفنا من أســارير الضيف العزيز ، مبلغ تأثره من استقبال مصر له ، حتى لقد رأيت والله الدموع تترقرق فى عينيه ثلاث مرات :

« الأولى : عندما عانق أخاه الفاروق على اليخت « المحروسة » .

« الثانية : عندما شهد استقبال الزقازيق له اســتقبالا فائق الحد والتصـور .

« الثالثة : عندما توسطت به المركبة الملكية ميدان محطـة القاهرة ، اذ حجبت جسوم الناس مبانى الميدان ومعالمه

« وودت والله لو كان لى شرف المثول بين يديه لافضى الى مسمعيـه :

« أيها العاهل العظيم والضيف الكريم :

« ان أبناء هذا الوادى يحبون من يحبــه ملكهم ، وان الملك فاروق يحبك ، فوجب علينا حبك والولاء لك .

« وان أبنــــاء هذا الوادى الأمين ، يحبون كل عربى مخلص للعرب ولقضيتهم ، وهم ، يا طويل العمـر ، يعرفون عنك ورأوا منك ، الاخلاص للعرب ولقضيتهم فى شتى المناسبات ، فما بالكم اذا كان هذا العربى صقر الحجاز ، وهابطا علينا عزيزا كريما ، من مهبط الوحى الأمين ؟

« يا صاحب المدينة المنورة ، ويا ساكن مكة المكرمة :

« ان المصريين ليتفاءلون خيرا بزيارتك ، ففى عطفيك نفحة من الرسول ، وعبق من روضته الشريفة ، عليه ألف صلاة وسلام » (١) .

انما أردت فقط أن أسجل « عينة » من وصف روعة استقبال الملك فى الصحافة فى ذلك اليوم ... لقد استغرق هذا الوصف صفحة ونصف صفحة من الجريدة التى كنت أمثلها .

ووصل الملك ، وعانقه فاروق ، وصحبه فى القطار الملكى الى القاهرة ، ومن محطتها الى قصر عابدين ، ثم الى قصر الزعفران ـ تشغله الآن ادارة جامعة عين شمس ـ حيث نزل جلالة الضيف على الرحب والسعة ، عزيزا كريما ، مع ابنائه الأمراء ، أما رجال الحاشية فقد نزلوا فى فندق الكونتننتال .

لقد ظل الملك فى ضيافة فاروق ثلاثة عشر يوما ، زار فيها بعض المدن والمنشآت الهامة ، واجتمع فى أثنائها الملكان اجتماعات « مغلقة » ـ على حد تعبير صحافة اليوم ـ تحدثا فيها عن وجوب دعم الجامعة العربية ، وعن مستقبل الشعوب العربية ، وضرورة تضافرها وتآزرها لتقوى وتنهض ، وعما يجب عمله لنصرة عرب فلسطين .

فى اليوم التالى ، صلى الملكان الجمعة فى الجامع الأزهر ، فالقى الشيخ مصطفى عبد الرازق باشا شيخ الأزهر رحمه الله ـ وكان اماما للمصلين ـ حديثا دينيا فى حضرتهما بداه بقوله :

ـ « منذ خمسمائة عام ، القى العلامة المشهور جلال الدين السيوطى ، أول درس دينى له ، بحضور قاضى القضاة والأفاضل فى عهده . وقد عثرت على موضوع هذا الدرس فى دار الكتب الأزهرية ، فى مجموعة من خط السيوطى نفسه ، وهو تفسير أول آية من سورة الفتح « انا فتحنا لك فتحا مبينا ، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، وليتم نعمته عليك ، ويهديك صراطا مستقيما ، وينصرك الله نصرا عزيزا » . فرأيته

---

(١) مرة أخرى سعدت بالقرب من الملك عبد العزيز ، كانت فى صيف سنة ١٩٥٣ ، اذ كنت عضوا فى بعثة الحج التى كانت برياسة السيد اللواء محمد نجيب أول رئيس للجمهورية المصرية ، فقد زرنا الملك فى الطائف حيث كان يقيم فى قصر الامير فيصل ، ودعانا الى العشاء على مائدته ، وكان الملك فى أيامه الاخيرة ، وقد وقف أبناؤه الامراء حوله ، وهو متصدر المائدة مع ضيفه اللواء نجيب ، فاذا أعرب عن رغبته فى شىء ، تسابقوا الى تلبيتها مسرورين مبتهجين .. كان هذا فى أغسطس من ذلك العام ، وبعدها بنحو ثلاثة أشهر ، اختاره الله الى جواره الكريم ، فى شهر نوفمبر

من المناسب لهذه الفرصة السعيدة التى جمعت بين ملكين عظيمين صالحين من ملوك الاســـلام ، فى هذا المسجد ، أن أحيى أثرا من آثار عالم أزهرى جليل ، له فى خدمة الاسلام والعلم أحسن الأثر . ومن حسن الطـالع ان هذا الدرس يتناول تفسير هذه الآية الكريمة ، التى وعد الله نبيــه عليــه السلام فتحا مبينا ونصرا عزيزا . وفى بعض الأحاديث أن النبى عليه الصلاة والسلام ، لما انزلت عليه هذه الآية ، قال : لقد أنزلت على آية هى أحب الى من الدنيا وما فيها » .

وفى اليوم التالى زار الضيف ومضيفه جامعـة فؤاد الأول (القـاهرة فيما بعد) ، فرحب بهما ترحيبا جميــلا ، محمود فهمى النقراشى باشا رئيس الوزراء ووزير المعارف بالنيابة ، رحمه الله ، وفخر مصر المرحـوم الدكتور على مصطفى مشرفة مدير الجامعة بالنيـابة . وقدمت الى الملكين مداليات تذكارية ،ومطبوعات وبحوث جامعة .

ثم زار الضيف ميدان سباق الخيل ، ثم شهد عرضا للجيش المصرى اقيم فى ساحة واسعة بسكة السويس ــ القاهرة . ولبى دعوة الى الغداء من السفير البريطانى ، وزار منطقة الأهرام ، والقناطر الخيرية . وفى غده لبى دعوة وزير الخارجية الى الغداء ، وبعد انتهـائه عرض عليــه فيلم سينمائى عن رحلته وزياراته فى القاهرة ، وكان هذا اول فيلم ســينمائى يراه الملك السعودى فى حياته .

وفى اليوم السادس من زيارته ، زار دار البرلمان المصرى ، فالقى بين يديه المرحوم الدكتور محمــد حسين هيكل باشا رئيس مجلس الشيوخ ، كلمة قال فيها :

ــ « لا غرو أن تنبض قلوبنا ، وتهتز جوانحنا بهذا الشعور الفياض ، اكبارا واجلالا لضيف مصر العظيم ، وضيف ملكهـا المحبوب . وان هذا الشعور لتمليه عاطفة صادقة ، وتقدير سام ، لمجيد فعالكم وعظيم حكمتكم . ويمليه كذلك عرفان بالجميل لفضلكم وكرمكم واكرامكم . فقد يسر الله لكثيرين من أعضاء برلماننا ان يؤدوا فرض الله بحج بيته ، وزيارة قبر نبيه عليه الصلاة والسلام ، فكان لهم من جميل رعايتكم باكرام وفادتهم ، وبما احاطتهم به حكومتكم من أسباب العناية والطمانينة والأمن ، ما الهج السنتهم بشكركم ثناء عليكم . ثم انهم راوا فى أرجاء الحجاز كله من مظاهر التقدم والعمران ، ما جعلهم يحمدون الله على ما افاءه على بيته الحرام ، وعلى الأرض الاسلامية المقدسة من فضل ، بسامى حكمتكم وحسن توجهكم . اما ولكم هذا الدين فى أعناقنا وأعناق المسلمين جميعا ، فلن يؤدى ما تفيض

به قلوبنا حفاوة بكم واجلالا لكم ، الا بعض حقكم على كل مسلم ، أينما وجد من بقاع الأرض »

وفى اليوم التالى زار مقر الجامعة العربية ـ وكانت حديثة النشأة ـ فى قصر المناسترلى بالروضة على شاطىء النيل ، حيث أقام عبد الرحمن عزام باشا أمين الجامعة مأدبة غداء للملكين ، دعى اليها الأمراء والنبلاء والوزراء ورجال السلك الديبلوماسى . وقد نضدت فى قاعتها الكبرى سبع موائد للمدعوين ، رمزا للدول السبع التى قامت عليها الجامعة ، فى صدر كل مائدة منها ممثل لاحدى هذه الدول .

فاذا رفعت الموائد ، وحان موعد صلاة العصر ، نهض الملك العربى العظيم ، وأذن للصلاة بنفسه ، ثم ام المصليين . فلما قضيت الصلاة ، انتقل مع فاروق والمدعوين الى ساحة القصر ، فشهدوا عرضا من فرسان العرب، بجيادهم وطبولهم .

ثم القى عزام باشا بين يدى الملكين كلمة قال فيها :

ـ « ان من الفال الحسن والبشرى السعيدة ، أن يكون احتفال الجامعة بكما فى هذا المكان التاريخى . فهنا بجانب هذه الدار ، مقياس النيل ، وهو من أقدم آثار العرب فى هذه البلاد ، اذ يرجع تاريخه الى القرن الثانى الهجرى . وقد بقى هذا المقياس دليلا على عدلهم وحرصهم على أن تقوم أمور الدولة على شريعة بينة وميزان مستقيم ، فاعترف لهم المؤرخون بأنهم كانوا من أسبق الأمم الى تحكيم القانون ، وتقديس الشرائع والعدل

« وعلى مرأى من دار الجامعة نحو الشرق ، مدينة الفسطاط ، أول حاضرة للعرب فى مصر ، وفيها جامع الفتح ، الجامع العتيق الذى بناه عمرو بن العاص ، فبقى عصورا كثيرة معهدا من معاهد العرب العلمية

« يا صاحبى الجلالة : ستبقى ذكرى هذا الاجتماع ماثلة فى نفوس العرب ، مؤثرة فى تاريخهم ، ويبقى « شارع الملك عبد العزيز آل سعود » فى هذه الجزيرة ، يحمل اسمه الكريم ، مذكرا بزيارته المباركة للجامعة العربية ، تلك الزيارة التى جاءت اثر زيارة ملك مصر العظيم للمملكة العربية السعودية ، والتى سن بها الفاروق سنة حسنة ، تتوالى بها ان شاء الله ، زيارات ملوك العرب ورؤسائهم لبعضهم بعضا ، ولدار الجامعة .

« ان العرب مقاصد جليلة كريمة ، يريدونها لخيرهم ولخير الناس جميعا . يريدون الحرية والسلم والتعاون ، حتى يدركوا الغاية العظيمة

التى تليق بهم . وان زعامتكما لمن أقوى الأسباب الى النجاح وادراك الغاية »

وفى الطريق الى السيارة ، قال الملك الضيف لعزام باشا :

ـ « ان مصير هذه الجامعة ، موكول الى ارادة العرب اجمعين ، واستقرارها مقيد باستقرار الايمان بها فى خواطر الأمم التى تتألف منها . فاذا علمت هذه الأمم أنها نافعة لها صالحة لهدايتها ، فهى مستمرة مستقرة ، وهى بفضل هذا الايمان تقاوم ما يعترضها من عقبات وحوائل »

وفى نهاية الزيارة لدار الجامعة ، القى النقراشى باشا رئيس الوزراء على المدعوين بيان الملكين عن هذه الزيارة ، وقد جاء به :

ـ « ان من دواعى سرورنا العظيم ، أن يكون اجتماعنا فى هذا المكان التاريخى ، وفى الدار الجديدة لجامعة الدول العربية ، تلك الجامعة التى كان من حظنا وحظ اخواننا ملوك العرب وامرائهم ورؤسائهم ، أن يضعوا أسسها ، وان يرعوها ويقيموها على دعائم من التعاون والتكافل لخير العرب ولخير البشرية كافة ، ويستجيبوا بذلك لرغبات الشعوب العربية وآمالها

« نحن نرغب فى ان تضرب جامعتنا دائما للناس جميعا ، المثل فى تعاون صادق بين جماعة من الدول ، متضافرة على سلامتها المشتركة ، ومتكافلة فى صون حريتها واستقلالها . ونحن واثقون ان جامعتنا وهى تؤدى هذه الرسالة بين العرب ، لا تريد علوا واستكبارا على أمة أخرى . بل نرى ان من أسمى مقاصدنا ومقاصدها ، التعاون مع أمم الأرض كلها ، على البر والحق والعدل والسلم الدائم . ونحن كذلك نثق بأن جامعتنا التى تربأ بنفسها عن كل تفكير فى العدوان على غيرها ، تحرص كل الحرص على أن تدافع عن الحق والعدل والحرية .

« ولم يكن المجهود العظيم الذى يبذله ملوك العرب وامراؤهم ورؤساؤهم وحكوماتهم وشعوبهم لنصرة عرب فلسطين ، الا تحقيقا لمبادىء الحق والعدل .

ونحن نشارك المسلمين والعرب جميعا فى ايمانهم بأن فلسطين بلاد عربية ، وان من حق أهلها وحق المسلمين والعرب معهم ، أن تبقى عربية كما كانت دائما

« واننا لنقدر كل التقدير ، ما يرمى اليه ميثاق الجامعة العربية ، من ان يكون لكل قطر عربى حقه الواضح فى تقرير مصيره ، والتمتع بحريته الكاملة

« ويسعدنا أن تسير الأقطار العربية بخطى ثابتة نحو الوحدة ، وتضع من النظم ما يزيد فى التقارب بينها واحكام صلاتها ، ويؤدى الى تبادل المنافع والخيرات ، لتسعد جميع طبقات الأمة العربية بعيش أرغد ، وتنعم بالثمرات الكثيرة التى وهبها الله سبحانه أرضهم وبلادهم . ونحن واثقون كل الثقة من أن الشعوب العربية التى تتمثل آمالها فى جامعة الدول العربية لا تريد الا السلم والحق والاخاء ، وانها ستهتدى بسيرة اسلافها ، فتحقق المثل العليا التى يوحيها اليها تاريخ العرب ونهضتهم العظيمة ، ودعوتهم للمساواة العامة بين الشعوب والطوائف والأفراد ، فتتعاون جامعتنا مع المؤسسات الدولية التى تقيمها الأمم المتحدة ، لتحقيق حرية البشر والعدل والاخاء ، فتكفل للحضارة الانسانية سيرا موفقا فى ظلال سلم دائم »

ثم زار الملك عبد العزيز مزارع الملك فاروق فى انشاص بالشرقية ، وبعدها زار الاسكندرية ، وعاد الى القاهرة ، فاستقبل فى قصر الزعفران لفيفا من كبار الصحافيين ، فقال لهم :

ـ « لقد وددت لو طالت اقامتى فى مصر ، فلقد احببتها ، وأحببت اهلها حبا جما ، لا يعادله الا حبى لجلالة أخى الفاروق .

« ان الاكرام الذى أكرمنى به أخى الملك فاروق وشعبه الكريم ، لا أنساه مدى الحياة ، ولن ينساه آل سعود ، مهما تعاقبت الأجيال والسنون

« وفى الحق أنه ما من شىء يستطيع الانسان ان يعمله على ظهر الأرض ، ترحيبا وحفاوة وتكريما ، الا وقد عمل لى فى مصر ، التى لقيت فيها أخا عزيزا ، وملكا كريما محبوبا ، وتردد صدى حب شعبه له ، فيما شهدناه من حفاوته البالغة بنا .

« لقد كنا نسمع عن مصر كثيرا ، ولكن الذى رأيناه فيها ، فاق كل ما كنا نتصوره عنها . رأينا نهضة ورقيا وتقدما فى جميع نواحى الحياة ، ورأينا شعبا متقدما فى الزراعة والصناعة والعلوم والفنون ، فهو قدوة العرب وموضع آمالهم

« وان اجتماع هذه الأمة العربية من اقطارها المختلفة مع مصر ، هو علامة باذن الله على التوفيق ، وعلى بلوغ آمالها ، ووصولها الى المكان اللائق بها

« ووصيتى الى العرب ، أن يلتفوا حول جامعتهم العربية ، وان يحلوا مشاكلهم فيما بينهم ، وان يستعينوا بها على نشر العرفان والرقى ، فيما يعود بالخير على جميع الأمم العربية والاسلامية »

وختم جلالته حديثه اليهم بقوله :

ــ « اننى أعود الى وطنى ، مفعم القلب بأكرم الذكريات واحبها الى نفسى ، عن أخى فاروق وشعبه وبلاده ، بل شعبى وبلادى . فما مصر والمملكة العربية السعودية غير بلد واحد وشعب واحد ، ان بعدت بينهم الشقة ، فقد جمعت بينهم أواصر الاخوة والمحبة والمودة ، تلك الأواصر الوثيقة التى لن تنفصم على الأيام ، عراها ، والتى تبقى خالدة تالدة ، بعون الله ، وبفضل فاروق الموفق ، المرموق بعناية الله »

ثم أهدى الى كل منا صورته موقعا عليها باسمه الكريم ، بعد عبارة « من الواثق بالودود عبد العزيز السعود »

وما زلت محتفظا بهذه الصورة الكريمة ، معتزا بها فخورا .

وكذلك مضت هذه الزيارة ، والضيف العظيم مأخوذ بما أحيط به من تكريم وحفاوة . وغادر السويس بعد ظهر يوم ٢٢ يناير ، مودعا من فاروق ومن شعبه ، ومن أمراء مصر وكبرائها وعلمائها ، كما استقبل ، بل بأروع وافخم . ورافقته بعثة الشرف المصرية الى جدة ، بعد ما أهدى هدايا نفيسة الى كبار المسؤولين والعاملين ، قدر ثمنها بمائتى ألف جنيه ، فكلها موشاة بالذهب وبالحجارة الكريمة وبالقصب المذهب . كما تبرع بعشرات الألوف من الجنيهات للجمعيات الخيرية ولرجال البوليس الذين ندبوا لحراسته ، ولموظفى قصر الزعفران .

لقد صعد الى سطح اليخت ، وهو فى طريق عودته به الى وطنه الغالى، وكان ما يزال فى مياه السويس ، وأجال بصره فى فضاء مصر ، ليشبع ناظريه منه ، ثم التفت الى الأستاذ عباس محمود العقاد عضو بعثة الشرف ، وكان واقفا بجواره ، وقال له ولزملائه أعضاء البعثة :

ــ « بالرغم من أن الهواء شديد بين القاهرة والسويس ، فقد حرصت على أن أقف فى شرفة القطار الملكى طول الطريق . فدعانى النقراشى باشا الى دخول الصالون حذرا من هذا الهواء الشديد ، فقلت له : أريد ان أشبع عينى بكل شبر من أرض مصر »

ثم قال : « يخيل الى أن سبعة عشر مليون مصرى (تعداد سكان مصر فى تلك السنة ١٩٤٦) خرجوا لتحيتى . ليتنى استطيع أن أحيى كل مصرى » .. ودمعت عيناه من شدة التأثر ..

فلما عاد الى جدة ، وجه الى شعبه رسالة كريمة هذا نصها :

ــ « بسم الله الرحمن الرحيم . شعبى العزيز :

« أحمد الله اليكم اذ اعود اليكم من بلاد ، هى بلادى وبلادكم ، مصر العزيزة ، بعد ان لاقيت فيها من جلالة أخى العظيم الملك فاروق ، وحكومته وشعبه ، فى كل شبر مشيت فيه من أرض الكنانة ، من الحفاوة والاكرام ، ما لا يحيط به الوصف ، ولا يفى بحقه وافر الشكر . فقد كانت قلوبهم تتكلم قبل السنتهم ، بما تكنه لى ولبلادكم من حب ، لا يماثله الا ما أشعر به من حب عميق لأخى الفاروق ، ولبلاده ، وما استشعره فى قلوبكم من حب لجلالته ولبلاده .

« ولقد افتتح أخى الفاروق حصن الاخاء ، تحت ظلال رضوى ، وتوج الله ذلك الاخاء ، بمودة لا انفصام لها بمشيئة الله . ومن فضل الله علينا جميعا ، ان كانت كلمتنا فى هذه الزيارة والتى قبلها ، مجتمعة على مواصلة جهودنا فى سبيل تأييد جامعة الدول العربية ، وبذل كل مرتخص وغال ، فى تأييد التضامن بين سائر دول الجامعة بالقلب والروح لما فيه خيرها ، بل لما فيه الخير لسائر البلاد الاسلامية والعربية . وسنستمر على هذه السياسة بمشيئة الله ما حيينا ، وسنورثها بنينا ، حتى يشعر العربى فى كل موطن يمر به من بلاد العرب ، انه يسير فى موطنه ، ويعتز فى كل موطن من تلك المواطن ، بما يعتز به فى وطنه وبلاده .

« شعبى العزيز :

« ليس البيان بمسعف فى وصف مالاقيت فى مملكة اخى الفاروق . لقد كنت أشعر ان جيش مصر العربى هو جيشكم ، وجيشكم هو جيش مصر ، وحضارة مصر هى حضارتكم ، وحضارتكم هى حضارة مصر ، والجيشان والحضارتان ، جند للعرب ، وركن من أركان حضارتهم . بهذه الروح فتح اخى الملك فاروق ، العهد بيننا وبينه ، وبهذه الروح استقبلنى أخى الفاروق وحكومته وشعبه ، وبهذه الروح أعود اليكم .

« ليس لى ، وانتم تستقبلوننى ، وانا استقبل البيت الحرام ، الا ان ادعو الله أن يحفظ للكنانة مليكها ، وأن يبلغها مناها من الهناء والسعادة ، وأن يجمع بفضله قلوب ملوك العرب ورؤسائهم وأمرائهم ، لما فيه العز والخير ، وان يجزى الله عنا ، اخواننا واخواتكم فى مصر ، خير الجزاء ، فقد احاطونى بقلوبهم ، وغمرونى بكرمهم . وما رأء كمن سمعا »

وقد اصدرت مصلحة البريد المصرية ، طوابع من فئات مختلفة تذكارا للزيارة ، زينتها بصورة الملك العربى الجليل .

وفى منتصف مارس سنة ١٩٤٧ احتفلت كلية البوليس المصرية بعيدها الذهبى سنة ١٩٤٧ فاقامت حفلا فى دار الأوبرا الملكية شهده مندوب عن

الملك فاروق ، خطب فيه طالب سعودى ، اسمه عبد الحليم محمد حمزة ، فقال :

« حضرة صاحب السعادة مندوب حضرة صاحب الجلالة ملك مصر المعظم :

« انه لمن سابغ الشرف ، ورائع التوفيق الشخصى ، أن اقف موقفى هذا بين يدى سعادتكم ، نيابة عن زملائى الطلبة السعوديين بكلية البوليس الملكية ، فى مناسبة رائعة ، وحفل بهيج ، وعيد ذهبى

« لقد أوفدنا جلالة مليكنا عبد العزيز آل سعود الى مصر العزيزة ، مع لفيف من زملائنا ، لنقبس نور العلم والمعرفة ، من نبع العلم والعرفان . ولأول مرة التحقت بعثة سعودية من ثلاثة طلبة بكليـة البوليس الملكية ، لتدرس أحدث الأساليب البوليسية فى حفظ الأمن والنظام ، فجئنا جميعا من بلد عربى ، الى شقيق عربى ، وتركنا أهلا لنحل عند أهل . فأى جـد سعيد ، وأية فرصة كريمة اسعدتنا بأن نستظل بكنف جلالة ملك مصر ، وفى رحاب هذا البلد المحبوب ، ففازت بعثتنا برعاية جلالة مليكنا عبد العزيز آل سعود ، معززة برعاية جلالة الفاروق

« واليوم ، اذ تحتفل كليتنا بمرور خمسين عاما على انشائها ، يسعدنا ان نشترك مع زملائنا فى الابتهاج بما ظفرت به من توفيق فى اداء رسالتها ، اداء يبعث الثقة فى اطراد تقدمها ، وتحقيقها للمثل التى كرست الجهود من اجلها ، والآمال التى علقت عليها

« حيا الله المليكين العربيين ، جلالة الملك فاروق الأول ، وجلالة الملك عبد العزيز آل سعود ، وهيأ للبلاد العربية ما تنشد من مجد وسؤدد »

* * *

كم تألم ، رحمه الله ، لما كان يصيب مصر فى سياستها وسـيادتها واستقلالها ، وما كان أسرعه الى وقوفه بجانبها ، يشد من أزرها ، وينافح عن كرامتها ، ويذود عن حرمتها .. قبل تبادل الزيارة بينه وبين ملكها

يقول الشيخ حافظ وهبة فى كتابه « خمسون عاما فى جزيرة العرب » وفى الصفحة الثالثة والسبعين بعد المائة :

ـ « تألم أشد الألم يوم هجم السفير البريطاني على قصر عابدين في يوم ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ ، واعتبر هذا العمل حماقة كبرى من بريطانيا ، فهى اهانة لمصر في شخص مليكها ، وكان من مساعيه غير الظاهـــرة ، ان نقل السفير البريطاني من مصر » (١)

من حلقات سلسلة مساعيه الصادقة ، ما صنعه في عام ١٩٤٧ ، يوم اشتد الخلاف بين مصر وبريطانيا بشأن مستقبل السودان ، مما دفع مصر الى اللجوء الى مجلس الأمن . فقد أمر ولى عهده الأمير سعود ، بالاتصال بوزارة الخارجية البريطانية ، سعيا الى تخفيف حدة التوتر بينهما ، وبغية الوصول الى حل يمكن أن يكون مقبولا من الحكومتين . وفي الوقت نفسه ، أرسل الى سفيره في لندن في ١٦ صفر سنة ١٣٧١ ، برقية جاء بها :

---

(١) في أواخر أيام وزارة حسين سرى باشا في يناير سنة ١٩٤٢ ، اشـــتدت ازمة التموين في البلاد ، حتى كان الاهالى اذا رأوا مركبة تحمل خبزا ، هرعوا اليها ونهبوا ما تحمل ، أما الموسرون فقد وجدوا في البطاطس والمكرونة بديلا !!

واقترنت هـــذه الازمة ، بأزمة سياسية حادة ، اذ فوجئت السلطات البريطـــانية بالمظاهرات تعم أرجاء العاصمة ، ويهتف فيها المتظاهرون هتافات معادية ضد بريطانيـــا وحلفائها ، منادين « الى الامام يا روميل .. تقدم يا روميل » وكان الالمان بقيادة الجنرال روميل يتقدمون زاحفين على مصر من غربها ، من ناحية ليبيا .

فاضطربت أعصـــاب الانجليز ، وأفلت الزمام من يد الوزارة ، فاستقال سرى باشا في ٢ فبراير سنة ١٩٤٢ . ورأى الانجليز ان من الخير لهم ولحلفائهم ، أن تكون في الحكم وزارة وفدية تسيطر على هـــذه الجماهير المقلقة لراحتهم ولامنهم . فدعا الســـفير البريطاني اللورد كيلرن ، رئيس الديوان الملكي احمد حسنين باشا ، وسلمه انذارا الى الملك هذا نصه : « اذا لم أسمع قبل الســـاعة السادسة ـ أى مساء ٤ فبراير ـ ان مصطفى النحاس باشا قد دعى لتأليف الوزارة ، فان جلالة الملك فاروق يجب أن يتحمل ما يترتب على ذلك من نتائج » . فدعا الملك الزعمـــاء ورؤساء الاحزاب ليشاورهم ، فاتفقوا على الاحتجاج على هذا الانذار ، قائلين : « ان في توجيه التبليغ البريطاني ، اعتداء على استقلال البلاد ، ومساسا بمعاهدة الصـــداقة (أى معاهدة ١٩٣٦) ولا يســـع الملك أن يقبل ما يمس اســـتقلال البـــلاد ، ويخل بأحكام المعاهدة » وحمل رئيس الديوان هذا الاحتجاج الى السفير البريطاني ، لرفضـــه وقال انه سيحضر لمقابلة جلالة الملك في الساعة التاسعة مساء . وقبل وصوله جاءت دبابات بريطانية مســلحة بالمدافع وحاصرت قصر عابدين ، ووصل الســفير وبصحبته « الجنرال ستون » قائد القــوات البريطـــانية في مصر وبعض الضباط البريطاليين مسلحين بمسدساتهم . واجتمع السفير والقائد بالملك بحضور رئيس الديوان ، وقدم اليه ورقة بالتنـــازل عن عرشه ، أو يدعو النحاس باشـــا الى تأليف الوزارة ، وانصرفا مع ضباطهم .

— « ان الموقف بينهم — اى بين انجلترا ومصر — محزن . ونعتقد انه لم يكن أحد متأثرا ومتأسفا من هذا الموقف اكثر منا ، لأننا نقدر مخاطر ذلك على الجميع ، اكثر مما يقدره أى انسان آخر . ولذلك كان ، ولا يزال ، قلقنا عظيما . ولا يخفف من حدة هذا القلق ، الا شعورنا برجاحة العقل البريطانى ، وظننا الحسن بالمستر ايدن وبحكمته ، للوصول الى التفاهم مع المصريين . ويحسن أن يكون المستر ايدن واثقا من اننا ما ادخرنا جهدا فى بذل كل ما يمكن من العمل مع اخواننا المصريين . ولكننا — كما يعلم — لا نحب الاعلان عن مساعينا . وزيادة على ذلك ، فانه اذا بدا لنا أى شىء أو طريق يسهل الأمر بينهم وبين مصر ، فسننتهزه ونخبرهم . ولكن كل ما ننتظره الآن ، هو بذل مساعى الحكومة البريطانية مع الحكومة الأميركية، للوصول الى تفاهم مع المصريين . ونحب أن يكون واضحا ، اننا سبق أن ايدنا مصر فى الجامعة العربية فى مطالبها القومية ، ولا يمكن التخلف عن هذا التأييد ، لأن هذا يخل بصفوف الدول العربية . وتأييدنا لمصر يجمع الكلمة ويساعد على السير مجتمعين فى حل مشاكل الشرق ، لأن كل ما يهمنا هو قطع الطريق على الدعاية الشيوعية وعلى الشيوعيين فى البلاد العربية . هذا ما ينبغى أن تخبر به المستر ايدن ، فنحن وسائر الدول العربية على تأييد مصر ، فى الحاضر والمستقبل .

ودعا الملك الزعماء ورؤساء الاحزاب للتشاور مرة اخرى . وفى اجتماعهم هذا ، كلف النحاس باشا بتأليف الوزارة ، فاعتذر بشدة ، فألح عليه الملك فقبل ، وعندئذ كلفه أن يذهب الى دار السفارة البريطانية ليبلغ السفير ، نبأ قبوله التكليف .

وفى اليوم التالى (٥ فبراير) أرسل النحاس باشا الى السفير كتابا قال له فيه : « كلفت بمهمة تأليف الوزارة ، وقبلت هذا التكليف الذى صدر من جلالة الملك ، بما له من الحقوق الدستورية . وليكن مفهوما ان الاساس الذى قبلت عليه هذه المهمة ، هو أن لا المعاهدة البريطانية المصرية ، ولا مركز مصر كدولة مستقلة ذات سيادة ، يسمحان للحليفة بالتدخل فى شؤون مصر الداخلية ، وبخاصة فى تأليف الوزارات أو تغييرها ، وانى آمل أن تتفضلوا بتأييد ما فى خطابى هذا من المعانى » .

فرد السفير عليه بكتاب قال فيه : « لى الشرف أن أؤيد وجهة النظر التى عبر عنها خطاب رفعتكم المرسل منكم بتاريخ اليوم . وانى أؤكد لرفعتكم أن سياسة الحكومة البريطانية قائمة على تحقيق التعاون باخلاص مع حكومة مصر ، كدولة مستقلة ، وحليفة فى تنفيذ المعاهدة المصرية البريطانية ، من غير أى تدخل فى شؤون مصر الداخلية ، ولا فى تأليف الحكومات أو تغييرها » .

« ونود أن تذكروا له كذلك ، اننا نعلق أكبر الأمل عليهم ، وعلى أصدقائنا وأصدقائهم الأميركيين ، فى حل مشاكل الشرق الأوسط ، وبالأخص مسألة مصر التى يتوقف عليها كل الأمور ، لأنه يجب الا نغالط أنفسنا . فانه ما دام هذا الشغب وهذا الاختلاف فى مركز مثل مصر ، تعلمون اهميته فى الشرق الأوسط ، فان الاستقرار لا يمكن ان يكون . أن الشعوب اليوم غيرها بالأمس فى كل البلدان ، وان العدو الألد السوفيتى ، يغذى كل شعور العداء ضد الغربيين . فالحكمة الرشيدة هى الا يكونوا عونا مع العدو ، حتى لا يفلت الزمام ، وتضيع الفرصة . ونحن نعتقد انه اذا استعملت بريطانيا حكمتها واناتها المعهودتين ، مع مصر ، فلن يستعصى عليها الأمر ، وستحمد هى نفسها هذه السياسة الرشيدة » (١)

***

مما لن ينسى للملك عبد العزيز ، توفيقه فى توطيد الأمن فى ارجاء مملكته الشاسعة ، فساد سكانها الاطمئنان على أموالهم وعلى أرواحهم ، وأصبح هذا الأمن الشامل الذى يظل المملكة ، حديث العالم أجمع ، لا العالم الاسلامى أو العربى وحدهما ، فانه لم يتوفر لأقطار أخرى من اقطار المعمورة .

---

(١) فى يوم ٨ يوليو سنة ١٩٤٧ ، أرسل محمود فهمى النقراشى باشا رئيس الوزراء ووزير الخارجية ، « عريضة دعوى الى مجلس الامن » ، الى المستر تريجفى لى السكرتير العام لهيئة الامم المتحدة ، يطلب فيها ادراج موضوع النزاع بين مصر وبريطانيا بشأن السودان فى جدول اعمال مجلس الامن . فحدد المجلس يوم ٥ اغسطس لنظر هذا النزاع ، وفيه القى النقراشى باشا خطابا ندد فيه بمماطلة بريطانيا فى وعودها بالجلاء من وادى النيل ، وقال : اننا لم نعد نعيش فى ظلمات القرن التاسع عشر ، بل نحن نحيا فى عالم اليوم ، عالم الميثاق ، فى عالم الامن الجماعى ، فى عالم يرنو الى النظام والسلم ، فى عالم لا يطيق مغامرات التوسع والاستعمار » .

فرد عليه ممثل بريطانيا السر الكسندر كادوجان ، ردا حوى حججا واهية . فرد عليه النقراشى باشا فى جلسة عقدت فى يوم ١١ اغسطس ردا شديدا قال فى خلاله : « ان بريطانيا كانت حجر عثرة فى سبيل استقلالنا وتقدمنا الوطنى فى المائة عام الاخيرة » . ولم يسكت كادوجان ، فوقف النقراشى فى يوم ١٣ اغسطس ليقول : « ان مصر ترجو ان تحيا حياتها كما تريد ، طليقة من تلك اليدالحديدية التى يبطش بها غزاة عتاة » وفى يوم ٢٢ اغسطس ناقش الاعضاء النزاع ، وقدم الوفد البرازيلى مشروعا لا ينصف مصر ، فرفضه النقراشى . وفى يوم ٢٦ قدم الوفد الاسترالى مشروعا آخر معدلا لمشروع البرازيل ، ولكنه لا يختلف عنه اجحافا وظلما ، فرفضه أيضا . وفى يوم٢٨ القى بيانه الاخير ، وقد ضمنه تفنيده لرد جديد من السر كادوجان ، وطلب من المجلس : « الا يضع نفسه فى موقف الحرج ، بأن يقرر أن هذا النزاع من شأن استمراره تهديد السلم ، ثم لا يتخذ خطوة ايجابية انسانية للاخذ بناصر مصر ، التى تقف امامكم فريسة لغزو دولة استعمارية عاتية » .

وها نحن نقرأ ونسمع فى كل يوم ، عديدا من جرائم السرقات الخطيرة ، وجرائم القتل ، وجرائم الجنس ، وجرائم من كل نوع ولون ، الا السعودية، فان السرقات فيها لا وجود لها ، وجميع الجرائم الأخرى ، هى كذلك لا وجود لها . وما حدث للمغفور له الملك فيصل من اعتداء أثيم على حياته فى ٥ مارس من العام الماضى (١٩٧٥) ، هو حادث فردى ، كما تبين من التحقيق مع المتهم الاثيم ، لم يحدث مثله من عشرات السنين .

مرد هذا الأمن كله ، الى نهج واحد ، سار عليه الملك عبد العزيز ، فاثمر الثمر المرجو ، وهو تطبيق أحكام الشريعة الاسلامية تطبيقا عادلا ، لا يفرق بين الأمير والخفير ، ولا بين الكبير والصغير

نشرت جريدة « المقطم » - وكانت احدى جريدتين يوميتين كبيرتين فى القاهرة ، والثانية « الاهرام » - فى يوم ٨ يناير سنة ١٩٣٠ كلمة لاحد محرريها قال فيها : « سئل قاضى « ينبع » فى تلك السنة : ما نوع القضايا التى تعرض امامكم ؟ فقال : لقد زالت من امامنا قضايا الجنايات والسرقات وما اليها ، بعد ما دخل الملك ابن سعود الحجاز ، ونفذ احكام الشريعة الاسلامية فى أولئك المجرمين الآثمين ، وصارت القضايا مقتصرة على خلافات يسيرة بين التجار » .

ثم مضى المحرر فى كلمته فقال : « ان المسلمين فى أقطار الأرض قاطبة ، يذكرون اليوم البون الشاسع بين عهدين ، عهد الفوضى التى سادت الحجاز ، وجعلت جماعات من المجرمين المسلحين يسيطرون على الارض المقدسة ، فيفرضون على الحجاج ارادتهم ، ويحصلون منهم ما يشاؤون من اتاوات وضرائب .. يذكرون ذلك العهد البغيض ، وما انقلب اليه الحال اليوم ، بفعل جلالة الملك عبد العزيز آل سعود ، ومراعاته لأحكام الشريعة الاسلامية ، من انزال ابلغ العقاب بالذين تحدثهم انفسهم بالتمرد والعصيان والاعتداء على الحجاج ، حتى سكنت كل نأمة فلا تسمع الا هدوءا وسلاما ، وصار اولئك الطغاة العتاة ، يسألون الناس رفدهم وعطاءهم ، ولا يجرؤ الواحد منهم أن يمد يده الى سيارة الحاج ، ولو سارت فى جنح الظلام ، بل ولا القرب منها مطلقا ، فاذا أعطوا شيئا فرحوا ، واذا لم يعطوا قنعوا من الغنيمة بالاياب ، خشية ما يتهددهم من عقاب ، اذا هم حاولوا السرقة أو الاعتداء .

« لقد اتاح هذا الأمن للمسلمين ، اداء فريضة الحج بنفس مطمئنة ، بعد ما كان الحاج لا يسافر الا بعد ان يكتب وصيته ، ويودع أهله وأصدقاءه »

ونشرت « المقطم » ايضا فى ٢٧ من المحرم من عام ١٣٥٧ كلمة للاستاذ محيى الدين رضا المحرر بها ـ رحمه الله ـ قال فيها بعد استقبال الملك عبد العزيز له :

ـ « لقد نوهت بالأمن الضارب فى مملكة الحجاز ، بفضل ما يبديه جلالته من حزم وشدة ، فى معاملة من تحدثهم انفسهم بالعبث ، وذكرت لجلالته ان سيارة تعطلت بى فى طريق مكة ، فنمت الليل فى الصحراء ، كنت فيها فى امان وراحة ، لا يفوقهما ما اشعر به ، وانا فى دارى المقفلة الأبواب ، وقلت ان هذا الأمن لا تحلم به دول أوربا واميركا ذات الاستعداد الهائل . فلم يزد على أن قال : ان هذا كله من فضل الله عز وجل ، وليس عبد العزيز له :

وقد قرات فى كتاب «الرحلة الحجازية» للمرحوم محمد لبيب البتانونى بك وصفا سجل فيه مراحل سفر الخديو عباس حلمى الثانى خديوى مصر، إلى الحجاز لأداء الفريضة ـ وكان ممن صحبوه فيها فى ذى الحجة سنة ١٣٢٧ ـ ديسمبر سنة ١٩٠٩ ـ وضمنه مشاهدات وتعليقات اجتماعية وتاريخية واقتصادية . فقال فى الصفحة الثانية والثلاثين :

ـ « لما صعد الخطيب ـ خطيب الحرم الشريف ـ المنبر ، صعد معه احد الأغوات ، وجلس على الدرجة التى تلى قدميه ! وهذا بلا شك عادة قديمة كانت للمحافظة على الخطيب فى اثناء اشتغاله بالقاء الخطبة ، حتى لا تتسرب اليه يد أثيمة »

وقال فى الصفحة الستين :

ـ « ويتخلف عن الحج كثير من اهل مكة ، ويقيمون بها ، للمحافظة على ديارهم من اللصوص الذين يكثرون فى هذه الآونة ، فيقضون ليلهم سهرا ، بين اطلاق بنادقهم من كل الجهات ، اعلانا بانهم يقظون لكل من يقصدهم بسوء »

وقال فى الصحيفة الثانية والثمانين بعد المائة :

ـ « ووقت تحميل القافلة وتنزيلها ، تكثر السرقات من الحمالة ، وهم سائقو الجمال ، انفسهم . وقد يتفق جمالك مع جمال آخر ، فيحضر فى الوقت الذى يلهيك فيه بصراخه وبصياحه ، فى حين ينقض الآخر على عفشك ويسرق منه ما تصل اليه يده ، حتى اذا هدأ روعك ، شعرت بما نقص من

متاعك ، وهنالك يكثر الصياح ، فيقول واحد : خرجى — أى حقيبتى — ويقول آخر : ملابسى . وغيره يصيح : لحافى ! وهكذا . وبعد هرج ومرج من غير فائدة يسكت الصائحون ، شاكين أمرهم الى الله ، ويشتغلون بتجهيز شؤونهم . ثم يسمعون الاعراب يتصايحون ، هذا يقول : الحطب الحطب . وآخر يقول : الماء الماء وهكذا ، وما هم غير سارقين ما وصلت اليه أيديهم ، ويفرون من حيث لا يشعر بهم أحد

« وبعد العشاء ينام الحجاج ، ويتناوبون السهر على حراسة عفشهم ، ومن سهر منهم رأيته على الدوام يصرخ بكلمات الاضطراب والانزعاج ، كقولهم : « شايفك » ! أو « ابعد » ! او « لا تقترب » ! وهكذا . والحجاج يقضون حاجتهم بين رحالهم فى الغالب ، ومن ابتعد عنها لا بد أن يكون معه أنيس يحرسه عند اشتغاله بنفسه ، والا فانه لا يحرم واحدا من الاعراب ينقض عليه ، ويضربه فى رأسه بعصا يابسة قصيرة ، ضربة تخمد معها انفاسه ثم « يشلحه » من ملابسه ، فاذا استغيبه صحابنه ، قاموا للبحث عنه ، فيجدونه فاقدا الحياة ، فيوارونه التراب على حاله هذه ، واما فاقدا الشعور فيأخذونه ويقومون بشأنه . وقليلا ما ينجو المجنى عليه من هذه الضربة .

« وقد يقطع الحمالة بعض الجمال من القافلة فى أثناء سيرها ، ويتظاهرون باصلاح حملها ، حتى اذا ابتعدت القافلة عنهم ، أوقعوا بركابها ، وهم يستغيثون ولا يغاثون ، وسلبوهم متاعهم ، وكثيرا ما يجهزون عليهم ، ويفرون بجمالهم الى حيث ارادوا »

الكاتب والأديب والصحافى المصرى ذائع الصيت ، المرحوم الأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى ، دعى مع لفيف من الصحافيين المصريين الى الاشتراك فى الاحتفال بأول عيد لجلوس الملك فى عام ١٩٣٠ . فلما عاد وضع كتابا جعل عنوانه : « رحلة الى الحجاز » ، أقتطف منه ما قاله عن الأمن الشامل فى الحجاز ، بأسلوبه الفكه الذى اشتهر به

قال فى الصحيفة العشرين ، بعد نزولهم الى ميناء « ينبع » :

— « ركبنا زورقا الى المدينة ، وهى صغيرة فقيرة ، وبها مساجد كثيرة ، اشهرها مساجد : ابن عطاء ، والخضر ، والسنوسى . وأهلها وكلاء للتجار أو عمال لهم ، وليس فيها زرع ولا ضرع . وبها آلة لتصفية ماء البحر للشرب . فاستقبلنا القائمقام الشيخ مصطفى الخطيب ، وهو من أهلها ، وكان عاملا عليها فى عهد الحسين ، لم تنحه الحكومة السعودية ،

ترفقا منها عن حماقات العزل والتأمير . وانحدرنا الى المدينة نطوف فيها الى ان يخرج الأمير والناس من صلاه الظهر ، فمررنا بالسوق ، وهى حارة ضيقه مسقفه ، على جانبيها الدكاكين ، فيها صنوف شتى من العطارة والبقول والمنسوجات والخبز والأسماك والجراد ، ولم يكن فى الدكاكين احد لأنه كان وقت الصلاة ، وكان الطريق غاصا بالأطفال ، يمشون وراءنا ويحفون بنا ، فى خرق ممزقة ، ومراقع لا تكاد تستر شيئا . فتساءلت : ماذا يحمى هذه المتاجر ان يسرق منها هؤلاء الغلمان الفقراء ؟ فقيل لى : لا خوف منهم ، لأنه ما من احد يجرؤ أن يسرق شيئا .. »

وفى صفحة ٤٦ وصف بيتا متعدد الأبواب و « السلالم » مما استغربه ، فقال : « .. وواستغربت كثرة الأبواب للبيت الواحد وتعدد السلالم ، فقد تكون صاعدا فى وديعة الله وحفظه ، فاذا امامك سلمان ، يذهب كل منهما فى ناحية ، فلا تدرى ايهما تأخذ ، هذا أو ذاك ؟ وخطر لى فى اول الأمر أن سلما يؤدى الى حجرات الرجال ، وان الآخر يفضى الى مساكن السيدات ، ولكن خطر لى ايضا ان الأكثار من السلالم المضللة والأبواب المحيرة ، قد يكون اثرا من أيام القلق وعدم الاطمئنان ، أيام كان الناس يهاجمون فى دورهم على غرة ، ويكر عليهم المعتدون وهم آمنون فى سربهم ، فلا يبعد أن يكون الناس قد آثروا فى الأصل هذا الطراز المحير ، ليتسنى لهم ان يجدوا لهم ولذويهم مخرجا أو مهربا ، اذا اقتحم عليهم الدار عدو .. »

وقال فى صفحة ٥٤ :

– « والأغنياء هناك – أى فى الحجاز – لا يدعون الفقر ، ولا يكتمون مالهم ، وان كانوا لا يضايقون الناس بمظاهر البذخ . والتجارة سوق رائجة مع الشرق والغرب ، والأحاديث صريحة ، والالسنة طليقة ، وفى هذا دلالة على الاطمئنان . وقد كان الناس على ما علمت فى العهد السابق ، يخفون اموالهم ، ويتظاهرون بالمتربة ورقة الحال ، خوفا من الابتزاز ، أو الاقتراض الذى هو فى حكم الاغتصاب والمصادرة . اما الآن ، فيقول لى بعض الأصدقاء : ان الحكومة فى آخر العام قد تقفر خزائنها ، فتحتاج الى المال ، فتقترض من الأعيان ، حتى اذا جاء موسم الحج ، ردت اليهم ما اقرضوها ، بلا ربا

« وقد سألنا فى طريقنا الى مكة سائق السيارة ، وهو شاب كان احد أفراد الفرقة الموسيقية فى جيش الحسين ، ان يحدثنا عن الفرق بين العهدين ، فكان جوابه : ان الأمن مستتب على أحسن حال ، وانه ما من أحد يجرؤ ان يسرق أو يمد يده الى شىء فى الطريق »

وقال فى صفحة ٦٧ ، بأسلوبه الشائق :

ـ « سيذكرنى الحجاز دائما بان عصاى قطعت الطريق بين جدة ومكة، قطعته ساعة كاملة لا تنقص دقيقة بل ولا ثانية ، وردت الناس من الجانبين، ووقفتهم صفين من الناحيتين ، متقابلين ، على أقدامهم ، الا من شاء أن يضرب فى طريق آخر ، ويسير على نهج جديد .

« وشرح ذلك : انه فى اليوم الثالث تغدينا عند الشيخ الطويل ، صاحب « شركة الفناعة للسيارات » . وقد كان على عهد الملك حسين مديرا للجمارك، وكان صاحب مال وفير ، فأتى عليه الاقتراض منه ، ولم ينقذه الا انقراض حكم الحسين وابنه على ، ومجيء العهد السعودى بالأمن والطمأنينة وحرية التجارة ، فاتجر بالسيارات ، وعاد فوقف على رجليه

« وكان من المقرر ان نركب الى مكة بعد الغداء مباشرة ، ولكن الأكل طال، والألوان تعددت ، فنسينا مكة ، وذهلنا عن كل شيء ، واخيرا قمنا عن المائدة آسفين متلفتين متلكئين ! وذهبنا الى بيوتنا ، فخلعنا ثيابنا ، ونضونا كل ما على اجسامنا ، ولففناها ـ اعنى اجسامنا ـ فى مشامل كالبشاكير غير مخيطة ، حتى أقدامنا خلعنا احذيتها واعتضنا منها « السباعيات » ، وهى نعال لها سبعة سيور من الجلد ، تدخل فى بعضها الأصابع ، ويلتف البعض حول المفاصل ، ورمينا طرابيشنا ، ثم جمعنا ثيابنا فى الحقائب ، وتوكلنا على الله .

« وركبنا سيارة لا أدرى من أى طراز هى ، وانما الذى ادريه انها كانت فخمة جديدة ، وانها لم تخرج الا فى يومنا ذاك . وقلنا للسائق : سر على بركة الله ، وبقوة البنزين الذى خلقه الله ، واعلم أننا سنتعشى عند سمو الأمير فى قصر جلالة الملك باذن الله ، وان عليك ان تبلغنا مكة قبل موعد هذا العشاء بوقت يكفى للطواف والسعى ، ثم ارتداء الثياب .

« فقال : الله معنا . ان السيارة جديدة ، وليس فى وسعى أن أسرع بها لئلا تتلف

« فقلنا : فلتتلف ، فان موعد الأمير لا يمكن ارجاؤه

« وما زلنا نلح عليه ونحاوره ونداوره ، حتى اطلقها ومضى بسرعة خمسين كيلو مترا ، وجزنا اول محطة فى الطريق ، ومضينا نبغى الثانية ، واذا به يطل ثم يقف ويلتفت الينا ويقول :

« حريق .. انزلوا ..

« ففتحت الباب من ناحيتى وأسرعت فنزلت . ويظهر أن عصاى التى لم اعن بها من فرط الفزع ، سقطت الى الأرض . وصار فى وسعنا بعد ان بعدنا عن السيارة ، أن ننظر اليها ، وأن نرى الدخان صـــاعدا من بين عجلاتها ، والسائق يهيل عليها الرمل عوضا عن الماء . فانقطع الدخان وشرع يعالجها ، وكانت سيارتان قد أدركتانا ، ونزل زملاؤنا ووقفنا نتحدث ، واقترح رياض أفندى المصور أن يرسمنا ونحن محرمون (كان رياض المصور هذا ، واسمه كاملا رياض شحاته ، مصور الملك فيما بعد) .

« ولا اطيل . ركبنا السيارة ، واستانفنا السير على مهل ، وانسيت العصا ، لأن الخوف من احتراق السيارة صرفنى عنها ، وجعلت وكدى طول الطريق ، ان أخرج وجهى من نافذة السيارة ، وانظر الى العجلة من ناحيتى ، وأن أشم ، لعل دخانا صاعدا فأنبه السائق

« والطريق الى مكة طريقان : واحد للسيارات ، والآخر للجمال ، وقد عددت خمسين جملا فى قافلة ، وكانت تحمل بضائع شتى فى الصـــناديق والأكياس أو الغرائر ، وليس معها سوى طفل واحد ، هو كل حرس هذه القافلة المغرية

« وبلغنـــا « الشميسة » قبل الغروب بدقائق ، واستقبلنا وفد طويل عريض من مكة ، جاء ليرحب بنا ويحتفى بمقدمنا . وبينما نحن نتحادث ، دعى مدير الشرطة أو لا أدرى من هو ، الى التلفون ، فاستأذن وذهب ، ثم عاد ليسأل :

« هل لأحـــدكم عصا ؟

« فقلت : نعم ، انا لى عصا ، ولكنها والله فى السيارة تركتها فيها ، لأنى لا أدرى هل يجوز أو لا يجوز ، أن يحمل المحرم عصا ..

« قال : ما أوصافها ؟

« قلت : وما شانك انت بالله ؟ هى عصا والسلام

« قال : لا لا لا ، لقد وجدت عصا فى الطريق قرب « الرغامة » فقطعت على الناس السبيل ..

« فضحكت وقلت : أؤكد لك أن عصاى تحترم القانون ، ولا تخرج على النظام ، ولا تعرف قطع الطريق ..!!

« فلم يجد حتى بابتسامه ، وضاعت على النكتة فى هذا البلد الجاد ،

« وقال ابحث عنهـا من فضـلك ، فان الطريق مقطوع ، ولا احد يروح ولا أحد يغدو .

« فهرولت فى مشاملى الى السيارة ، فلم أجد العصا ، وقلت له :

« هى عصاى قاطعة الطريق ، فاسمح لى أن اعتذر بالنيابة عنها !

« فمضى عنى الى التلفون ، وخفت أن يأخذونى بها ، ويجزونى بما صنعت ، فان للقوم هنا شريعة غير القانون المدنى ، فعدوت وراءه ، وأسررت اليه وهو يتكلم فى التلفون :

« اذكر من فضلك أن الله تعالى يقول فى كتابه المنزل : « ولا تزر وازرة وزر أخرى »

« فلم يزد على أن التفت الى وقال :

« هل نردها الى جدة ، أو ندركك بها فى مكة ؟

« فقلت : لست أريدها والله ، فانها فاجـرة كما ترى ، وأخشى أن ينزو برأسها خاطر آخر . أفلا يمكن دفنها فى الرمال مثلا ؟

« فقال للتلفون لا لى : ارسلها مع الشرطة الى الضيافة

« فصحت به : لا لا ، ردها الى جدة من فضلك ، فحسبى ما صنعت !

« فقال لمخاطبه فى التلفون : بل ردها الى بيت العوينى فى جدة

« ولست مبالغا فيما رويت عن عصاى ، وما صنعت . فقد كنـا فى الطريق اذا بلغنا محطة واحتاج السائق الى ماء يبرد به جوف السـيارة الذى يغلى ، يصيح بأحد الواقفين : هات ماء ! فلا يتزحزح ، ولا يدنو منا ، بل يقول وهو واقف فى مكانه : تفضل ! فينزل السائق ويجىء منه بما يريد ، وقد سألنا عن سر هذه الجفوة وقلة الذوق ، فقيل لنا : بل هو الخـوف من أن يدنو الغريب من السيارة ، فيتفق لسوء الحظ أن يضيع شىء من الادوات ، أو مما تحمل السيارة ، فيتهم الرجل بالسرقة ، وجزاء السارق هنا قطع اليد . وقد أمن ابن سعود الناس على أرواحهم وأموالهم بشيئين : بقطع يد السارق ، وبما يسمونه « التصبيحة »

« فأما السرقة وقطع اليد ، فأمرهما ظاهر لا يحتاج الى بيان ، وقد قسا ابن السعود فى أول الأمر ليزجر اللصوص ، حتى لقد حكوا لى أن رجلا جاءه بكيس فيه بن ، وقال له : هذا كيس بن وجدته فى الطريق ..

« فسأله : ومن ادراك ان فيه بنا ؟ جسسته أو فتحته او نظرت فيه ؟ ولو وجدت فيه مالا بدلا من البن ، لأخفيته ولم تظهره ، ولم تسع به الى ؟ كلا .. حتى الجس لا يجوز . اقطعوا يده ..

« ومن أجل ذلك يقع الناس على الشيء فى الطريق ، فلا يقربونه ابدا . بل بلغ من ازدجارهم ، انهم ربما مالوا الى طريق آخر ، غير الذى فيه هذا الشيء المطروح ، حتى يمر شرطى فيحمله ويبحث عن صاحبه ، أو يمروا هم بالشرطى فيبلغوه ، واذا لم يقفوا على صاحبه ، نشروا فى « أم القرى » اعلانا تحت عنوان « لقطات »

أما « التصبيحة » فشيء آخر : تكون هناك عشيرة صرت بالسطو ، فينذرها ابن السعود مرة ثم اخرى وثالثة ، فان كفت وتركت النـــاس آمنين ، واستقامت على الهدى ، فيها ولله الحمد . والا همس فى اذن واحد من قواد جيشه « أن يصبحها » . فيذهب الرجل فى فرقة من الجيش من غير أن يفضى الى احد بغايته ومقصده ، ويتجنب فى طريقه الى العشيرة مواضع المـاء ، ويضرب بجيشه فى الصحراء التى لا تطؤها قدم ، ليظل أمره خافيا وغايته مكتومة ، ويقع على العشيرة فى الفجر ، فيصلى بجيشه ، ثم يطلق عليها رجاله ، فيصبحونها وهم يصيحون :

« هبت هبوب الجنة ، أين انت يا باغيها . خيالة التوحيد اخوان من اطاع الله .. فلا يبقون ولا يذرون

« ولم يصبح ابن السعود سوى عشيرة واحدة قرب المدينة مذ دخل الحجاز ، لأن الأمر بعد ذلك لم يحوجه الى « تصبيحة » اخرى »

وقال المازنى فى صفحة ٦٦ :

« .. ولم أر فى الحجاز امراة ولا بائعا متجولا ولا شيخا هما يقوم على الراحتين ، ولا جنازة ميت . ولعلى لم أر مقعدا أو سطيحا أو كسيحا ، لانى لم ابغهم حيث يكونون . ولكنهم على كل حال لا يرون فى الطرقات وعلى أبواب المساجد وافاريز الشوارع . ولكنى استغربت ان اقضى ستة أيام فى الحجاز ، فلا تقع عينى على جنازة ميت ،ولا أسمع ان واحدا مل هذه العاجلة وآثر عليها الآجلة . ولا أدرى ماذا يغرى الناس هناك بالبقاء ، ويحبب اليهم الدنيا وهى بلاقع ، على حين يستطيعون أن ينتقلوا فى طرفة عين ، الى الفردوس وقصوره وحوره وولدانه وانهاره من لبن وعســل وخمر !!! »

وكتب أمين الريحانى — فيلسوف لبنان او فيلسوف « الفربكة » مسقط رأسه — فى كتابه « ملوك العرب » فصلا عنوانه « أساس الملك » قال فيه :

— « العدل أساس الملك ، ومن العدل ما كان يعجب ، ومنه ما كان يرعب ويخيف . وقد شاهدت من مظهريه فى بلاد نجد ، ما لم أشاهده فى البلاد العربية كلها . بل ما وجدت خارج نجد بلادا تتمثل فيها هذه الحكمه « العدل أساس الملك » ذلك التمثيل الصحيح الشامل ، ذاك التمثيل المعجب المرعب معا . عدل ابن سعود كلمة تسمعها فى البحر وفى البر ، وفى طريقك الى نجد قبل أن تصل اليها . كلمة يرددها الركبان فى كل مكان يحكمه سلطان نجد ، من الاحساء الى تهامة ، ومن الربع الخالى الى الحوف ، وما عدل ابن سعود غير الشرع ، غير عدل النبى ، أضف اليه قسوة فى بعض الأحكام الاجتماعية ، اشتهر بها المذهب الوهابى

« العدل أساس الملك ، والأمن أول مظهر من مظاهر العدل . وفى نجد اليوم من الأمن ، ما لاتجده فى بلاد الانتداب السعيدة ، بل فى البلاد المتمدينة ، لا يظننى القارىء مبالغا بما أقول ، ولسيت على ما أقول مستشهدا بنفسى ، مع ان رحلتى النجدية استمرت خمسة أشهر ، قطعت فى أثنائها الدهناء مرتين : جنوبا فى طريقى من الحسا الى الرياض . وشمالا فى طريقى من القصيم الى الكويت . وكانت حقائبى ، وفيها مالى ، مكسرة الأقفال مفتوحة ، وهى مع الحملة بعيدة عنى النهار كله . وكان فى خدمتى اناس من البدو ، ولم أفقد مع ذلك شيئا من حوائجى ، ولا ورقة من أوراقى ..

« كيف تمكن ابن سعود من اقامة مثل هذا الامن وتوطيدة فى بلاده ؟ بامرين : أولهما الشرع . وثانيهما الارادة والوجدان فى تنفيذ أحكام الشرع تنفيذا لا يعرف التردد ولا التمييز ، ولا المحاباة ، ولا الرأفة ، ولا الحنان

« وليس السلطان وحده فى هذا الأمر الخطير ، فان امراءه كلهم يأخذون عنه ويتمثلون به . وبين هؤلاء الأمراء رجل مشهور يحكم « الحسا » ، يجلس فى كرسى القضاء وحده ، فلا تجلس معه الرحمة ، ولا تجلس معه المحاباة . عدله عدل عمر بن الخطاب ، وقسوته قسوة البدو . وهو عبد الله بن جلوى أمير الحسا ، وابن عم السلطان عبد العزيز

« جاء عبد الله ذات يوم ، رجل يشكو ولدا ضربه وشتمه ، فسأله : عبد الله : ومن الولد ؟ فقال الرجل : لا أعرف اسمه . فقال عبد الله : وهل تعرفه اذا عاينته ؟ فأجاب الرجل بالايجاب .. فامر الأمير بأن يجمع عنده

أولاد ذاك الحي من البلد ، فأحضروهم كلهم ، وجاء الشاكي » فنظر اليهم ، واشار الى غريمه . فهمس احد الحضور باذنه : هو ابن الأمير .. فجمجم الرجل بعض كلمات اراد بها الاعتذار والعدول ، فرده الأمير ، وسال الولد ، فاقر بذنبه ، فامر العبيد ان يبسطوه امامه ، ويقدموا للشاكي عسيبا أخضر من النخل ، فتردد العبيد ، واحجم الرجل ، فاخذ الأمير القضيب بيده ، وانهال على ابنه بالضرب وهو يقول : اذا كنا لا نبدأ بأنفسنا ، فكيف نعدل بغيرنا ؟ »

وقرأت فى الصفحة الخامسة والخمسين من كتاب « مشاهداتى فى الحجاز » للاستاذ عباس متولى ، وقد الفه فى سنة ١٩٣٦ ، قوله :

ـ « حديث استتباب الأمن فى الحجاز ، أصبح اليوم حديث الناس وموضع دهشتهم وتعجبهم ، ثم هو سمر المنتديات الاسلامية والمجالس الدينية ، وموضع عناية الصحف والمجلات الشرقية المسلمة ، بل هو الحديث الطيب الذى يلذ للحجاج ان ينقلوه الى بلادهم حين عودتهم من الحجاز وبعدها . ولقد كنت اظن حين أسمع هذه الأخبار انها دعاية طيبة لأهل الحجاز ليس غير ، الى أن كان لى شرف السفر الى هذه البلاد ، وأنا غير مصدق استتباب الأمن بهذا الشكل الذى سمعته .

« ... وصلت جدة وسرت داخل الصحراء الى مكة ، بين جبال مرتفعة وادغال واخاديد وكهوف ، وكنت ارى فى الطريق جيوشا من العرب العرايا والبدو الجياع ، يسابقون السيارة جريا ، ويمدون أيديهم يطلبون احسانا ، فاستبعدت استتباب الأمن فى هذه البلاد الجبلية وفيها مثل هؤلاء السكان الجياع ، اذ ما يمنع الجانى من ارتكاب جنايته ،وهو فى مأمنه من أعين الرقباء ؟ فالكهوف تقيه ، والجبال تحميه ، والحاجة شديدة تمزق أمتن أثواب العفة ... الى أن وقعت حافظة نقود أحد حجاج مركز كفر الشيخ ، حضرة احمد بك العيسوى فى أثناء طوافه حول الكعبة ، وكان بها ٣٢ جنيها مصريا ، وكان احمد بك فى يأس وقنوط من رجوعها ، ولكن اجابة لرغبة صديق كان معه ، ذهب الى حضرة مدير الأمن العام وأخبره بالحادث ، فأحضر الضابط المختص بحراسة المسجد الحرام واخبره بالأمر ، فأخرج الضابط من جيبه عدة حافظات ومن بينها حافظة احمد بك ، فأخذها وهو غير مصدق ان المبلغ بها ، ولما فتحها وجد نقوده كاملة ، فأخرج منها مبلغا كبيرا ليعطيه للضابط اعترافا بجميله وشكرا على امانته ، فرفض أخذه قائلا : انه ما قام بحفظها الا قياما بالواجب الدينى ، واحتفاظا بسمعة هذا البلد الأمين ، وخوفا من رب هذا البيت العتيق ... وتوجهت الى مقر مدير الأمن ، فرأيت جدولا معلقا على بابه الخارجى ، حوى صور الأشرار والمجرمين

وقطاع الطريق ، وقد كتب تحت كل صورة ، اسم صاحبها وقبيلتـه ونوع جنايته ، والصورة تمثله بعد أن اجرى القصاص عليه ، اى بعد ان قطعت يده ، وقد علت الآية الكريمة « ولكم فى القصاص حياة » هذا الجدول .

« حدث هذا فى مكة . ولقد حدث لنا ونحن فى طريقنا الى المدينة فى ليلة مظلمة ، فى جهة منقطعة عن العالم ، مرتفعة الجبال ، لا يسمع الانسان فيها غير صدى صوته وحركة انفاسه ، وخيالات السراب تملأ نفوسنا ذعرا وخوفا ، حتى يخيل الينا انها ستتخطفنا من السيارة ، فتحصنا بها ، وأغمضنا اعيننا حتى لا نرى هذه الأشباح المزعجة ، وما نشعر الا وقد كسرت بنا السيارة ، فاشتد هولنا وعظم فزعنا ، وتحققنا الموت فى هذه الفجاج ، والهلاك من يد الأعراب ، وابينا النزول من السيارة خوفا على حياتنا ، ولكن السائق أكد لنا انها لن تصلح الا اذا نزلنا ، فاسترجعنا الى الله ، ونزلنا منها الى الأرض ، وارواحنا فى ايدينا ، ويخيل الينا ان عزرائيل ممثل فى هؤلاء البدو الذين يسكنون هذه الفجاج ، فزادت مخاوفنا منهم .

« لكن الغريب انهم حينما كسرت السيارة ، جاؤوا يطلبون احسانا ، ولا يسألوننا الحافاء . فرجعت الى نفسى بعض قوتها ، وهدأ خاطرى نوعا ، فاقترب احدهم يطلب منى صدقة ، فأعطيت غيره متظاهرا بالغنى والثراء . فقال : اعطنى يا حاج . . . فقلت : خذ ما تريد من جيبى . فقال : حرام عليك ، وماذا جنيت حتى تريد قطع يدى ؟ لا يابوى ، انا لا اطلب شيئا . فقلت له : وممن تخاف ؟ قال : من بنى سعود . فقلت : اننا فى عزلة عنهم . فقال : انهم يروننى حتى وانا فى داخل هذه المغارة ! !

« فدهشت ، ورددت قول سيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه : « ان الله ليزع بالسلطان ، اكثر مما يزع بالقرآن » واعطيت الرجل ما تيسر ، ولبثنا فى مكاننا الى ساعة متاخرة من الليل ، جلبوا لنا فى اثناء تلك المدة الماء واللبن ، واكرموا وفادتنا مقابل احسان بسيط ، ونام بعضنا تحت حراستهم وفى حمايتهم ، دون ان يتعرض واحد منهم لنا بسوء » .

والقى الأستاذ محمد مكين العضو الصينى فى مجلس ادارة « جماعة التعارف الاسلامى » ، محاضرة فى دار الجماعة بالقاهرة فى يومى ٢٢ و ٢٩ ربيع الاول سنة ١٣٥٣ ، عنوانها « نظرة جامعة الى تاريخ الاسلام فى الصين واحوال المسلمين فيها » ، قال فيها :

« . . . ولا يوجد فى كل وفد صينى سوى شخص او شخصين يقدوان على التفاهم مع الحجازيين بشىء من الصعوبة ، ولاجل هذا كان المطوفون

يغشونهم فى التكاليف ، والبقالون يغالون عليهم فى أسعار الحاجات الضرورية ولا مغيث اذا استغاثوا . أما الآن ، فلله الحمد ، لم نسمع هذه الشكاوى بعد ما تولى صاحب الجلالة الملك عبد العزيز بن سعود ، حماية البلد الحرام » .

***

لقد رغب بعض كبار رجال القانون والفكر فى أوربا ، فى الاجتماع بالعلماء فى المملكة العربية السعودية « للتعمق فى مفاهيم حقوق الانسان فى الاسلام » واعربوا عن رغبتهم هذه لسفير المملكة فى باريس ، فأبلغها الى وزارة العدل السعودية ، فعقدت ندوة علمية فى الرياض ، بدأت حلقاتها فى يوم ٢٢ مارس سنة ١٩٧٢ (٧ صفر سنة ١٣٩٢) ، فأثيرت « عقوبة السرقة فى الاسلام ونتائجها المقارنة » فقال رئيس الوفد السعودى ، وهو رئيس الندوة كذلك، معالى وزير العدل الشيخ محمد الحركان :

« ... أما جريمة السرقة وعقوبة قطع اليد عليها ، عندما تنتفى الشبهات عن الجريمة ، ومنها أن ترتكب بدافع المجاعة ، مثلا ، فاننا مع الأساتذة الحقوقيين فى قساوة العقوبة . غير أن معظم جرائم السرقة فى بلاد الغرب ، هى جرائم مسلحة ، ولذلك كان الغالب فى جرائم السرقة ، أن لا تتم الا بعد قتل المسروق منه . واننا نتساءل : لماذا الشفقة على يد السارق ، دون الشفقة على رقبة المسروق منه ؟ » .

وتابع رئيس الوفد السعودى كلامه : « غير ان قساوة حكم عقوبة السرقة فى الاسلام ، هى التى صانت يد السارق من القطع ، كما صانت روح المسروق منه ، وحفظت السلام للجميع . وان عقوبة القطع ليد السارق لا تكون الا علنية ، وذلك من أجل المبالغة فى الردع » .

وهنا علق الدكتور معروف الدواليبى ــ وهو وزير سورى سابق وسافر الى السعودية للعمل بها ــ عضو الوفد السعودى ، قائلا :

ــ « اننى أعلن أنه قد مضى على فى هذه البلاد سبع سنوات ، ولم أسمع ولم أشاهد قطع يد للسرقة ، وذلك لندرته . وهكذا لم يبق من هذه العقوبة الا قساوة الحكم التى جعلت الناس جميعا فى أمن واستقرار ، وحفظت حتى على الراغب فى السرقة سلامة يده ، اذ منعته قساوة حكم العقوبة نفسها من الوقوع فى الجريمة . ان هذه البلاد عندما كانت فى ظل قانون العقوبات الفرنسى فى عهد الدولة العثمانية ، ماكان يستطيع الحجاج السير فى أمان على مالهم وأرواحهم ، ما بين المدينتين المقدستين : المدينة المنورة ومكة المكرمة ،

الا فى ظل حراسة قوية من الجيش . ولكن عندما انتقل الحكم فى هذه البلاد الى الدولة السعودية ، وأعلنت فيها شريعة القرآن ، اختفت الجريمة فوراً، وأصبح المسافر من الظهران على الخليج ، الى جدة على البحر الأحمر ، فضلا عن السفر فيما بين المدينتين المقدستين ، يستطيع متابعة سفره وحده فى سيارته الخاصة ، وان يخترق الصحراء ، ويجتاز أكثر من الف وخمسمائة كيلو متر ، دون أن يخشى على نفسه او على ماله ، ولو بلغ ماله الملايين من الدولارات ، ولو كان أجنبيا عن البلاد » .

وعاد رئيس الوفد السعودى الى الحديث ليقول :

ـ « ان أموال الدولة هنا ـ حيث تطبق الشريعة الاسلامية ـ تنقل فى سيارة عادية ما بين مدينة واخرى ، ومصرف وآخر ، دون اية حراسة ولا حماية ، غير سائق السيارة نفسه ، ولكن خبرونى أيها السادة : هل تستطيع دولكم فى الغرب أن تنقل مبلغا من المال من مصرف الى آخر فى احدى العواصم ، دون حراسته بالعدد الاكبير من الحراس المسلحين ، وبالعدد اللازم من السيارات المصفحة ؟ هنا فقط ايها السادة ، وفى هذه البلاد حيث تطبق فيها أحكام الشريعة الاسلامية ، استطاع وزير خاجية الولايات المتحدة الأميركية ، المستر روجرز ، فى زيارته للمملكة العربية السعودية فى العام الماضى ، ومرافقوه ، التخلى عن سياراتهم المصفحة التى رافقتهم فى طائرات خاصة فى زيارة اكثر من عشر دول ... هنا فقط ، رفضت المملكة العربية السعودية قبول انتقال هؤلاء الضيوف فى سياراتهم المصفحة هذه ، ولم يتم المستر روجرز نفسه زيارته ، حتى تخلى اخيرا عن حرس الشرف الذى يصحب ، فى العادة ، الضيوف من الدول الأجنبية ، ونزل الى السوق وحده وبدون حراسة ، وقال : هنا ، وفى هذه البلاد فقط ، يشعر الانسان بالأمان وبالاستغناء عن الحراسة » .

ثم اختتم حديثه قائلا : « وبعد ، أيها الضيوف الكرام : الا تشعرون معنا بعد هذه النتائج الباهرة من الأمن والاستقرار والاطمئنان فى هذه البلاد على النفس والمال ، انه من الواجب علينا ان نتمسك بأحكام ديننا فى عقوبة هذه الجرائم التى كادت لا تذكر فى هذه البلاد ، فى حين لا يأمن الانسان مثل ذلك ، لا على نفسه ولا على ماله ، فى جميع العواصم الكبرى المتحضرة التى تحكمها القوانين البشرية ؟ اننى لا ازال اذكر فى الصيف الأسبق حينما كنت فى باريس ، حادث السطو المسلح ، على اكبر مطعم من مطاعم باريس ، بالقرب من شارع الشانزليزيه ، وبحضور المئات من الزبائن ، حيث تمكن المجرمون من افراغ صندوق المطعم ، بينما جميع الزبائن مشدوهون ،

لا يستطيعون حراكا ، وقد اصبحنا والخبر منشور فى جميـــع الصحف الباريسية » (١) .

وكان الوفد الحقوقى الأوربى برياسة المستر سيد ماك برايد الأســتاذ بجامعة دبلن ووزير خارجية ايرلندا السابق ، والرئيس السابق أيضا لاتحاد المجلس الأوربى ، والسكرتير العام السابق كذلك للجنة التشريعية الدولية .

* * *

وبعد : فقد اخترت اربع صفحات ذهبية من تاريخ عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود ، الحافل بكل جليل وخطير ، هى اظهر ما عرف عنه واشتهر به :

الاولى : غزوه الرياض بأربعين رجلا ، وارساؤه قواعد مملكة عتيدة ، هى اليوم فى مقدمة شقيقاتها العربيات : عزا وجاها وسلطانا .

الثانية : موقفه الكريم العظيم المشرف من قضية فلسطين ، المتمثل فى دفاعه عنها ، دفاعا سنده الدليل والحجة والبرهان ، ومصارحته اصدقاءه من الأمريكيين والبريطانيين بسوء عاقبة تأييدهم الصهيونية ، وتحذيرهم من مغبة عدائهم العرب . ولقد تحقق ما حذر منه وأنذر به .

الثالثة : حبه مصر وشعبها ، ووقوفه بجانبها مدافعا عنها .

الرابعة : هذا الأمن الشامل الذى تنعم به مملكته ، ويسود جميع أرجائها مع سعة أرضها ، مما لم يتوفر الى اليوم فى أعظم دول العالم حضارة ومدنية ورقيـــا .

ولعلى بعرض هذه الصفحات البيض ـ وكل صفحاته بيض ـ من حياته ، أكون قد وفقت فى رسم صورة صادقة لهذا الملك العربى العظيم ، امام قراء العربية ، لا زيف فيها ولا تزوير ولا تجميل .

ومع هذا ، فلكى أكمل لهم صورته ، أجمل فيما يلى من السطور ، حقائق عرفناها عنه ، ويجب أن يعرفها كل عربى :

● كان الرجل حفيظا على دينه ، لا يقبل ان يمسسه ســوء من قريب أو من بعيد ، ولا يقبل فى سبيل هذا الحفاظ شفاعة شفيع فى منحرف ، ولو كان هذا الشفيع من الدين يحمل لهم كل تقدير واحترام .

حدثنى المرحوم محمد على علوبة باشا ـ من وزراء مصر السابقين ومن المجاهدين العرب فى شتى الميادين ، وقد عقدت فصلا عن حياته فى الكتــاب

(١) من كراسة من الندوة أصدرتها وزارة الاعلام السعودية فى سنة عقد الندوة ـ ص ٢٧

الأول من « رجال ومواقف » ـ منذ اكثر من ثلاثين عاما ، وكنا فى داره بمصر الجديدة ، عن شدة تمسك الملك عبد العزيز بدينه ، فى معرض الحديث عن نظرة بعض زعماء العرب يومذاك الى الدين ورسالته ، فقال :

ـ لجأ الى شاب سعودى اسمه عبد الله القصيمى ، لأتوسط له عند الملك عبد العزيز كي يرضى عنه ويصفح ، فيعيده الى ساحة رعايته وعطفه، فكتبت الى الملك راجيا رضاءه عنه ، فما لبثت أن تلقيت من جلالته كتابا يفيض بشدة الحرص على الدين « ومقاومة المعتدين عليه بلا رحمة أو شفقة » .

واخرج علوبة باشا من درج بمكتبه ، كتاب الملك اليه ، وقدمه الى لأقرأه وتاريخه ١٠ ربيع الثانى سنة ١٣٦٦ ، فقرات :

« بسم الله الرحمن الرحيم

« من عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل ، الى صاحب السعادة محمد على علوبة باشا سلمه الله

« السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد ، فقد تلقينا كتاب سعادتكم المؤرخ ٢٧ ربيع الأول ١٣٦٦ ، وأحطنا علما بما جاء فيه ، ونحن اذ نشكر لكم عواطفكم ، وحسن مقاصدكم ، نحب أن نوضح لكم حقيقة قضية عبد الله القصيمى .

« تعلمون سعادتكم أن المذكور هو من رعايانا ، ونحن الذين أحطناه بمساعداتنا ومعاونتنا ، وكنا نعنى بأمره العناية التامة ، ولا قصرنا عنه فى شيء حينما كان يقوم بواجبه نحو دينه ، ولكنه حاد أخيرا عن سبيل الحق، وتنكب الطريق السوى ، فأصدر كتابه « هذه هى الأغلال » الذى ملأه بما يمس الدين، ويخالف عقيدة المسلمين. ولما كان المذكور من رعايانا وخاصتنا، صار لزاما علينا ان ندعوه الى الحق . ونحن اذا راينا امرا يمس الدين قاومناه ولا نبالى ايا كان الفاعل ، سواء كان القصيمى أو غيره . وقد دعوناه الى التوبة والرجوع الى الحق ، ولكنه لم يفعل . لذلك فمن المستحيل ان نرضى عن المذكور الا اذا رجع الى الصواب وخطأ نفسه . وتعلمون اننا لسنا ممن يتعصبون فى أمور لا فائدة منها، اذ أن هنالك كتبا لاتحصى مطبوعة ، مشحونة بالعقائد الفاسدة . اما ان يصدر مثل ذلك من احد رعايانا ، وممن ينتسب الينا ، فلا نقدر على السكوت عليه ، ونبرأ الى الله منه . فالقصيمى اذا رجع الى الصواب،كان بها ، والا فلا . وسعادتكم تعلمون عقيدتنا ، هى واضحة مثل الشمس ، ولا نقبل ولا نوافق على مسها أو تبديلها .

« هذه هى حقيقة القضية (١) ، شرحناها لسعادتكم ، لتكونوا على بينة منهـا .

« تولانا الله واياكم بعنايته وتوفيقه . والسلام » .

ختم « عبد العزيز »

وهذه صورة زنكوغرافية لكتاب الملك :

بسم الله الرحمن الرحيم

الرقم ٢١/ ١/ ٥٨/ ١٠٥٤٩

التاريخ ١٠/ ٤/ ١٣٦٦

من عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل الى صاحب السعادة محمد على علوبه باشا سلمه الله

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . وبعد فقد تلقينا كتاب سعادتكم المؤرخ ٢٧ ربيع الاول ١٣٦٦ واحطنا علما بما جاء فيه . ونحن اذ نشكر لكم عواطفكم وحسن مقاصدكم نحب ان نوضح لكم حقيقة قضية عبد الله القصيمى .

تعلمون سعادتكم ان المذكور هو من رعايانا ونحن الذين احطناه بمساعداتنا ومعاونتنا وكنا نعنى بامره العناية التامة ولاقصرنا عنه فى شىء حينما كان يقوم بواجبه نحو دينه ولكنه حاد اخيرا عن سبيل الحق وتنكب الطريق السوى فاصدر كتابه (هذه هى الاغلال) الذى ملأه بما يمس بالدين ويخالف عقيدة المسلمين ولما كان المذكور من رعايانا وخاصتنا صار لزاما علينا ان ندعوه الى الحق ونحن اذا راينا امرا يمس بالدين قاومناه ولانبالى ايا كان الفاعل سواء كان القصيمى اوغيره وقد دعوناه الى التوبة والرجوع الى الحق ولكنه لم يفعل . لذلك فمن المستحيل ان نرضى عن المذكور الا اذا رجع الى الصواب وخطأ نفسه . وتعلمون اننا لسنا ممن يتعصبون فى امور لافائدة منها اذ ان هنالك كتبا لاتحصى مطبوعة مشحونة بالعقائد الفاسدة اما ان يصدر مثل ذلك من احد رعايانا وممن ينتسب الينا فلا نقدر على السكوت عليه ونبرأ الى الله منه فالقصيمى اذا رجع الى الصواب كان بها والا فلا . وسعادتكم تعلمون عقيدتنا هى واضحة مثل الشمس ولانقبل ولا نوافق على مسها او تبديلها هذه هى حقيقة القضية شرحناها لسعادتكم لتكونوا على بينة منها تولانا الله واياكم بعنايته وتوفيقه والسلام

---

(١) عبد الله القصيمى صاحب هذه القضية ، هو كاتب سعودى الف كتابه « هذه هى الاغلال » فى عام ١٩٤٨ ، سخر فيه من الخالق عز وجل ومن قدرته ، ومن النبى عليه الصلاة

● حتى مع أبنائه ، هو قاس شديد عليهم فى سبيل حفاظه على الدين . فقد تفقد بعد صلاة الجمعة ابنا له فى المسجد ، فلم يجده ، ثم رآه فى الدار، فسأله عن سبب عدم صلاته الجمعة ، فقال له انه تأخر عنها عن غير قصد ، فأمر بسجنه وسجن خدمه ، حتى لا يتخلفوا عن الجمعة مرة أخرى .

● وانطلاقا من تدينه الشديد باعتباره امام الأئمة ، نراه يندد بالشيوعيين كما رأيت فى كتابه الى المستر ايدن . ثم نراه فى رسالة بعث بها الى المندوب السامى البريطانى فى مصر فى ١٢ جمادى الثانية سنة ١٣٤٦ ، يبدى كرهه الشديد للسوفييت ولحكومتهم ؛ فقال عن هذه الحكومة عندما حاولت حيازة نفوذ إقتصادى فى بلاده :

ـ « قد يكون المفيد لاقتصاديات بلادنا ، تسهيل التجارة مع روسيا ، ولكننا نرى فى ذلك ضررا لا يستهان به على منتجات البلاد البريطانية . وانه وان لم يكن بيننا وبين الحكومة البريطانية أية اتفاقية تجارية لرعاية منتجاتها ، فاننا حبا فى المحافظة على المصالح البريطانية ومقاومة لمنافسيها ، وقفت حكومتنا فى الحجاز ذلك الموقف الذى لا بد أن بلغكم أمره . على أن السوفييت لم يألوا جهدا فى القرب منا وتقديم المساعدات لنا ، وهم على موقفهم وقربهم من كثير من بلاد الشرق ، لكننا لم نزل حريصين على صداقتنا مع الحكومة البريطانية » .

والسلام ومن دعوته ورسالته ، ومن الاسلام والمسلمين جميعا ، فقامت عليه قيامة بنى وطنه ، فغادر السعودية الى جاراتها ، فاذا افتضح أمره فى واحدة منها ، أبعدته عن ارضها ،وهكذا عاش شريدا ، وقد يكون شريدا الى اليوم .

فلما هبط القاهرة طريدا وضيفا ثقيلا ، لجأ الى المغفور له محمد على علوبة باشا بعد ما علم من تقدير الملك عبد العزيز له ، ليتوسط له عند جلالته كما رأيت .

وقد ظهرت ثلاثة كتب فى الرد عليه بالحجة والبرهان ، هى « الشواهد والنصوص من كتاب الاغلال ، على ما فيه من زيغ وكفر وضلال » للاستاذ محمد عبد الرازق حمزة المدرس بالحرم المكى الشريف ، وقدم له العالم والمربى المصرى المشهور المرحوم محمد احمد الغمراوى بك . ثم كتاب « تنزيه الدين وحملته ورجاله ،مما افتراه القصيمى فى أغلاله » لعلامة القصيم الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدى . ثم كتاب « الرد على ملحد القصيم » للاستاذ عبد الله بن على بن باديس

ومن الغريب ان للقصيمى هذا كتابا اسماه « الثورة الوهابية » أصدره فى عام ١٩٣٦ ، تحدث فيه عن الاسلام حديثا طيبا ، ومن دعوة محمد بن عبد الوهاب حديث المقتنع بها المؤيد لها ، وعن الملك عبد العزيز وفضله فى توحيد الجزيرة ، بأسلوب ينم على تقديره لجلالته ، ولما صنع ويصنع من أجل شعبه . فما الذى مال به من الهدى الى الضلال ؟ وهل أغراه أعداء الاسلام بالمال ،بر كما استنتج بعض من ردوا عليه ؟

ومما استرعى انتباه المراقبين السياسيين فى تلك السنوات ، ان روسيا كانت أولى الدول التى اعترفت بالمملكة العربية السعودية عند قيامها ، فقالوا يومذاك : انه « طعم » تقدمه روسيا للدولة الناشئة كى تغريها على التعامل معهـا .

والرجل البدوى العظيم الصريح ، مع صداقته لبريطانيا هذه الصداقة التى يحرص عليها فى كل وقت وحين ، لم تمنعه هذه الصداقة الوطيدة من ان يصارح ممثلها ورسولها اليه ، جلبرت كلايتون ، فى اجتماعهما فى عام ١٣٤٣ : « باننا مستعدون للتعاون مع بريطانيا والمحافظة على مصالحها ، ما دامت مصالح العرب مصونة . وهذا أمر أبلغنا الحكومة البريطانية به ، أكثر من مرة ، والعرب جميعا يعرفون هذا » .

ثم اظهر الملك ، مع هذا ، اعجابه بالانجليز وشرح أسبابه ، فقـال له كلايتـون :

— « ان أسباب اعجابكم صحيحة . ولكن هذا الملك الواسع لم يؤسس الا فى مئات السنين ، ولكن الا يصح لنا نحن الانجليز أن نعجب بك ؟ فانك فى ثلاثين سـنة قد أسست ملكا واسعا ، واذا اطرد لك هـذا الفتح وهذا التقدم ، فاظن انه فى نصف المدة التى اسسنا فيها ملكنا ، تؤسس انت امبراطورية مثل أو أكبر من امبراطوريتنا . وهذا ليس ببعيد اذا ساعدتكم ظروف الزمان ، واخذتم انتم بسنة التقدم . فان أسلافكم العرب قـد شيدوا امبراطورية عظيمة فى مدة قصيرة جدا لم يعرف التاريخ مثلها » .

فقال له الملك : « وان كانت هذه هى أمنية العرب ، الا اننى لا أعتقد فى نفسى القدرة على تحقيقها . وكل ما أتمناه هو أن يجعل الله من رجالنا ، من يماثلونكم فى الاخلاص والتضحية لبلادهم »

ولأدلك على صدق فراسة بريطـانيا فيه ، وصحة بنوءتها بقـوته فى الساحة العربية ، ما قاله المعتمد البريطانى فى مصر للشريف حسين فى ٥ نوفمبر سنة ١٩١٩ فى رسالة منه اليه :

— « اننى أرجوكم أعظم الرجاء فى أن تجتهدوا لمنع كل البواعث الجوهرية التى تؤدى الى سوء التفاهم مع الأمير سعود بشأن سياستكم نحوه ، فانه ، وان كان أقل درجة من جلالتكم وأضعف موارد ، لا ننكر انه ذو تأثير واهمية فى السياسة العربية »

● كان يقول دائما : لقد ترعرعت فى البادية ، فلا اعرف الكلام المزوق ، ولكن أعرف الحقيقة عارية عن كل تزويق . ان فخرنا وعزنا بالاسلام . والله

لا يهمني مال قارون ولا غيره ، وكل همي موجه لاعلاء كلمة الدين ، واعزاز المسلمين .

وكان يقول ايضا : احب الصراحة فى القول ، وثلاثة اكرههم ولا اقبلهم : رجل يكذب على متعمدا ، ورجل ذو هوى ، ورجل متملق ، فهو ابغض الناس عندى .

● من صراحته ، ما رواه لى المرحوم عبد العزيز الثعالبى الزعيم التونسى المشهور ــ وقد اقام مدة طويلة فى مصر متخذا منها منفى اختياريا امام ملاحقة الفرنسيين له ــ بعد عودته الى القاهرة من الرياض وقد كان فيها ضيفا على الملك عبد العزيز .

قال له الملك فى ذات مساء : يسموننا بالوهابيين ، ويسمون مذهبنا الوهابى ، باعتباره مذهبا خاصا ، وهذا خطأ فاحش نشأ عن الدعايات الكاذبة التى كان يبثها ذوو الأغراض . نحن لسنا أصحاب مذهب جديد أو عقيدة جديدة ، ولم يات محمد بن عبد الوهاب بالجديد ، فعقيدتنا هى عقيدة السلف الصالح التى جاءت فى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وما كان عليه السلف الصالح . ونحن نحترم الائمة الأربعة ، فلا فرق عندنا بين مالك والشافعى وأحمد بن حنبل وأبى حنيفة . فكلهم محترمون فى نظرنا .

● كان كريما يبذل بسخاء للمحتاجين ليؤمنهم من الحاجة . اعطى فقيرا صرة سأله الصدقة ، فقال له سائق سيارته : ان هذه الصرة ليس فيها ريالات من الفضة ، لكن بها جنيهات من الذهب عددها ثلثمائة جنيه . فنادى الفقير ، فلبى نداءه مترددا ، ظانا انه سيسترد منه الصرة . فقال له الملك : أردت أن أهبك ريالات ، وما نويت الا هذا ، ولكن الله هو الذى وهبك هذا الذهب ، فالهبة ليست هبتى لكنها هبة الله اليك ، فأشكر الله وحده عز وجل ، واشتر بها نخيلا ، واعمل ولا تكسل .

وكما كان كريما على الفقراء من رعيته ، كان كريما مع شعبه فى الأزمات والمحن . ففى أثناء الحرب العالمية الثانية ، قلت واردات البلاد من المؤن والأرزاق ، فخاف على رعيته من التجار الجشعين ، فرتب لكل فرد منهم ــ عدا الموظف والغنى ــ خبزا وطعاما يتناوله فى كل صباح ، من جيبه الخاص ، هذا الى جانب مراكز تموينية حكومية أمر بفتحها ، تباع فيها المواد الضرورية بأسعار رخيصة .

● قبل نشوب الحرب الثانية، فكر فى مستقبل شعبه، فهو شعب عاطل من العمل ، ومن الزراعة ، ومن التجارة ــ الا فى القليل ــ فالى متى تظل حاله هكذا ؟ فامر باستقدام جماعة من الخبراء والفنيين الأجانب ، للبحث فى باطن الأرض لاستخراج معادنها ، وهى غنيــة بهــا . فأوفدت « شركة ستاندرد أويل أوف كاليفورنيا » المستر لويد هاملتون فى عام ١٩٣٣ للاتفاق مع الحكومة الســعودية على منح الشركة امتيــازا للبحث والتنقيب عن النفط ، وأمضى الاتفاق فى جدة فى ١٩ مايو من السنة نفسها . وفى شــهر سبتمبر وصل الخبراء والفنيون ومعهم آلاتهم ومعداتهم ، وبدأوا الحفر فى عدة مناطق ، فحفروا سبع آبار الى سنة ١٩٣٧ ، انفقت عليها أكثر من ثلاثة ملايين دولار ، ولم يبد لهم ما يدل على وجود نفط أو غيره ، وكادوا أن يقفوا عملهم ، لولا أن البئر السابعة فى الدمام تفجرت بعد حفر على عمق ٤٧٢٧ قدما ، بطوفان من الذهب الأسود ، أذهلهم . وكان هــذا الكشف نقطة تحول فى اقتصاد المملكة ، بل فى اقتصاد المنطقة العربية كلها ، واحتفلت الحكومة السعودية احتفالا عظيما فى يوم أول مارس سنة ١٩٣٩ ، بابحار أول ناقلة للنفط من مياهها الى الخارج ، فهو من الأيام المشهودة فى تاريخ المملكة ، صنعه ابن سعود بسديد رأيه ، وبعد نظره .

● أدخل المــاء العذب الى جدة ، فشربه أهلها لأول مرة ، من جيبه الخاص ، فى ١٨ نوفمبر سنة ١٩٤٧ ، بعد ما كانت تعتمد على مياه الآبار والصهاريج غير الصحية .

● فى ميدان سعيه لخــدمة شعبه والعمل على رفاهيته ، طلب الى الحكومة الأميركية ، امداده ببعض الخبراء الزراعيين ، ليطوفوا بأنحــاء مملكته ، ثم اقتراح ما يرونه لخدمة الأرض الخصبة فيها ليزيد انتاجها . فلبت طلبه ، وأوفدت بعثة من خبرائها ، ظلوا فى الأرض السعودية نحو ثمانية أشهر ، قدموا بعدها تقريرهم الى جلالته ، وقد ضمنوه ما رأوا وما يقترحون

قالت البعثة فى مقدمة تقريرها ، وهو فى ١٩٢ صفحة من القطع الكبير :

ــ « ان الخدمات التى قامت بتأديتها بعثة الولايات المتحــدة الأميركية الزراعية ، الموفدة الى البلاد العربية السعودية ، هى خدمات قــد جرى تقديمها من قبل الولايات المتحدة الأميركية ، نزولا على طلب حضرة صاحب الجلالة عبد العزيز السعود

« وقد غادرت البعثة مدينــة وشــنطن فى ١٩ مارس سنة ١٩٤٢ ، ووصلت الى مدينة القاهرة فى ٢٦ مارس ، حيث تأخرت فيها تأخرا لم يكن

من المستطاع تفاديه ، ووصلت البعثة بعد ذلك الى مخيم حضرة صاحب الجلالة الملك عبد العزيز بالقرب من مدينة الرياض فى يوم ١٠ مايو . وفى اثناء قيام البعثة بتأدية مهمتها ، قطعت فى رحلاتها مسافة مجموع طولها ١٧٤٠٨ كيلو مترات (١٠٧٩٥ ميلا) بالسيارات والجمال والقوارب البخارية ، بما فى ذلك رحلاتها الى جزر البحرين و « فرسان »

« ولم يكن من المأمول فى بلاد واسعة الأرجاء ، مترامية الأطراف، كالمملكة العربية السعودية ، زيارة كل مكان فيها . بيد أن المعتقد أن النماذج الواضحة للاراضى والمناخ والتربة ، قد تمت مشاهدتها فعلا ، وبذلك أصبح من الممكن مقارنة الأماكن التى وضعت التقارير عنها ، بالأقسام التى لم يجر فحصها ، والحصول على الارشادات الضرورية لتحسينها واستثمارها .

« وتقع المدة قضيناها فى البحث ، بين ١٥ مايو و ٥ ديسمبر سنة ١٩٤٢ ، والخارطة المرفقة بالتقرير ، تبين مواقع الأمكنة التى زرناها والطرق التى سلكناها .

« وقد قوبلت البعثة فى كل مكان حلت به ، بكل ترحيب وكرم وفادة ، من جميع الحكام الاداريين ، وموظفى الدولة ، ورعايا الحكومة العربية السعودية من جميع الطبقات »

● لن ينسى أهل الحجاز أنه أنار لهم مكة المكرمة والمدينة المنورة وجدة بالكهرباء ، وانه انشأ مظلات للحرم الشريف ، وللمسعى بين الصفا والمروة تقى الحجاج وهج الشمس فى الصيف ، والمطر فى الشتاء

● كما لن ينسوا له انه صنع باب الكعبة المشرفة من الفضة الخالصة وقد حلى بآيات قرآنية كريمة حروفها من الذهب . كما صنع حلقتى الباب من الذهب كذلك ، كل هذا من جيبه الخاص ، فى سنة ١٩٤٧

● أسس أول ادارة طبية حديثة في الرياض فى سنة ١٣٤٢ ، عقب شكواه من قرحة فى احدى شفتيه ، عجز عن ابرائها معالجة المحيطين به بالكى وقراءة التعاويذ ، فاستغاثوا بالطب الحديث بعد أن أعيتهم الحيلة ، فدعوا من البحرين طبيبا أميركيا عالجها بالجراحات وبالضمادات ، فشفى الملك واستعاد صحته بعد اسبوع واحد . بعد هذا بأشهر أصيب بالرمد ، فعالجه بالطب الحديث ، مما جعله يؤمن به (١).

---

(١) كتاب « خمسون عاما فى جزيرة العرب » للشيخ حافظ وهبه ـ ص ٤٦

● كما أنشأ أول فرقة للمطافىء فى مكة

● كان يفضى برأيه فى المدنية الغربية لمحدثيه ، فيقول لهم :

ــ « ان المدنية صنوف شتى ، لكل بلد منها صنف خاص لايلائم غيره ، ولا اريد ان ينقلب العربى فى بلادى أوربيا لمجرد احتكاكه بالحضارة الأوربية ، اذ أن لوطننا تقاليد خاصة لا محيص من احترامها واتباعها . والذى أراد هو الا نحاول انتحال عقلية أهل الغرب . وعندى أن بعث القـديم ، يعـد وسيلة من وسائل التجديد »

● خطب فى الحجاج الذين أقام لهم مأدبة فى ٦ من ذى الحجة من عام ١٣٤٩ ، فقال :

ــ « يقولون ان المسلمين فى تأخر ، وبحثوا ليجدوا طريقة لتقدم المسلمين ، فما وجدوا طريقة أمامهم الا أن يقلدوا الأوربيين ، ولكنهم لم يقلدوهم فيما كان سبب قوتهم ومنعتهم ، بل قلدوهم فيما لا يسوغ فى دينهم . فقد مضى على هؤلاء الذين يدعون الاسلام عشرات السنين ، وهم يدعون الناس فى السر والعلن ، بالقول وبالعمل ، لتقليد الأوربيين . ولكن من منهم عمل الى اليوم ابرة او صنع طيارة أو عمل بندقية ومدفع ؟ لقد قلدوهم ولكن فى غير ما يعود عليهم بالنفع . قلدوهم فيما يخالف ما ينتسب اليه المسلم ، وقلدوا ملاحدتهم فى الاعراض عن دين الله ، ثم بعد ذلك يدعون انهم مسلمون ، وانهم يدافعون عن الاسلام

« سمعت قولا لرجل تصدر للزعامة بين من يدعون الاسـلام يقول : يجب أن نتفق مع « اخواننا » اليهود ! وأى صلة بالاسلام لمن يؤاخى اليهود ؟ وهل هناك للمسـلم اخوة غير اخوة النسب أو الاسـلام ؟ كذبوا والله ثم كذبوا . ان الاســلام ليبرأ من كل بدعة ابتدعوها ، وخـرافة اختلقوها « كبرت كلمة تخرج من أفواههم ، ان يقولون الا كذبا » . « لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر ، يوادون من حاد الله ورســوله ، ولو كانوا آباءهم أو ابناءهم أو اخوانهم أو عشيرتهم » .

« اننى والله لا أحب الا من احب الله حبا خالصا من الشرك والبدع . أنا والله لا أعمل الا لأجل ذلك ، ولا يهمنى ان أكون ملكا أو فقيرا .

« اللهم ان كنت تعلم ان ما أقسم عليه مخالف لما أعتقد ، فأسألك ان تكفى المسلمين سوئى . والله ثم والله ــ والكاذب عليه لعنة الله ــ انى لأتمنى أن يجمع الله النصارى واليهود وكل انسان على وجه الأرض ، ويشهدوا أن

لا اله الا الله ، وان محمدا رسول الله ، شهادة خالصة مخلصة ، واكون انا وجميع اولادى وافراد عائلتى ، فداء اسلام الناس كلهم . والله ثم والله ، انى لأفضل أن أكون على رأس جبل آكل عشب الأرض ، أعبد الله وحده من أن أكون ملكا على سائر الدنيا وهى على حالتها من الكفر والضلال . اللهم انك تعلم انى أحب من تحب ، وأبغض من تبغض

« والله ، والله ، ان العجوز القابعة فى كوخها ، والتى لا تملك من الثياب الا أطمارا بالية ، وهى تعبد الله وحده عبادة خالصة ، هى أحب الى قلبى من أى انسان بلغ أمره من العظمة والشأن الرفيع ما بلغ ، ولا يؤمن بالله ايمانا صادقا خالصا ، ولا يعمل بما جاء فى كتاب الله » (١)

● وخطب فى مأدبة أخرى أدبها للحجاج فى ٥ من ذى الحجة ١٣٥١ ، فقال :

— « فريق من المسلمين ينقمون على لأننى أدعو لعبادة الله عبادة خالصة ، ولأنهم يريدون أن ارتكب المنهيات فآمر باقامتها فى البلاد . فانا أبرأ الى الله من هذه الدعوة الباطلة ، وأفخر بأننى سلفى محمدى على ملة ابراهيم الخليل

« أما انى أدعى الرياسة على الناس أو أطالب بها ، فهذه ليست صحيحة . على أن مقامى ليس دون ذلك .

« أنا عربى ومن خيار الأسرة العربية ، ولست متطفلا على الرياسة والملك ، فان آبائى وأجدادى معروفون منذ القدم بالرياسة والملك . ولست ممن يتكلون على سواعد الغير فى النهوض والقيام ، وانما اتكالى على الله ، ثم على سواعدنا يتكىء الآخرون ويستندون .

« أنا لا أفتش ولا أسعى للرياسة ، ولا أريد علوا فى الأرض ، وانما يهمنى فى الدرجة القصوى ، جعل كلمة الله هى العليا ، ولا يهمنى فى هذا الشأن ما يعترضنى فى الطريق من المصاعب والمتاعب .

« لقد حاربتنا جيوش جرارة فى أوقات مختلفة منذ ان قمنا بهذه الدعوة المباركة ، فكان نصيبها رغم كثرة عددها وعددها ، الفشل والخسران ولله الحمد

« ماذا يريدون من ابن سعود ؟

---

(١) كتاب « الملك العادل » للسيد عبد الحميد الخطيب — الجزء الثانى — ص ١٢٨

« ماذا عمل ابن سعود ؟

« هذه اعمالى واضحة بينة : ازلت كل شبهة ، واقمت كل معروف ، ونهيت عن كل منكر ، وحجتى فى ذلك كتاب الله وسنة رسوله

« يقولون اننى أطلب ان أصير خليفة على المسلمين . أنا ما ادعيت هذا ولا طالبت به ، لأن على الخليفة واجبا هو تنفيذ أوامر الدين على كل فرد من أفراد المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها

« وهل هناك من رجل يستطيع ان ينفذ ذلك على المسلمين فى هذه الأيام ؟

« لقد كان من المستطاع أن يكون ذلك فى عهد الخلفاء الراشدين ، أيام كانت كلمتهم تسرى على كل فرد من أفراد المسلمين . أما اليوم فلا يمكن ذلك

« أنا مسلم عربى ، راست قومى بعد مصاعب طويلة ، ولا فخر فى ذلك . وتسير الآن ورائى جيوش جرارة لا تقل عن أربعمائة الف مقاتل : ان بكيت بكوا ، وان فرحت فرحوا ، وان أمرت نزلوا على ارادتى وامرى ، وأن نهيت انتهوا . هؤلاء هم جنود التوحيد ، اخوان من أطاع الله ، يقاتلون ويجاهدون فى سبيل الله ، ولا يريدون من وراء ذلك الا رضا البارى جل وعلا

« ان هذه القوة موقوفة لتأييد الشريعة ونصرة الاسلام فى الديار التى ولانى الله أمرها ، أعادى من عادى الله ورسوله ، وأصالح فيها من لا يعادينا ولا يناوئنا بسوء . وانى وجندى جنود فى سبيل جعل كلمة الله هى العليا ، ودينه هو الظاهر » (١)

- وقال فى جمع من العلماء فى ٣٠ ذى القعدة سنة ١٣٥١ فى الرياض :

« لقد كنت لا شىء ، وأصبحت اليوم وقد استوليت على بلاد شاسعة واسعة ، يحدها شمالا العراق وبر الشام ، وجنوبا اليمن ، وغربا البحر الأحمر ، وشرقا الخليج العربى .

« لقد فتحت هذه البلاد ولم يكن عندى من العتاد سوى قوة الايمان ، قوة التوحيد ، والتمسك بكتاب الله وسنة رسوله ، فنصرنى الله نصرا عزيزا . لقد خرجت وأنا لا أملك شيئا من حطام الدنيا ، ومن القوة البشرية ، وقد تألب على الأعداء ، ولكن بفضل الله وقوته تغلبت على أعدائى وفتحت كل هذه البلاد » (٢)

---

(١) المصدر السابق — ص ١٤٣ — ٢ — المصدر السابق — ص ١٣٨

● ثم انظر ما صنعه مع الادارسة ، وما صنعه هؤلاء معه :

لما توفى محمد على الادريسى الذى اسس امارته فى تهامة وعسير على قواعد ثابتة ، تولى ابنه السيد على ، الأمر من بعده ، لكنه كان ضعيفا ، فاحتل الامام يحيى امام اليمن « الحديدة » و « ميدى » . فثار الادارسة وطردوا عليا ، فلجأ الى عبد العزيز فآواه واكرمه ، وخلفه عمه حسن فلم يكن افضل من ابن أخيه على ، ومنح الانجليز امتيازا باستخراج الزيت من جزيرة « فرسان » بشروط ظالمة للبلاد ، فلم ير الا اللجوء الى عبد العزيز يطلب منه بسط حمايته على امارته ، وعقد معه « معاهدة عسير » فى ٢١ اكتوبر سنة ١٩٢٦ (١٤ ربيع الثانى سنة ١٣٤٥) . وقد تضمنت :

« ١ ـ يعترف الامام السيد حسن بن على الادريسى بان الحدود القائمة المبينة فى الاتفاق المعقود فى ١٠ صفر سنة ١٣٣٩ بين سلطان نجد والامام السيد محمد على الادريسى الذى كانت تابعة له ، أصبحت من هذا اليوم لملك الحجاز وسلطان نجد بموجب هذا الاتفاق .

« ٢ ـ ليس لامام عسير أن يباشر مفاوضات سياسية مع اى حكومة كانت او ان ينال اى امتياز تجارى ، بلا رضى سابق من جلالة ملك الحجاز

« ٣ ـ ليس لامام عسير ان يشهر الحرب او يعقد الصلح الا بموافقة ملك الحجاز

« ٤ ـ ليس لامام عسير أن يتخلى عن قسم من البلاد المبينة فى المادة الأولى

« ٥ ـ يعترف ملك الحجاز بسلطة امام عسير على الاقاليم المبينة فى المادة الأولى

« ٦ ـ يعترف ملك الحجاز بأن ادارة شؤون عسير الداخلية من خصائص الامام ؛ بحيث يزاول السلطة طبقا للشريعة الاسلامية

« ٧ ـ يعاهد ملك الحجاز على منع كل اعتداء يقع على بلاد عسير من الداخل والخارج .

« ٨ ـ يتعاهد الفريقان على احترام منطوق هذه المعاهدة واجراء نصوصها » (١) .

---

(١) كتاب « الاسلام وآسيا أمام المطامع الاوربية » للكاتب الفرنسى أوجين يونيه ـ ص ٣٢

وكان أول عمل لعبد العزيز ، سعيه عند الانجليز ، فالغى امتيازاستخراج الزيت من «فرسان» ، وارسل بعض رجاله لمعاونة الحسن فى ادارة الامارة، غير انه لم يستطع السير بها الى أمام ، وعصته رعيته ، فأرسل الى عبد العزيز فى ١٧ جمادى الثانيــة سنة ١٣٤٩ ، اى بعد اربع سنوات من امضاء «معاهدة عسير» ، برقية يتنازل فيها عن الامارة ، فقال : «نقرر بموافقتنا ورضانا اسناد ادارة بلادنا وماليتنا الى عهدة جلالتكم» . وقبل عبد العزيز التنازل فى أمر ملكى اصدره فى يوم ٢٩ جمادى الثانية ، اى بعد اثنى عشر يوما من تلقيه البرقية

وصونا لكرامة أسرة الادارسة ، جعل الأمراء السعوديين الذين يتولون الأمر فى الامارة ، فى ظل سيادة الحسن ، حفظا لمقامه . وكان يعطيه فى كل سنة نحو ٢٥٠ ألف ريال ، لانفاقها على ادارة الامارة

وهنا يحسن بى أن أسجل ما حكاه عبد العزيز بنفسه عن غدر الحسن الادريسى به ، بعد اكرامه له ، فقال :

« جرت صداقة بيننا وبين محمد الادريسى ، وعندما مرض أوصانى بآله وأولاده ، ولما توفى تولى ابنه على ، وكان الخلاف بينه وبين عمه ، الحسن ، وتولى الحسن ، واصلحتهم ، ووضعت نظرى على الحسن بناء على طلبه وطلب أهل عسير ، وابقيت عليا عندى

« وبعد اربع سنوات تقريبا ، ارسل الى الحسن يخبرنى بعجزه عن ادارة البلاد وتأمينها ، وتنازل لى عنها ، فقبلت ذلك منه ، ولكنى أبقيت على مقامه وامارته ، وتحملنا فى سبيل وفائنا بعهد الادريسى ، مشــاق ومصاعب كثيرة ، وخسرنا أموالا طائلة ، وكنت انفق على تلك المقاطعة فوق وارداتها ، ٢٠٠ الى ٢٥٠ ألف ريال فى السنة تقريبا ، وعاملنا الادريسى بكل معاملة حسنة . ثم لم اشعر الا ووصل الى ان الادريسى يعمل ضــدى ، فعجبت وقلت هذا غير ممكن . فلم تمض أيام حتى ابلغت ان الادريسى هجم على رجالى الذين هم عنده فى « جيزان » وحاصرها ، فأرسلت سرية قليلة تتالف من ٤٠٠ فى السيارات ، و ٢٠٠ فى زورق من الزوارق البخارية ، وساروا لفك الحصــار عن رجالى . وفى اثناء طريقهم الى جيزان ، كان الادريسى قد تغلب على رجالنا فيها ، وابرق الى يتملق بعد ذلك . فابرقت اليه انه ان كان صادقا فى دعواه ، فيمكنــه ان يراجع أمير السرية التى ارسلتها ، وابرقت لأمير السرية المتقدم ، بأن لا يحدث حربا مع الادريسى

« ولكن أراد الله أن يبطل كيد الكائدين ، فحدثت تأثيرات جوية ، لم يمكن بسببها نقل برقيتنا الى الادريسى فلم تصل اليه ، ولكن الادريسى كان عازما على الغدر ، فأرسل رجاله لتخريب طريق السيارات ومقاومة السرية القادمة ، ولم يصل أمرنا للسرية بالتوقف بسبب التأثيرات الجوية أيضا ، فتقدمت ، فاحتلت جيزان » (١)

وكان احتلالها فى ١٨ رجب سنة ١٣٥١

ومع هذا فقد منح الأمان للادريسى ومن معه من المتمردين اذا اخلدوا الى السكينة ، ولكن الغادر ظل طريدا حتى استقر به المقام عند الامام يحيى، فطلب منه عبد العزيز تسليمه هو ومن معه تنفيذا للمعاهدة التى بينهما ، فأرسل اليه الامام راجيا العفو عن الحسن ومرافقيه ، فلبى رجاءه بشرط أن يذهبوا اليه ، وكتب اليه رسالة بعفوه هذا ، وقال له أن الحسن سيكون اخا عزيزا له ، ورتب له ٢٥٠٠ ريال فى الشهر ، نفقة له ولاسرته

وقد أحدث تنازل الحسن الادريسى عن امارته لابن سعود فى سنة ١٩٣٠ ، ضجة فى البلاد العربية ، واتخذ منه بعض رجال الصوفية — وهم الذين لا يعترف ابن سعود بما أدخلوه من بدع وخرافات ومنكرات فى الدين — سبيلا الى مهاجمته بشدة وقسوة ظالمتين .

أرأيت اذن كيف عفا عبد العزيز عمن أحسن اليه ثم تمرد عليه ، ومع هذا قبل أن يعيش فى كنفه وفى حمايته ؟

وما فعله عبد العزيز مع حسن الادريسى ، فعله مع الامام يحيى نفسه، عند ما اشتد الخلاف بين السعودية واليمن على الحدود فى سنة ١٣٥٣ — سنة ١٩٣٤ م ، وحول مصير بعض أعضاء العائلة الادريسية الذين لجأوا الى صنعاء . فقد بذل ابن سعود جهده لحل الخلاف وديا حقنا للدماء فلم يستجب الامام ، فوقعت الحرب بينهما فى ٢٢ مارس سنة ١٩٣٤ ، وزحف الجيش السعودى بقيادة الامير فيصل على تهامة ودخل الحديدة قاعدة اليمن على البحر الأحمر فى يوم ٦ مايو سنة ١٩٣٤ — ١٥ محرم سنة ١٣٥٣ هـ ، ثم تقدم فاستولى على « ميدى » ثم على « اللحية » ، والف فى الحديدة حكومة تتبع الرياض مباشرة ، واحتفل اليمنيون بوصوله ، وقدموا له الطاعة

---

(١) كتاب « صقر الجزيرة » للاستاذ احمد عبد الغفور عطار — الجزء الثالث — ص ٩٣٣

عندئذ جنح الامام الى الصلح ، منفذا شروط عبد العزيز الثلاثة وهى :

١ ـ الجلاء عن مقاطعة نجران

٢ ـ تسليم اللاجئين من الادارسة

٣ ـ اطلاق سراح الرهائن من أبناء الجبال الخاضعين للسعودية

ووصل الى الطائف فى ٤ صفر سنة ١٣٥٣ ـ عبد الله بن الوزير على رأس وفد يمنى للدخول فى مفاوضات الصلح ، فاجتمع الى الأمير خالد ابن عبد العزيز ـ ملك المملكة العربية السعودية اليوم ـ رئيس الوفد السعودى ، ووقعت المعاهدة بين القطرين الشقيقين فى ٦ صفر ، وأعادت حكومة الرياض بموجبها الى حكومة اليمن ، جميع الأراضى التى استولت عليها من الاراضى اليمنية ، رعاية لحقوق الجوار ، وصونا للاخوة العربية الاسلامية ، مما كان موضوع تقدير واعجاب وثناء العالم العربى والعالم الاسلامى .

● كان متحليا بحلية العفو والصفح الجميل : عاداه الترك كما عادوا اجداده ، وانتصر عليهم فى نجد والاحساء ، ثم انتقضوا عليه فهزمهم .. ومع هذا أحسن معاملتهم ، وأكرم قائدهم ، وتركه يمضى مع جنده آمنا الى الحدود التركية الحجازية او الحدود التركية العراقية ، مما لم يجد معه السلطان عبد الحميد سلطان تركيا وخليفة المسلمين فى عام ١٩٠٦ ، بدا من شكره والاعتراف بصنيعه الجميل مع جنده .

وعاداه الاشراف ، وغلبهم ، وقهر راسهم الملك حسين ، ثم عفا عن عائلاتهم وأنصارهم

عفا عن ابن عمه سعود الذى اتفق مع خصومه عليه ، وعن عامل « بريده » المسمى ابو الخيل ، واذن له بالرحيل مع اسرته الى البحرين ، بعد معركة هزمه فيها عبد العزيز هزيمة منكرة

وكان يدنى منه من كانوا أشد خصومة وعداوة له ، ويصحبهم معه فى غدواته وروحاته ، وبهذا اقتلع بذور الحقد والكراهية من قلوب كثيرين ، فاصبحوا موالين له، يحفظون له الجميل واليد البيضاء الكريمة .

● كان اعتماد الملك عبد العزيز فى فتوحاته على « الاخوان » فى الغالب الأعم . الف جيشه فى أول أمره من بعض أهالى نجد وبجانبهم هؤلاء « الاخوان » . فلما استقر له الأمر نوعا ما ، انشأ «ادارة الأمور العسكرية»، فكانت نواة للجيش النظامى الذى الف من ثلاث فرق من المدفعية والفرسان

والمشاة . وفى سنة ١٣٥٩ هـ الغيت هذه الادارة وانشئت «رياسة الأركان» وفى سنة ١٣٦٥ ، انشئت أول وزارة للدفاع الوطنى ، واشترك جنودها فى حرب فلسطين فى سنة ١٩٤٨ م

فمن هم هؤلاء الاخوان ؟

هم سكان البادية فى نجد ، هم من يسمونهم « الاعراب » ، كانوا يعيشون فى شظف وبؤس ، ولا عمل لهم الا السلب والنهب والاجرام . ففكر عبد العزيز فى اخراجهم من هذه الحياة التعسة ــ وكانوا شجعانا شجاعة يضرب بها المثل ــ بحملهم على ترك سكنى الخيام والاستقرار فى الحضر ، وأرسل اليهم الوعاظ يحببون اليهم الفكرة ، ووعد بالهبات الجزيلة وببناء المساجد وبتعليم القراءة والكتابة ، لمن يقبل هذه الحياة الجديدة ، فى أماكن معينة ، بنيت فيها المساكن من الطين ، سمى واحدها « هجرة » اشارة الى انهم هجروا حياتهم القديمة الى حياة جديدة محببة اليهم . وأول « هجرة » بنيت فى قرية « الارطاوية » فى عام ١٣٣٠ ــ ١٩١١م وانتشرت « الهجر » بسرعة بينهم ، حتى نسوا حياتهم السابقة ، وانقطعوا للعبادة . لكنهم أشربوا تعاليم دينية ناقصة ، رسخ فى أذهانهم أنها هى الدين الصحيح ، وما سواها ضلالة وفساد . ولم يستطع عبد العزيز استئصال هذه الجذور السامة من نفوسهم ، حتى لقد رموه هو نفسه ، فزعموا انه موال للكفار ــ والكفار فى رأيهم هم كل ناس غيرهم ولو كانوا مسلمين ! ــ وانه متساهل فى دينه ، والا فكيف يطيل ثوبه وشاربه !!!

ومع هذا اخذهم باللين ، وكان ينزل عند رأيهم ، اتقاء فتنة قد تحدث اذا خالف رأيهم القطير . لكنه كثيرا ما ضرب عليهم بيد من حديد . اذا وجد أن تساهله معهم قد يؤول الى ضعف فى سلطانه ، أو قد يؤدى الى ضرر الصالح العام . ثم انشأ « جماعة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » لتحد من سطوة جهلهم ، وشدة تنطعهم فى الدين ، وقصر مهمتها على الامور التالية :

١ ــ متابعة عادات الناس ومعاملاتهم مع بعضهم بعضا ، فما وافق منها الشرع ، اقرته . وما خالفته أزالته

٢ ــ منع السوقة عن بذاءة اللسان التى اعتادوها

٣ ــ حث الناس على أداء الصلوات الخمس ، جماعة

٤ ــ مراقبة المساجد وسلوك ائمتها ومؤذنيها ، ومدى مواظبتهم على الحضور ، ومراقبة حضور الأهالى للصلاة ، ولوم المتخلف منهم

٥ ـ ان تتخذ فى سبيل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، جميع الوسائل المؤدية الى ذلك ، بالحكمة والموعظة الحسنة ، فاذا أعياها أمر من الأمور ، قدمت به مذكرة الى أولى الأمر ليبدوا فيها رأيهم

اعترض عليه بعضهم ، اذنه باقامة حفلات بمناسبة عيد جلوسه على عرش الحجاز (١) ، بحجة مخالفة ذلك للسنة ، فأرضاهم بموافقتهم . فالرجل لا يحب المظاهر ، وعدم الاحتفال بعيد جلوسه لا يضر المملكة فى شيء .

لكن هؤلاء « الاخوان » عندما أنكروا على الملك :

١ ـ ارسال ابنه الأكبر سعود الى مصر لمعالجة عينيه ، « لأن مصر بلد كفار » !!

٢ ـ ارسال ابنه فيصل الى لندن « بلد الشرك » !! (٢)

٣ ـ استخدام السيارات والتلغرافات والتلفونات والراديو ، « لانها من عمل الشيطان » !!

---

(١) دعا جلالته الى أول عيد جلوس له فى يناير سنة ١٩٣٠ ، الصحافة المصرية ليشهد مندوبوها احتفالاته ، فمثلها يومئذ المرحومون : الاساتذة محمود أبو الفتح عن « الاهرام » ومحيى الدين رضا عن « المقطم » وعبد الحميد حمدى عن « البلاغ » وابراهيم عبد القادر المازنى عن « السياسة » ومحمد المصيلحى عن « كوب الشرق » . وسافر معهم ملبيا دعوة الملك أ أحمد زكى باشا « شيخ العروبة » والشيخ محمود أبو العيون من كبار علماء الازهر ، واعتذر عن عدم السفر ، أميرالشعراء أحمد شوقى بك

وقد ركبوا جميعا السيارات من « دارالوكالة العربية » ـ وكانت بشارع محمد سعيد باشا الان ـ الى السويس ٥ ومنهاابحروا الى جدة .

(٢) وجه الملك جورج الخامس ملك انجلترادعوة رسمية الى الملك عبد العزيز عقب انتهاء الحرب العالمية الاولى فى سنة ١٩١٨ ، لزيارة عاصمة امبراطوريته « لندن » ليكرمه ويحتفى به مع شعبه ، اعترافا بموقفه النبيل من حكومته فى ابان تلك الحرب فاختار ابنه فيصل ليمثله على رأس بعثة ضمت الاكفاء من رجال دولته ، وكان عمر فيصل يومئذ اثنى عشر عاما فقط ، فاستقبله ملك الانجليز وشعبه استقبالا عظيما ، واعدوا له برنامجا حافلا زار بمقتضاه كثيرا من معالم بلادهم ، واجتمع الى اقطابهم ، فاعجبوا بذكاء هذا الامير اليافع الالمعى . واذ هو فى لندن ، وجهت اليه الحكومة الفرنسية دعوة مماثلة للغرض نفسه ، فلباها ، وهبط باريس ، فلقى من حكامها ومن أهلها ، مثل ما لقى من الانجليز حفاوة وتكريما ، واجتمع فيها الى ساستها ومفكريها أيضا .

عندما انكروا عليه هذه المسائل الثلاث ، اسرع فدعا زعماءهم الى مؤتمر عقده لهم فى الرياض ، تحدث اليهم فيه عن نفسه ، فقال انه خادم الشريعة ، وانه لم يتغير ولم يخرج على مبادىء السنة الصحيحة ، فاقتنعوا بما قال واعلنوا ولاءهم له . واعترضوا على استخدام اللاسلكى ، فهو أمر حادث فى آخر هذا الزمان ولا يعلمون حقيقته ، ولم يقرأوا فيه كلاما لواحد من العلماء . فحطم عبد العزيز محطة اللاسلكى تفاديا من الفتنة .. وشيئا فشيئا ، اقنعهم بأن مرد اللاسلكى والسيارات والتلفون والراديو ، الى العلم .

حتى اذا كان بعضهم جلوسا معه فى يوم ما بعد هذا المؤتمر ، سألهم : هل يطيق الشيطان كلام الله ؟ قالوا جميعا : لا . قال : اذن فاسمعوا ، وادار الراديو ، فسمعوا منه كلام الله يتلى عليهم بصوت عذب رخيم ، فآمنوا به وبغيره من المخترعات الحديثة .

روى الأستاذ عزيز خانكى المحامى الكبير فى مصر فى الثلاثينات ، فى كتابه « ترك وأتاتورك » فى الصفحة الثامنة والأربعين منه القصة التالية ، قال :

ــ « لم يكن أهل نجد وعلماؤها وحدهم ، هم الذين كانوا يعتقدون أن التلفون من عمل الشيطان ، بل كان قضاة الترك على هذا الاعتقاد . فقد روى المرحوم عثمان مرتضى باشا رئيس الديوان الخديوى ، فى عهد الخديوى عباس حلمى الثانى : انه لما بدىء باستعمال التلفون فى القاهرة ، ارادت الحكومة تركيب آلة تليفون فى المحكمة الشرعية ، فعارض قاضى مصر التركى ، وقال ان التلفون وسيلة من وسائل الشيطان . فكلف المستشار القضائى سكرتيره « عثمان مرتضى بك » ــ فى أوائل عهد الخديوى اسماعيل ــ بأن يشرح للقاضى النظرية العلمية التى قام عليها اختراع التلفون ، فلم يفلح السكرتير ، فاهملت الفكرة موقتا . وبعد حين عادت الحكومة وامرت بتركيب التلفون فى المحكمة » .

● من أصالة العربى حماية المستجير به والدفاع عنه . وكذلك فعل الملك عبد العزيز مع رشيد عالى الكيلانى رئيس وزراء العراق الأسبق رحمه الله ، فقد لجأ اليه فى الرياض بعد فشل ثورته التى شنها فى العراق ضد بريطانيا فى سنة ١٩٤١ ، فحاول الأمير عبد الاله الوصى على عرش العراق أن يحمل الملك على تسليمه الى حكومة بغداد ، تنفيذا لمعاهدة بين الحكومتين ، فقال له :

ـ « لقد جاءنى مستجيرا ، وهو عربى يستنجد بعربى . وانى أوثر شنق واحد من أبنائى على تسليم رشيد الى حبل المشنقة فى بغداد

وتدخلت بريطانيا مؤيدة طلب العراق ، فرد عليها الرد نفسه

وظل رشيد فى حماية ابن سعود ، بل استعمله فى بلاطه مستشارا له فى بعض الشؤون الى ان رفعه الله اليه

وعلى ذكر الابناء أقول ان الملك عبد العزيز انجب ستة وثلاثين ابنا ، وسبعا وعشرين ابنة

* * *

هذه هى سيرة الرجل الذى استطاع أن يغير مجرى حياة امة ، ويسطر تاريخا جديدا لها ولشعبها ، ويدفع بها الى الصف الأول من الدول المرموقة ذات المكانة والاعتبار ، وأعاد ، الى هذا ، مع اسرته الى الاسلام ، عزته وهيبته وتقاليده النقية الصالحة

ولو قلت انه كان ـ طيب الله ثراه ـ يجمع بين العدل والحزم وسعة الحيلة والشجاعة والبطـولة والجرأة والعـزم والكرم والصفح والرزانة والتواضع والسماحة ورجاحة العقل وصفاء القلب وطيب السريرة وحبه الخير والفطنـة والدهاء ولين العريكة ، مع الالمـام بفن الحرب والخبرة بقيـادة الجيوش ..

لو قلت هذا ، ما كنت مبالغا ، وما عدوت الحق .

فلنختم هذا الحـديث عن هذا الملك العربى الخطـير والعظيم ، الذى كان أول من سمى ملكا من آل سعود ـ فقد كان آباؤه واجـداده يسمون ائمة ـ وأول ملك خرج من بلاد نجد ، وأول من وحد هذه المملكة المترامية الأطراف ، وأول من عمل على استخراج الثروة الطبيعية من بطن أرضها ، وأول من منح الشركات الامتيـازات بحثـا عن النفط ، واول من أدخل الزراعة الحديثة لمضاعفة استغلال الأرض الخصبة فى مملكتـه ، واول من أوجد لهذه المملكة كيانا قانونيا دوليا ، فاعترفت بها الدول جميعا ...

اقول : فلاختم حديثى عن عبد العزيز بن سـعود ، بتسجيل ما كتبه عنه بعض كبار الكتاب والأدباء العرب وغير العرب :

رحل الأمير شكيب ارسلان الى الحجاز فى سـنة ١٩٢٩ ، وكتب عن رحلته كتابا سماه « الارتسامات اللطـاف ، فى خاطر الحاج الى أقدس مطاف » ، وتوجه باسم « جلالة الملك عبد العزيز ملك الحجـاز ونجد

وملحقاتهما ، عرفانا بقدر العـدل الذى وطد فيه دعائمه ، وناط بالاجراء مواثقه ، وابتهاجا بالملك العربى الصميم الذى صـان للعروبة حقهـا ، وللاسلام حقائقه » (١) .

بعد وصول الأمير شكيب وأدائه فريضة الحج ، وصف ما لقيـه فى الحجاز من الحرية الكريمـة ، فقال : « شـعرت أنى حر فى بلادى ، وبين أبناء جلدتى ، لا يتحكم فى رقبتى المسيو فلان ولا المستر فلان ، بحجـة انتداب أو احتلال أو سيطرة أو حماية أو وصاية ، أو غير ذلك من الأسماء المخترعة ، التى يراد بها تنعيم مس « الفتوحات » وتخفيف مرارتهـا فى الأذواق ... شعرت فى الحجاز انى تظللنى راية عربية محضة حقيقية ، لا راية مشوبة بشعار أجنبى ، ولا راية ليس يسير من تحتها جند عربى ، الا ما كان من قبيل مرتزقة أو مستأجرين ، تحت قيـادة من لا يرقب فى هذه امة الا ولا ذمة ، وانما ينظرون اليها كطعام للأمم التى تدعى عليهـا الوصاية » (٢) .

ثم وصف الملك ، فقال : « الملك الأشم الأصيد ، الذى تلوح سـيماء البطولة على وجهه ، والعـاهل الصنديد الأنجـد ، الذى كأنما قد ثوب استقلال العرب على قده . فحمـدت الله على أن عينى رأت فوق ما أذنى سمعت ، وتفاءلت خيرا فى مستقبل هذه الأمة » (٣) .

وفى كتاب آخر للأمـير شكيب ، هو « لماذا تأخر المسلمون ؟ » قال فى الصفحة السابعة والأربعين منه :

ـ « لله در ابن سعود حيث يقول : « ما أخشى على المسلمين الا من المسلمين ، ما أخشى الأجانب كما أخشى المسلمـين » وقال فى محفل حافل بحجاج الأقطار ، وقد طالبه مصرى ازهرى بمحاربة الانجليز والفرنسيس المعتـدين على المسلمين ، ذاكرا عداوتهـم لهم : « الانجليز والفرنسيس معذورون اذا عادونا ، لأنه لا يجمعنـا بهم جنس ولا دين ولا لغـة ولا مصلحة . ولكن المصيبة التى لا عذر لأحد فيهـا ، ان المسلمين أصبحوا أعداء أنفسهم . وأنا والله لا أخاف الأجانب ، وانما أخاف من المسلمين . فلو حاربت الانجليز ، لما حاربونى الا بجيش من المسلمين » .

وكتب عبد الرحمن عزام باشا مقـدمة لكتاب « مع عاهل الجـزيرة العربية » للأستاذ عباس محمود العقاد ، قال فيها :

---

(١) الارتسامات اللطاف ص ٥
(٢) المصدر نفسه ص ١٠
(٣) المصدر نفسه ـ ص ١٢

ـ « ضاع ملكه وملك آبائه ، وشرد من بلاده ، وكان يومها فى ريعان شبابه ، فلم تهز الهزيمة ايمانه ، ولم يؤثر الحرمان فى تقاليده بأن يكرم ضيفه بكل ما يستطيع ، حتى قيل انه رهن عباءته فى الكويت ، ليقدم طعاما يليق بضيف زاره فجاة ...

« وقد نصح اهل الخبرة والتجربة هذا الشاب أن يقبل الهزيمة ، ولا يعاند فى الأمر الواقع . قالوا له : ان الشجاعة ليست فى أن تحاول المستحيل ، انما هى أن تحاول الممكن . ولكن الشاب رفض النصيحة ، وسار على راس قوة من أربعين رجلا مؤمنا ، ليقاتل جيش امارة ورجال قبائل اكثر عددا واقوى سلاحا ... واصيب اصابات قاتلة فى معارك عدة قادها بنفسه ، ولكن الرصاص لم يصب ايمانه بحقه وحق آبائه الضائع ، بل أضاف اليه اضافات كبيرة ، جمعت اكثر اجزاء الجزيرة العربية ، فى اطار من الأمن والاستقرار والرخاء والوحدة التى فقدتها ، منذ انتهاء عهد الخلفاء الراشدين ، الذين كان لعبد العزيز فيهم أسوة حسنة ، وقدوة سلفية طيبة ، تمسك بها واسترشد ، وبنى حكمه على أساسها .

« وقد ذاق هذا الرجل العظيم مرارة الجوع والحرمان ، ومع ذلك لم يتسلل الحقد الى قلبه . ثم راى الذهب والفضة تحت قدميه ، فلم يغيره بريقهما . وذاق الهزيمة فلمتضعف عزيمته ، ثم ذاق النصر فلم يسكر به .

« كان عنيدا مع الأقوياء ، متواضعا مع الضعفاء ، ولكنه مع عناده كان يسمع الراى الآخر ، فاذا اقتنع به رجع اليه ، لأنه اتخذ من الحق والشريعة اماما وحكما . وكان يؤمن بأن الاقوياء هم الذين يرجعون عن اخطائهم ، والضعفاء هم الذين يتمسكون بها .

« كان عبد العزيز عدة رجال فى رجل واحد . ولقد صدرت عشرات الكتب بمختلف اللغات تتحدث عن جوانب شخصيته . ولا شك أن المكتبات ستستقبل عدة كتب اخرى تتحدث عن هذه الشخصية النادرة ، فان التاريخ الكامل لها ، لم يكتب بعد .

« انه مؤسس الدولة السعودية ، وباعث نهضتها الجديدة ، ومفجر طاقاتها البشرية والمادية ، بعبقريته الفطرية التى اجمع مؤرخو شخصيات هذا العصر ، على انها من أعظم العبقريات السياسية والاصلاحية التى ظهرت فيه » .

وفى أصيل يوم الخميس ٣ ديسمبر من عام ١٩٦٤ ، أقامت وزارة المعارف السعودية مهرجانا رياضيا كبيرا على ملاعب « معهد العاصمة

النموذجى » ، احتفاء ببيعة فيصل ـ رحمه الله ـ ملكا فى ٢ نوفمبر من السنة نفسها ـ أى من نحو شهر ـ شهدها جلالته ، ورحب به صاحب المعالى الشيخ حسن بن عبد الله آل الشيخ وزير المعارف ـ وزير التعليم العالى الآن ـ بكلمة بليغة رائعة ، قال فيها موجها الخطاب الى فيصل :

ـ « يا صاحب الجلالة :

« اذا تحدثت عن النهضة التعليمية المعاصرة بقيادتكم الحكيمة ، فانى لا أضيف جديدا ، لأنها بحمد الله أضحت موضع اعجاب أعدائنا قبل أصدقائنا . لكننى أجد من واجب الاخلاص والوفاء ، أن أذكر فى حب واجلال ، مؤسس هذا الكيان الكبير ، المغفور له الملك عبد العزيز رحمه الله ، واجزل له الرضا والمثوبة ، لقاء كفاحه عن دين الله ، ونضاله فى سبيل وحدة هذه الأمة وجمع كيانها . فلقد عاش حياته المباركة مكافحا ومؤسسا ، فصان الله ديننا على يديه ، ووحد جزيرتنا بفضل جهاده وسعيه . ولن ينساه أبناء هذه الجزيرة الوفية ، فهو فى قلوبهم كلما شاهدوا آثارا للعلم أو بيتا من بيوت الله ، أو مصنعا يدفع بمواهبنا نحو النور والانتاج ... له دعاؤنا بلقاء كريم مع ربه .

« لقد جاهد لينصر دين الله ويعلى كلمته . واليوم وقد شاء الله أن يضع فى يدك الأمينة ثمرة كفاحه ، وحصيلة جهاده ، فلقد أراد الله بك خيرا ، ومنك خيرا . أراد لك الخير لأنه قد هيأك لاتمام رسالة مصلح عظيم ، ما كان يرتضى غير سبيل الحق . وأراد منك الخير ، لأنك بحمد الله الجدير بهذا الاجماع والحب والفداء ، والقادر باذن الله على أداء الرسالة وقيادة الأمة فى معارج العزة والفخار » .

وكتب عنه الأستاذ عباس محمود العقاد فى كتابه المشار اليه ، فقال :

ـ « ان ابن سعود من أولئك الزعماء الذين يراهم المتفرسون المتوسمون ، فلا يحارون فى أسباب زعامتهم وعظمتهم ، ولا يجدون أنفسهم مضطرين الى أن يسألوا : لماذا كان هؤلاء زعماء ؟ لأن الايمان باستحقاق هؤلاء منزلة الزعامة فى أقوامهم ، أسهل كثيرا من الشك فى ذلك الاستحقاق » .

وكتب عنه الأستاذ خير الدين الزركلى ، حينما كان مستشارا للمفوضية السعودية بالقاهرة ، يوم الاحتفال بعيد جلوس الملك :

ـ « تتجاوب اليوم أسلاك البرق بين عواصم العالم وعاصمة العربية السعودية ، بتهنئة عاهل الجزيرة وسيدها المطاع ، الملك عبد العزيز آل سعود ، بعيد جلوسه . وتعيد هذه الذكرى الى الأذهان ، أحداث نصف

قرن لم يعرف قلب الجزيرة مثلها منذ عصر النبوة : امارات تتوحد ، وأمة تتكون ، ودولة تبنى ، وحضارة تشاد ، وتحول فى الأخلاق والعادات من فوضى الى نظام ، ومن اسفال الى اصعاد . فى أقل من خمسين عاما استطاع رجل واحد أن ينشىء بين البحر الأحمر وخليج العرب ، ما عجز اثنا عشر قرنا عن انشائه أو الاتيان بمثله » .

وكتب عنه الكاتب الفرنسى المشهور « اوجين يونغ » فى كتابه « استعباد الاسلام » الذى صدر فى عام ١٩٢٨ ، فقال فى الصفحة الثامنة والخمسين :

— « ... لقد تحول الوهابيون تحولا بينا ، وصار عندهم شىء من الهوادة ، وسلطانهم الحالى صاحب الأمر والنهى فى الآونة الحاضرة ، يرحب بجميع أنواع الرقى . وهو سياسى محنك لا يفوته شىء من كبار الأمور وصغارها . وهو يستنفد الميسور لتحضير العرب الرحل ، وجعله اياهم يميلون الى الزراعة كأخوانهم فى شمر والقصيم والعارض . وقد ارتاح الى ارسال فرنسا وبريطانيا ممثلين يقيمان لديه فى الرياض عاصمة سلطنته . وفى مقابل ذلك أرسل من لدنه ممثلين الى بيروت والشام ومصر ، وأرسل مندوبين الى العواصم الكبيرة ، للاتفاق مع الحكومات على انشاء سفارات ، فتم له ذلك فى برلين .

« أن سلطنته واسعة الأرجاء ، بعيدة الأطراف ، الا أن مطامعه محدودة ومقرونة بالتعقل . وهو غير عجول فى أعماله ، وهمه أن يكون العرب مستقلين . وهو يراقب العراق وسورية و الشرق العربى وفلسطين . وله بواسطة مكة والمدينة صلات متواصلة بجميع مسلمى العالم . فالأمة التى تحسن خطب موالاته ووده بالثباتها له حسن دخائلها السلمية ، لا تجد لديها سببا للشكوى منه .

« ولا يندفع ابن سعود مع أى سياسة خارجية كانت ، ولا يؤثر فيه ادنى نفوذ . فهو عربى قح نبيل ، وهو زعيم كبير . وقد انتحل تلك الفكرة التى نشرتها جريدة « المقطم » الصادرة عن مصر فى ٢ نيسان (ابريل) سنة ١٩٢٦ ، وخلاصتها :

« لا يسعى الشرقيون لاضرام نار الحرب ، ولا للمجاهرة بالعداوة . فالغاية الوحيدة التى يرمون اليها ، هى نيلهم العدالة التى ضنوا بها عليهم من عهد بعيد ، واصابتهم حقا كان الغربيون أول من أعلنوه . واذا كان بين الشرقيين من اضطر ... (أو سيضطر) الى امتشاق الحسام ليحصل على ذلك الحق وتلك العدالة ، فما ذلك الا لأنهم بخلوا عليه بجميع الوسائط ، ولأنه وجد ذاته فى مأزق حرج ، لا يلقى الى الخروج منه سبيلا . على أن الشرقيين بوجه الاجمال ميالون الى السلم وطامحون اليها » .

وفى منتصف الساعة الخامسة من صباح يوم الاثنين ، الثانى من ربيع الأول من عام ١٣٧٣هـ (٩ نوفمبر من عام ١٩٥٣ م) ، دعاه ربه اليـه ، فأجابه ، وصعدت روحه الى بارئها راضية مرضية ، بعد ما ظل فى دست الحكم نحو نصف قرن ، مسؤولا عن رعيته ، ساعيا الى خيرها وسعادتها ، حفيظا على هذا الصرح الشامخ الذى شاده ، واصبح منارة هادية للعرب اجمعين ، مجاهدا مع أشقائه من زعمـاء العرب لاسـتعادة مجد الآباء الأولين .

ومما يجدر ذكره ، انه فى مرضه الأخير ، دعى ثلاثة من أشهر أطبـاء المانيا لمعالجته ، وكان احـدهم على وشك السفر فى طريقـه الى الدانمرك وسويسرا وبريطانيا لالقاء محاضرات طبية فى جامعاتها ، تدر عليـه الوفير من المال والسمعة الطائرة فى دوائر العلم ، فألغى سفره تقديرا منه لمكانة الملك العظيم الذى دعى لعلاجه . وفى هذا دليل على ما كان يحتـلـه من المكانة والتقدير العظيمين ، فى نفوس الغربيين .

ودفن الفقيد الجليل ، كما يدفن كل مسلم حق عامل بالسنة وبتعاليم السلف الصالح التى يدين بهـا آل سعود ... فانه قبل أن ينتشر نعى الملك فى الطائف حيث فاضت روحه الطاهرة ، هبطت طائرة فى مطارها ، وحملت الجثمان الكريم الى الرياض وبرفقته الأمراء ، وفى مقدمتهم فيصل ... وفى الرياض وسد الثرى بعد الصلاة عليه ، فى لحد من الصعب معرفته اليوم ، أو تمييزه عن لحد أى من رعاياه .

وهكذا ذهب فى الصديقين والأبرار ، وحسن أولئك رفيقا .

ثم هو أخيرا بعد هذه السيرة العطرة ، عربى صميم ، يتصل نسبه الى عدنان ، ويجتمع بالرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، فى الجـد الثامن عشر « نزار بن معد بن عدنان » .

فهو عبـد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل بن تركى بن عبد الله بن محمد بن سعود بن محمد بن مقرن بن مرخان بن ابراهيم بن ربيعـة بن موسى بن مانع بن المسيب بن المقلد بن بدران بن مالك بن سـالم بن مالك ابن غسان بن ربيعة بن منقذ بن الحارث بن سعد بن همام بن مرة بن ذهيل ابن غزة بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن بكر بن وائل بن قاسط بن هنب بن دعمى بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان (١) .

---

(١) كتاب « الملك العادل » للسيد عبد الحميد الخطيب ــ الجزء الاول ــ ص ١٧

وخير ما أختم به حديثى عن هـذا الملك العربى ، معجزة القرن العشرين ، نصيحة منه الى المسلمين والعرب ، نصيحة غالية ، أفضى بها اليهم فى عام ١٩٣٩ ، لو أنهم وعوها يومها وقدروها حق قدرها ، لما وصلوا الى الحال التى يعانون منها اليوم ، فعساهم أن يتدبروها فى حالهم الحاضرة ، لعل الله أن يصلح لهم بعد ذلك أمرا « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم » .

احتفلت مجلة « الهلال » المصرية الشهرية فى شهر يناير من عام ١٩٣٩ ، بعيدها الذهبى ، فقصد محررها ، ملكنا العظيم ، يسأله النصيحة والارشاد والهداية لقومه من العرب والمسلمين ، فأجاب سؤله ، وكتب :

« بسم الله الرحمن الرحيم

« من عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل

« الى جميع من يطلع على كتابنا هذا من اخواننا المسلمين والعرب :

« سلام الله ورحمته وبركاته ، وبعد ، فانا نغتنم هذه الفرصة ونشير الى ما ترون من حال المسلمين والعرب فى هذا العصر الحاضر ، مما لا يخفى على أحد . ونرجو من الجميع أن يرجعوا بذاكرتهم ، الى ما كان بالله ، ثم به سبب عزهم وسؤددهم فى سالف الأزمان ، وهو العمل بالمبادىء التى جاء بها نبينا العربى ، محمد صلوات الله وسلامه عليه . فاذا صحت عزيمتنا وخلصت نياتنا لدراسة تلك المبادىء ومعرفتها ، والعمل بها ، والتناصح فيما بيننا للأخذ بأحكامها ومباديها ، وأن نجمع كلمتنا عليها ... اذا عملنا ذلك ، نرجو أن يغير الله ما بنا ، وأن يبدلنا من بعد خوفنا فى هذا المعترك الحاضر ، أمنا ، فان الخير كله فيما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم من عند الله ، وفى اتباع ما أمرنا به ، واجتناب ما نهانا عنه .

« نسأل الله أن يوفقنا واياكم لما يحبه ويرضاه ، وأن ينصر دينه ، ويعلى كلمته ، ويجمع شمل المسلمين والعرب » .

« صدر فى قصرنا بمكة المكرمة فى اليوم الثالث من شهر ذى الحجة سنة ١٣٥٧ الهجرية ، الموافق لليوم الثالث والعشرين من شهر يناير سنة ١٩٣٩ الميلادية » .

عبد العزيز السعود

المراجع

١ ـ صقر الجزيرة ـ احمد عبد الغفور عطار .

٢ ـ محمد بن عبد الوهاب ـ أحمد عبد الغفور عطار .

٣ ـ الملك العادل ـ عبد الحميد الخطيب .

٤ ـ موعد مع الشجاعة ـ قدرى قلعجى .

٥ ـ الوجيز فى سيرة الملك عبد العزيز ـ خير الدين الزركلى .

٦ ـ الوهابيون والحجاز ـ السيد محمد رشيد رضا .

٧ ـ الهاشميون والثورة العربية الكبرى ـ أنيس صايغ .

٨ ـ الأمير شكيب أرسلان ـ الدكتور سامى الدهان .

٩ ـ لماذا تأخر المسلمون ؟ ـ الأمير شكيب ارسلان .

١٠ ـ الارتسامات اللطاف ـ الأمير شكيب ارسلان .

١١ ـ جزيرة العرب فى القرن العشرين ـ الشيخ حافظ وهبه .

١٢ ـ خمسون عاما فى جزيرة العرب ـ الشيخ حافظ وهبه .

١٣ ـ الحلقة المفقودة فى تاريخ العرب ـ محمد جميل بيهم .

١٤ ـ عبد العزيز ـ تأليف : داكورت فون ميكوش ـ ترجمة : الدكتور أمين رويحه .

١٥ ـ تاريخ المملكة العربية السعودية ـ صلاح الدين المختار .

١٦ ـ المملكة العربية السعودية ـ محمد عبد المنعم عامر .

١٧ ـ النهضة الحديثة فى جزيرة العرب ـ الدكتور محمد عبد الله ماضى .

١٨ ـ الملك عبد العزيز والمملكة العربية السعودية ـ عبد الله حسين .

١٩ ـ آل سعود ـ احمد على .

٢٠ ـ التضامن الاسلامى ـ محيى الدين الفاسى .

٢١ ـ مع عاهل الجزيرة العربية ـ عباس محمود العقاد .

٢٢ ـ الأوابد ـ الدكتور عبد الوهاب عزام .

٢٣ ـ ملوك العرب ـ أمين الريحانى .

٢٤ ـ الاسلام وآسيا أمام المطامع الأوربية ـ أوجين يونغ .

٢٥ ـ استعباد الاسلام ـ أوجين يونغ .

٢٦ ـ فيصل العظيم ـ أمين سعيد .

٢٧ ـ نظرة جامعة الى تاريخ الاسلام فى الصين ـ محمد مكين .

٢٨ ـ الهدية السنية والتحفة الوهابية النجدية ـ مجموعة رسائل لخمسة من كبار علماء نجد .

٢٩ ـ الثورة الوهابية ـ عبد الله القصيمى .

٣٠ ـ الراى القويم على ملحد القصيم ـ عبد الله بن على بن باديس .

٣١ ـ الشواهد والنصوص من كتاب الأغلال ـ محمد عبد الرزاق حمزة.

٣٢ ـ نضال العرب ضد الاستعمار ـ الزعيم محمد العبد الله الميمان .

٣٣ ـ عشرة مصلحين ـ الدكتور أحمد أمين .

٣٤ ـ الرحلة الحجازية ـ محمد لبيب البتانونى بك .

٣٥ ـ رحلة الى الحجاز ـ ابراهيم عبد القادر المازنى .

٣٦ ـ فى الحجاز ـ محيى الدين رضا .

٣٧ ـ مشاهداتى فى الحجاز ـ عباس متولى حماده .

٣٨ ـ ندوة علمية عن الشريعة الاسلامية ـ وزارة الاعلام السعودية .

٣٩ ـ مجلة الهلال ـ شهر مايو سنة ١٩٣١ .

٤٠ ـ مجلة الهلال ـ شهر يناير سنة ١٩٣٩ .

٤١ ـ تقرير البعثة الأميركية الزراعية .

٤٢ ـ مذكرات شخصية للمؤلف .

سعد زغلول المحامي والفلاح

سما بالمحاماة من العار إلى الفخار

كان في عام ١٩٢١ سيد مصر الأعلى (١)

صفحة موجزة من تاريخ زعيم ثورة ١٩١٩

((انني اشتغلت بالمحاماة متنكرا عن أهلي وأصحابي ، وكلما سألني سائل : هل صرت محاميا ؟ قلت : ((معاذ الله أن أكون كقـوم خاسرين)) . كانت المحاماة أبعـد عن اسم الشـرف والفضيلة ، وكان اسم المحامي مساويا لاسم المزور ، وكان المحامي لا يقصد لعمله،بل لتزويره ، وكان لا يستطيع أن ينسب لأي بيت من البيوت العالية ، بل كان لاينبغي لقاض أن يجالس محاميا، واصدر النائب العام منشورا بمنع اختلاط المحامين بالقضاة .. وتغير الحال فصار القاضي يرى من شرفه ان يخالط المحامي ويعاشره ،ويسلك معه كل مسلك)) .

كذلكم كانت المحاماة يوم احترفها سـعد زغلول ، فلماذا اذن نزل الى ميدانها ؟ وماذا صنع ليرتفع بها ؟

لقد دعت نقـابة المحامين المصريين الى الاحتفـال في مسـاء يوم ٢٣ اغسطس الماضي ، بذكرى وفاة سعد زغلول ، وبذكرى وفاة خلفه في زعامته مصطفى النحاس ، وقد اختـاره الله الى جواره ، في يوم مثل يوم وفاة سلفه العظيم .

كانت وفاة سعد في ٢٣ اغسطس من عام ١٩٢٧ ، وكانت وفاة مصطفى في ٢٣ اغسطس من عام ١٩٦٥ ، فكان هذا التوافق العجيب في التاريخين ، مثار دهشة المصريين والعرب الملمين بتاريخ مصر وسير زعمائها .

ولقد كنت ارجو أن يتناول متحدث في الحفـلة ، صناعة المحاماة ، وكيف ارتقى بها سعد من حضيض الزراية ، الى ذروة الوقار والشرف ، وكيف سما بها من المهانة ، الى مقام الاحترام والمهابة ، بعد ما كانت عارا يجلل المشتغل بها ، فلا يلقى الا الازدراء من الكافة أجمعين .

نعم ، كنت أرجو أن أسمع هذا الحديث من واحد من الأصـدقاء القدامى الكرام الذين تحدثوا في الحفل ، فلما لم يتحقق الرجاء ، عدت الى

---

(١) في سنة ١٩٢٤ .

مراجعى و « دفاترى القديمة » فى مكتبتى ، فأعددت منها هذا الموجز عن سعد المحامى مما لم يتناوله كاتب من قبل ، وشفعته بفقرات عن فترات من حياته ، حتى يستطيع الجيل الشاب من المحامين ، أن يدركوا فضل سعد على صناعتهم الشريفة ، وحتى يعرف الجيل المعاصر من الشباب ، من هو سعد زغلول زعيم ثورة سنة ١٩١٩ ، الذى تعمد بعض مؤرخى وزارة التربية والتعليم أن يتجاهلوه ــ كما تجاهلوا ثورته وجهاد خلفه ــ فلم يذكروه بكلمة خير فى كتبهم التى يؤلفونها لتلاميذهم ، فيشبون جهلة بتاريخ وطنهم وسيرة زعمائه وجهادهم ، بل جهلة حتى بأسمائهم ، فضلا عن جهادهم .

كان سعد زغلول أول محام مصرى اختارته الحكومة لتولى منصب القضاء ، فعين فى عام ١٨٩٢ مستشارا فى محكمة الاستئناف الأهلية ، فأقام له زملاؤه المحامون حفلة فخمة ، كانت الأولى من نوعها فى ذلك الزمان ، فى حديقة الأزبكية ، تصدرهارئيس المحكمة أحمد بليغ باشا ، ووكيلها اسماعيل صبرى باشا (شيخ الشعراء فيما بعد) والأفوكاتو العمومى أحمد حشمت باشا (وزير المعارف بعد ذلك بسنوات) .

وبعد ما انتهى أربعة عشر خطيبا من كلمات أطروا فيها سعدا ، ونوهوا بمناقبه وبمحامده ، وقف المحتفل به ليقول :

« اخوانى ، سادتى :

« قد عهدتمونى وليس من شيمتى الحسد ، اذ ليس الحسد بنافع أحدا أبدا . كما انه لم يكن من طبعى الافتخار ، فأنا آمن ، بما عهدته فيكم من أن ترمونى به . ولكنى أرى نفسى اليوم على غير ما طبعت عليه : أرانى حاسدا نفسى ، فخورا بما أنا اليوم فيه ، اذ كنت موضوع اهتمامكم ، ورهين عنايتكم ، وكنت أود لو انى بينكم ، أهنىء غيرى من بين صفوفكم ، بما يناله عن جدارة واستحقاق .

« اخوانى وسادتى :

« قد كنت أعرف فى نفسى القدرة على البيان وتقرير الحقائق ، بل كنت أعتقد ــ ولو كنت مخطئا فى اعتقادى ــ انى على شىء من البلاغة والفصاحة واللسن ، وما عهدت نفسى كالآن ، عييا محصرا ، عاجزا عن القيام بما يجب لحضراتكم ، فى بيان مقام الشكر لكم . وأراكم اختلفتم فى الوجهة ، وتباينتم فى الأسلوب ، وقد اتحدتم فى المعنى واجتمعتم ، فماذا

يسعنى من أساليب البيان لاداء ما يحق لكم ؟ وبماذا اشكركم وقد هجرت الكلام شهرا (يقصد انه ترك المحاماة الى القضاء منذ شهر) .

« اخـوانى :

« اراني ما ازال واحدا منكم ، وان نهاية الشرف عنـــدى ان تقبلونى كذلك ، لأنكم انتم الذين تخدمون الحقيقة ، وما زلتم تجدون فى طلبهـا ، ولم يكن من أمرى الا أن ضعفت عن مجاراتكم ، واحتثثات السير معـكم فى هذا الطريق المحمود ، فجلست وسرتم ، وقعدت ونهضتم .

« اخوانى :

« اننى ما سبقت الى اتخاذ فن المحاماة شعارا ، الا لأنها الحرفة التى تستلزم بسط آراء المشتغل بها على حضرات القضاة الفضـــلاء والأقران وجماهير العامة ، فهى من ثم ، الحرفة الوحيـــدة التى تظهر فيها قيمـة المرء فى وسـطه .

« والحق أقول : ما كنت بمستطيع أن اخالط من كانوا مشتغلين بهذا الفن ، يوم لبست شعاره ، كما قال أحد اخوانى فى أثنـــاء كلامه . وانى محدثكم الحديث :

« اول ما هممت بالاشتغال بفن المحاماة ، وحدثتنى نفسى بشـأنها ، نظرت ، فاذا من رزئت بهم من الذين كانوا عنوان سمعتها وذكرها ، كأنهم الشوك يؤذى الناس ويعذبهم ، ذلك انهم كانوا يسيئون الى عباد الله بخيانتهم وزيفهم عن طريق الحق والهدى ، وكذلك ترددت بادىء بدء ، ثم قلت فى نفسى : ما ضرك لو كنت وردة بين هاتيك الأشـــواك ؟ ولو كنت الآن ما حدثتها هذا الحديث . فمن حسن حظى انى أجيل النصر فى هذا الحفل الحافل ، فلا أجد أثرا لذلك الشوك . فلمـا استقر بخاطرى أن القيام بالواجب خير للمرء ، حتى وان كان بحرفة هى بأهلها من سقط المتـاع ، أقدمت مستحصد العزم على الاشتغال بهذه الحرفة ، بين أولئك الذين عددتهم شوكا . والحمد لله ، اذ قد لفظهم الزمان لفظ النواة ، وطهر الله مواقع نظرنا ان يقتحمهم فى هذه الليلة

« اخوانى :

« لا أحب أن أخوض فى حديث أولئك القوم ، ولكنى أقول كما قال احد اخوانى : انه كان أقصى واجبات تلك الشرذمة ، ارضـــاء خواطر أولئك القضاة الذن محقهم الحق ، وذهب بهم العدل

« ذلك ما اقول بصفى محاميا بالأمس ، وقاضيا اليوم ، لا يليق بى فى الحالتين أن أكذب على نفسى وعلى غيرى

« والذى حبب الى الاشتغال بهذه الصناعة ، انى كنت مشتغلا قبلها بوظيفة من شأنها الاطلاع على احكام المحاكم الملغاة ، التى كانت تنشر فى الجريدة الرسمية « الوقائع المصرية » يوم كنت عضوا فى هيئة تحريرها ، وكان من حظى أن عهد الى أمر نقد تلك الأحكام وتلخيص معانيها . ثم انتقلت من هذه الوظيفة الى وظيفة ناظر قلم قضايا مديرية الجيزة ، وهى كما تعلمون اشبه بوظيفة القاضى ، اذ كان من خصائصه أن يصدر الأحكام فى كثير من المواد الجزئية

« فلما انفصلت من هذه الخدمة كما تعلمون ، وصفا الجو من الأحداث، لم يرق عينى ان اطرق باب أحد ، التماسا للرجوع فى وظيفتى ، بل انى رجوت من توسمت فيه الخير أن يساعدنى لنيل وظيفة ، فأعرض ، جهلا منه ، عنى ونآى بجانبه . فكبر الأمر عندى ، وازددت ميلا الى الاشتغال بحرفة المحاماة ، وقلت لنفسى ، علام تحتمل يا سعد منة جهول ؟ وما ضرك ان تكون مستقيما بين مفسدين ؟ بل ما ضرك أن تكون وردة بين الأشواك ؟ فهان على اذ ذاك ان احترف حرفة لم يكن فيها مناضل عن حق ، أوجه الحق

« اننى اشتغلت بالمحاماة متنكرا عن أهلى واصحابى ، وكلما سألنى سائل : هل صرت محاميا ؟ قلت : معاذ الله أن أكون كقوم خاسرين

« وجملة القول انى كنت اجتهد ان لا يعرفنى الا أرباب القضايا ، وان كنت أجهل ماذا تكون العاقبة . وقدر لى انى حبست فى أول اشتغالى بهذه الحرفة ظلما وعدوانا كما تعلمون ، وبعد أن انقضت مدة سجنى ، عدت الى مزاولة هذه الصناعة ، لا ابغى بها غير الحق مطلبا . وكنت أحب أبدا أن يحترمنى القاضى ، فأحذر كل ما يؤدى الى غير ذلك . ولعل سعادة الرئيس يذكر ما كان بين اعضاء لجنة الامتحان التى طلبتنى وبينى ، وسألتنى : ما هى واجبات المحامى ؟ كان جوابى : درس القضية جيدا ، والمدافعة عن الحق ، واحترام القضاء

« سادتى :

« تعلمون ان الحق صعب الاكتشاف ، وان الحقيقة اذ تكون ضالة ، تتشعب طرق نشدانها على الباحث . ويعلم الله كم من ليال مضت ، ما كان امرها عندى ، لا لأنى كنت فى عيش ضنك ، ولا لأنى قليل الميسرة ، ولكن

سعد زغلول المحامى فى سنة ١٨٨٩

لأن الحقيقة ضائعة ، لا اجدها فى طريق نشداتى لها ، بين أناس عهدت اليهم أمانة ، ولا من يؤديها منهم لأهلها . كنت أرى القانون يكرهنى على احترام القضاة ، وضميرى يأبى الامتثال لاحترام كثير منهم ، فكنت أجمع بين الاحترام والتحقير ، ولا أستطيع التوفيق بين الظاهر والباطن ، فاعجبوا أيها الافاضل من مطيع غير مطيع ، ولا جناح على ، لان القوانين لا حكم لها على السرائر والضمائر .. أقول انى كنت أسأل من القاضى حقا ، ومن النيابة واجبا ، فلا أجد هذا ولا ذاك . أما الآن ، فكلنا يعترف فى سره وعلنه، بأن القضاء ارتقى ، والحق عنه مسؤول

« وما زلت يا اخوانى أعد نفسى محاميا عن الحقيقة التى أردنا المحاماة عنها جميعا

« وانى شاكر فضلكم ، منشرح الصدر من كونكم عددتمونى جوهرا شفافا سطعت عليه أشعة العدل وانوار الحق . فادعوا الله معى أن يؤيد روح الحق فى بلادنا ، ويزيد فى نشر الفضيلة والعدل »

لعل تواضع سعد حمله على اجمال موضوع احترافه المحاماة ، بعد ما فصله الخطباء الذين سبقوه ، فكالوا له من التقدير والتكريم ما أعجز لسانه عن شكرهم ، وهو الفصيح البليغ اللسن ، كما قال

فماذا قال الخطباء ؟

استهل الحفلة اسماعيل صبرى باشا بكلمة رقيقة قال فيها :

« ان تعيين حضرة الفاضل سعد زغلول افندى عضوا فى محكمة الاستئناف ، لدليل على أن المحاماة والقضاء اخوان رضيعا لبان ، وغصنان صنوان ، حتى لقد راقنى ان اتمثل بقول المتنبى :

هذى منازلك الأخرى نهنيها

فمن يمر على الأولى يعزيها ؟»

نهض بعده اسماعيل عاصم باشا المحامى فقال فى خطبة مستفيضة :

« .. بتنا منشرحى الصدر ، مثلجى الأفئدة ، لظهور التطور والارتقاء فى اصلاح خطة القضاء ، بانتخاب الاكفاء لها ، اذ رأينا الحكومة قد نشطت لحظة جديدة مثلى ، فانتقت من صناعة المحاماة أصوليا نابغة ، هو حضرة سعد أفندى زغلول ، فعينته فى محكمة الاستئناف . ولم يكن قبل فى صناعة دنيا ، فنقول اليوم انه ارتقى ونهنئه على ارتقائه ، بل كان فى مهنة

شريفة سامية ، وكانت تفخر به وتزهى ، فما كان من القضاء الا أن نفسه علينا ؛ فضمه اليه من بين أظهرنا ، وكان ذلك دليلا على انتهـــاج سبيل الاصلاح ، اذ كان سعد أفندى زغلول يصلح فى الحقيقة لمنصب أرقى مما انتخب له ، وأسمى مكانا

« وقد اجتمعنا نحن عصبة المحامين ، الليلة ، لنهنىء انفسنا بانتخاب الحكومة لحضرة الفاضل فى سلك القضاء »

ثم وقف الأستاذ ابراهيم اللقانى المحامى فقال :

« يا سعد ، وفى هذا اللفظ معنى الاجلال والتعظيم ، ويكفينى مؤونة المقال .. فياسعد قد عز على القول فى هـــذا المقام ، مع مالى من الاثرة والاختصاص بك والاحتفاظ بجليل فضلك ، الى حد يحتبس معه لسانى ، ويعجز عن الافصاح والبيان . وأقتصر الآن على أن أهنئك من قلب يخالطه الأسف على انفصالك من بيننا ، وقد كنت واسطة عقدنا . وعلى قدر هذا الأسف تكون تهنئتنا على دخولك فى سلك القضاء . ولكن علام ؟ هل انتقلت الى مقام تكون فيه أكثر ثراء وأوسع دنيا مما كنت فيه ؟ كلا ، بل الى مقام يحبس فيه رزقك على راتب زهيد ، فعلام اذن نهنئك ؟ أم هل انتقلت الى مقام تزاول فيه علما لم تزاوله ، أو تزداد سعة منه ووفرا وكنت فيه قصير الباع ؟ كلا ، فعلام اذن نهنئك ؟

« بلى ، نهنئك لأنك كنت تناضل عن الحق ، وتحارب للانصـــاف ، وتجاهد للعدل ، ولم يكن بيدك ، فأصبحت والعدل اليوم بيدك يطالبك بحقه . الا فلنشرب على شرف تسلمك زمام الحق ونصرته »

أما أحمد حشمت باشا فقد أوجز اذ قال :

« قد علمتم ان النيابة العمومية والمحاماة خصمان مختلفان ، ولكن يناضل كل منهما فى سبيل الحق والانصاف ، ويجد لمحو عوامل الاستبداد والاعتساف . وقد كان حضرة سعد أفندى زغلول من اشـــد الخصمين واقواهم حجة ودفاعا عن الحق ، وذودا عن العدل ، فأصبح اليوم فى صفه الحاكمين بين الخصوم ، فحق للنيابة العمومية أن ترحب به فيصـــلا يقضى بالحق ، كما عهدته فى دور خصومته ، نصيرا له »

وتعاقب المتحدثون ، ول منكهم يشير اشارة عابرة الى فضل سعد على المحاماة ، حتى وقف الأستاذ ابراهيم الهلباوى بك المحامى ، فبسط بسطا وافيا ما أشاروا اليه ، فقال :

« اذا التمست من حضراتكم المعاذير ، وطلبت الصفح عن التقصير ، فلى شفيع قائم بين أيديكم ، الا وهو كونى أخطب الآن أثر ثلاثة عشر خطيبا ، كلهم قد خلب الالباب ، واخذ بمجامع القلوب . ولكن لا أسألكم عذرا ، لأن موضوع الخطب شخص كله فضائل ، ومهما قال الخطباء ، فبحر الفضل واسع لا تنفد مادته . ولست أقصد بكلمتى الى الأسف على فراق سعد افندى زغلول لطائفة المحامين ، فاننا ما اجتمعنا هنا لتوديعه منها ، بل لنهنىء هذه الطائفة التى يحق لها أن تفخر اعجابا بما نالته ، بتعيينه ، من الشرف وعلو الشأن

« تقولون ان حرفة المحاماة شريفة ، وفضلها مقرر ، واقول : كان ذلك لها ، ولكن على القرطاس ، وفى القواعد الفلسفية ، أما المشاهد فليس كذلك

« فمنذ تسع سنوات ، كانت أبعد عن اسم الشرف والفضل . وتعلمون انتم ان المحاكم الأهلية حلت محل المجالس الملغاة ، التى كان أمامها محامون يسمون « وكلاء الدعاوى » ، ليس صاحب السمعة فيهم ، الا من كان أخبر بأغراض القضاة ، وأعرف بحاجتهم ، فكان ، ولا ريب ، هذا الفن ضائع الاعتبار ، بين أيدى طبقة مضيعة لشرفه ، خافضة لمكانته . فلما تألفت المحاكم الأهلية لم يجسر احد أن يسوق نفسه ضحية لهذا الفن وذبيحة ، الا رفيقنا سعد افندى زغلول ، فكل يعالج مرضه ، ويرتق فتقه ، ويقيم أوده ، ويجاهد فى سبيل اعلاء كلمته ، حتى أسدل الستار على كثير من فضائحه ومعايبه ، فأقدم اذ ذاك أرباب الشرف على احترافه ، ولهذا كان سعى رفيقنا بادىء بدء ، جهادا مستمرا ، ولولاه ما استطاع احد الاشتغال بهذا الفن ، الذى اصبحنا نعده اليوم فنا شريفا ومهنة سامية عالية . فالفضل كل الفضل فى سمو مكانتها ، لحضرة سعد أفندى زغلول . فلذلك وجب علينا ان نهنىء المحاماة ، بانتقاله منها وارتقائه الى منصة القضاء ، فهو الذى صيرها اهلا لأن يرتقى منها مثله الى محكمة الاستئناف

« ومن الغريب انه لما عرض تعيين حضرة صديقنا المفضال سعد أفندى زغلول ، عضوا فى محكمة الاستئناف ، قال قائل : ان حضرته رغم ما أحرزه من الفضل وسعة الاطلاع فى القوانين ، ليس لديه شهادة « ليسانسيه » ! فلما بلغ هذا القول سعادة الفاضل رئيس محكمة الاستئناف ، أجاب بأنه : اذا كان معترفا بفضله وسعة اطلاعه فى القانون ، أفلا يكون اضطلاعه بدراسة الشريعة الاسلامية الغراء ، شفيعا له وقائما مقام شهادة « الليسانس » ؟ وهذه حجة دامغة ومقال رشيد

« وهل من ينكر بعد هذا فضل حضرة سعد أفندى زغلول ، وقد عرف فضله كل مصرى ، حتى أصبح الفلاح فى زوايا القرى ، يعتمد على اسمه فى مقاضاة خصمه ، ان كان محقا ، وتخور قواه وتهن عزيمته عند ذكر اسمه اذا كان مبطلا ؟ فهل مثل هذا الفاضل تكبر عليه وظيفة مندوب فى قلم قضايا الحكومة ، وقد أكبرتها من قبل ذلك الاغراض ، ثم كادت تكبر عليه وظيفة قاض فى محكمة الاستئناف ، وهى الوظيفة التى نحتفل اليوم بها ؟

« وأنتم يا حضرات الاخوان تعترفون فى سركم وفى علانيتكم ، انه افضلنا وأجدرنا بالرقى واستلام زمام الحكم فى أكبر مصالح الحكومة . فالمحاماة التى رفعها الى ذروة الشرف ، لا تزال تطالبه بأن يتسنم لها أعلى سنام الرعاية والاعتبار ، وان يمحو عنها ما بقى من رسوم الزراية والاحتقار، حتى اذا طلب أحدنا فيما بعد ، الى منصب أرقى مما نال اليوم ، لا يجد دونه معترضا

« كلكم تعرفون يا حضرات المحامين ان القضايا كانت ترفع الى المحاكم ، وفى كل مائة منها سبعون أو ما يزيد ، ترفع فيها المسائل الفرعية ، فتقبل لخطأ فى الشكل ، أو لجهل بالطرق القانونية ، فأصبحت وليس فى المائة خمس قضايا مما تقبل فيها الفرعيات ، ومرجع الفضل فى ذلك كله الى سعد أفندى زغلول ، إذ كان قدوة وأستاذا للمشتغلين بصناعة المحاماة ، بل كان استاذ الكثيرين من القضاة : وهذه تقاريره الشرعية والعقلية محفوظة لدينا ، يرجع اليها كل من استبهم عليه أمر قانونى ، فلم يعد بعد من حاجة الى بقائه بيننا ، فقد اتم دروسه علينا ، من حيث الصدق والاستقامة وطهارة الذمة ، أو من حيث البلاغة والفصاحة ، أو من حيث المسائل القانونية الدقيقة المعضلة . فليت شعرى ، لأى شىء نتأسف على فراقه ؟ وليس بنا من حاجة اليه ، الا ما يطلب منه فى دوره الجديد ؟

« اى مشكل قانونى ، أو أية حادثة قانونية ، أخذت بطبيعتها شكلا من الأشكال والالتباس — وللحوادث طبائع تختلف حتى مع وحدة القانون — ولم نر مرجع الفضل فى حله ، الى حضرة الفاضل سعد أفندى زغلول ؟ بل فى أى وقت تنازعنا فى مبدأ قانونى ، وكان الحكم بين الفريقين غيره ؟ أو لم يكن الرجوع الى آرائه فى الأحكام السابقة التى بسبيل هذا المبدأ ؟

« ان انتقاله اليوم الى سلك القضاء ، لا يحزننا ، بل يملأ صدورنا فرحا واغتباطا ، اذ به تزول عنا بقية الوصمة التى لم تبرأ حرفتنا من عابها الى

الآن . فلو قال لنا قاض من القضاة بعد اليوم : « ان فيكم من لا يصلح لشيء » أجبناه : بل ان فينا من شرف منصب القضاء »

وتنقضى السنون ، وتكر الأعوام ، تولى سعد فى أثنائها نظارة المعارف ونظارة الحقانية ، ووكالة الجمعية التشريعية بالانتخاب . فاذا عطلها الانجليز لنشوب الحرب العالمية الأولى فى أغسطس من عام ١٩١٤ ، انتهز فرصة نهايتها فى عام ١٩١٨ ، فقصد فى يوم ١٣ نوفمبر من ذلك العام مع زميليه على شعراوى باشا وعبد العزيز فهمى بك ، دار الحماية البريطانية ليطلب الاستقلال التام لوطنه ، والسفر الى لندن ليصارح الانجليز الغاصبين بحق هذا الوطن فى الاستقلال والحرية ، فلم يجب الى طلبه ، ونفوه مع نفر من زملائه الاحرار الى مالطة فى ٨ مارس من عام ١٩١٩ ، فاندلعت الثورة وعمت القطر كله ، من شماله الى جنوبه ، ومن شرقه الى غربه ، فى اليوم التالى لنفيه (٩ مارس) فاضطرت السلطات البريطانية الى الافراج عنه بعد شهر واحد ، وظل طليقا فى خارج الوطن ، داعيا الى استقلاله . فاذا عاد الى القاهرة فى ٥ ابريل من عام ١٩٢١ استقبلته الأمة استقبال الفاتحين ، واضطر الجنود البريطانيون المحتلون الى ملازمة ثكناتهم ، فلم يظهر واحد منهم يومها فى اى شارع من شوارع القاهرة أو الاسكندرية ، وذلك حرصا على شعور المصريين ، وكتب يومذاك اللورد اللنبى المعتمد البريطانى الى امه - ما ورد فى مذكراته - تحت « يوم ٦ ابريل سنة ١٩٢١ » ، يقول :

« وصل الى القاهرة أمس سعد زغلول ، فسحبت كل الضباط والجنود من الشوارع ، تاركا للمصريين الأمر . ولقد احتشدت الجماهير المتحمسة ، ولكن النظام كان يشملها ، حتى لم تقع حادثة واحدة »

وكتب المارشال ويفل فى كتابه « اللنبى فى مصر » يصف ذلك اليوم ، فقال :

« كانت رحلة سعد زغلول على طول خط سكة الحديد من الاسكندرية الى القاهرة ، فوزا باهرا له ، ثم امتازت بالمناظر الرائعة عند ما وصل الى العاصمة . وهذا اليوم بطبيعته عطلة وطنية ، غادرت فيه النساء خدورها - مما لم يحدث قبل ذلك - ليشاركن فى استقبال من أعظم الاستقبالات التى قوبل بها زعيم فى اى بلد من بلاد العالم . ولا بد ان يكون عدد الذين احتشدوا فى المسافة القصيرة نسبيا ، بين محطة سكة حديد وبين منزل زغلول ، نحوا من ٤٠٠,٠٠٠ من الأشخاص على الأقل . ولقد امتلأ الطريق بالعربات التى ترفرف فوقها الاعلام وسعف النخيل ، وبالمركبات من كل صنف ،

سعد زغلول المستشار في سنة ١٨٩٣

غطيت بالأزهار ، وعليها الفتيات يرقصن ، وبالموسيقات الشعبية من كل لون ، وبالحمال وبالحمير ، حتى تالف من كل ذلك مشهد رائع عجيب »

وتسابقت الهيئات والجماعات والطوائف فى تكريمه وتكريم رفاقه ، فى حفلات كبيرة فى افخم فنادق العاصمة ، شهدها الوزراء والكبراء والعلماء وكثير من الطلبة والعمال والموظفين والشيوخ والشباب والفتيات والسيدات. من هاتيك الحفلات حفلة اقامتها له نقابة المحامين فى فندق شبرد ، فى ١٥ ابريل ، اى بعد عودته بعشرة أيام ، وقف فيها خطيبا رادا على خطبائهم ، فافاض فى موضوع احترافه المحاماة فقال :

« حضرة الأستاذ النقيب :

« حضرات الزملاء الأفاضل :

« قبل الدخول فى الموضوع ، بالاصالة عن نفسى ، وبالنيابة عن حضرات زملائى ، اقدم لحضراتكم مزيد تشكراتنا على هذا الترحيب ، وعلى هذه الحفلة التكريمية

« ثم انى ابدى بانى لا يصح لى مطلقا ان افتخر بأى عمل من الأعمال فى القضية المصرية ، لانى ما كنت أعمل فيها وحدى ، بل بمشاركة زملائى. واعترف لكم علنا بانى لم أكن العامل الأكبر فيها ، بل كنت العامل الأخير (تصفيق)

« لا اباهى بهذا الفضل ، لأن حصتى فيه تافهة ، ولكن الذى أباهى به ، واستسمحكم ان اقول بانى أفتخر به كل الافتخار ، هو دخولى فى صناعة المحاماة (تصفيق)

« نعم ، افتخر بهذا افتخارا كبيرا . ولا ينبغى أن ينسب لى أنانية فى هذا الافتخار ، لأنى أعرف كيف كان الدخول فى مثل هذه الصناعة صعبا جدا

« دخلت المحاماة أيام كان الدخول فيها ليس شرفا كما هو الان ، بل ملوث لمن دخل فيها . لم تكن صناعة المحاماة شريفة فى بلادنا ، كما هى شريفة فى ذاتها ، بل أسىء استعمالها ، الى حد ان كان اسم المحامى مساويا لاسم المزور . نعم ، كان هذا هو شأن المحامى ، وكان لا يستطيع أن ينسب لأى بيت من البيوت العالية . كان الصدق غير معروف فيمن يشتغلون بهذه المهنة ، ومع ذلك اقدمت على هذه الصناعة ، مع انها كانت مخالفة ، فى ذلك الوقت ، للذمة وللشرف . وكان المحامى لا يقصد لعلمه بل لتزويره .

فالاقدام على الدخول فى هذه الصناعة فى الظروف التى شرحتها ، يعد شجاعة واقداما . وقد دفعنى الى الاشتغال بها ، اعتقادى انها صناعة شريفة ، لها صفات جميلة جدا ، لانها تساعد العدالة فى توزيعها ، فيجب رفع شانها (تصفيق)

« دخلت فى هذه الصناعة ، وتحملت ما تحملت ، ولم يكن هناك نقابة تدافع عن حقوقها ، بل كانت المحاماة تحت الأحكام العرفية حقيقة ، وكان يكفى ان يغضب رئيس محكمة على « وكيل » ، فيحرمه من صناعته .

« واذكر يوما كنت اترافع فيه أمام محكمة بنها ، فطلب وكيل النيابة تأجيل القضية لاستيفاء بعض الاجراءات ، فقلت : لا يجب تأخير الدعوى ، لانه لا يصح اطالة سجن المتهمين . فقال الرئيس : اسحب كلامك ، فان المحكمة لا يجب عليها شيء . ولم يكن فى ذلك الوقت نقابة يرجع اليها ، ولكن شدة جرأتى دفعتنى على أن أقول له : انى لا أسحب كلمة اعتبرها حقا ، فتداول مع زملائك ، وقرروا رفض طلبى أو عدم رفضه . قلت هذا وأنا متخوف أن يجر الى حرمانى من صناعة المحاماه ، ولكن قدر القدر ان يكون بين القضاة قاض كان صديقا لنا أخيرا ، وهو المرحوم على بك فخرى ، فعفوا عنى !!

« نعم ، لم تكن المحاماة شريفة فى ذلك الوقت ، كما هى شريفة فى ذاتها ، وكان المحامون مشهورين بمهارتهم فى أن يشتموا بعضهم بعضا . وقد اصابنى فى أول مرافعة لى أمام محكمة الاستئناف ، ان زميلى كان رجلا « قديما » ، وكنت صغير السن اذ كان عمرى ٢٢ سنة ، وكان مستأنفا ، فأخذ يطعن على بدون أن يعرفنى أو أعرفه ، ونسب الى انى كنت محاميا قديما وما كنت كذلك ، وبعد ذلك ألهمت القول بأن كلام زميلى ينحصر ، بعد حذف المطاعن ، فى كذا وكذا . وما جاريته فى شتائمه ، وجريت على هذا الاسلوب ، وجرى عليه آخرون

« أقول لكم هذا لأدل حضراتكم على أن صناعة المحاماة لم تكن شريفة، وكان الدخول فيها يحتاج الى اقدام وشجاعة وتضحية . والمتشرف بمخاطبتكم تحمل هذه التضحية ، وهو يستحق أن يفتخر بها . ولقد جاهدت حتى علا شأن المحاماة ، وأصبح فيها من هم صادقون واصحاب ذمة وشرف ، ولكن قبل هذا الدور ، كان لا ينبغى لقاض أن يجالس محاميا ! ولقد صدر منشور من النائب العمومى بمنع اختلاط المحامين بالقضاة ! ولكن هذه الصعوبات ذللت ، حتى صار القاضى يرى من شرفه ان يخالط المحامى ويعاشره ، ويسلك معه كل مسلك (تصفيق)

« ثم كان من هذا السير ، ان قضاة انتخبوا من المحامين ، وكنت أول انسان فى المحاماه انتخب قاضيا ، وانى أفتخر بهذا . ثم حدث انى اشتركت فى تأسيس نقابتكم التى هى الآن الملجأ لكم والحامية لحقوقكم . وانى أشكر النقيب الفاضل على انه ذكر هذا بأنه مفخرة لى ، واتقبله منه بغاية الشكر »

ما كان سعد لينسى حديثه عن نفسه وهو محام ، فى المناسبة التى تعرض له

فى ١٥ فبراير من عام ١٩٢٤ ، أقامت نقابة المحامين بالقاهرة ، حفلة تكريم لثلاثة من المحامين اختارهم سعد فى أول وزاره دستوريه رأسها فى تاريخ مصر الحديث ، هم : مرقص حنا بك وزير الانتقال ، ومصطفى النحاس بك وزير المواصلات ، ومحمد نجيب الغرابلى افندى وزير الحقانية فما ان انتهى الخطباء من خطبهم ، حتى تطلعت الابصار الى سعد ، راجية ان يلقى كلمة او درة من درره فى المحتفلين ، فارتجل ـ وجميع خطبه طول حياته كانت ارتجالا ولعدة ساعات ، الا ما كان فى مناسبة رسمية فيتلو من ورقة ـ خطبة بداها بقوله :

«زملائى الكرام :

« وكل من أرى زملائى ، فان كانوا محامين فقد كنت محاميا ، وان كانوا « مجاورين » ـ اى طلبة فى الأزهر ـ فقد كنت مجاورا ، وان كانوا صحافيين فقد كنت صحافيا ، وان كانوا وزراء فقد كنت من الوزراء ، ولذلك ادعوكم كلكم زملاء »

ثم قال بعد حديث قصير :

« اذكر انى عند ما كنت محاميا ـ ولا أقول ذلك مفاخرة او مباهاة ، بل حكاية للواقع ، يسمعها المحامون الذين هم أحدث منى سنا ، ليروا رأيهم فى اتباعه .. يأتى موكلى مريدا الصلح لخشية خصمه من توكيلى عنه ، فارحب به وأسهل الأمر عليه ، بان أرد اليه مقدم الاتعاب التى قبضتها منه ـ لماذا سكتم ؟ (ضحك وتصفيق) . يجب عليكم ان تساعدوا على الصلح ، ولو برد بعض الأتعاب ان لم يكن كلها . وعلى اى حال أرجو أن لا تكون قيمة الأتعاب مانعا لكم من تحقيق الصلح والسلام

« انى ما كنت أقيد مقدم الأتعاب فى باب الايرادات ، بل فى باب الامانات، لأن فى نفسى ضعف نفسى ، حتى اذا أراد الموكل الصلح ، أرد له الأتعاب وأقول له : هـــذه أمانتك ردت اليك . فعليكم ان تتصرفوا فى الأمر كما

تشاؤون ، وقوا انفسكم من طمعكم كما ترون ، وهذه نصيحة محام قديم لمحامين محدثين »

لم يقتصر فضل سعد على المحاماة على هـذا ، بل ان له فضـلا قديما لا يذكره أحد اليوم ، هو انه فتح باب الانتساب الى « مدرسة » الحقوق امام الراغبين من الشباب فى دراسة القانون . وقد روى هذا بنفسه ، فقال فى جلسة الجمعية التشريعية التى عقدتها فى يوم ١٠ يونيو من عام ١٩١٤ ـ وكان وكيلها المنتخب ممثلا فيها دائرة السيدة زينب ـ لمناقشـــة بعض نصوص قانون تحقيق الجنايات ، وبعض مواد خاصة بالالتحاق بالمدارس اعدتها لجنة المعارف فى تقرير مسهب :

« عندما كنت ناظرا للمعارف ، وجدت كثيرا من الشباب يريدون أن يتعلموا الحقوق ، ولكنهم لا يجدون سبيلا لتعلمها ، لان محلات مدرســة الحقوق أقل من الطالبين ، فبحثت المسألة مع ولاة الأمور ، وامكننا ان نقبل فى امتحان المدرسة اناسا يتعلمون فى منازلهم أو فى المدارس الحرة ، ثم يقبلون فى آخر السنة فى الامتحان ، وترتب على ذلك ان تعلم كثير من الناس »

كان سعد فريدا بين الزعماء ، فى صراحته ، وفى بساطته ، وفى تواضعه وفى تمسكه بالحق ، وفى شدته على الباطل ، وفى الوفاء ، وفى كل فضيلة ، اومحمدة او مكرمة عرفها اهل ذاك الزمان

من صراحته فى الحق ، ما اثر عنه قوله غير هياب ولا وجل عن السلطان احمد فؤاد ، فى الحفلة التى اقامها له سكان قسم شبرا برياسة الأمير عزيز حسن ، فى ٢٥ ابريل من عام ١٩٢١ ، فى معرض حديثه عن الخلاف الذى نشا بينه وبين عدلى يكن باشا على رياسة وفد المفاوضـــات مع الحكومة البريطانية ، فان سعدا يصر على أن يكون رئيس الوفد باعتباره ممثلا للامة ، ويصر عدلى على ان يكون هو الرئيس لانه الممثل الرسمى للحكومة باعتباره رئيسا للوزراء . قال سعد :

« قالوا ـ اى الوزارة وانصارها ـ ان اعطـــاء الرياسة لغير رئيس الحكومة مخالف للتقاليد المعروفة . ما هذه التقاليد ؟ لكل بلد تقاليده ، فهل فى مصر ما يمنع عظمة السلطان من أن يعطى الرياسة لمن يشاء ؟ كلا ثم كلا . . هذه دعوى منهم لم يقيموا بينة عليها ، فلا اعتبار لها . على انه اذا صح فى البلاد الأوربية ان رئيس الحكومة يجب أن تكون له الرياسة ، فلا يصح ذلك فى مصر مطلقا ، بالنسبة للمهمة السياســـية التى نحن بصددها ، فان مصر ليست بلدا دستوريا ، ووزارتها لا ينتخبها الشعب ،

بل هى معينة من طرف الحاكم ، فلا يمكن ان تدعى أنها وزارة دستورية نائبة عن الأمة ، فهى معينة من عظمة السلطان ، بل أجاهر بالحقيقة الآتية : ومن المندوب السامى أيضا .

« ومتى كان المرسوم السلطانى ممضى من رئيس الوزارة والوزراء ، فانهم يكونون هم المسؤولين عنه ، لأن عظمة السلطان يمثل سلطة الحماية المضروبة عليكم رغم أنوفكم .

« ليس لمصر وزارة خارجية الآن ، وسياستها الخارجيـــة بيد الدولة الحاميه ، فرئيس الوزارة ليس الا موظفا من موظفى الحكومه الانجليزية ، يسقط ويرتفع باشارة من المندوب السامى ، وهو بهذه الصفة لا يمكنه ان يكون بازاء رئيسه وزير خارجيه انجلترا حرا فى الكلام ، لانه مدين له بمركزه فاذا طلبنا الرياسة، فانما نطلبها ليكون الرئيس حرا مرتكزا على قوة لا تهاب شيئا فى المطالبة بحقوقها ، وهى قوة الأمة ، لا ان يكون مرتكزا على قوة مستمدة من الحكومة الانجليزيه ، لان ذلك يجعل المفاوضة بين الأصل وفرعه ، أى بين الحكومة الانجليزية ، وبين الحكومة الانجليزية أيضا .. أى ان جورج الخامس ــ ملك انجلترا فى ذلك الوقت ــ يفـــاوض جورج الخامس »

من تواضعه قوله فى جلسة الجمعية التشريعية فى ١٥ يونيو من عام ١٩١٤ ، ردا على عضو قال ان سعدا يريد بمعارضته المسالة التى كانت مطروحة على أعضـــاء الجمعية ، التاثير على فئة مخصوصة لتنضم اليه وتنقاد لزعامته :

« هذه الفكرة يا حضرة العضو المحترم ، يسهل على اللسان مع الاسف ترديدها ، وقـــد تطـــوف ببعض الاذهان . ولكنى أقرر لك انها فكرة غير صحيحة ، وانى بعيد عنها كل البعد ، وها انا موجود معك ومع غيرك فى هذه الجمعية منذ زمن طويل ، فقل لى : متى رجوتك مرة ان تنضم الى رأيى ؟ ومتى حاولت التاثير عليك لأجعلك تحت زعامتى ؟ لا اظنك تقول ذلك ..

« انك ان شئت ان تعرف حقيقتى ، فاعلم اننى رجل قد وضعت تحت تصرف أمتى : عقلى وخبرتى وبيانى ، فان استفادت الأمة من عملى هذا ، فذلك ما يجعلنى سعيدا ، والا فهو واجب قد أخذته على نفسى ، فانا اقوم به لأريح ضميرى . أما الذى يسرنى ويشرفنى ، فهو ان اكون خادما لكم لا زعيما »

وكان سعد يفخر بانه فلاح ، واعرب عن فخره هذا فى مادبة عشاء كبيرة اقامها له ولرفاقه ((سر تجار العاصمه)) عبد القادر الجمال باشا وزملاؤه، فى فندق سيميراميس فى مساء يوم ١٢ ابريل من عام ١٩٢١ ، بمناسبة عودتهم من اوربا ، حيث كانوا يحاولون جاهدين عرض القضية المصرية على مؤتمر الصلح

قال سعد فى تلك الحفلة : « طربت جدا عندما شرفنى بزيارته وفد من الفلاحين على اكتافهم المقاطف ، وفى أيديهم الفؤوس ، اذ قالوا : اننا جئنا لنحييك . قلت : وماذا تريدون ؟ قالوا : نرغب فى الاستقلال : قلت : تعرفوا الاستقلال بيتاكل والا بينشرب ؟ قالوا : الاستقلال يعنى نحكم نفسنا بنفسنا ولا يحكمناش الانجليز .

« ايتونى بأى كاتب أو فيلسوف ، يأتى للاستقلال بمعنى أحسن من هذا المعنى الذى جاء به الفلاح الذى يحمل فى يده الفأس وعلى كتفه المقطف ؟

« انى افتخر بهذا الفلاح ، وبأنه منى وأنا منه »

ويصبح لمصر دستور فى عام ١٩٢٣ ، وتجرى على أساسه الانتخابات حرة نزيهة ،فيكتسح سعد وانصاره مقاعد البرلمان ، ويرأس أول وزارة دستورية فى تاريخ مصر الحديث كما قلت من قبل فى سنة ١٩٢٤ ، فيكتب المارشال ويفل يقول فى كتابه ((النبى فى مصر)) ، ويا صدق ما قال :

« كانت سنة ١٩٢٤ فى مصر ، سنة زغلول ، فقد طلعت عليه وهو سيد مصر الأعلى ، وحل يوم ٢٧ يناير من هذه السنة ، فأصبح زغلول أول رئيس وزارة لمصر فى ظل الدستور الجديد ، وتوالت الحكم فى انجلترا فى الوقت نفسه تقريبا ، أول حكومة للعمال رأسها « رامزاى ماكدونالد » واحتفظ بوزارة الخارجية مع رياسته الوزارة ، وكانت له بزغلول معرفة شخصية ، وكثيرا ما كان يعبر عن ميله لتحقيق آمال مصر فى الاستقلال التام ، كما فعل آخرون من اعضاء حزب العمال . ولقد بدا زغلول فى الحق يومها فى ذروة النجاح . كانت له اليد العليا فى السياسة المصرية ، بينما غلب الضعف على الأحرار (يقصد الاحرار الدستوريين) وبقية الأحزاب الأخرى ، حتى الملك لم يطمع فى معارضته ، مع صداقة الحكومة البريطانية له وميلها اليه . بل ان دار المعتمد البريطانى التى لم يكن له صلة رسمية بها منذ ١٣ نوفمبر سنة ١٩١٨ ــ يوم أن ابدات زيارته للسير ريجنالد ونجحت معركة الاستقلال ــ راحت تخطب وده » .

ويقتل سردار الجيش المصرى وحاكم السودان العام السر لى ستاك باشا فى ١٩ نوفمبر من السنة نفسها (١٩٢٤) ، فيستقيل سعد بعد ان رفض انذارين بريطانيين فيهما اعتداء على سيادة الامة واغتصاب لحقوقها ، وتعقبه وزارة اخرى ، وتجرى انتخابات ، وينتخب سعد رئيسا لمجلس النواب فى عام ١٩٢٦ ، فاذا انتهت الدورة البرلمانية فى ١٦ يوليو من عام ١٩٢٧ ، خطب فى النواب مودعا ، فقال بعد ما عدد ما انجزه مجلسهم فى دورته تلك :

« لقد كنت أود أن أتحدث اليكم كثيرا ، ولكنى أشعر بأنى تعبت وأتعبتكم أيضا ، ولا أريد أن أجعل أحدا يمل منى . ولكننى قبل ان اختم كلامى ، أرجو منكم حينما تغادرون هذا المكان أن لا تنسوا وظائفكم : لا تنسوا انكم نواب دائما ، لكى يحدوكم هذا العلم ، الى البحث عن آمال مواطنيكم واحتياجاتهم ورغباتهم ، لكى تبدوها للحكومة ، اما مباشرة ، او بطريق هذا المجلس فى الدورة القادمة ان شاء الله .

« والآن أستودعكم الله جميعا ، وأسأله لكم الصحة والعافية ، وأرجو أن أراكم قريبا ، وأن يهبنى الله جل وعلا من القوة ، ما يعيننى على مشاركتكم فى خدمة البلاد ، حتى نصل بها الى ما نوده جميعا » .

ويسافر الزعيم الجليل الى عزبته فى مسجد وصيف ، حتى اذا كان يوم الاثنين ١٥ اغسطس ، شعر بالتهاب فى اذنه ، واشتد الالتهاب فى اليومين التاليين ، وامتد الى جلد الراس ، وارتفعت حرارته ، واشتدت آلامه ، وعرف الأطباء انه اصيب بمرض « الحمرة » ، فاسرعوا بحقنه بالمصل المضاد فبدا التحسن عليه قليلا قليلا ، اذ هبطت حرارته ، وانتعشت حركته ، مما راى الأطباء معه عودته الى القاهرة ، فعاد اليها بالباخرة « محاسن » فى يوم الجمعة ١٩ اغسطس ، وهو فى صحة لا تبعث على قلق او حذر ، وفى صباح يوم الأحد عاده أطباؤه ، ثم اذاعوا نشرة طبية كانت الأولى والأخيرة ، قالوا فيها :

« ان الالتهاب الذى أصاب حضرة صاحب الدولة الرئيس الجليل سعد زغلول باشا فى أذنه ، ثم فى رأسه ، قد زال بحمد الله مع الحمى التى نشأت عنه . ودولته الآن فى دور النقاهة ، ولكنه محتاج الى الراحة التامة ، ويمكنه أن يغادر غرفته ويقابل زواره بعد قليل من الأيام ان شاء الله » .

ولكن الداء استشرى ، ووصل الى الرئتين شديدا قويا ، وارتفعت درجة حرارته الى الواحدة والاربعين وتسعة خطوط ، ومعنى هذا : ان لا امل ، فقد انتهى الأجل ، وحانت ساعة الرحيل الى الدار الآخرة .

ففى الساعة الثامنة من صباح يوم الثلاثاء ٢٣ اغسطس ، مسحت زوجته الوفية أم المصريين صفية هانم زغلول ، جبهته بيمينها ، حانية عليه ، متكلفة الشجاعة والجلد ، وسالته : كيف حالك يا سعد ؟ فاجابها بصوت خفيض وهو مغمض العينين : انا انتهيت ... فمسحت دموعا هطلت على خديها ، واستجمعت جلدها وشجاعتها وقالت له : بل انت بخير . فرد عليها بصوت لا يكاد يسمع : انا انتهيت . وكانت هذه آخر كلمات سعد ، فقد عاده الأطباء بعدها ، فلم يسمعوا منه كلمة واحدة لانه فقد النطق ، وغاب عن الوعى حتى اذا كانت الساعة العاشرة الا ربعا مساء ، اسلم روحه الى بارئها ، بعد مرض عانى منه اسبوعا واحدا .

وفى اليوم التالى ، شيعت مصر سعدا الى مثواه الاخير ، فى مشهد لم تر مصر مثيلا له الى اليوم ، فقد كانت بداية الجنازة عند بيت الأمة فى شارع الفلكى ، ونهايتها عند مقبرة الفقيد العظيم فى مدافن الامام الشافعى فى زمن لم يكن فيه راديو ، ولا تليفزيون ، ولا وسائل اعلام حديثة ، تذيع الخبر المفجع فى كل صقع وناد . ولم يك سعد حاكما ولا رئيسا لدولة ينثر الذهب على هذا وذاك ، ويستجلب رضاء الناس بالمال وغيره من الوسائل التى يملكها الحكام والرؤساء ، ولم تطل زعامته للأمة عشرات السنين ، فهى لم تجاوز ثمانية اعوام بدات فى نوفمبر سنة ١٩١٨ وانتهت فى اغسطس سنة ١٩٢٧ ، ملك فيها الأمة ، وسيطر على قلوب العرب ، وجند حوله الملايين باخلاصه وايمانه وقوته الروحية التى لم يخلق مثلها بعد ، وشدة عارضته ، وبلاغته الساحرة الآخذة بالالباب .

كتب الاستاذ عباس العقاد غداة تشييع الجنازة يقول فى جريدة « البلاغ » :

« ... اخذ الناس يتجمعون ويتفرقون بغير وجهة ، وعلى غير هدى ، ثم عرفوا لهم وجهة يتجهون اليها حين قارب موعد التشييع ، وآن أوان الشروع فى تنظيم الجنازة . ففريق منهم وجد مكانه على جوانب الطريق من بيت الأمة الى القبر الذى يوشك أن ينزله صاحب ذلك البيت ورافع مناره وقبلة زواره ، وفريق منهم قصد بيت الأمة ليشترك فى تشييع الجنازة ، أو ليتزود النظرة الأخيرة من الرفات المسجى فى نعشه . ولما اقتربت الساعة الأولى بعد الظهر ، حتى كانت القاهرة كلها ومن قدم اليها من الاقاليم ، محشورة بين البيت والمقبرة ، بين دار سعد وقبر سعد . فلا يتحرك السائر فى تلك الطريق الا اندفاعا وزحاما ، ولا تقطع مسافة الدقائق منها الا فى الساعات . ثم كانت اللحظة المرهوبة ، لحظة ينزل فيها

الفقيد الراحل من بيته الى غير عودة ، لحظة يفارق فيها سعد البيت الذى ردته اليه الأمة كلما أبعدته عنه قوة الاقوياء وشدة الاشداء .

« أفاق الناس ... سعد يبرح داره .. ؟ سعد يفارقهم الى غير لقاء ؟ ... يا للهول القاصم ، ويا للفزع الأكبر .. كأنما نسوا هذا ، كأنما كانوا فى حاجة الى مذكر به فوق ما هم فيه من كآبة وذهول ... عادت الحقيقة اليهم جائحة فادحة ، فى صورة ذلك النعش الأخضر ينحدر من بيت الأمة فى تؤدة وسكون ، نعش سعد وفيه سعد ، لا شك فى ذلك ولا مراء ... فيالها من لحظة تطيش فيها العقول ، ويذهب فيها حلم الحليم وصبر الصبور ... صيحة واحدة لا فرق فيها بين رجل وامرأة ، ولا بين شيخ وغلام .. أحزمهم فى تلك اللحظة من ذكر الله وصاح : لا حول ولا قوة الا بالله . وما يقولها وهو يفقه لها معنى ، ويتأسى فيها بأسوة ، انما هى كلمة مقولة فى هذا المقام تنبعث من الأفواه عفوا فتختلط بالصياح الممزق ، والأنين الصارخ المذبوح .

« ثم سار النعش تتعالى الأصوات حوله ، ويتصاعد النواح . ويا عجبا لمنطق العواطف فى موقف الحزن والبلاء !! اختلف المشيعون بعد فترة ، فسكن فيهم من سكن ، واتصل الضجيج من الآخرين . فأما الذين وقفوا على جوانب الطرقات ، فقد كانوا يتلقون النعش ، ويودعونه بالتفجع والعويل ، لأنهم علموا أنه الوداع الذى ما بعده وداع ، والفراق الذى ما بعده لقاء . وأما الذين مشوا خلف النعش فقد علتهم السكينة ، وطواهم رواق واسع من الصمت والوجوم ، فلا همس ولا ركز الا خفقات الأقدام وزفرات الألم المكتوم . أتراهم أنسوا بالفقيد الذى لا يزال بينهم ، فنأى عنهم هاجس انفراق ، وعاودتهم طمأنينة اليقين بالقرب من سعد الى حين ؟ هو ذاك فيما أخال ، فانهم ما انقطعت عنهم هذه الطمأنينة المختلسة عند جامع قيسون ، وما شهدوا النعش يتحرك من مكانه ليذكرهم باقتراب مغيبه ، حتى ثارت الثائرة الهاجعة ، وتدفقت الجماهير كالسيل الجارف الى الفقيد المنذر بالرحيل ... هذا سعد بين أيديهم ، فلماذا يسلمونه للموت ؟ ولماذا يفرطون فيه هذا التفريط ؟ لا عقل هنا ولا تدبر ولا نصيحة ولا اصغاء . هذا سعد ، ونحن نريد سعدا ، فمن ذا الذى يحول بيننا وبين ما نريد ؟ هذا سعد ، ونحن نريد سعدا ، فلماذا نرسله بأيدينا الى ذلك المكان السحيق ؟ كذلك تفكر العواطف المجنونة ، اذا عصفت بالعقل محنة الحزن الأليم . واقسم ، ما ثاب هؤلاء الهاجمون الى أماكنهم لأنهم ثابوا الى الرشاد ، وانما رجعوا عن بغيتهم لأن الشرطة نافحوهم هنالك ،

حتى عجـزوا وتقهقـروا ، فأمدهم الجيش بكل قوته التى رابطت حـول ذلك المكان .

« ثم عدنا الى المدينــــة ، الى القاهرة ، بغير ســـعد ، الى القاهرة اليتيمة . فوالله للقاهرة فى تلك الليلة أشبه بوحشة القبر ، من ذلك الضريح الذى تلقى الأنس والطمأنينـــة فى رفات الفقيد المتروك . ووالله لقد كانت الأسماع يطرقها كل صوت ، فاذا هو بكاء ونحيب . وقد كانت السيارات الذاهبة الآيبة تهتف بأبواقها فى وسط تلك الوحشة ، فكأنمـــا هو نعيب متصل ينطق به قلب يشعر ، ولسان مشلول عن المقال ... سوف تنقضى ايام عـديدة قبل أن يوقن النـــاس بقلوبهم واخلادهم ، أن القاهرة مكان لا يرى فيه سعد » .

ان الخارجين على ســعد ، والذين كانوا يمطرونه فى صباح كل يوم ، الوانا شتى من النقد العنيف القائم على الحســـد والغيرة ، لم يسعهم الا الاعتراف بزعامة سعد ، وبفداحة خطب مصر والعالم فيه .

اقرأوا ما قاله الدكتور محمـد حسين هيكل بك رئيس تحرير جريدة « السياسة » الناطقة عن « الأحرار الدستوريين » اشد خصوم سعد ، فى مقال عظيم له بعنوان « مأتم الوطن » :

« مات سعد زغلول ! يا لهول الموقف ، ويا لقسوة المقادير. وياما أشد حزن مصر على فاجعة لم تترك قلبا الا أدمته ، ولا فــؤادا الا ســلبته ، ولا نفسا الا اهتزت لها فرقا ، ولا عقلا الا زلزلت أعصابه زلزالا ... نعم ، يا لهول الموقف الرهيب ! واية رهبة ، واى جزع ، كان تنظر أمــة ، فاذا لسانها الناطق قد صمت ، واذا قلبها الخفــاق لم يعد يخفق ، واذا هذا الذى كان على كل لسان وفى كل نفس ، فى مصر وفى غير مصر من بلاد العالم كله ... اذا سعد زغلول قد طوى الموت صحيفته ، واذا كل الأنظار التى كانت تتطلع اليه بالرجاء ، لم يبق لها الا أن تتطلع الى السماء ، راجية فى رحمة الله ومغفرته الفرار ، والا أن تنخفض الى الثرى تبلله بالدموع المهراقة والعبرات المسكوبة ؟

« مات سعد زغلول ، يا لهولها من كلمة . رجل يملأ الدنيا اسمه دويا وتحسب الممالك له حسابا ، ثم يأتى عليه الموت ، كما يأتى على أى رجل من الناس ؟ عجبا ! اذن فما الحياة ومازخرفها الباطل ؟ ولكننا يجب أن نتأسى ، وما سعد الا زعيم قد قضت من قبله الزعماء ، ولئن مات فلن ينقلب على

عقبيه أحد ». وستظل ذكراه باقية فى النفوس ، مذكية فيهـــا ما ذكت به نفسه ، من حرص على حق الوطنى ، وايمان لا يتزعزع باقتضائه اياه » .

وقال محمد محمود باشا رئيس الاحرار الدستوريين ومن غلاة خصومه فى حفلة تأبين الزعيم الجليل فى يوم ٧ اكتوبر من العـام نفسـه بمناسبة انقضاء اربعين يوما على وفاته .

« ان مصاب الكنانة فى زعيمها وهى فى أشد الحاجة الى جرأته الحكيمة والى آرائه الموفقة ، لما يعز معه العزاء ، لولا ان ذكراه قائمة فى نفوســنا تشد منا العزائم ، وترشدنا الى معالم الوطنية الحقة .

« انكم لتعلمون جميعا أن ســعدا كان ذلك البطل الحكيم والثـائر الهادىء ، بل قد يكون الزعيم الأوحد الذى قامت زعامته ، فى أمة عزلاء ، على قوة اليقين ومضاء الحجة والاستمساك بالحق . فى حين أن الزعامة فى الشرق والغرب ، قديما وحديثا ، من معـاوية الى مصطفى كمال ، ومن يوليوس قيصر الى موسولينى ، استندت كلها الى القوة المسلحة ، فقامت عليها وتوطدت بها » .

وفى حفلة التأبين هذه ، خطب الأستاذ عبد الحميد سعيد عن الحزب الوطنى فقال :

« قضى سعد ولا راد لقضـاء الله . قضى الزعيم الكبير . قضى القـائد العظيم . قضى فقيد مصر والشرق ... فصبر جميل ، وانا لله وانا اليــه راجعون .. مضى رجل الكفاح . مضى الخطيب الذى طالما هز أعواد المنابر وتملك القلوب ببلاغته وسحر بيانه ، فجزعت مصر ، بل جزعت شـعوب الشرق المظلومة من هول المصاب ، فقد كانت نهضتنا القومية ، موقظـة للشعور ، منبهة للوحدة القوميـــة ، فى كل بلد مهضوم حقــه ، مغلوب على امره .

« لقد فقدت مصر سعدا ، وهى أحوج ما تكون الى آرائه الثـاقبة السديدة ، وهمته الوثابة ، وخطبه التى كانت تزكى نار الوطنية فى القلوب ولا يمكن أن ننسى نداءه الذى قال للأمة فيه : « انكم انبل الوارثين لأقدم مدنية فى العالم ، وقد حلفتم ان تعيشـــوا احرارا أو تموتوا كراما ، فلا تدعوا التاريخ يقول يوما فيكم : أقسموا ولم يبروا بالقسم . فلنسر اذن بقلوب كلها اطمئنان ، ونفوس ملؤها استبشار ، شعارنا : الاستقلال التام أو الموت الزؤام » .

وقال محمد توفيق نسيم باشا ، وكان هو الآخر من الد خصوم سعد في حفلة التأبين :

« ان سعد باشا زغلول مثل من تلك النفوس التي استخلصها الله لنصرة الحق ، واصطفاها واصطنعها لبث روح الفضيلة والوطنية في القلوب ، فكانت مستقر الكمال ، ومجمع أشتات الفضائل . لقد رفع سعد باشا صوته عاليا ، رفع صوته حرا نديا ، فأسمعكم صيحة الحق ، وأراكم نور اليقين ، حتى انجلى لكم الأمر ، وتبين لكم الرشد .

« ان سعد باشا كان الاخلاص مجسما ، والتضحية ناطقة ، والإقدام حيا . ومن كانت هذه صفاته ، وذلك حاله ، لجدير بأن يكون حبيبا للقلوب ، وبصرا للعيون ، وسمعا للآذان » .

وعن الحفلة نفسها كتب الأستاذ محمد صادق عنبر المحرر في « الأهرام » وصفا لها في اليوم التالى ، فقال فيما قال :

» سرادق معقود ، وشعب محشود ، ومنبر يمسكه الوقار ، وان كاد الحنين ليهفو به الى الخطيب الذى كان اذا تسنم ذروته ، اهتز من الخيلاء . ولولا الحتوف من حوله لشب من العجب ، فاتصل بالجوزاء . ولكن أين سعد ؟ فهذا منبر مصر ، ينتظر أن يتسنم ذروته للحمى يحميه ، وللشعب يعزه ويعليه ، وللحق يؤيده ، وللباطل يفنده ؟

« أين سعد ، فهاهنا مطلع عزته ، وميدان صولته ، وقد رهفت الأسماع ، وتعلقت الأنفاس ، وساد السكوت ، فلا همس الا همس الفجيعة ، في صدور كاد يفجرها الشجن ، ولا وسوسة الا وسوسة الرزيئة ، في نفوس كاد يودى بها الحزن ؟

« أين سعد ، رأس الندى وصدره ، وفارس الحق وظهره ، وفخر الوطن ونصره ؟ » .

وبكته المرأة المصرية والفتاة العربية ، في كل قطر . كتبت الآنسة « مى زيادة » مقالا بارعا في « الأهرام » ، عنوانه : « هجع جبار الوادى » قالت فيه :

« ثمانية أعوام هى اليقظة . حقا أن سعدا شاعر اليقظة ، وبطل اليقظة ، وخطيب اليقظة ، وزعيم اليقظة . وفى اليقظة جميع عوامل الحياة وآمالها وشعائرها وسرائرها . أهو الذى حبا مصر بهذا الفيض الحيوى ؟ ام هى التى أمدته به فقوى بقوتها ونطق بلسانها وسطا بسلطانها ؟ أهو

الشاعر يأتى للسامعين بالوحى العجب فيستهويهم ، أم هو الجمهور ينفث فى الشاعر بما يصبو اليه ويتطلبه ، ليذوق النشوة ويحلق مع مبدعها ؟

« لم يكن هذا الرجل يوم وداعه ، بأعظم منه فى اى يوم من أيام هـذه الاعوام المتلظية . ان قصيدة « اليقظة المصرية » متماسكة متكافئة فى جميع مقاطعها ، كل مقطع وفقا لطبيعته وأحواله ، فكانت الخاتمة منها خليقـة بالمطلع . ان سعدا هو فتى مصر المحب المحبوب فى حياته وفى مماته » .

وبعد : الا يستحق هذا الرجل العظيم الذى طهر المحاماة من رجسها ، وأخذ بيدها فرفعها الى أعلى عليين، بعد ما كانت فى أسفل سافلين، وأصبحت صناعة شريفة مرموقة ، تولى العاملون فى حقلها ، فى شتى العهود ، مسئولية الوزارة والحكم ، وولاية شئون الرعية .. الا يستحق من صنع هذا كله ، من نقابة المحامين المصريين ـ وقد ساهم بنفسه كما قال فى انشائها لتحمى العاملين فى ساحتها المقدسة من بغى الباغين ـ ان يكرم ، فيوضع تمثال له فى دار النقابة ، وفى دور النقابات الفرعية فى مختلف المحافظات ؟

الا يستحق هذا الرجل العظيم من اتحاد المحامين العرب ، ان يكرمـه فينصب له تمثالا فى داره ، وتماثيل أخرى له فى جميع دور النقابات فى انحاء الوطن العربى ؟

هو نداء او اقتراح ، ارجو أن يكون له صدى عند النابغين الكريمين : الأستاذ الكبير محمد مصطفى البرادعى نقيب المحامين المصريين ، والأستاذ الكبير شفيق الرشيدات رئيس اتحاد المحامين العرب .

* * *

ان الحديث عن سعد لا ينتهى ، فلأختم حديثى عنه بفقرة تدل على وفائه، واعترافه بفضل من سبقوه فى خدمة هذا الوطن ، لينال استقلاله ويستعيد حريته وكرامته .

لقـد اقامت لجنة الاستقبال التى الفت لاستقباله يوم عودته من أوربا فى ٥ ابريل من عام ١٩٢١ ، حفلة فى فندق شبرد فى يوم ٢٠ من الشـهر نفسه ، وقف فيها يرد على مكرميه ، فقال :

« عدت الى هذه البلاد ، فرايت كل ما فيها قد تغير عما كنت أعهده . كنت أعهد حقيقة ان فيها قوى كامنة ، ولكن ما كنت اظن ان هذه القـوى الكامنة من زمان طويل ، تظهر بهذا المظهر الذى رايته وملأ قلبى سرورا .

« كنت أعلم أن البلاد تصبو الى الاستقلال ، وان حركتها الاستقلالية بدت من زمان طويل ، خصوصا من يوم أن ظهر فيها المرحوم مصطفى كامل

وعلاء المرحوم محمد فريد بك ، هؤلاء الذين اسسوا ، او أيدوا ما أسسوه في النهضة الحاضرة .

« ظهرت هذه القوى الكامنة التى بثتها تلك الأرواح الطاهرة ، ظهرت بمناسبة العودة الى هذه البلاد . ما وجدت فرعا من فروع الحياة خالية من هذه القوى الجديدة ، بل كل الفروع . ورأيت فيها هذه الحياة منبثة كل الانبثاث ... » .

لعل هذه الخاتمة تخجل البقية الباقية من رجال الحزب الوطنى ، الذين يصطنع بعضهم ، وينتهز ، الفرص والسوانح ، للنيل من سعد العظيم الوفى — لمن سبقوه — ومن أنصار سعد .

ولعلنى أكون قد افلحت فى تصوير صورة موجزة صادقة لزعيم ثورة ١٩١٩ ، لشباب هذا الجيل المعاصر ، المضلل فى كثير ، وياويل مضلليه من التاريخ .

رحم الله الجميع ، ورحمنا معهم .

* * *

محمد طلعت حرب باشا مؤسس بنك مصر

علم نفسه الاقتصاد

أرسى قواعد الاستقلال الاقتصادى لمصر وللشرق العربى

وأنكر ذاته ليبقى البنك شامخاً

اذا كان سعد زغلول قد وضع اللبنات الأولى فى بناء استقلال مصر السياسى ، بالثورة التى شبت فى البلاد ، قبل انقضاء اربع وعشرين ساعة على اعتقال السلطات البريطانية له فى يوم ٨ مارس من عام ١٩١٩ فان محمد طلعت حرب قد وضع اللبنات الأولى فى بناء استقلال مصر الاقتصادى ، بانشائه بنك مصر وافتتاحه رسميا فى ١٥ نوفمبر من عام ١٩٢٠ .

واذا كان سعد قد اختاره الله الى جواره قبل أن يعلو البناء ويرتفع شاهقا شامخا ، فيسعد بمصر وهى مستقلة تماما ، حرة امرها بيدها ، وقد نفضت عنها لباس الذل والاستعباد ، فان طلعت حرب قد مد الله فى حياته ليضع لبنات عديدات فوق اللبنات الأولى ، فاذا البناء صرح عال يطاول السماء ، تفخر به مصر وتعتز ، بل يفخر به الشرق العربى ويعتز ... وان كان هو نفسه — أى طلعت — قد لقى جزاء سنمار فى نهاية حياته ، ولن يكون آخر من يجزون على احسانهم بالاساءة ، وعلى فضلهم بالجحود والكنود .

ان كلا من البناءين مكمل للآخر ، بل ان الاستقلال الاقتصادى اذا بودر به ، كان العضد القوى فى بناء الاستقلال السياسى .

ومما يؤيد هذه النظرية السليمة ، ما نراه فى الدول التى ترزح تحت عبء الديون ، وتقف عاجزة فى ميدان الانتاج ، فانها تعيش عالة على دائنيها ، فيستغلون ضعفها ، فيبالغون فى اذلالها ، ويتفننون فى تحطيم كبريائها ، حتى تخر لهم ساجدة محتلة ، مسلوبة الارادة والحرية والكرامة .

« ان الأمم التى وضع على عنقها نير الدين ، واستحكمت حلقاته ، سبيلها الوحيد لاسترجاع حريتها : الاجتهاد والاقتصاد ، حتى تكثر موارد دخلها وتزيد ، فاذا زادت ثروة البلاد وتخلصت من دينها ، سهل عليها نيل كل حرية » (١) .

---

(١) « رجال المال والاعمال » — اصدرته مجلة « المقتطف » فى عام ١٩٢٣ — الصفحة السادسة

فهل أدرك هذا تمام الادراك ، الشاب محمد طلعت حرب ، وهو ما يزال طالبا فى « مدرسة الألسن والادارة » التى كانت تدرس الحقوق لطلبتها ، بينما كان هو منصرفا الى الاهتمام بعلم الاقتصاد ، فيقرأ كثيرا من كتبه وبحوثه ، ومع هذا نراه اول فرقته طوال سنى دراسته ، متفوقا على اقرانه ، الى أن فاز بشهادة الليسانس فى عام ١٨٩٩ ، وكان المجلى فى حلبتها ... ؟

أم هو قد عقد نيته على العزوف عن الاشتغال بصناعة المحاماة بعد تخرجه ونيله شهادتها ، لأنه كان يرى نفسه غير كفء لها ، لما يجب أن يتوفر للمحامى النابه الضليع ، من قدرة على الخطابة ، ومن بيان فصيح ، ومن بلاغة ساحرة مؤثرة ، ومن صبر على اللجاجة ، وعلى الاخذ والرد ، والجذب والشد ، وبعض هذه « المؤهلات » تنقصه ولا تتوافر له ؟

اما انا فارجح الأول ، لأننا نراه فى أدوار حياته ، ناهضا بأعمال اقتصادية خالصة ، فيقيم مكتبا للمحاسبة ومسك الدفاتر فى ميدان الفلكى — ميدان باب اللوق أو الأزهار اليوم — ثم يختار مديرا للشركة العقارية المصرية ، ثم نراه مديرا لشركة كوم امبو ، ومديرا لدائرة عمر سلطان باشا ، وصاحبا لشركة التعاون المالى ، الى غيرها من الأعمال التى تولى ادارتها أو ساهم فيها ، حتى أصبح اسمه على كل لسان ، فى دوائر المال والأعمال .

ولعل معترضا يقول : كيف كان راغبا عن المحاماة ، ومعلوم انه كان مديرا لقلم قضايا « الدائرة السنية » ؟

فأقول له : لقد عين مديرا لهذا القلم بعد أن كان مترجما به ، ولكن المدير لايترافع فى قضايا الدائرة ولا يدافع ، بل هو الموجه والمرشد لمن يراسهم من المحامين .

ثم رأيناه مقحما نفسه فى ميادين وطنية سياسية ، اذا أثيرت فى ساحتها قضايا اتصلت بالاقتصاد بسبب ، ذائدا عن وطنه ومواطنيه ، ما يعتقد انه ضار بالوطن مجحف بحق المواطنين .

وما علمنا أسمين كلما ذكر أحدهما ، اقترن به الآخر حتما ولزاما .. فاذا قلت : بنك مصر .. ذكرت طلعت حرب على الفور ، أو العكس . فهل كان طلعت حرب هو أول من فكر فى انشاء بنك مصرى ؟

يحدثنا الدكتور ابراهيم عبده فى كتابه « تذكار طلعت حرب » وفى الصفحة الخامسة عشرة منه بأنه « فى سنة ١٢٥٨ هـ — ١٨٤١ م — أصدر

محمد على الكبير أمرا بانشاء بنك « مثل بنوكة الممالك المتحدة ، ويكون له امتياز وسلطة فى تسعير العملة والأوزان ، وتسعير سائر أصناف الزراعة والتجارة » .

« وهذا أول بنك لمصر فى تاريخها الحديث . وقد حدد محمد على باشا راس ماله بسبعمائة الف ريال ، تساهم فيه الحكومة باربعمائة الف ، أما الباقى وقدره ثلثمائة ألف ريال ، فقد اختار اثنين من كبار الممولين الأجانب فى مصر ليساهما به ، واشترط عليهما أن يتحملا خسارة البنك اذا خسر ، وتكون لهما الفوائد اذا حققها ، أما الحكومة فلن تنال على مساهمتها ربحا ما ، مهما بلغت أرباح البنك . كانت معظم معاملاته متصلة بنشاط الحكومة فقط ، وما لبث أن توقف بعد وفاة منشئه .

« حتى اذا جلس على أريكة مصر الخديوى اسماعيل ، رأينا صحيفة « التجارة » ــ وقد تخصصت فى الشؤون المالية والاقتصادية ــ تعالج مشكلة الديون المصرية التى اغرق اسماعيل مصر فى بحرها ، وتدعو المواطنين الى التفكير للفكاك من أسر هذه الديون . ثم نقرأ فى عددها الصادر فى ٥ ابريل سنة ١٨٧٩ خبرا لمراسلها قال فيه : « بلغنى ان جماعة من التجار وغيرهم ، وفيهم حضرة الفاضل أمين أفندى شميل ــ وكان من هواة الكتابة فى الصحف ــ نزعت بهم غيرتهم الى تقرير أمر يحاولون به تخليص الوطن من أسر الدين فى ظرف ٢٨ سنة ، وهو انهم يفتتحون بنكا وطنيا يكون راس ماله أربعة عشر مليونا من الجنيهات ، تجمع من سائر افراد الأمة ، على أقساط ثلاثة أو اربعة ، يقدم كل منهم ما تفى به طاقته ولو ليرة واحدة ، وعلى ماراوه بالقياس على معاملة البنوكة ، يكون ربح هذا البنك بعد نفقاته ، اربعة ملايين ليرة ، فاذا صرف هذا الربح سنويا فى استهلاك أصل الدين ، ولا تقوم المالية الا باداء الكوبون فقط ، فلا يمضى غير ٢٨ سنة ، الا ويتخلص القطر من أثقال ما أثقل ظهره من الديون . وقد شرعوا فى تدوين لائحة تنطوى على الأساس الذى يريدون أن يبنوا عملهم عليه .

« وفى ١٧ ابريل قالت الصحيفة نفسها تحت عنوان « البنك الوطنى » : أن مخترع الفكرة وهو أمين شميل ، قد طبع رسالة باسم الخديوى ، ذكر فيها ان ادارة البنك ستكون وطنية ، وسيعدل بنك انجلترا ، ويفوق بنك فرنسا بستة ملايين » ...

« وفى ٢٦ ابريل نشر أمين نفسه مقالا فى الصحيفة استغرق صفحة كاملة ، تحدث فيهعن مشروعه « بنك مصر » ، وبدات الصحف تتنافس

على نشر الدعوة الى انشاء البنك ، حتى اجتمع سلطان باشا وعمر لطفى باشا فى نهاية عهد اسماعيل ، وقررا مع غيرهما من الأعيـان ، ان ينشئوا بنكا لمصر ، وأذاعوا على المصريين نداء طويلا جدا ، قالوا فيه :

ـ « لا يخفى أن البنوكة هى الصلة بين سائر انواع الشركات والمتاجر والمصانع ، وهى الوسيط الذى لا بد منه بين المـال ومنفعته ، وبدونها يهمل جزء كبير من ثروة العالم بلا استثمار .. ان انشاء البنوكة كان رحمة للناس، وسببا كبيرا لتسهيل أشغالهم وتمكين رفاهيتهم . وأما فى المصالح العمومية الخطيرة ، ففائدة البنوك أوضح من أن تحتاج الى دليل ، لأن تلك المصالح تستلزم مقدرة مالية ، وتدبيرا اداريا لا يقوى عليهما الأفراد . ولعمرى لو حذفت البنوك من بلاد الافرنج ، لأمسوا جميعهم كالطير مقصوص الجناح ، أو كالجندى الأعزل ، أو كالفارس مقطوع الساقين ، ولزالت كل تلك القوة التى ملكتهم البحار والقفار ، وجعلت تجارة الدنيا طوع أمرهم ، وأوجبت ان جميع المصالح التى تقضى على البسيطة تمر بأيديهم .. ما الذى يقعدنا عن السعى ، وانقاذ أرضنا لا يكلفنا الا الاجتماع والتعاون لانشاء شركات مالية تفى بما لا يستطيعه الأفراد . ؟ لقد رأينا جمهور نبهائنا ووجهائنـا متبصرين فى سبيل الخلاص ، حتى هداهم الله الى انشاء شركة مالية وطنية ، عرضها عليهم بعض وجهاء التجار ، فتلقوها بالبشر والترحاب ، وأقبلوا عليها ، وعقدوا العزم على اظهارها الى الفعل ، وستظهر عما قريب ان شاء الله ، متحلية باسم كريم تفاءلنا به خيرا ، الا وهو « البنك الوطنى المصرى » الذى طالما حومت الأفكار حواليه ، وتشوقت الأنفس اليه » ـ انتهى النداء

« ولكن الفكرة لم تنفذ ، فقد عزل اسماعيل ، وشبت الثورة العرابية ، فقضت عليها »

***

والحق ان طلعت حرب لم يقل انه أول من فكر فى انشاء هذا البنك ، والرجل صادق ، فهو يبغض الكذب والكذاب بغضا شديدا ، حتى لنراه يحب انسانا ما ، فيسكنه قلبه ، ويؤثره على بعض العظماء ، ويضعه فى محراب من الحب الخالص .. واذا به يلفظه ويدفع به من حالق ، فيهوى مهشـم الضـلوع ، ويصبح ويمسى لا حول له ولا قوة . وسيجىء هذا الحادث فى موضعه من هـــذا الفصل ، مع أمثلة عدة من بغضه الكذب والكذابين

اقول ان طلعت حرب لم يقل انه أول من فكر فى انشاء هذا البنك فقد اعترف بهذا فى حطبته التى القاها فى مساء يوم الجمعة ٧ مايو سنة ١٩٢٠ فى دار الأوبرا « السلطانية » ، فى الاحتفال بتأسيس بنك مصر ، فقال :

ـ « ان فكرة تأسيس بنك مصرى ، برؤوس اموال مصرية ، يعمل لمصلحة مصر قبل كل مصلحة سواها ، ليست بالحديثة ، بل هى فكرة قديمة ، قد أراد الله تحقيقها الآن ، فى أنسب الأوقات وأوفق الظروف » (١)

ان الخديوى اسماعيل نفسه فكر هو الآخر فى انشاء بنك مصر ، عندما ساءت الحالة الاقتصادية ، بسبب ديونه التى أسرف فى اقتراضها ، وبسبب الفوائد الفاحشة التى كان يدفعها الفلاحون المساكين للمرابين من الأروام الذين كثر عددهم ، حتى أن القاضى « بلينير » أحد قضاة المحكمة المختلطة ، قال فى تقرير له عنهم :

ـ « كان عدد الاروام يزداد فى مصر يوما عن آخر ، حتى لاحظ بعضهم انه اذا استمر الحال على هذا المنوال ، فالأولى الحاق مصر باليونان » !!!

ثم وصف القاضى فى تقريره هذا جشعهم واستغلالهم المقيت للفلاحين فقال :

ـ كان الواحد منهم يجىء الى مصر خالى الوفاض ، لا يملك من حطام الدنيا شيئا ، لا بضاعة له الا الاقتصاد والتدبير ، ومتى كسب اى مبلغ بأى طريقة كانت ، اتجه همه الى فتح دكان صغير فى قرية يبيع فيه البقالة ، ثم تتسع أعماله ، فيبدأ فى التسليف بالربا ، ومتى نجحت أعماله ، سهل عليه أن يقترض الأموال من تجار الاسكندرية ، فما هى الا عشية أو ضحاها ، حتى يصبح صاحبنا بنكيرا ممن يلعبون بالذهب ، فيشيد ـ ذلك الذى جاء بالأمس عارى الجسد حافى القدمين ـ قصرا فى القرية ، يتخذه قاعدة لادارة أعماله ، ومحلا لبنكه الذى يؤمه الفلاحون ، ليستعطفوا (الخواجة) ، واغلب هؤلاء المرابين تقشعر لمناظرهم الابدان : أميون لا يعرفون القراءة ولا الكتابة ، امتلأت نفوسهم بالطمع الطاغى ، لا تعرف قلوبهم الرحمة »

لقد سجل اللورد كرومر المعتمد البريطانى فى مصر فى تقريره الذى وضعه فى عام ١٨٩٥ ، وفى الصفحة الخامسة عشرة منه ، هذا الحادث المبكى المضحك معا . قال :

---

(١) « مجموعة خطب محمد طلعت حرب باشا »

ـ « حدث ان احد صغار المزارعين فى الصعيد ، استدان عشرة جنيهات من أحد المرابين ، ووقع على سند تحت يد المرابى قيمته خمسة عشر جنيها على أن تعتبر الخمسه الجنيهات الزائدة ، عائدة للمرابى فى السنوات الثلاث التى سيدفع فى خلالها الفلاح دينه

« فما ان حلت السنة الأولى ، حتى دفع الفلاح خمسة جنيهات ، وتلتها السنة الثانية فدفع خمسة جنيهات تانيه ، وحلت السنة الثالثة فدفع الخمسة الجنيهات الثالثة ، وطلب الفلاح من المرابى أن يرد له السند ، فأبى ، وقال له ان عليه ان يدفع قيمة السند كاملة ، وان هذه الخمسات من الجنيهات ، انما كانت فائدة المبلغ ليس غير !!

« رفض الفلاح المصرى ان يسمع له ، لكن المرابى هدده باقامة الدعوى عليه أمام المحكمة ، ولما كانت الظواهر فى صالح المرابى ، فقد اضطر الفلاح المسكين الى أن يبيع بيته بمبلغ واحد وستين جنيها ، سدد منها للمرابى خمسة عشر جنيها قيمة السند ، من جديد « وأربعة عشر جنيها قيمة مصاريف القضية التى كان فى النية اقامتها ، ومصاريف نقل الملكية والبيع .. الخ !! وهكذا دفع الفلاح المسلين ١٥ + ١٥ + ١٤ جنيها ، أى أربعة واربعين جنيها ، نظير دين قدره عشرة جنيهات » !!

هذه صورة حية لما كانت عليه الحالة الاقتصادية فى مصر ..

يقول المرحوم الأستاذ محمد رشدى رئيس مجلس ادارة بنك مصر السابق ، فى الصفحة الثالثة والخمسين من الجزء الاول من كتابه « التطور الاقتصادى فى مصر » :

ـ « ان الأسباب التى ادت الى نشأة البنوك فى مصر ، تتمثل فى نقطة جوهرية واحدة ، هى حاجة الأجانب ، بعد أن انتشروا فى مصر ، الى نقط ارتكاز مالية ، تعمل على تثبيت أقدامهم فى السوق المالية ، وتعد مراكز لهم للاشراف على أعمالهم داخل الدولة . ثم هى فى الوقت نفسه ، حلقة الاتصال بين اعمال الأجانب المالية داخل مصر ، وبين مراكزهم فى الخارج ، فضلا عن انها كانت مراكز لتجميع ما تستطيعه من أموال مصرية لاستثمارها لصالح دولها ، ومن هنا بدأ تفكير الاجانب يتجه نحو انشاء فروع للبنوك فى مصر ، أو انشاء البنوك الأجنبية الخاصة التى تزاول عملا معينا

« أى أن البنوك فى مصر ، قد نشأت قبل عام ١٩٠٠ ، كأداة من أدوات تنظيم بسط النفوذ الأجنبى على مصر ، والاشراف على أعمال الأجانب المالية والتجارية فيها

« ويمكن تقسيم نشاط البنوك فى ذلك العهد الى قسمين :

« أولا : بنوك هدفها الرئيسى اقراض الخديوى وكبار الملاك ، واغلبها بنوك خاصة يملكها افراد الجانب ، ومعظمها تعرض للتصفية ، اما نتيجة لهزات مالية ، او نتيجة لانتهاء الغرض الذى قامت من اجله

« ثانيا : بنوك هدفها الرئيسى استغلال اقتصاديات مصر ، وتمثلت فى فروع البنوك الأجنبية ، وقد بدأ انشاؤها فى مصر فى عام ١٨٦٣ ، وكانت خطتها فى توفير مواردها ، تعتمد فى الأكثر على التمويل الأجنبى ، ليستثمر فى مصر ، ثم يعاد الى بلاده مرة أخرى ، مضـــافا اليه ما حققه من ارباح فاحشة . أما فكرة تعبئة المدخرات المحلية ، واستثمارها لصالح الشعب ، فلم تكن تخطر على بال البنوك فى ذلك العهد »

وحلت سنة ١٩٠٧ ، واشتدت الأزمة الاقتصـــادية شـــدة تكاد تكتم الأنفاس ، واشتط المرابون فى فرض الفوائد المرهقة على الفلاحين المساكين، فهب طلعت حرب يهيب بمواطنيه أن ينشطوا لانشاء بنك وطنى بمال مصرى لاستثمار أموالهم ومدخراتهم الفائضة فى مصلحة الاقتصاد الوطنى والقومى، فاقتنع قليلون وولاه ظهورهم كثيرون .. لكنه لم ييأس ، فهو صـــاحب رسالة فرض على نفسه أن يؤديها مهما لقى من اعراض وصعاب ، فنشر فى عدد « الجريدة » الصادر فى أول أكتوبر من تلك السنة مقالا قال فيه :

ـ « نطلب الاستقلال التام ، ونطلب أن تكون مصر للمصريين ، وهذه أمنية كل مصرى ، ولكن مالنا لا نعمل للوصول اليها ؟ وهل يمكننا ان نصل الى ذلك الا اذا زاحم طبيبنا الطبيب الأوربى ، ومهندسنا المهندس الأوربى، والتاجر منا التاجر الأجنبى ، والصانع منا الصانع الأوربى ؟ وماذا يكون حالنا ، ولا كبريتة يمكننا صنعها نوقد بها نارنا ، ولا ابرة نخيط بها ملبسنا، ولا فابريقة ننسج بها غزلنا ، ولا مركب أو سفينة نستحضر عليها ما يلزمنا من البلاد الأجنبية ؟ ما بالنا عن كل ذلك لاهون ، ولا نفكر فيما يجب علينا عمله تمهيدا لاستقلالنا ، ان كنا له حقيقة طالبين وفيه راغبين ؟ ارضينا أن يكون التعليم قاصرا على تخريج مستخدمين للحكومة وان نكون فى بلادنا غرباء ؟ ولو غضب علينا الأجانب يوما ومنعونا الملبوس والمأكول ، لأمسينا جياعا عرايا . .

« علينا أن نكون عاملين فى بلادنا على احياء فكرة التجارة وملكة الصناعة فى ابنائنا . ان واحدا من المصريين لم يفكر فى عمل قهوة أو لوكاندة على ذلك النمط الأوربى ، وبنظامه وترتيبه ونظافته ، وأن الكثيرين منا يشترون

ما يلزمهم من الأجنبى ، مفضلين اياه على مواطنيهم ، بحجة ان المصرى لا يتقن عمله ، أو ليس عنده ما عند الأوربى من نظافة وتوفر شروط الاتجار. وارى البنوك ومحلات التجارة والشركات ملأى بالأجانب ، وشبابنا ان لم يستخدموا فى الحكومة ، لا يبرحون القهاوى والمحلات العامة . وارى المصرى منا أبعد ما يكون عن تأسيس شركات زراعية وصناعية وغيرها ، حتى اذا أسس الأجنبى شركة ، أخذ المصرى يضارب فى أسهمها ، كأنه مقدور عليه الا يكون له حظ فى الغنم الحقيقى ، وانه لا يأتى الا الأدنى من الأمور .وارى المصرى يقترض المال بالربا ولا يرغب فى تأسيس بنك ، يفك ضيقه وضيق اخيه وقت الحاجة ، لأن البنك يشغل رأسماله بالربا : واذا أودع فى بنك وديعة لا يأخذ عليها فائدة لذلك السبب ، وهو الذى يدفع الربا أضعافا مضاعفة وقت اقتراضه

« فى اليوم الذى يصبح فيه المصرى عضـــوا عاملا فى الشركات التى تستنفد ينـابيع ثروات البـلاد ، وله فيها نصيب وافر فى ادارة بنوكها ورأسمالها ، وله رأى معدود فى جميع المشروعات المالية ـ والمـال هو أس كل الأعمال فى هذا العصر وقوام كل ملك ـ فى ذلك اليوم ، يحق للامة أن تطلب الاستقلال بقوة المال وبقوة العلم الحقيقى »

واخذ الرجل يذيع رسالته فى كل ناد تضمه جدرانه ، وطفق يبشر بها فى كل جمع يشهده ، فلما ظهرت فى الأفق فكرة عقد « المؤتمر المصرى الأول » لبحث حالة مصر الاقتصادية والاجتماعية ، شرع فى اعداد بحث اقتصادى يلقيه فيه . وعقد المؤتمر فى ٢٩ ابريل سنة ١٩١١ ، فألقى بحثه وكان عن « الربا الفاحش الذى يعانى منه الفلاحون »

بينما طلعت حرب مؤمن بفكرته هذا الايمان الراسخ ، اذا بفريق من المصريين من اعضـاء الحـزب الوطنى ، يشـكك فى الفـكرة ، ولا يظن فى المصريين خيرا لتنفيذها ، فقد ألقى المرحوم عمر لطفى بك ـ من أعضـاء الحزب ـ محاضرة فى « الكلية الأهلية الحرة » بالاسكندرية فى يوم ٢١ يناير سنة ١٩٠٩ قال فيها :

ـ « ذهب فريق الى انه يجب ـ للمحافظة على مسـتقبل البـلاد الاقتصادى ـ انشاء بنك وطنى ، قائم على رؤوس أموال وطنية . وانى وان كنت أحبذ فكرة انشاء بنك وطنى كبير ، لكنى أظن ان هذا المشروع سـابق لأوانه الآن ، وان الأفكار لم تتهيأ بعد لقبوله ، واخشى ان المسلمين المصريين الذين هم اغلب سكان البلاد ، لا يقبلون عن طيب خاطر على أن يشتركوا فى مشروع أساسه الاقراض بالفائدة

« صحيح ان الأساتذة المستنيرين من خريجى دار العلوم ، قد بذلوا ما فى وسعهم للتفرقة بين الفائدة والربا ، والقوا فى هذا الصدد عدة محاضرات بناديهم بالقاهرة ، وأقاموا فيها الأدلة الشرعية على صحة ما يذهبون اليه ، ولكن المشايخ الذين لهم الصوت المسموع فى هذه المسائل ، لم يصلوا للان الى حل مقبول لدى الجمهور » (١) .

ولم ييأس طلت حرب ، فالف فى نوفمبر سنة ١٩١١ كتابه المشهور « علاج مصر الاقتصادى ومشروع بنك المصريين أو بنك الأمة » ، وقد جاء به :

ـ « ما زالت الحاجة الى انشاء مصرف مصرى حقيقى يعمل بجانب المصارف الموجودة الآن فى مصر ، يمد يد المساعدة للمصريين ، ويحثهم على الدخول فى أبواب الصناعة والتجارة ، ويحرضهم على الاقتصاد والاستفادة من الأعمال المالية التى تزداد يوما بعد يوم ـ قائمة . وما زالت الفكرة فى تحقيق هذا الغرض تتجسم آنا بعد آخر .. تظهر اياما على صفحات الجرائد ، ثم تختفى .. تكون موضع السمر فى المجالس الخاصة ، ثم تنزوى ، حتى جاء المؤتمر المصرى الأول فرات لجنته ان هذه الفرصة سانحة يجب اغتنامها ، لأنه لا ينتظر ان يشمل اجتماع اعيان البلاد وكبراءها ، مثل ما ضم ذلك الاجتماع ، فعرضت الفكرة فى تقريرها

« ولا يظن أحد أن هذا البنك المراد انشاؤه باموال المصريين سيجعل نصب عينيه محاربة البنوك الأجنبية الموجودة فى مصر ، لأن هذا خطل فى الرأى لا يجوز ان نقع فيه ، فقد أدت هذه البنوك الى البلاد من الخدمات الجليلة ما لا يصح لنا نسيانه . على أن بقاءها فى مصر طول هذا الزمن ، ووفرة ما اكتسبت من الفوائد والأرباح ، وثقة الناس بها ، كل ذلك يجعلها فى مركز حصين ، لا يليق بنا معه ان نعمل على معاكستها ، فان نتيجة هذه المعاكسة ربما كانت وبالا علينا . وانما كل غرضنا هو أن يعمل البنك على شاكلة تلك البنوك ، فيستفيد من تجاربها وخبرة رجالها . كما يجب ان نعلم ان هذه البنوك الأجنبية لا ترعى منذ تأسست الا غرضا وحدا ، هو مصلحة المساهمين ، غير ناظرة الى مصلحة البلاد ، الا فيما يوافق مصلحتها. هذا النقص هو الذى يرمى البنك الجديد الى سده »

ماذا قالت لجنة المؤتمر التى أشار اليها طلعت حرب فى كتابه ؟
قالت فى تقريرها :

(١) « نقابات التعاون الزراعية » ـ عبد الرحمن الرافعى بك ـ ص ١٨٩

ـ « .. ماذا نفعل من اليوم أيها السادة لا نشرع فى انشاء بنك مصرى .
أيها السادة : لسنا والحمد لله فقراء فى المال ، فان للمصريين نقودا وودائع لا حصر لها ، تكفى لرأس مال بنك مصرى عظيم . ولسنا والحمد لله فقراء فى الرجال الماليين ، فان كثيرا من رجالنا قد جمعوا بأنفسهم ثروات عظيمة .
ولسنا ضعفاء الثقة بعضا فى بعض ، فقد أثبتنا فى السنين الأخيرة ان لدينا مجاميع تقوم بالأعمال العامة ، ومثل هذه المجاميع يستحيل ان يبنى لها أساس الا على الثقة .. ان المال والرجال والثقة ، هى الأركان الثلاثة اللازمة لمشروع مالى عظيم مثل هذا المشروع ، فما الذى يعوقنا عن السير فيه ؟ لا خوف من مزاحمة البنوك الأجنبية ، لاننا وان اعترفنا بأن البنك المصرى سيزاحمها ، ولكنه لا يبطل عمل واحد منها ، ولا يؤثر تاثيرا كبيرا على مقادير كسبه ، لان مصر لا تزال كالبلد البكر فى الاستغلال ، وان البنوك الموجودة فيها الآن على كثرتها لا تفى بحاجاتها ، فان الكثير من الأراضى المصرية القابلة للزراعة ، لم يزرع بعد ، والفدان المزروع لم يات الى اليوم بكل ما يستطيع أن يأتيه من الغلة ، والأرض غير القابلة للزراعة ، لم يقنط أحد من احتوائها على معادن مختلفة ، كالرصاص والبترول وغيرهما .
وبالجملة فالبلاد لا تزال بكرا من حيث الاستغلال ، وتحتاج فى استغلالها الى أموال طائلة ، لا تفى بها الأموال الأجنبية الموجودة فى مصر الآن ، انما تكون فائدة البنك المصرى الا يتأثر بالاشاعات المكذوبة ، فلا يقفل بابه عن الناس ، فتحتذى حذوه البنوك الأخرى ، لأنه بنك البلد وهو أعلم بما يجرى فيه . وفائدته تشجيع المشروعات الاقتصادية المختلفة التى تعود عليه وعلى البلاد بالربح العظيم . فائدته الرحمة بالفلاحين عند الحاجة ، يعطيهم بفوائد معتدلة ومناسبة ، وهو مع ذلك يربح ولا يخسر . فائدته ان يجعل لمصر صوتا فى سوقها المالية ويدافع عن مصالحها ، كما تدافع البنوك عن مصالح بلادها . فائدته هو ومشروع النقابات الزراعية ومشروع مستودعات التأمين ، ان تتحقق فى الوجود الكفاءة المالية التى هى الاساس المتين للرقى المطلوب .

« على ذلك تقترح اللجنة على المؤتمر ، ان يقرر وجوب انشاء بنك مصر برؤوس أموال مصرية »

وفى الجلسة الأخيرة للمؤتمر وافق بالاجماع على هذا التقرير ، وقرر اختيار محمد طلعت حرب ، للسفر الى أوربا ، لدراسة فكرة انشاء البنك، بعد عمل دراسة مقارنة عن المصارف الوطنية واسلوب عملها فى الدول الاوربية

فلما صدر كتاب طلعت حرب بعد هذا ، آمن كل مصرى بالفكرة التى يدعو لها والى تنفيذها ، وكان حديث الناس فى منتدياتهم ومجتمعاتهم ما جاء به عن البنك المصرى المرتجى .. ولكن الحرب العالمية الأولى التى اعلنت فى ٤ اغسطس سنة ١٩١٤ وقفت بالفكرة حيث هى : كلمات فى كتاب، تقرأ فتستحث الهمم ، وتحفز العائم ..

وانتهت الحرب قبيل نهاية سنة ١٩١٨ ، وشبت الثورة المصرية العظيمة فى سنة ١٩١٩ ، فكان شبوبها الطلقة الأولى فى وجوب انشاء البنك حتى يتحقق استقلال الوطن الاقتصادى ، ليكون عضدا وسندا للاستقلال السياسى ، الذى نهض سعد وصحبه المخلصون لانتزاعه من المحتل الغاشم .

وعاد طلعت حرب يدعو لمشروعه أو لفكرته عند بعض المسؤولين ، فحاولت سلطات الاحتلال معه كل الأساليب للتشكيك فى قيمة المشروع ، وفى عدم اهلية المصريين للقيام بمثل هذه المشروعات المالية ، ولكن هذه الأساليب لم تدخل القنوط الى قلب الرجل المؤمن بفكرته ، ايمانه بعقيدته

ففى مقابلة عاصفة بين المستشار المالى البريطانى ، وبينه ، فى وزارة المالية فى اغسطس من ذلك العام ، عام ١٩١٩ ، قال له المستشار بوقاحة وكبرياء وقحة :

ـ كنت اظنك رجلا عاقلا ، ولكنك كما يبدو أصبت بعدوى الجنون المنتشر فى البلد فى هذه الأيام !! هل تتصور ان المصريين يستطيعون أن يديروا بنكا ؟ انكم لا تصلحون لأعمال المال ، انها صناعة الأجانب ، والدليل على ذلك انكم عندما توليتم شؤونكم قبل أن نجىء اليكم ، جعلتم مصر تفلس !!

« كنت استطيع أن أمنع قيام هذا البنك ، ولكنى وافقت على انشائه لاعطيكم درسا عمليا فى الفشل . وكل ما انصحك به هو ان تشرك معك بعض الأجانب حتى تعطى المصريين شعورا بالثقة فى هذا البنك ..

فرد عليه طلعت حرب بهدوء وبثقة :

ـ لقد قررت أن يكون هذا البنك مصريا مائة فى المائة

فقال المستشار المالى البريطانى الحانق المتعجرف :

ـ انك تتكلم بلغة مظاهرات الشـوارع ، والذى يصلح فى الشـارع ، لا يصلح فى أعمال التنوك ، وقد دعوتك لأنصحك : فانت رجل طيب لا تشتغل بالسياسة !! (١)

وذاع امر هذا اللقاء بين العامة والخاصة ، وكانت الثورة المباركة فى عز شبوبها وهبوبها ، فقرر الناس مقاطعة البنوك الأجنبية وسحبت ودائعها منها ، كما قاطعت الشركات الانجليزية أيضا وتجارتها وسفنها

كانت هذه الأساليب المنكرة من المستعمرين ومن الأجانب ، من اقوى الحوافز والدوافع ، لأن يسرع طلعت حرب فى تنفيذ فكرته الوطنية ، فاقنع مائة وستة وعشرين من المصريين الغيورين ، بالاكتتاب لانشاء البنك ، وبلغ ما اكتتبوا به ثمانين ألف جنيه ، تمثل عشرين الف سهم ، اى أنهم جعلوا ثمن السهم اربعة جنيهات فقط . وكان أكبر مساهم هو عبد العظيم المصرى بك من اعيان مغاغة ، فقد اشترى ألف سهم .

وفى يوم الثلثاء ١٣ ابريل سنة ١٩٢٠ نشرت الوقائع المصرية ـ الجريدة الرسمية للدولة ـ مرسوم تأسيس شركة مساهمة مصرية تسمى « بنك مصر » ، وكان وزير المالية اذ ذاك يوسف وهبة باشا ، وهو فى الوقت نفسه رئيس الوزراء

وكان قد تم قبل ذلك عقد تأسيس الشركة بين ثمانية من المائة والستة والعشرين مساهما جميعهم مصريون ، وحرر بصفة عرفية فى ٨ مارس سنة ١٩٢٠ ـ أى بعد سنة بالتمام والكمال على نشوب الثورة المصرية ـ ثم سجل فى ٣ ابريل ـ أى بعد أقل من شهر ـ وهؤلاء الثمانية هم :

أحمد مدحت يكن باشا ، يوسف اصلان قطاوى باشا ، محمد طلعت حرب بك ، عبد العظيم المصرى بك ، الدكتور فؤاد سلطان ، عبد الحميد السيوفى أفندى ـ اسكندر مسيحة أفندى ـ عباس بسيونى الخطيب أفندى

ويلاحظ فى اختيارهم ، انهم يمثلون الأديان الثلاثة ، ففيهم المسلم ، وفيهم المسيحى ، وفيهم اليهودى . وفى هذا البرهان الساطع على اصالة الوحدة الوطنية التى شملت جميع أبناء الأمة ، ابان الثورة المباركة بحق

---

(١) « الاصول التاريخية للراسمالية المصرية وتطورها » ـ الدكتور محمود متولى ـ ص ١٢٩

ونص عقد الشركة الابتدائى ، على ان الفرض من انشاء البنك ، هو القيام بجميع أعمال البنوك ، من خصم وتسليف على البضائع والسندات والأوراق الماليه ، والكامبيو والعمولة ، وقبول الأمانات والودائع ، وفتح الحسابات والاعتمادات ، وبيع وشراء السندات والأوراق المالية ، والاشتراك فى اصدار السندات ، وغير ذلك مما يدخل فى أعمال البنوك ، بلا قيد أو تحديد .

ونص فى العقد أيضا على أن رأس المال دفع كاملا ، وان مدة هذه الشركة ، خمسون عاما تبدأ من يوم تأسيسها نهائيا ، وانه يجوز زيادة رأس المال بقرار من الجمعية العمومية للمساهمين ، على ان يقوم بادارة الشركة — أو البنك — مجلس ادارة مكون من تسعة أعضاء على الأقل ، ومن خمسة عشر عضوا على الأكثر ، تنتخبهم الجمعية العمومية .

واستثناء من هذه القاعدة عين أعضاء مجلس الادارة الأول من :

أحمد مدحت يكن باشا ، ويوسف اصلان قطاوى باشا ، ومحمد طلعت حرب بك ، وعبد العظيم المصرى بك ، والدكتور فؤاد سلطان ، وعلى ماهر بك ، ويوسف شيكوريل بك ، وعبد الحميد السيوفى أفندى ، وعباس بسيونى الخطيب أفندى

وانتخب المجلس احمد مدحت يكن باشا رئيسا ، وظل يشغل كرسيه هذا الى سنة ١٩٤٠ ، ومحمد طلعت حرب بك نائبا للرئيس وعضوا منتدبا ، وظل شاغلا كرسيه كذلك الى سنة ١٩٣٩ .

واشترط العقد أن يملك عضو مجلس الادارة مائتين وخمسين سهما على الاقل ، لا يجوز له التصرف فيها طول مدة عضويته ، وأن لا يكون عضوا بالجمعية العمومية من يملك أقل من خمسة اسهم

وفى مساء يوم الجمعة ٧ مايو سنة ١٩٢٠ ، احتفل بتأسيس البنك فى حفل فخم أقيم فى دار الأوبرا « السلطانية » ، فوقف طلعت حرب مزهوا معلنا تأسيس البنك ، فقال :

— « سادتى : باسم بنك مصر نشكر لكم تفضلكم بتلبية دعوته ، وتشريف هذه الحفلة التى أقيمت احتفالا بتمام الاجراءات الشكلية التى يقتضيها القانون المصرى لتأسيس البنك . ففى بعد ظهر اليوم اجتمعت جمعية المساهمين العمومية ، وقررت استيفاء جميع هذه الاجراءات ، ودونت شهادة الميلاد الذى نحتفل به الليلة . وأملنا فى وجه الله تعالى ، أن يرعى هذا المولود بعنايته ، ويتعهده بتوفيقه ، فيشب ويترعرع ، حتى

يعود خيرا وبركة على البلاد وابنائها ، فيحتفلون فى كل عام بذكرى هذا اليوم السعيد ، كما يحتفلون ان شـــاء الله تعـالى ، بعيده الحديدى ، فالبرونزى ، فالفضى ، فالذهبى ، فالماسى ، فالمئينى ، وهكذا .. وما ذلك بعزيز على الله تعالى الذى لا يضيع أجر من احسن عملا ، ولا على صبر الصـابرين ، وعزم أولى العزم من المصريين ، وعنـدنا والحمـد لله منهم كثيرون » .

ثم قال :

ـ « احصى جناب المستشار المالى للحكومة المصرية ودائع الأفراد فى بنكين اثنين : البنك الأهلى وبنك الاجلو ، بمـا يربو على ٣٥ مليـونا من الجنيهات .. ولا يمكن تقدير ما بباقى البنوك ، لأن من بينها ما لا يفرز فروع حساباته بمصر على حدة ، ومنها البنوك الخصوصية التى لا تنشر حسابها . ومع كل ، فلو قلنا أن مجموع ودائع الأفراد ٣٥ مليونا من الجنيهات فقط ، وقلنا ان نصفها فقط للمصريين ، أليس فى استخدام نحو ١٨ مليونا من الجنيهات فى مصلحة مصر وشؤونها الاقتصادية ، خدمة كبرى للبلاد وأهلها ؟

« مصر اليوم أحق باستخدام أموال بنيها فى مصالحها وشؤونها

« تأسست فى مصر مدارس للتجارة : عليا ومتوسطة وليلية ، فماذا كان نصيب خريجيها ؟ هل استخدمت البنوك أو الشركات الأجنبية أحدا منهم ؟ اللهم ، لا ، الا النادر الذى لا حكم له ، بينما نجد الباقين يشتغلون فى الغالب كتابا فى المصالح العمومية ، وما كان هـذا هو الغرض من تأسيس هـذه المدارس

« بجانب البنوك الأجنبية ، أراد المصريون أن يكون لهم بنك يعمل عمل هذه البنوك ، ويخدم مصر ، كما يخدم كل منها بلدا آخر . وها هو البنك قد وجد والحمد لله والشكر له . وهـو فى أول يوم من أيام حيـاته ، يشهد الله جهارا على ملأ من حضراتكم ، انه لا يضمر عداء لأحد ، ولا يريد الا أن يعيش كما يعيش غيره ، وأن يكون له نصيب فى خيرات بلاده ، ويجاهد فى معترك هذه الحياة لمصلحة مصر وبنيها ، غير ناظر الا لهذه المصلحة ، يولى وجهه شطرها اينما كانت . وهو وان بدأ صغيرا ، سيكبر ان شاء الله تعالى ، باخلاص المخلصين من ابناء مصر ، الذين سيبوؤوه ، كمـا هو المأمول ، المكان المرموق »

وانتهزها طلعت حرب فرصة ثمينة غالية ، فتناول فى خطابه الاعتراضات التى وجهت الى البنك ومؤسسيه ، فرد عليها واحدا واحدا ، وفنـدها

جميعا بمنطق قوى ، ولسان صدق ، لا مرية فيه . اما هذه الاعتراضات، فكانت كما قال :

« أولا : اننا أردنا لبنك مصر وراس ماله صيغة مصرية ، فاثبتنا تعصبنا وتأخرنا فى المدنية !

« ثانيا : انه ليس فى مصر من يصلح لأعمال البنوك

« ثالثا : ان الأمة مع كل الطبل والزمر اللذين أحاطا بالمشروع ، لم يمكن ان يجمع منها سوى ٨٠,٠٠٠ جنيه ، من كثيرين اكتتب كل منهم بمبلغ زهيد ، مما يدل على ان الأمة غير مستعدة للاعمال الاقتصادية ! »

فلندع رده على هذه الاعتراضات الى مكانها من هذا الفصل ، وان كان حاضر البنك يغنى القارىء عن قراءته ، لأننى أود أن أعود به الى تاريخ هذا الرجل الفذ ، والى ما قدمه لوطنه من جليل الأعمال . ولو لم يقدم غير « بنك مصر » لكفاه مجدا وخلودا

ولقد أجاد الأمير شكيب ارسلان وصف ذلك الحادث ــ حادث افتتاح بنك مصر ــ الذى هز الشرق ، خير وصف وأصدقه فى كتابه « لماذا تأخر المسلمون ؟ » ، فقال فى صحيفة ١٤٤ ، بعد نجاح البنك وانشائه عدة شركات :

« .. وكما ظن المسلمون انهم لا يحسنون شيئا من المشروعات العمرانية، وانه لا بد لهم من الأوربى ، حتى يدخلوا على يده الاصلاح فى بلادهم ، وانهم من دون الافرنجي لايقدرون على اية عمارة و لامرفق ذى بال .. كذلك ذهبوا الى انهم لا حظ لهم فى الأعمال الاقتصادية أصلا ، وان كل مشروع اقتصادى اسلامى صائر الى الحبوط ، ان لم تكن له اركان افرنجية . وقد طال نومهم على هذه العقيدة الفاسدة ، حتى لم يبق فى بلادهم شىء اسمه اقتصاد ، الا اذا كانت ادارته بأيدى الافرنج أو اليهود . الى أن نبغ فى مصر ، محمد طلعت حرب باشا ، فكان فى هذا الباب أمة وحده ، وادرك بواسع عقله وثاقب فكره ، ان ليس فى هذا الموضوع شىء يفوق طاقة المسلمين ، ولا ممنا يتعذر وجود ادواته عندهم ، وان قصورهم فيه عن مباراة الأجانب ، لم يكن الا من آثار ذلك التوهم القديم ، وهو انهم لا يحسنون الجرى فى أى ميدان من ميادين الاقتصاد . وقد وجدت عند هذا الرجل ، فى جانب رجاحة العقل وسداد الحكم ، همة بعيدة قعساء ، ونزعة وطنية صافية من الاقذاء، سالمة من الأهواء ، فاجتمعت فيه جميع الشروط اللازمة لمن شاء أن يبدأ فى الشرق نهضة اقتصادية تزاحم بالمناكب ، وتثبت الأجانب . ومما يندر فى

الرجال ، الجمع بين الحساب الدقيق والخيال الواسع ، وهما قد انتظما جنبا الى جنب ، فى دماغ طلعت باشا حرب ، فكانت سعة خياله ، مساعدة له على الاقدام نحو المشروعات التى هى مظان الأرباح . وكانت دقة حسابه ، مساعدة له على نجاحها وضمان أرباحها . وبالاختصار اقتحم طلعت حرب معركة هى الأولى من نوعها فى المجتمع الشرقى . وعند ما باشر جمع رأس المال الذى كان حدده لانشاء بنك مصر ، وهو ثمانون الف جنيه ، عانى فى ذلك أهوالا ، ونحت جبالا ، وذلك لما ران على عقول المسلمين ، من أنهم لا يقدرون على الاستقلال بعمل اقتصادى ، وان كل عمل منهم فى هذا السبيل ، حابط من نفسه ، هابط على أم رأسه . فلما أخذ طلعت باشا حرب يتقاضى أغنياء مصر المشاطرة فى هذا المشروع ، لبوا نداءه حياء منه ، لا اعتقادا بأنه سيأتى بثمرة، وبقيت ثقتهم بأجمعها فى بنوك الأجانب ، وما زال معولهم عليها .. الى أن شاهدوا بأعينهم النجاح الذى كاد أن يكون معجزة فى نظرهم ، وارتفع رأس مال بنك مصر من ثمانين ألف جنيه الى مليون جنيه، واحتوت خزائنه من الودائع عدة ملايين من الجنيهات ، واشتمل على أملاك وشركات متعددة متنوعة ، تقدر بملايين أخرى من الجنيهات ، بحيث زادت الأموال التى تحت تصرف البنك ، على عشرين مليون جنيه ، وكل هذا فى ثمانى عشرة سنة ، انشأ فيها طلعت باشا حرب ومدحت باشا يكن ورفاقهما ، على حساب بنك مصر ، شركة مصر للغزل والنسج التى معملها فى المحلة هو من أكمل وأعظم معامل الغزل والنسج فى العالم ، يعمل فيه ١٨ الف عامل ، يندر فيهم غير المصرى » .

وبعد أن نوه الأمير شكيب ارسلان ــ وكان جميع أدباء عصره يطلقون عليه « أمير البيان » ــ ببعض شركات البنك ، قال : « وليس هنا محل تفصيل مشروعات طلعت باشا حرب ، باعث النهضة الاقتصادية فى الشرق، لنخوض فى هذا العباب ، ولا مقصدنا تمجيده والاشادة بمآثره ، وانما كان ايرادنا هذه القصة على سبيل المثال ، لما كان عليه المسلمون من الجبن فى المواطن الاقتصادية ، الى ان هب هذا الرجل يدير بنك مصر ، فأيقظهم من سباتهم ، وأعلمهم انهم رجال ، كما ان الأوربيين رجال ، وانهم اذا شحذوا غرار عزائمهم ، وأعملوا أسنة قرائحهم ، قدروا على ما يقدر عليه الأجانب من الأعمال الاقتصادية الكبيرة »

أعود الى طلعت حرب ، فأقول انه مولع منذ شبابه بحب وطنه ، غيور على مصالحه ، لا يدع سانحة تعرض للضرر به أو بابنائه ، الا اندفع

مساهما فى دفع هذا الضرر ، مؤيدا دفاعه بالأرقام الناطقة الصادقة ، وهى خير شاهد ودليل

فى ٢٧ يناير سنة ١٩١٠ ، عرض على مجلس النظار ــ وهو مثل مجلس الوزراء اليوم ــ طلب قدمته شركه قناة السويس ، الى حكومه مصر ــ وكان رئيسها بطرس غالى باشا ــ بمد امتيازها أربعين سنة أخرى ، بعد انتهائه فى عام ١٩٦٨ ، مقابل أربعة ملايين جنيه تدفع على اربعه أقساط بعد ١٥ ديسمبر سنة ١٩١٠ ، مع حصة من الأرباح قدرها ٤٪ فى السنوات العشر التالية لسنة ١٩٢١ ، و ٦٪ فى السنوات العشر الثانية ، و٧٪ فى السنوات العشر الثالثة ، و ٨٪ فى السنوات العشر الرابعة ، و ١٢٪ فى السنوات الخمس الأخيرة التى تنتهى بسنة ١٩٦٨ ، وهى سنة انتهاء أجل الامتياز ، وأرفقت بطلبها مذكرة من المستشار المالى الأجنبى ، يؤيدها بها ، فى استحياء !! وكان هذا الطلب يومئذ موضوع تعليقات الصحف والأندية والمجتمعات ، فقرر المجلس بشأنه قرارا ، هو الى القبول ، أقرب منه الى الرفض ! اذ قال انه لا يقبله الا اذا عدل بما يقضى بان تستحق مصر نصف ارباح الشركة بعد عام ١٩٦٨ ــ أى فى المدة المطلوب مدها ــ وبان الشركة تكون مسؤولة عن معاشات موظفى الشركة فى نهاية سنوات الامتياز أى فى عام ٢٠٠٨ . أحيل المشروع الى الجمعية العمومية ، فرفضته بالاجماع ، وراح ضحيته بطرس غالى باشا ، فقد صرع بيد شاب مصرى أطلق عليه الرصاص فجندله ، كما هو مشهور معلوم

لكن طلعت حرب ، كان قد أعد بحثا عن القناة وشركتها وارباحها ، بعد ما سرد تاريخ انشائها ــ قبل احالة الموضوع الى الجمعية العمومية ــ ومهد له بالمقدمة اللطيفة التالية ، فقال :

ــ « كتب الفيلسوف الألمانى ليبنتز ، تقريرا للويس الرابع عشر ملك فرنسا ، قال فيه : « اذا أردت أن تضرب هولندا فى مقتلها ، فامامك مصر ! فانك تنال منها فيها ، ما لا تناله ببلادها نفسها ، لان هولندا أمة تجارية ، وحياتها فى بقاء تجارتها ، فاذا زحفت على مصر وأخذتها ، وحفرت ترعة السويس ، احتكرت لبلادك جميع التجارة ، وامت هولندا وغيرها ، واصبحت سيد الهند وبلاد الشرق ، وقطعت طريقها على من عداك . زد على ذلك انك تنال أجرا كبيرا عند الله وعند الناس ، اذ تخلص هذه البقعة المباركة من ايدى المسلمين ، الذين لا يليق بالأمم المسيحية ، ان تسكت على بقائها فى ايديهم » !

وبعد ان مضى طلعت حرب فى سرد تاريخ انشاء القناة ، تكلم عن « السياسة » فى مشروع انشائها ، وكيف كانت انجلترا معارضة فى هذا الانشاء ، ثم كيف اشترت أسهم مصر فيها : فقال :

ـ« افتتحت القناة رسميا فى ١٧ نوفمبر سنة ١٨٦٩ . احتفل الخديوى اسماعيل بهذا الافتتاح احتفالا رسميا مقطوع النظير ، تكلفت له خزائن مصر مليونا ونصف مليون من الجنيهات .. افتتحت ، ولم تكن حال الشركة المالية فى سنواتها الأولى ميسرة ، لكنها استطاعت ان تسير الى الأمام ، بفعل القروض التى اقترضتها من هنا وهناك ، وسارت أمورها سيرا حسنا ، وزادت ارباحها سنة بعد اخرى ، بينما كانت مالية مصر تزداد سوءا بعد سوء ، سنة بعد أخرى ، حتى اضطرت الحكومة المصرية فى عام ١٨٧٥ ، الى أن تطلب قرضا من الخارج ، واراد الفرنسيون فى الشركة أن يعقدوا لها هذا القرض من بنوك فرنسا ، فلم يوفقوا .. هنا اندفع الانجليز ، وقدموا الى الخديوى مائة مليون فرنك أو يزيد ، وتسلموا منه أسهم مصر فى الشركة .. عقدت الحكومة الانجليزية هذه الصفقة ، بقرض اخذته من بنك روتشيلد فى لندن ، وقبل أن يعرض أمرها على البرلمان »

وشفع الشاب المحقق ، تحقيقه التاريخى والسياسى ، بتحقيق اقتصادى ، أوضح فيه انه لم يبق لمصر فى الشركة ، الا أرباح حصتها التأسيسية . لكن ما كادت تحل سنة ١٨٨٠ ، حتى ساءت الحالة المالية مرة أخرى ، فباعت هذه الحصة للبنك العقارى الفرنسى بمبلغ ٢٢ مليون فرنك ، فأسس لاستغلال هذه الحصة ، شركة ربحت فى عام ١٩٠٨ وحده ١٠ر٧١٧ر٧٧٤ فرنكا

ثم بين كذلك انه « بعد أن كادت الشركة تقع فى الافلاس فى أول عهدها ، وهبطت اسهمها الى ١٦٠ فرنكا للسهم بدلا من ٥٠٠ فرنك ، أصبحت الآن تباع اسهمها بسعر مائتى جنيه للسهم الواحد ، وبعد ان كانت حصص التأسيس فيها لا قيمة لها ، أصبحت الحصة الواحدة تباع وتشترى بنحو مائة الف جنيه ، ولغلائها قسمت الواحدة الى ألف جزء ، وبعد ان كانت تصدر « بونات » بدل « الكوبونات » المتاخرة وتدفع عليها فائدة ٥٪ ، اصبحت توزع ارباحا بواقع ١٥١ فرنكا عن كل سهم ، و ٧١ر٤٨٩ فرنكا عن كل حصة تأسيس ، وبعد أن كان دخلها لا يفى بمصروفها ، أصبح يربو على مائة وعشرين مليونا من الفرنكات . أما مصر فلم يبق لها فيها سهم ولا حصة ، واستفاد كل العالم من القناة ، الاها ، حتى أن الحكومة الفرنسية

تقبض كل سنة الملايين من الفرنكات ، رسوما على « الكوبونات » والأرباح التى تصرف فى بلادها »

بعد هذا ، أخذ طلعت حرب يرد على مذكرة المستشار المالى التى أيد بها طلب الشركة ، وقال فيها ان مد الأجل فيه فائدة لمصر !!

وانتهى من الرد ـ وهو مدعم بالأرقام والحجج الدامغة ـ الى قوله :

ـ « قد أوضحنا مقدار ما تغبن به مصر لو جارت الشركة على رايها ، وقلبت مد الأجل بالشروط المعروضة . ويرى القارىء اننا لم نبالغ فى تقدير الدخل ، كما لم نقتصد فى المصروفات ، بل زدنا مقدارها ، وفيلسا حساب الشركة على صورته التى لا يرضاها الا المضطر الذى لا خيار له . والا فما الحامل للحكومة المصرية على ان تتنازل عن نصف دخل القناة مدة اربعين سنة ، فى نظير مبالغ تحسب عليها فوائد مركبة ، نحو مائة عام، ولا يبتدىء استهلاكها الا بعد ستين سنة ؟

« لسنا نظن ان الحكومة مضطرة للمال اضطرارا يسوغ لها ان تقترض بهذه الشروط ، بدليل ان الملايين الأربعة من الجنيهات ، لا تدفع الا فى اربع سنوات ، من ١٥ ديسمبر سنة ١٩١٠ ، والحصة والأرباح لا تبتدىء الا من سنة ١٩٢١ ؟ ولو سلمنا باضطرارها للمال ، فلا تعدم وسيلة لايجاده من الخارج ، وأمامها مصلحة الدومين ، يمكن للحكومة ان تقترض عليها أربعة ملايين وزيادة . ولو فرضنا أنها اقترضت هذا المبلغ بفائدة ٤٪ ، لا ٤/١ ٣٪ ولا ٢/١ ٣٪ ، وقسطت الدين على خمسين سنة ، لكان مقدار كل قسط من أصل وفائدة ١٨٦ر٢٠٠ جنيه ، ولو قسطته على خمس وسبعين سنة ، لكان القسط ١٦٨ر٩١٦ جنيها ، وكلاهما زهيد ، قد لا يؤثر فى ميزانيتها ، ولديها فى كل سنة من زيادة الايرادات ، ما تسترد منه مثل هذا المبلغ وزيادة ، ولو أرادت ألا تقترض ، ففى مكنتها ان تعمل بالدومين ، ما عملت بالدائرة السنية ، فيأتيها المال بلا حساب (١) »

---

(١) الدومين نوعان : عام وخاص . أما العام فهو « الاملاك العامة » المعدة للاستعمال العام كالطرق العامة والموانىء والشواطىء والقلاع وما اليها . أما الخاص فهو « أملاك الدولة الخاصة » التى تملكها كأى فرد عادى يملك اموالا . ويسمى الدومين الخاص فى مصر باسم « الدومين المالى » كما اطلق عليه فيها بصفة خاصة اسم « أملاك الميرى الحرة » . وتتميز أملاك الدومين الخاص على أملاك الافراد العاديين ، ببعض الوجوه : اهمها عدم جواز التنفيذ الجبرى ضدها ، بل ان بعض النصوص (كما فى لقانون رقم ١٤٧ لسنة ١٩٥٧) تمنع تملك الناس لها ، أو كسب حق عينى عليها بالتقادم . ويتمتع الدومين العام بضمانات خاصة يبينها القانون الادارى فى كل بلد ، ويعتبر أقدم الموارد المالية للدولة من الناحية التاريخية خصوصا فى عهد الاقطاع ، ولكنه أصبح فيما بعد موردا ثانويا ، وان ظل على قدر من الاهمية.

على انه خلص الى نتيجة هى انه « اذا كان لا بد من التعاقد اليوم على مد الامتياز تعاقدا مقبولا ، يجب أن يكون هذا التعاقد مبنيا على القواعد التالية :

« أولا ــ ان ما تعطيه الشركة من مقدم ثمن الامتياز ، وما تعطيه فى المستقبل من صافى الأرباح الى سنة ١٩٦٨ ، يكون متناسبا مع الأرباح التى تربحها الشركة من القناة فى الأربعين سنة الجديدة ، مع مراعاة حساب ذلك، بالقياس على الماضى والحاضر . او ان تعطى الشركة للحكومة المصرية من اليوم جزءا معلوما من الأرباح على تلك النسبة ، من غير حاجة الى اعطاء مبلغ ليعتبر ثمنا للامتياز ، كمبلغ الملايين الأربعة المعروضة

« ثانيا ــ ان تقبل الشركة فى مجلس ادارتها من يوم التعاقد مديرين مصريين ، بكل معنى الكلمة ، عددهم مناسب لمقدار الحصة التى تعطى للحكومة من الايراد . وليس فى ذلك شىء من التحكم ، فان الحكومة الانجليزية بعد ما استولت على أسهم الحكومة المصرية ، اضطرت الشركة الى قبول ثلاثة مديرين انجليز بها ، بعد أن لم يكن للحكومة المصرية ولا مدير واحد . ثم ان أصحاب السفن الانجليزية قد اضطروا الشركة ايضا الى قبول سبعة مديرين آخرين لمجلس الادارة ، حتى صار عدد الأعضاء الانجليز فى المجلس عشرة !! فليس من الغريب أن تشترط مصر ــ مالكة القناة ــ على الشركة أن تقبل منها مديرين للدفاع عن مصالحها ، خصوصا بعد أن اظهر المستشار المالى تخوفه من احتمال ان الشركة ، تخفض رسوم المرور تخفيضا فاحشا ، حين يأتى اجل تسليم القناة الى الحكومة . ولا نعلم بماذا نصف هذا العمل لو حصل ، أو أن تقبل شركة محترمة ، ان يذاع عنها مثل هذه الفكرة

« ثالثا ــ ما دامت القناة ستؤول على كل حال للحكومة المصرية ، بعد انقضاء مدة الامتياز الجديد ، أى بعد سنة ٢٠٠٨ ، فمن الواجب ان تتعهد الشركة فى العقد الجديد ، بالا تنقص شيئا من رسوم المرور ، الا بعد أخذ رأى الحكومة المصرية

وتزداد اهميته عند ما تظهر فى الدولة موارد معدنية او بترولية ، وما الى ذلك من عناصر الانتاج الطبيعية المختلفة . ويشمل اصطلاح « العومين » حسبما جرى به العرف كمورد للدولة ، ما تحصله مثلا من الاراضى الزراعية والعقارات المبنية ، وما قد تملكه من المناجم او المحاجر أو الملاحات أو الغابات . وتدخل فى هذا الاصطلاح ايضا المشروعات التجارية التى تتولاها الدولة كالمصانع والمطابع ، والمشروعات المالية كالشركات المختلطة والمشروعات المنوعة . ولهذا وجد ما يسمى بالدومين العقارى أو التجارى أو الصناعى او المالى

« هذه هى الاعتبارات التى يلزم ملاحظتها ، متى أريد الاتفاق من الآن على مد الامتياز . ومع ذلك نحن لا نزال نكرر ان من الخطر تجديد امتياز لم يقرب أوان تجديده ، من غير ضرورة ملجئة لذلك . فلكل زمان حكم ، ولكل جيل تصرف خاص به

« على ذلك نرى المشروع من كل وجهة قلبناه عليها ، مشروعا ضارا لا تصح الموافقة عليه »

لقد أسهبت فى عرض بحث « تجديد مد امتياز قناة السويس » ، لتتفقد منه الى هذا العقل الواعى الذى يناقش فيفحم ، ويقوى حقه على باطل غيره ، بما يقدم من أدلة وأسانيد ، ولترى كيف كونت هذه العقلية ، هذا التكوين الاقتصادى الفذ ، وصاحبها لم يدرس الاقتصاد على يد معلم ، ولم يهتد فى درسه اياه ، بهدى أستاذ أو ارشاد مرشد

هو نادر فى العظماء حقا ..

ولم يكن الرجل معنيا بشؤون الاقتصاد وحده ، ولا شاغلا نفسه بفكرة انشاء بنك وطنى فحسب ، انما كان يجول ويصول فى كل ميدان اجتماعى فيه خدمة لمواطنيه ونفع لأمته .. ولعل هذا كان طابع رجال مصر الذين شبوا فى ظل الاحتلال والاستعباد اللذين ضربا على أهلها صنوفا من الفقر والبؤس والشدة لم يعهدوها .. فقد كان هم أولئك الرجال المخلصين ، الرقى بمصرهم فى كل مجال ، حتى تقوى على مناهضة المستعمر الظالم القاسى .

فى شهر اغسطس من عام ١٩١٩ ، طالب عمال وموظفو شركة الترام — وكانت بلجيكية الجنسية — بانصافهم ورفع أجورهم ، فتقدمت الشركة الى الحكومة طالبة اقرارها على زيادة اجر الركوب مليما ليصبح ستة مليمات ، بدلا من الخمسة المنصوص عليها فى العقد المبرم بين الحكومة المصرية وبين الشركة فى ٥ ديسمبر سنة ١٨٩٤ ، ومدته خمسون عاما ، تنتهى فى ٥ ديسمبر سنة ١٩٤٤ ، وبموجبه تنشىء سبعة خطوط ، على الا يزيد أجر الركوب على خمسة مليمات .. وذلك حتى تستطيع اجابة طلبات العمال والموظفين

فانبرى طلعت حرب يمطر الشركة سيلاً من براهينه الدالة على الأرباح الهائلة ، بل الخيالية ، التى تربحها ، وذلك فى أربع مقـــالات نشرتها له « الاهرام » ، دفع أباطيلها فى المقالات الثلاث الأولى ، وقال فى الرابعة ، وقد نشرت فى يوم ١٧ سبتمبر سنة ١٩١٩ :

ــ « يرى من يتتبع مقالاتنا السابقة ، ان المال الذى استعملته الشركة فى انشاء الترامواى بمصر ، وايجاده والانفاق عليه ، انما جاءها من طريق راس المال ، وهذا لا يحملها سوى ربح ٥٪ ، ومن طريق الاقتراض وهو لا يحملها سوى ٤٪ ، وما زاد من الارباح على ذلك ، فهو غنيمه باردة لحضرات المؤسسين واعضاء مجلس الاداره ، ولو كانت الحكومه المصرية فى ذلك العهد اشترطت فى عقد الامتياز ، ان الشركة التى تؤسس ، تكون مصريه خاضعه لقوانين البلاد ، لما وجدنا مثل هذا الاستئثار بالربح . وربما كان هذا هو سر اشتراط الترخيص للشركة ، بالتنازل عن الامتياز لشركة بلجيكية ، لتفادى عرض قانون الشركه على مجلس النظار، لاستصدار الفرمان ، طبقا لقانون التجارة المصرى . ويرجح انه لو كان قد قدم لمجلس النظار مثل هذا القانون الذى يحصر قسمه الارباح بين أصحاب الأموال الحقيقية التى أوجدت الشركة وعليها وحدها نتيجه الخسارة ان قدر الله الخسارة ، وبين المؤسسين الذين اسعدهم الحظ بعرض المشروع والحصول على الامتياز بدون أى مجهود آخر ، كتلك القسمة الضيزى بين السبع والذئب والثعلب ..

« نقول لو قدم مثل هذا القانون لمجلس نظار الحكومة المصرية ، أو لمجلس نظار اية دولة اخرى ، لما قبله بالمرة ، بل كان من اقل واجباته ، استنكار مثل هذا الاستئثار بالأرباح ، واشتراط نصف تلك الأرباح ، على الاقل ، لحكومته ، أى لحكومة تلك البلاد التى أعطت الامتياز ، وساعدت على تحقيق الفكرة ، واخراج المشروع الى حيز العمل ، والتى لولاها لما كان لحضرات المؤسسين تلك الارباح الطائلة !! ولكن قدر فكان ، وهذا أمر مر وانتهى ، فلندعه ، ولنتكلم فى غيره مما يهمنا الآن .

« ردد بعض الجرائد ان الشركة تطلب من الحكومة التصريح لها بزيادة مليم على اجرة الركوب ، حتى يتسنى لها اجابة مطالب العمال ، كأن هذه الاجرة كان يلزم ان تكون خمسة مليمات ، فيجب زيادتها

« ان عقد الامتياز يشترط ان الأجرة لا يصح أن تزيد على نصف قرش، وليس معنى ذلك ان الشركة تجعل الأجرة نصف قرش من أول يوم تأسيسها، بل كان من الواجب أن تكون أقل من ذلك بشرط الا تتجاوزه ، ولكنها أرادت ــ ولا مرد لما ارادت أو تريد ــ الا أن تقرر الحد الأقصى من أول يوم

« لو كان فى ذلك خسارة على المساهمين وتقليل لربحهم ، لعذرنا واستهنا بالأمر ، لكن المساهمين ــ وهم أصحاب الأموال ــ محدود ربحهم ،

وكل زيادة نتيجتها الى جيوب المؤسسين ومجلس الادارة . فما ضرهم لو تنازلوا عن قليل من ربحهم سنة أو سنتين ، وهم الذين بقوا خمس سنوات بدون قبض سنتيم واحد ، حين كانت بلجيكا فى قبضة الالمان ، والشركة البلجيكية لا اتصال لها ببلادها ، وسيقبضون كل المتجمد مرة واحدة ؟ بل هم الذين ذاقوا الامرين من الاحتلال الألمانى . وكل ربح يأتيهم بعد ذلك الضيق الشديد ، كبير جدا بالنسبة لما قاسوه . وليفرضوا ان الشركة بلجيكية حقيقة وعملها فى بلجيكا ، ولوكانوا كذلك لماقبضوا شيئا حالا من ارباحها ، بل لكان غاية ما يمكن عمله ، تعلية ما خسروه على حساب الغرامة الحربية ..

« كنا نظن أن تلك النفوس التى ذاقت شظف العيش ، وجميع صنوف الضنك فى هذه السنوات ، قد رقت قلوبهم ، فهم يعطفون على أولئك المساكين مستخدميهم الذين جمعوا لهم الأموال الطائلة المحفوظة على ذمتهم ، فيتصدقون عليهم ببعضها ، ان الله يحب المتصدقين . ولكن ها قد ساء فألنا ، ونراهم لا يريدون التنازل عن شيء — ان صح ما تقوله الجرائد — ويريدون أن يكون هذا العطف من جانب الجمهور المسكين هو أيضا ، فلا حول ولا قوة . وهذا تصرف ينفر قلب كل عادل غير ذى غرض »

تقريع وتأنيب وتذكير بما لقيته بلادهم من ذل الاحتلال ، ذلا كان حقيقا بهم بعد ما ذاقوا مرارته ان يرحموا عمالهم . ثم قال :

« .. ولو فرضنا ان الأرباح لم تزد عما كانت عليه فى سنة ١٩١٣ ، مع ان لجنة التوفيق قد قالت : ان ايراد الشركة يبلغ ١٠٠٠ جنيه يوميا ، اى ان الايراد يبلغ ٣٦٥٫٠٠٠ جنيه سنويا ، اى نحو عشرة ملايين فرنك بالسعر الرسمى ، وحوالى ١٤ مليونا بالسعر الحالى ؛ مع أن ايراد سنة ١٩١٣ بلغ سبعة ملايين وكسورا فقط .. نقول : لو فرضنا ان الايراد لم يزد عما كان ، وكل ما حصل من الزيادة ، بسبب زيادة عدد الركاب وزيادة الجنود الى غير ذلك ، سد فى زيادة النفقات ، الا يكتفى حضرات المؤسسين ومجلس الادارة بالارباح الطائلة التى كانوا يتقاضونها ، ويحسدون أنفسهم عليها ، ويتبرعون بشيء مما كسبته وتكسبه الشركة من فرق سعر الكامبيو الآن ، اى من المائتين والعشرين الف جنيه التى تربحها من هذا الباب وحده ؟

« وماذا عليها لو خصصت كل هذا المبلغ ، وما يأتى من هذا الربح ، للصرف منه فى تحسين حال المستخدمين والعمال ، فهو ربح جاءها ويجيئها من الهواء ، بدون أدنى خسارة على احد ، لأنها انما تصرف للمؤسسين

والمساهمين وأرباب الديون أرباحهم ، باعتبار الفرنكات فى بلادهم (وهى لا تصرف للمساهمين أزيد من ٢٥ فرنكا عن كل سهم ، ولارباب الديون أزيد من ٢٠ فرنكا عن كل سند قيمة ٥٠٠ فرنك) ، وهى لا تحاسبهم على فرق الكامبيو ، لأنها تدفع فرنكات بلجيكية ، وحسابها فى بلادها بها ، وهذا الربح ناتج من عملية تحويل هذه الأموال من مصر الى بلجيكا ، ونتيجةزيادة قيمة العملة المصرية عن عملة بلجيكا فى هذه الأيام ؟ ومأمولنا ان حكومتنا السنية تعير هذه المسألة جانبا من عنايتها ، فتناقش الشركة هذا الحساب ، وتحل هذه الأزمة التى طالت بلا مقتض »

سند الرجل الأرقام وحدها ، يقذف بها فى وجه الظالم المكابر ، لترده الى الحق والعدل

* * *

طلبت اليه لجنة التجارة والصناعة والى يوسف قطاوى باشا فى ابريل سنة ١٩١٦ ، تقريرا عن الصناعة والتجارة الالمانية ، وعن الأساليب التى اتخذتها التجارة الالمانية والنمسوية لتثبيت أقدامها فى السوق المصرية ، كان من خير التقارير فى شموله ودقته . قالا فى أوله :

ـ « ان الذى نلاحظه انه ليس لالمانيا طريقة خاصة بالنسبة لمصر ، بل ان لها طريقة عامة ، هى عبارة عن برنامج اقتصادى عام لنمو صناعتها وارتقاء تجارتها ، وهذا البرنامج الاقتصادى العام ، هو وليد تطورها التاريخى والسياسى .

« فالمانيا تقدر تجارتها الخارجية فى الوقت الحاضر بخمسة وعشرين مليارا ، بحيث انها تأتى فى الصف الأول مباشرة عقب انجلترا . واسطولها التجارى الذى كان يأتى فى الترتيب خلف فرنسا قبل سنة ١٨٧٠ ، أصبح لا يسبقه فى سنة ١٩١٣ ، الا الاسطول التجارى البريطانى واسطول الولايات المتحدة التجارى . وهى من حيث انتاج الحديد المشغول والصلب ، لايسبقها فيه سابق .

« ومثل هذه النتائج لا يمكن تفسيرها بغير قوة من العمل فعالة ، تقودها ارادة من حديد . وفى الواقع فان أبحاثنا أوصلتنا الى العثور على طريقة من النظام ، مدبرة باحكام ، ترمى الى توحيد جميع قوى الأمة وتوجيهها ، فى سبيل غاية واحدة ، هى السعى الى تفوق المانيا .

« وشعار المانيا فى هذا الباب ، هو انها تنتج كثيرا وباسعار رخيصة ، وتعمل بترتيب ونظام ، فتدرس حالة العملاء ، وتعمل على ادراك حاجتهم ،

وهذا هو سرها فى العمل والنجاح . ولم نجدتاجرا مصريا أو اجنبيا واحدا ممن حادثناهم ، الا اقرنا على ما قدمنا هنا من البيان »

وكان لسان طلعت حرب وزميله يقول : اننا نرجو ان يكون عندنا مثل هذه الارادة الحديدية ، وهذا التدبير المحكم ، وهذه القوة الفعالة من العمل، حتى تنهض مصر وتأخذ مكانها الجديرة به بين الأمم

ولهذا قالا فى ختام تقريرهما الذى شغل أربعا واربعين صفحة من القطع الكبير :

ـ « ليس علينا الا ان ننظر فى اى التدابير نستطيع ان نستمد منها الوحى ، لتحقيق تنظيم حياتنا المالية والتجارية التى ينقصنا فيها شىء كثير ، لاحظته لجنة التجارة والصناعة فى عدة مناسبات من ابحاثها »

* * *

وددت لو عدت بك الى الوراء ، لأقص عليك طرفا من أنباء هذا النابغة الاقتصادى ، فى ميدانين آخرين : الدينى والاجتماعى ، وكيف انه وقف على رسالة بالفرنسية ، كان قد قدمها عثمان كامل بك سكرتير السلطان العثمانى خليفة المسلمين ، الى مؤتمر المستشرقين الذى عقد فى باريس سنة ١٨٩٤ ، فترجمها ، وأجاب فى ترجمتها عن سؤال وجهه صاحبها الى قارئها ، وجعل عنوانها « كلمة حق عن الاسلام والدولة العثمانية » . أما السؤال الذى ختم به سكرتير الخليفة رسالته ، فهو : « هل كان فى وسع الاسلام ان يعلى كلمته أو يرفع رايته بحد الحسام ، ولم يكن القائمون به الا بضعة آلاف من العرب ؟ »

بماذا أجاب طلعت حرب عن هذا السؤال ؟

قال : « كلا ، فان البطل « اتيلا » ـ وهو احد ملوك آسيا الصغرى فى القرن الخامس ـ دوخ العالم بحروبه ومعه ملايين من أقوام « الهون » ، لم يتيسر له أن يتغلب على البلاد المتاخمة لمملكة الرومان ، وغاية ما وصل اليه بعد الجهد والعناء ، انه تمكن من العبور بها مع جيوشه الجرارة ، من غير ان يتم له اخضاع أهلها .

« أما الاسلام فلم تكن لديه تلك الملايين من النفوس ، ولا تلك العدد الحربية التى كانت عمادا للفرس والروم فى حروبهم ، بل انه كان لا يذكر بجانب خصومه من حيث العدد والقوة والنظام . فما هى اذن تلك القوة التى تيسر بها للاسلام ، ان يخضع العالم المتمدين فى أقل من خمسين عاما ؟

« لعمرى انها حرية الأديان ، والمساواة فى الحقوق ، والاخاء بين المسلمين مهما كان جنسهم ، من غير تمييز . ولم تك هذه المبادىء الشريفة اللازمة للكمال الانساني والتمدين الحقيقى معلومة قبل الاسلام ، فظهرت بظهوره . وفضلا عن ذلك فان صلح الحديبية يشهد بان محمدا عليه الصلاة والسلام، هو الذى أمضى أول معاهدة دولية فى العالم

« ولما حاصر المسلمون بيت المقدس فى خلافة سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، خاف النصارى المحصورون ان تكون حرية الأديان والعدالة التى وعدهم بها المسلمون خدعة وحبالة ، فاشترطوا لتسليم البلد حضور الخليفة بنفسه اليهم ، ليوقع أمامهم على معاهدة الصلح والتسليم ، فلم يلبث ان بارح عمر المدينة ، وجاء بيت المقدس ، ووقع على المعاهدة الشهيرة التى تم بها دخول هذه المدينة فى حوزة الاسلام . فاستبشر المسيحيون من آريين ونسطوريين بهذا الفتح ، واستقبلوا الاسلام استقبال الأسير من جاء ينزع عنه قيوده ، وفتحوا امامه ابواب المدائن ، ودخل اكثرهم فى الدين الاسلامى الحنيف . أما النصارى واليهود الذين حافظوا على دينهم ، فقد عاشوا فى ظل دولة الاسلام فى هناءة ورغد عيش ، لم يروا شيئا منهما فى عهد الدولة الرومانية ، فلم يأسفوا على زوال حكمها وذهاب أيامها

« أرونى مدينة واحدة خربها الاسلام ، أو مذبحة واحدة أمر وقام بها الاسلام ، ذلك ليس فى الامكان ، اللهم الا فى مخيلة فولتى وريتان (كاتبان فرنسيان اشتهرا بشدة عداوتهما للاسلام)

« ان كان الاسلام يقضى بعدم التساهل مع الأديان الأخرى ، أو بابادة معالمها ، كما يدعون ، فلم لم يخرب طليطلة وقرطاجنة حينما كان حاكما على أوربا ستة قرون ؟ »

دفاع حار يعجز عن مثله بعض رجال الدين ..

***

ومع دفاعه الحار هذا عن الاسلام ، يدعو الى ترقية المرأة المسلمة . فحينما وضع قاسم أمين فى عام ١٨٩٨ كتابه المشهور « تحرير المرأة » ، بدا فيه عدوله عن رأيه فى الحجاب الذى رد به على كاتب فرنسى اسمه الدون دراكور ، مر بمصر وكتب عنها كتابا حشاه طعنا فى الاسلام وأهله ، وزراية بالمرأة المسلمة وتحقيرا لها . فقد دافع يومها قاسم امين - وكان هذا فى عام ١٨٩٤ - عن تحجب النساء . أما فى كتابه الجديد ، فهو يدعو الى رفع الحجاب .. مما أثار هياجا شديدا فى الرأى العام ، وتصدى له طلعت

حرب . فرد عليه فى كتاب سماه « تربية المراة والحجاب » ، قال فى مقدمته :

ـ « أخذنا نسال ونتساءل ، ونبحث ونتناظر ، حتى علمنا ان معظم هياج الراى العام على حضرة المؤلف ، ناتج مما رسخ فى اذهانهم ، من ان رفع الحجاب والاختلاط كلاهما أمنية تتمناها اوربا من قديم الزمان لغاية فى النفس ، يدركها كل من وقف على مقاصد اوربا بالعالم الاسلامى .

« انى أجل حضرة الفاضل قاسم بك امين ، من ان يكون له غاية من وضع كتابه ، خلاف حب الخير والارتقاء بالأمة ، كما هو ظاهر من كلامه على تربيه المراة . فانه وصف حالتها اليوم أحسن وصف ، وقال بوجوب تربيتها تربية تهذب اخلاقها وتقوم نفسها ، فلحضرته جزيل الشكر على ذلك ، وسيرانا فى هذا الكتاب داعين الى مثل دعوته ، رافعين صوتنا مع صوته ، عل دعوتنا تخترق تلك الاذن الصماء ، فيهتم القوم بأمر هذه التربية ، وننال ضالتنا التى ننشدها ، وهى تحسين حالنا ، وما ذلك على الله بعزيز . واننا مع موافقتنا لحضرته على هذا المبدأ ، نخالفه فى غيره ، فنستميحه العفو عما يجده خلال بحثنا من المخالفة والمباينة فى الرأى والفكر ، فحضرته حر ، ولا نخاله الا انه يحب كل فكر حر »

ثم تمضى صفحات الكتاب ، يتحدث فيها طلعت حرب عن وسائل تربية المراة ، التى يراها خليقة بها ، ثم يقول :

ـ « قال قاسم امين : « ارى همم الناس موجهة الى التعليم ، ولا ارى احدا يلتفت الى تربية النفوس ، وارى ان الحرص على التعليم منحصر فى تعليم الذكور ، مع ان تهذيب الأخلاق مقدم على التعليم ، وتعليم البنات مقدم على تعليم الذكور » . فهذا كلام كله حكم ، ونوافق عليه حضرة المؤلف جهدنا . ولكن لا يؤاخذنا اذا كنا نخالفه فى أمر واحد ، وهو اننا نعتقد ان التهذيب واجب للذكور والبنات معا ، لا تقديم للبعض على الآخر .. يقول حضرة محرر المراة : ان البرقع والنقاب غير معروفين فى الاسلام ، وهذا قول يدمغه ما جاء فى نفس كتاب « تحرير المراة » من ان النبى صلى الله عليه وسلم نهى المحرمة ـ بضم الميم وسكون الحاء وكسر الراء ـ عن لبس القفاز والنقاب . وهل لذلك معنى سوى أن النقاب كان موجودا ومعروفا ، وانه كان معمولا به وواجبا ، وكان النساء يستعملنه حتى فى وقت الاحرام ، فنهاهن النبى صلى الله عليه وسلم عن ذلك فى هذه الحالة فقط ؟.. قال محرر المراة فى مبدأ كلامه عن الحجاب ما يأتى بالحرف الواحد : « ربما يتوهم ناظر ، اننى ارى رفع

الحجاب بالمرة ، لكن الحقيقة غير ذلك ، فاننى لا أزال أدافع عن الحجاب، واعتبره اصلا من اصول الأدب التى يلزم التمسك بها ، غير اننى أطلب ان يكون منطبقا على ما جاء فى الشريعة الاسلامية » . ولسنا هنا نطلب الا تنفيذ ما جاء فى هذه العبارة »

ولم تهدأ الزوبعة التى أثارها قاسم أمين بكتابه « تحرير المراة » ، واحتدم الجدل والنقاش فيما حواه ، واشترك فيه كتاب كثيرون ، ولم تتخلف عنه صحيفة واحدة ، ففسحت جميعها أعمدتها لهذه المناقشة العاصفة .. واذا بقاسم يطلع على النـاس بكتـاب جديد هو « المراة الجديدة » ، دعا فيه دعوة شـاملة صريحة الى حرية المراة ، وكأنما رأى فكرته التى بثها فى كتابه الأول الذى رد به على الكاتب الفرنسى « الدون دراكور » قصـة غامضـة ، فأراد أن يكملها ويجلوها بهـذا الوليـد الجديد . فهل سكت عنه طلعت حرب ؟

لا ، فالرجل مجاهد لا يضع سلاحه حتى يهزم خصمه ، فألف كتابه « فصل الخطاب ، فى المراة والحجاب » ، كشف فيه عن تناقض قاسم امين فى رده على دراكور ، وفى كتابه الثانى ، وضمنه رأيه فى تعليم الفتاة وتثقيفها ، فقال :

— « التعليم الذى لا بأس به أن يشـترك البنات بالاشـتغال فيه والانتفاع به ، متى آنس الانسان منهن رشدا واستعدادا له ، هو عبارة عن تعليم القراءة والكتابة ضمن تعليم القرآن الشريف وأمور الدين ، لتعرف البنت ما يجب عليها وما يجب لها من الحقوق والواجبـات ، ومبادىء الحساب والهندسة والجغرافيا ومختصر تاريخ بلادهن ، فان هذا يزيدهن أدبا وعقلا ، ويصلحن به لمشاركة الرجال فى الكلام والرأى ، فيعظمن فى قلوبهم ، ويعظم مقامهن لديهم .

***

فلنودع هذا المجاهد الدينى والمصلح الاجتماعى ، بعد أن بسطنا لك بعضا من ملامح جهاده واصلاحه ، ولنعد الى نابغة الاقتصاد ، ذلك الرجل الذى ولد فى ٢٥ نوفمبر من عام ١٨٦٧ ، فى حى « قصر الشـوق » بالجمالية ، من أبوين شرقاويين ، والذى كان والده موظفـا صغيرا فى مصلحة سكة الحديد ، اسمه حسن أفندى حرب ، ولنصحبه بعد انشائه بنك مصر ، فى جولة قصيرة نقف فيها على جديد من آرائه ، وجديد من كفاحه ، وجديد من حكمه ونصائحه لأبنائه .. سـأورد لك فقرات من خطبه فى مناسبات متعددة متباينة ، ففيها كل ما تريد الوقوف عليه :

وقف فى يوم الاحتفال بتأسيس البنك فى يوم ٧ مايو سنة ١٩٢٠ فى دار الاوبرا السلطانية ـ كما سبق القول ـ يرد الاعتراضات التى أثارها الشانئون الحاقدون من الأجانب، وقد مر بك سردها ، فرد على الاعتراض بأن انشاء بنك مصر ، أثبت تعصب المصريين ، فقال ما موجزه :

ـ « ها نحن اولاء نقرأ تقريرا لمدير أحد المحال التجارية الفرنسية بالاسكندرية ينصح فيه تجار بلاده بالا يوكلوا عنهم فى مصر غير فرنسيين ، وها هى اميركا تشترط فى سفن ملاحتها كى تكون أهلية ، أن يكون جميع أصحابها اميركيين ، وأركان حربها اميركيين وأن تكون مصنوعة فى دار صناعة اميركية . ان سويسرا تشترط لحيازة أسهم بنك سويسرا الأهلى ، أن يكون المساهم سويسريا . وهاهى أسوج تفعل مثل ذلك . وليرنا المعترض، صاحب حصة فى راس مال بنك انجلترا ، غير انجليزى . فلماذا لا يعاب مثل هذا على الأمم الراقية ، ويعاب علينا ان تشبهنا بهم ، واردنا ان نحفظ لنفسنا ولبلادنا بنكا واحدا يخدم مصالحنا ؟ وأى ضرر فى هذا على غيرنا ؟ »

ورد على الاعتراض الثانى ، وهو ان « ليس فى مصر من يصلح لأعمال البنوك » بقوله :

ـ « قيل لنابليون حينما وضع نظام بنك فرنسا الحالى ، انه ليس فى فرنسا رجال ماليون خبيرون بأعمال البنوك . فقال لهم : هذه طائفة يجب خلقها . وقد خلقت واصبحت فرنسا بعد قرن ، يضرب المثل بخبرة رجالها الماليين وعلمهم

« فلماذا لا يصدق على مصر ، ما صدق على غيرها ؟

« اذا استعانت مصر فى بادىء امرها بغير أبنائها فى بعض شؤونها ، فما ذلك بالعار عليها ، خصوصا اذا علمنا أن ٤٠٪ من موظفى ومستخدمى البيوت التجارية بانجلترا الى سنة ١٨٩٨ ، كانوا من الأجانب ، واغلبهم المان ، مما هال غرفة لوندرة التجارية ونقابات بقية الغرف ، وصاحت من اجله ، طالبة تحقيقا دقيقا عن السبب فى ذلك ، والعمل على تغيير مناهج التعليم ، لجعلها وافية بتخريج الاكفاء لتولى هذه الوظائف ، فيستغنى عن الأجانب . وكثيرون من موظفى بنوك فرنسا ذاتها كانوا لوقت قريب ، بل الى الآن ، أجانب

« أمامنا عقبات لا ننكر صعوبتها ، سنذللها بفضل الله وحسن ثقة مواطنينا ، ولنسأل التاريخ عما أصاب البنوك فى كل بلد فى أول عهدها »

وانظر الى اخلاص الرجل وانكاره ذاته حين يقول : « وانى هنا بالاصالة عن نفسى وبالنيابة عن جميع زملائى أعضاء مجلس الادارة ، نقرر بأننا مستعدون للتخلى عن كرسى العضوية بالمجلس ، لكل كفء يتقدم ، ما ذامت ضالتنا المنشودة واحدة ، وهى الأخذ بيد هذا المولود السعيد الى الأمام ، لخير البلاد ولمصلحتها ، وهى تتفق مع مصلحة المساهمين انفسهم ، لأنهم مصريون »

ورد على الاعتراض الثالث ، وهو « عدم استعداد الأمة للاعمال الاقتصادية ، وعدم اكتتاب الكبار فى أسهم البنك بمبالغ وافرة » ، فقال :

— « لا ننكر ان الامة طفلة فى المشروعات الاقتصادية ، ولكن أين الأمة التى ولدت عالمة مستعدة بفطرتها لمثل هذه الاعمال ؟

« سلوا التاريخ ينبئكم عما قاست كل أمة فى بداية نهضتها

« فكر بعض المصريين فى تأسيس بنك مصر ، فعملوا ما يعمله غيرهم ، من جمع بعض أشخاص يكتتبون فى اى راس مال أولى يطلب به المرسوم السلطانى ، ولم يكن بوسع القائمين بهذا المشروع ان يفتحوا — قبل صدور المرسوم — اكتتابا عاما لتظهر قدره الأمة واستعدادها . فلماذا هذه المغالطة ؟ والمبلغ الذى جمع ودفعه المؤسسون بأكمله عن طيب خاطر ، لا يقدم ولا يؤخر ، ولا يصح اتخاذه دليلا على شىء ، سوى جمع كلمة بعض أشخاص على استصدار مرسوم سلطانى بتأسيس بنك ، ليدعى المصريون للاكتتاب العام فيه ، وهذا ما دعيت الجمعية العمومية غير العادية ، لتقريره هذا اليوم

« نراجع عدد المساهمين فى بنك فرنسا ، وراس ماله ١٨٢ مليون فرنك ، مقسم الى ١٨٢ الف سهم ، ومجموع عملياته فى السنة تقدر بالمليارات لا بالملايين ، نجد ان سبعة وعشرين الف مساهم من واحد وثلاثين الف مساهم ، لا يملك كل منهم ازيد من عشرة أسهم ، وليس بين الاربعة الآلاف الباقية سوى ٣٦٥ مساهما يملك كل منهم أزيد من خمسين سهما ، ومنهم ١١٣ فقط يملكون أكثر من مائة سهم

« فأين أغنياء فرنسا ؟ هل هم أيضا غير مستعدين للاعمال الاقتصادية حتى انهم لم يساهموا فى بنك فرنسا بنسبة ثرواتهم ؟ »

ردود مفحمة ، ومنطق سليم مقنع ..

ثم تحدث عن برنامج البنك فقال :

ـ « انه يعمل كل ما يعمله بنك تجارى مثله ، لا فرق فيمن يعامله بين أن يكون مصريا أو غير مصرى ، فالمصرية لم تشترط الا فى رأس المال ، أما فيما عداه فأبوابه مفتوحة لكل عميل

« يشجع المشروعات الصناعية المختلفة التى تعود عليه وعلى البلاد بالربح العظيم

« يساعد على ايجاد الشركات المالية والتجارية والصناعية والزراعية ، وشركات النقل بالبر والبحر ، وشركات التامين بأنواعها

« يشدد فى التدقيق قبل توظيف أى مبلغ ، ولا يستثمره الا فى وجوه سليمة مأمونة

« لن يشتغل بنك مصر على الاطلاق فى المضاربة لنفسه ، ولن يساعد الغير عليها ، ولن يقرض الأموال المودعة لديه لآجال طويلة

« نريد أن يفهم الكل ان بنك مصر ليس جمعية خيرية ، ولا ملجأ للعاطلين ، ولكنه محل تجارة ، يعمل عملا تجاريا على مبادىء واصول قويمة ، لن يحيد عنها ان شاء الله تعالى

« سيؤدى بنك مصر لجميع عملائه كل الخدمات المالية التى يحتاجونها بأجر مناسب ، وسيعمل بالاتحاد مع حضرات التجار على تنظيم الحالة التجارية وانشاء الغرف التجارية والنقابات والشركات التعاونية وغيرها للدفاع عن مصالح اعضائها . كما يعمل بالاتحاد مع أصحاب المزارع والمصانع على تأسيس النقابات وشركات التعاون اللازمة لهم للدفاع عن مصالحهم ومحاصيلهم ومصنوعاتهم

« سيعمل على بث روح العمل والتعاون والتضامن والنظام فى الشبيبة ، وانماء ملكة الاقتصاد والتجارة فيهم ، والحث على وضع أساس التربية الاقتصادية العملية فى البلاد ، وجعل تعليم الحساب والنظام الحسابى ، اساسا فى مناهج التعليم »

ولقد بدأ البنك رسالته فى التوعية القومية الاقتصادية منذ اليوم الأول من انشائه ، وبعد اعلانه برنامجه ، ليقضى الوطنيون على الشركات الأجنبية المسيطرة على اقتصاديات البلاد . فقد جاء فى أول تقرير لمجلس ادارته الى اول جمعية عمومية عادية للمساهمين فى نهاية عام ۱۹۲۰ ، وكانت أزمة هبوط أسعار القطن شديدة عاتية :

ـ « أملنا ان يخرج مواطنونا من هذه الأزمة بالعظات والعبر ، وأن يستفيدوا من دروسها ، فينظموا صفوفهم ، ويلجوا باب الاستقلال الاقتصادى ، ويستثمروا أموالهم فى مرافق بلادهم الحيوية على مختلف أنواعها ، ويتكاتفوا فيما بينهم لترقية شؤونهم الاقتصادية ، فيؤلفوا النقابات والشركات والغرف التجارية والصناعية ويكونوا يدا واحدة ، شعارهم الاتحاد والاخلاص ، وتبادل الثقة وحسن المعاملة ، ويمصروا الشركات الأجنبية التى يشكون فى تصرفاتها بشراء أسهمها ، حتى تكون لهم الكلمة العليا فى جمعياتها العمومية »

ولم ير البنك عيبا ان يستعين ببعض الأجانب فى أول نشأته ، فقال فى تقريره هذا :

ـ « ولقد استقدم مجلس ادارة البنك فى أكتوبر الماضى (أى اكتوبر سنة ١٩٢٠) جناب المسيو ريتشارد ادلر كمستشار للبنك . ولا نزوم لأن نطمئن حضراتكم بأن مجلس ادارتكم سائر على مبدأ الاحتفاظ بشعاره وهو ان اليد العليا لادارة البنك وسياسته ، بقيت وستبقى مصرية »

ولا يقف جهد الرجل وتفكيره عند الاقتصاد وحده ، وعند انشاء الشركات والمصانع يفخر بها الوطن ويعتز ، فهو يشارك بنى وطنه فى الحفاوة بأبناء مصر المجاهدين عند عودتهم من رحلة جهادهم فى الخارج ، ويهتبلها فرصة ليندد بالمستعمر ، وليهتف للوطن ولاستقلاله ولحريته ، وليشيد بقوة عزيمة مصر وأهلها

كان ذلك فى الحفلة التى اقامها التجار فى فندق سميراميس فى ٢٣ ابريل سنة ١٩٢١ ، لتكريم « صاحب المعالى » سعد زغلول باشا وزملائه أعضاء الوفد المصرى .. « بعد غيبة طويلة جاهدوا فيها جهاد الأبطال ، مدافعين عن القضية المصرية خير دفاع ، حتى وصلت بفضلهم وبفضل اتحاد الأمة والتشجيع الذى لاقوه منها فى كل خطوة من خطواتها ، الى النقطة الدقيقة التى هى فيها الآن . فعليكم أيها الأبطال من جميع تجار مصر ، سلام الله وتحيته .. ان تلك الأعصاب التى كانت تهتز حماسة يوم استقبالكم ، وتلك القلوب التى رأيتموها تخفق بالوطنية الصادقة ، لهم أعصاب وقلوب أمة بأكملها ، قامت كتلة واحدة تشهد العالم أجمع على أنها مجمعة على طلب واحد ، لا ترضى عنه بديلا ، فتسقط تلك الحجة التى كاوا يدمغوننا بها ، بأن الأمة غير مجمعة على الطلب ، فماذا عساهم يقولون اليوم ، واجماع الأمة أشهر من أن يستر ، واظهر من أن يمارى فيه ؟

« انه لمن الخطأ أن يظن بأن الضغط يلفت مصر عن نهضتها ، وينسيها حب الحرية ، فان هذا الضغط هو نفسه داؤها الذى تتألم منه . ومن الجهل أن يداوى الداء بالداء

« لئن كنا غير اكفاء لحكومة بلادنا ، فان المهيمنين على أمورنا وشؤوننا ، أظهروا بتصرفاتهم أنهم اقل كفاءة منا بكثير ، لانهم لم ينجحوا فى أن يذهبوا عنا تهمة عدم الكفاءة التى هم أول رماتنا بها . أمامكم أمم العالم ، فهل رأيتم من بينها واحدة تترك للصدفة حبلها على غاربها فى شؤونها الاقتصادية ، لا رأى لها فى الذب عن مصالحها ، وتترك طعمة للاكلين ومضغة لكل ماضغ ؟ اين الغرف التجارية التى أسسوها أو ساعدوها ؟ أين النقابات الزراعية والصناعية التى نظموها ؟ اين البنوك والشركات المصرية التى عملوا على ايجادها ؟ اين التشريع الذى يقى المصريين ويحمى مصنوعاتهم ومحاصيلهم ؟ تركوا المصريين عزلا من كل سلاح ، بين منافسين ومزاحمين مدججين بأحسن طراز من الأسلحة الحديثة ، وبعد ذلك يعتبروننا لا نصلح لشىء ، لاننا لم نعمل شيئا ، وهم هم الذين لم يؤهلونا للعمل ، بل أفسدت السياسة ما كان صالحا لدينا ، لم يشجعوا شيئا من الصناعة الوطنية ، بل لعلهم وقفوا فى طريقها وقفة المدافع عن مصنوعات الخارج

« تبا للسياسة ، ما تدخلت فى شىء الا افسدته »

وبعد ما عدد طلعت حرب ، خطيب الحفلة كيف افسد المستعمر التعليم ، وضحوا بمرافق البلاد الحيوية ، واضاعوا احتياطى البلاد ، قال :

— « .. لهذا فكر بعضنا فى اثناء جهادكم للقضية العامة ، فى وضع حجر الأساس لاستقلال البلاد الاقتصادى ، فأسسوا « بنك مصر » نواة لذلك الاستقلال ، واول مدرسة عملية يتأهل فيها شبابنا الحى ، للدخول فى ميدان الحياة العملية التى كان مبعدا عنها . كما أسس التجار الغرفة التجارية لمدينة القاهرة ومثلها لمدينة طنطا وثالثة لمدينة المنصورة ، وتأسست أخيرا النقابة العامة للدفاع عن مصالح المزارعين ، وسيتلو ذلك ان شاء الله تعالى كثير من المشاريع النافعة للبلاد ، تبنى على أسس ثابتة ، ويقوم بها رجال ذوو همم عالية ونفوس كبيرة . والفرصة تخلق الرجال ، كما تخلق الوظيفة العضو ، على قول الفرنسيين

« ان كل سياسة خطها الانجليز فى مصر فشلت ، لأن قاعدتها لم تكن الاتفاق مع الأمة المصرية والعمل على كسب ثقتها . ان هذه السياسة هى التى جعلت المصريين يشفقون على مصالحهم الحاضرة من البوار ، وعلى مستقبل ابنائهم من المذلة ونكد العيش ، وليس لديهم علاج نافع لاتقاء الأضرار الحاضرة ، والتدرع لصيانة المستقبل ، الا الاستقلال التام ، فالاستقلال التام أمنية كل مصرى . فعليكم يا رجال الوفد ، ويا رجال الحكومة التى أولتها الأمة ثقتها ، وعلى كل واحد منا ، أى من الأمة كلها ، الاتحاد والتضافر ، لأن مصلحة البلاد تقتضى ذلك .

« انتم يا رجال الوفد رمز أمانى الأمة وعنوان مبادئها ، فكل ما وجهته أو توجهه اليكم الأمة ، انما هو موجه فى الحقيقة لهذا الرمز وهذا العنوان ، وهى تولى ثقتها واكرامها لكل من يخدمها باخلاص وصدق ، ولكل من يجيئها بالاستقلال التام الذى تنشده . فأنتم حيث تعملون ، تنزلون على ارادة الأمة ، وارادة الأمة هى ان يتضافر جميع ابنائها ويكونوا يدا واحدة ، كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا »

لقد حرص طلعت حرب منذ شيد هذا الصرح الوطنى ، على أن يبتعد عن السياسة ومزالقها ، وعن الأحزاب وأهوائها ، ليكون البنك لجميع أبناء الوطن ، لا فرق بين سعدى وعدلى ، أو بين وطنى واتحادى

فمن عد خطبته هذه اشتغالا بالسياسة ، كان متجنيا غاية التجنى ، انما هى مشاركة من الرجل ورفاقه وزملائه من التجار ، للايين المصريين فى استقبال نفر من ابناء مصر المجاهدين . وكان موفقا كل التوفيق حينما ضمن خطبته السخط على المستعمر والتنديد بسياسته فى قهر البلد والعمل على اذلال أهله ، وحث المصريين — حتى يتخلصوا من هذا المستعمر المستبد الغاشم — على الاقدام على المشروعات الاقتصادية المثمرة ، والاتحاد والعمل على انشاء النقابات المهنية لتدفع عن أعضائها ما يحيق بهم من ظلم .. فهى خطبة سياسة اقتصادية ، جمعت فأوعت

* * *

فاذا اجتمع بممثلى مصر فى الخارج ، وجه انظارهم الى بذل نشاطهم لخير اقتصاد وطنهم الذى اختارهم عنوانا له فى أوربا وأميركا ، فيقول فى وليمة أولمها البنك فى ٣ مارس سنة ١٩٢٤ ، لأول دفعة من القناصل المصريين ، عينتها وزارة الشعب ، وزارة سعد زغلول :

ــ « اذا كنا نأسف لأن حوادث التاريخ قد حرمتنا حق التمثيل الخارجي فى مدى عدة قرون ، فاننا نفرح اليوم لأن العصر الحاضر قد اتصل بالعصر الغابر ، فى استعادة هذا الحق الذى لم يضع بالتقادم .. نفرح اليوم بالذات لانتا نرى فيكم وفيمن سبقوكم منذ اسابيع من رجال التمثيل السياسى ، حلقة اتصال بين هذا الحاضر وذاك الغابر

« اننا نطلب من القناصل أن يعملوا كما كان يعمل أسلافهم من الأجداد الغابرين . نطلب اليهم ان يزدادوا معرفة باحوال بلادناالاقتصادية بحيث لا يكون ابتعادهم عن مصر ، سببا فى عدمتعرف شؤونها الاقتصادية ثم نطلب اليهم أن يدرس كل منهم فى جهته أحوالها الاقتصادية من جميع الوجوه ، وأن يتفهم ما تنتج وما يصلح من انتاجها لبلادنا ، وما تحتاج اليه من منتوجاتنا ، ويرشد عن طرق الانتفاع من التبادل التجارى بين البلدين ، وان يتفهم طرائق كل قوم يعيش بين ظهرانيهم فى الانتاج والتوزيع ، ويرشدنا عن الجديد من هذه الأساليب ارشادا يصح ان يكون محل التجربة للانتفاع به فى بلادنا . فهذا العمل الذى يجمع بين تفهم الحالة الاقتصادية فى مصر والارشاد عنها فى الخارج ، وتفهم الحالة الاقتصادية فى الخارج وارشاد مصر عنها ، وتسهيل الانتقال والاتصال بين مصر والخارج . بهذا العمل تقومون أيها السادة القناصل ــ فوق ما هو مفروض عليكم بصفتكم مصريين ــ بواجب الوظيفة الجليلة »

* * *

فاذا عين فى أول مجلس للشيوخ فى عهد البلاد الجديد ، بعد تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ ، أقام له نادى التجارة العليا حفلا ضخما فى أواخر مارس سنة ١٩٢٤ ، تحدث فيه عن هذا المجلس بصراحة ، فقال :

ــ « عم أحدثكم ؟ أأحدثكم عن مجلس الشيوخ الذى من اجل تعيينى عضوا فيه اجتمعتم اليوم ؟ وماذا عساى أن اقول عن مجلس الشيوخ ؟ انه لم يجتمع حتى الآن الا جلسات معدودة ، لا يسع الانسان أن يعتمد على ما دار فيها ، ليتخذه أساسا للحكم على اتجاه هذا المجلس ، وتقدير روحه ، وتعيين النفع الذى يعود من وجوده على البلاد ، باعتباره اداة توازن دستورية . والتوازن كما هو مفروض فى المال لحسن سير الأعمال، وكما هو مفروض فى الميزانية العمومية .. هذا التوازن محتم أيضا فى الحياة الدستورية . وحتى اذا وقع خطأ لا يعصم منه الانسان ، وكان هذا الخطأ ناشئا عن عنصر من عناصر السيادة ، أصلحه العنصر الاخر

بروح من الوفاق يجب أن يسود دائما لصالح البلاد . وفى هذا الاشراف المتبادل ، وفى هذه الهيمنة المشتركة على شؤون الدولة ، يتحقق التوازن الدستورى ، كما يتحقق ميزان المراجعة بين صفحتى السلب والايجاب »

وسافر الرجل الى مدينة المحلة الكبرى ليفتتح فيها فرعا للبنك فى ١٤ سبتمبر سنة ١٩٢٤ ، فنوه فى كلمة له فى حفل الافتتاح بعراقة هذه المدينة فى صناعة النسيج ، وقد اختارها بعد ذلك ليقيم على ارضها اكبر مصانع للغزل والنسيج فى الشرق الأوسط ، كما سيجىء ، فقال مخاطبا أهلها :

« لستم « أحداثا » فى صناعة النسيج ، فقد ورثتموها عن آباء ورثوها عن أجداد . ولدينا على هذا بعض شواهد نسوقها دليلا على اشتغالكم بها منذ مائة عام على اقل تقدير . منها ان كلوت بك فى كتابه الشهير عن مصر سنة ١٨٤٠ ، انه كان فى مصر وقتئذ ١٥ « وسطا » للغزل والنسيج ، تنتج مليونى قطعة قماش ، وان المحلة الكبرى كانت وسطا كبيرا من هذه الأوساط المعدودة . ومن الشواهد ايضا انه لما اقامت فرنسا معرضا عاما فى سنة ١٨٦٧ واراد الخديوى اسماعيل أن تمثل مصر فيه — وقد مثلت تمثيلا استقلاليا أغضب الدولة العثمانية وقتئذ — وقع الخيار على أحسن ما يعرض من منتوجات البلاد ومصنوعاتها ، فكان مما وقع عليه الاختيار ، منسوجات من المحلة الكبرى : قطنيه عرضت فى مجموعة رقم ٢٧ من هذا المعرض ، وصوفية عرضت فى مجموعة رقم ٢٨ منه ، وفوط من الصوف والحرير عرضت فى مجموعة ٢٩ منه . وقد اثبت هذه الحقيقة التاريخية المسيو شارل ادمون المكلف من قبل الحكومة المصرية وقتئذ ، بتنظيم القسم المصرى فى هذا المعرض ، والذى كتب مؤلفا خاصا بهذا القسم وطبعه فى سنة ١٨٦٧ نفسها »

***

وهو لا ينى كلما سنحت له الفرصة ، أن يمحض الشبان خالص النصح ، وان يوجههم خير التوجيه ، حتى يعودوا مواطنين صالحين ، ينفعون وطنهم ومواطنيهم

لقد اجتمع بالطلبة المصريين الذين يدرسون فى الخارج ، فى حفلة اقامتها له الجمعية المصرية فى باريس فى ١٩ سبتمبر سنة ١٩٢٥ ، فى فندق « لوتسيا » وحثهم فيها — بعد الحث على الاقبال على التعليم —

على ان يعودوا بعقلية مصرية ، متشابهة فى سموها مع اسمى الامم ثقافة .

فقال لهم :

ـ « انني مسرور بلقائكم ، مصطافين ، وطلبة علم ، ومقيمين في عاصمة النور والسرور ، في عاصمة العواصم ، باريس .

« وباريس مركز اللهو والسرور ، بينما المسارح يرجع عهدها الى ما قبل «موليير» ، وفيها بجوار المسارح الناطقة ، ستائر بيضاء صامتة لعرض الصور المتحركة . وفى باريس ملاه غير المسارح . فيها الشهوانية والنوداى تسر الناظر وتشرح الخاطر . وفيها امكنة المداعبة والمجلاعة ، قد يغشاها بعض المصريين ، كما يغشاها كثير من الاجانب والفرنسيين . ولما كنت غير واعظ ، ولا احب أن اكون واعظا ، لاني إعلم ان وعظى سيذهب صرخة فى واد ، فان كل ما ارجوه ، هو ان يدخلها من يدخلها من مواطنينا بحذر ، وأدعو الله آن يخرجهم منها سالمين . وفى باريس « كاباريهات » أو « غرز » ، كما نقول فى بلادنا ، يغنى فيها المغنون غناء خاصا بالباريسيين

« هذه هى باريس اللهو والسرور

« أما باريس الجد ، فهى باريس العلم وباريس العمل

« هى باريس « السوربون » ، والسوربون من أقدم الجامعات فى الغرب ، منزلته منه ، منزلة الأزهر من الشرق ، من حيث القدم فى كليهما ، «والسوربون» كما تعلمون تطلق على كلية الآداب وكلية العلوم ، وقد تطلق ايضا على معهدين ملاصقين لهما ، روحا وجسدا ، هما كوليج دى فرانس ، ومدرسة الوثائق القديمة . وهذه المعاهد العلمية تعتبر بمثابة القلب من جامعة باريس ، فمن آدابها وتاريخها وفلسفتها ، يمتد النور الى كلية الحقوق . ومن علومها الوصفية الطبيعية والكيميائية وتاريخها الطبيعى ، يمتد ضياء آخر الى كلية الطب . ومنهما جميعا يشرق نور الجامعة الكبرى على بقية الجامعات فى الاقاليم ، وينعكس على قباب الأكاديميات الشهيرة فى سرايها فوق نهر السين

« ولقد كان لهذه الجامعة فضل عظيم فى تكوين فئات من المصريين ، منذ بعثات محمد على العلمية ، التى اخرجت على مبارك والفلكى محمود واسماعيل بهجت ومحمد على الحكيم وغيرهم من الادباء والمهندسين والإطباء والمشترعين ، وبعثات الجامعة والحكومة أخيرا .

« نعم قد يكون من الشاق على الطالب الاجنبى فى هذه المدينة المائجة المملوءة بدواعى اللهو والمسرات ، أن يضغط على شبابه ، ويقاوم فى هذا الوسط الجذاب أسباب الخلاعة واللهو المحيطة به ، ولكن هناك لهو مصحوب باحترام النفس والقدرة على ضبطها والحذر من ابتذال الكرامة ، والحرص من الوقوع فى أى سبب من أسباب المكروه : الأدبية أو الخلقية أو الصحية . وهناك لهو آخر ينحدر به الانسان الى بخس النفس قدرها ، بالضعف عن كبح جماحها ، والى تضييع الكرامة والتخبط فى ظلمات كل مكروه .

« أن تعدد الجهات والأمم والدول الأجنبية التى يقصد اليها الطلبة المصريون ، مرغوب فيه أكثر من توجيه ابنائنا المصريين الى جهة أو امة واحدة ، لأن توحيد الجهة التى يقصدون اليها ، من شأنه ان يجعل العقلية المصرية المتعلمة فى الخارج ، تتأثر بطابع الدولة التى تم التعليم فيها ، الا لمن استطاع أن يخرج بعقلية مستقلة ، وهو ما لا يكون الا عند جبابرة الذكاء . ولا يخفى ما يترتب على التأثر بطابع التهذيبات فى دولة واحدة ، من الأثر الذى قد يكون غير محمود فى حياتنا القومية ، بخلاف تنويع البلدان والدول التى يقصد اليها الطلبة المصريون ، فان من شأنه أن يجعل عدة جماعات من المصريين المتعلمين تعليما عاليا ، موسومين بسمة التهذيبات المختلفة التى اثرت فى تكوينهم العقلى ، فيحدث من احتكاكهم فى العمل ، بعد عودتهم الى مصر ، اتصال فكرى وعقلى يجعلهم يتقربون بعضهم الى بعض ، تقربا يساعد على ايجاد عقلية مصرية ممتازة بذاتها ، مستقلة فى مجموعها ، عن أثر الدولة التى استكمل فيها المصرى علومه العالية .

« وهذه العقلية الممتزجة المتشابهة ، هذه العقلية المستمدة من تهذيبات الشعوب المختلفة ، هذه العقلية القائمة على الملكة العلمية المشتركة بين البلاد ، دون أن تكون متأثرة بالبلدة التى تم تكوينه فيها ، هذه العقلية التى يجب أن تكون مشتركة فى طرق العلم القائمة لدى أسمى الأمم الغربية دون أن تصبغ بمميزات هذه الأمم وخواصها ، هذه العقلية هى التي نريدها فى شباننا المتعلمين ومتخرجي الجامعات ، سامية عالية تناطح العقليات فى سمو ادراكها .. هذه العقلية ينبغى أن تكون بجهود المتعلمين أنفسهم حتى تكون مصرية ، لا عقلية المانية ، ولا عقلية انجليزية ، ولا عقلية فرنسية ، ولا عقلية اجنبية أخرى .. وهذه العقلية يجب أن تكون

مصبوغة بخواص الذكاء المصرى ، ومرآة صادقة للحسن من الطابع المصرى

« نريد اذن عقلية مصرية متشابهة فى سموها مع اسمى الامم ثقافة ، ونريدها عقلية مصرية مستقلة ، عقلية هى وليدة ماضينا الذى لا مفر من الخروج من تأثيره فينا ، ووليدة حاضرنا نسعى الى أن نربطه بماضينا ، كما نسعى أن نقوده ونسيره الى مستقبل حسن »

اى معلم هذا الرجل ؟ انه يلقن طلاب العلم المصريين فى جامعات الغرب ، هذه الدروس الوطنية الغالية ، حتى لا يفتنهم بريق الغرب ، فيعودوا وقد فقدوا مصريتهم ..

* * *

الوف من الصفحات لا تكفى لتسجيل التاريخ المفصل لهذا العبقرى المصرى ، ولكنى — وأنا اترجم له فى صفحات مقدودات — ساقتصر على اسطر من هذا التاريخ الحافل ، حتى انتهى الى بعض حوادث ذات مغزى ، ومعنى ..

فى يوم السبت ٩ مايو سنة ١٩٢٥ ، احتفل بوضع حجر الاساس للبنك فى داره الشامخة والقائمة اليوم — وكانت أرضها غاصة بالعشش والبيوت القديمة والآيلة الى السقوط — بحضور الوزراء والكبراء وأعيان البلاد

وفى أوائل يوليو ، سافر الى بيروت فاكرمه اهلها فى مادبة حافلة ، قال فيها بعد ما تغنى بجمال الجبل والأرز :

— « نحن المصريين بالذات ، نعلن انه كما تهمكم شؤوننا ، تهمنا شؤونكم ، وانه يهمنا ويهمكم على السواء أن تكون الثقافة العربية التى تربطنا بكم ،اقصى ما تكون من الرقى،وانه يهمنا ويهمكم على السواء أن يكون الاستقلال الاقتصادى امرا واقعا فى بلادنا ، كما يكون الرخاء ميسورا قائما على قواعد ثابتة فى بلادكم ، وانه يهمنا ويهمكم على السواء أن تكون حركة المبادلة التجارية بيننا وبينكم على اشد ما تكون » .

ثم سافر الى سوريا ، فاقام له تجارها حفلة تكريم فى دار المجمع العلمى العربى ، فكان خير ما قال فيها ، بعد ما تغنى أيضا بدمشق الفيحاء :

— « ها انتم انشاتم حديثا فى مدينتكم كلية للطب وكلية للحقوق ، وجعلتم عمدة التعليم فيها باللغة العربية .. قالوا — من حيث يجهلون أو

يتجاهلون منزلة لغتنا ــ ان اللغة العربية لا تصلح للتعليم فى مدارسنا ، لانها تقصر عن استيعاب العلوم العصرية ، فصبرنا على مضض .. نرى التعليم يجرى بلغة غير لغة البلاد ، حتى عاد الينا بعض الأمر من شؤوننا ، فجعلنا التعليم بالعربية اساسا فى الدراسة الابتدائية والمتوسطة والعالية . وفى اثناء هذا النضال كانت اللغة العربية قد تمشت فى مجارى التشريع المصرى المأخوذ عن التشريع الفرنسى ، وانقادت بسهولة فى لغة المحاكم وأوراق قضاياها ومختلف اجراءاتها ، وفصاحة خطب رجالها فى الاتهام والدفاع . أصبحت اللغة العربية عصرية مرنة ، قابلة لخوض المعلومات العصرية بسهولة تامة ، سواء أكانت هذه المعلومات أدبية أو سياسية . ثم نهضت البلاد لتأسيس « بنك مصر » الذى هو أول بنك قومى مصرى تأسس بأموال مصرية بحتة ، وبادارة مصرية محضة ، وقررنا أن تكون المراسلات فيه وبينه وبين عملائه باللغة العربية ، وان تكون حساباته اللغة العربية .. فهزأ بنا الهازئون ، وقالوا : ان المحاسبة من واردات الغرب ، وأنها فن من فنونه غير قابل للانتقال الى الشرق بغير لغة من لغات الغرب . ولكنا اهملنا استهزاءهم ، وأجرينا مراسلاتنا وكتبنا وتقاريرنا باللغة العربية . وانى اؤكد لحضراتكم أننا ما وجدنا أية صعوبة فى تقريب معنى من معانى هذا الفن ، أو فى تعريب اصطلاح من اصطلاحاته » .

أرأيت دفاعا عن العربية من رجل إقتصاد كهذا الدفاع الحار المخلص ؟

ثم اقرأ رأيه فى السينما شارحا فوائدها ، باسطا أضرارها ، فى سهولة ويسر ، لا يستطيعها غيره ، فى ميدانه ومجاله

لقد دعا أحمد مدحت يكن باشا رئيس مجلس ادارة البنك ، أعضاء البرلمان بمجلسيه ــ الشيوخ والنواب ــ والوزراء والعظماء والأعيان والصحافيين والأدباء والنقاد ، الى حفلتين فى مساء يومى ٢٩ و ٣٠ مارس سنة ١٩٢٧ ، عرضت فيهما نماذج من الصور السينمائية التى صورتها « شركة مصر للتمثيل والسينما » ، فور انشاء البنك لها . فالقى طلعت حربه خطبة طويلة ، قال فيها :

ــ « اذا كان اختراع السينما قد أدى حاجة نفسية من حاجات البشر ، فانه ككل اختراع ، له محاسنه ، وله عيوبه . محاسنه فى خلق صناعات جديدة ، وفى خلق ميادين للذكاء الانسانى ، أو الذوق الفنى ، يعمل فيها بنشاط غريب ، وفى تسلية الناس والتفريج عن صدورهم بالضحك الساذج ، وفى تلقينهم معلومات مفيدة كانوا يجهلونها قبل أن يروها على اللوحة البيضاء ،

وفى وقوفهم على مناظر بديعة للطبيعة والبلدان كان من المتعذر الوقوف عليها بغير عرض الاشرطة المتحركة ، وفى اثارة الحماسة فى نفوسهم فى مواقف الحماسة ، وتحبيذ الشجاعة والهمة والمروءة فى مواقف الاخلاق الفاضلة .

« وللاختراع من الجانب الآخر عيوبه ، فان الفضائل لا تعرف الا بمقابلتها بالرذائل : فالشجاعة بالجبن ، والمروءة باللؤم ، والبراءة بالاجرام ، والاحسان بالاساءة . . ومن هنا ظهر على اللوحة البيضاء المحاسن والأضرار . فظهرت صور منحطة من الناس ، واعمال منطوية على خبث نياتهم . وظهرت الجرائم كيف تدبر ، والجنايات كيف ترتكب ، والخيانات كيف يحيك شباكها الخائنون . فكان لعرض هذه المساوىء تأثيرها السىء فى بعض النفوس الساذجة أو المستعدة للشر ، لأى سبب طبيعى أو خلقى أو اجتماعى ، حتى اثارت فى بعض الأحيان عاطفة الشر منهم ، فاندفعوا بعامل التقليد الى ارتكاب الجرائم بجراة مأخوذة تماما مما شاهدته العيون على اللوحة البيضاء ، بل وقد ترتكب معايب لا تذهب الى حد الاجرام المعاقب عليه ، ولكنها تذهب فقط الى الحط من الاخلاق دون التعرض للقانون » .

فلنخط الى الأمام خطوات فسيحة ، لنرى الحفل العظيم المرتقب من سنوات :

ففى يوم الاثنين ٥ يونيو سنة ١٩٢٧ ، احتفل بافتتاح الدار الجديدة للبنك فى شارع عماد الدين ، أى بعد سنتين من وضع حجر الأساس كما مر بك . افتتح الاحتفال أحمد مدحت يكن باشا بكلمة بالفرنسية ، وقف على اثر انتهائه منها « رجل بنك مصر » ، ليقول والدنيا لا تسعه من الفرح والبهجة :

« لولا حسن ادراك المصريين ، وصدق الهامهم ، وقدرتهم على تقدير النافع من الأعمال ، ماكنا وصلنا الى ما وصلنا اليه اليوم . فقد بدانا فى سنة ١٩٢٠ صغارا يهزأ بنا الهازئون ، ويتساءلون : بثمانين الفا تقام البنوك؟ وقد نسوا أن العمل الصالح يولد صغيرا ، وينمو حتى يصير كبيرا . ونحن بحمد الله ما لبثنا طويلا ، حتى تضاعف رأس المال ، وبلغ ٠٠٠ر٧٢ر١ جنيه ، وقد يزيد الى ضعفه بعد حين . وسخروا من أعمالنا فى السنة الأولى ، لانهم رأوا أرقاما ضئيلة ، كأن الشجرة المثمرة ، الشجرة العظيمة النبات السنين ، يورف ظلالها وتؤتى أكلها فى خلال عام . ولكنهم ما سخروا حتى عدلوا عن سخريتهم ، وأقروا بالحقيقة : وهى حيوية البنك وقطعه المسافات الرقى الى الأمام ، بخطى لا يعرف لها مثيل فى حياة المصارف المالية قاطبة ، يدل على ذلك عدد الموظفين ، وكانوا يعدون على الأصابع ، فبلغوا الآن فوق

الخمسمائة تدربوا جميعا فى البنك على تجارة الأموال ، بعد أن كانت الأبواب مقفلة فى وجوه الشباب لمثل هذا التدريب . وبفضل تدريبهم تيسر التوسع فى افتتاح الفروع والمكاتب فى الداخل ، والشروع فى تأسيس أول فرع جديد فى الخارج ، هو « بنك مصر — فرنسا » الذى سيحتفل بافتتاحه فى صيف هذا العام » (١) .

وكذلك انتقلت ادارة البنك من مبناها المتواضع المستأجر فى شارع الشيخ أبى السباع ، شارع جواد حسنى الآن ، الى داره الفخمة التى تكلف انشاؤها مائة ألف جنيه ، والتى يعز وجود مثيل لها من بنوك الشرق .

ومما أذكره هنا ولا أنساه ، أن زعيم مصر الاقتصادى ، دعا زعيم مصر السياسى سعد زغلول باشا الى زيارة هذه الدار قبل الاحتفال رسميا باحتفالها ، تجنبا للزحام الذى قد يرهقه ، مراعاة لصحته ، فقد كان هذا قبل اعتلال صحته ، الاعتلال الذى لقى فيه وجه ربه بعد ذلك بثلاثة اشهر أو تزيد قليلا (٢) .

وعين صباح يوم السبت ٣ يونيو ، لهذه الزيارة الخاصة ، فذهب سعد ، وكان فى استقباله جميع اعضاء مجلس الادارة فقط ، واتوا له بمركبة تدفع باليد ، ليركبها فى اثناء طوافه حتى لا يمسسه تعب ، لكنه ما لبث بعد أن تأثر مبتهجا بفخامة البناء ، ومعجبا بالطراز العربى الجميل الذى ساد جميع أركانه وأقسامه ، حتى نهض واقفا ممتلئا شبابا وهو يقول لطلعت حرب ولزملائه :

— هذا عمل عظيم يغمر بالسعادة كل من يشاهده ، بل ويعيد اليه الشباب يا طلعت بك .

وهنا قدم اليه طلعت حرب ، المهندس الذى صمم الدار واشرف على بنائها ، وهو أنطون لاشاك بك ، فهنأه سعد تهنئة حارة .

وظل سعد يطوف بالبنك فى جميع ادواره على قدميه ، لمدة طالت الى ساعتين ، غادر الدار بعدها مكررا تهنئته واعجابه ، متمنيا للقائمين بأمر البنك وفى طليعتهم طلعت حرب اطراد التقدم والنجاح .

---

(١) بدأ البنك عمله فى سنة ١٩٢٠ بعشرين موظفا ، وبعد عشرين عاما اى فى عام ١٩٤١ ، كان عددهم ٢٥٠٠٠ موظف وعامل فيه وفى شركاته ، يتقاضون مرتبات تزيد على مليون جنيه

(٢) توفى سعد فى ٢٣ اغسطس سنة ١٩٢٧

وفى هذه المناسبة ، اذكر كذلك ، انه من نحو خمس عشرة سنة ، زار دار البنك وفد من الهنود ، فرايتهم يقفون امام نقوشه ورسومه وهندسته وامام صورة طلعب حرب ، وقفة المتعبد الخاشع ، فى محراب صلاته .

***

وسافر الى الاسكندرية ليفتتح عمارة البنك فى الاسكندرية فى يوم ١٤ يونيو سنة ١٠٢٩ ، ولم يهدأ بعد ذلك طوال السنوات التالية ، فقد زار دمشق ولبنان وليفربول ومانشستر وفينا وغيرها ، فكان خير سفير لمصر ، ولبنك مصر .

ووصل الطيار محمد صدقى — وهو من موظفى البنك — بطائرته الصغيرة من المانيا الى مصر ، فكان سنتئذ حدثا جليلا شغل المصريين والشرقيين ، فأقام له نادى التجارة العليا حفلة تكريم فى مسرح ترقية التمثيل العربى — مسرح حديقة الازبكية فيما بعد ، ومسرح جورج أبيض اليوم — فى يوم ٣٠ يناير سنة ١٩٣٠ ، فوقف طلعت حرب الرئيس الفخرى للنادى ، ليقول :

« كنا قبل وصوله — أى صدقى — نشعر بنقص فى استكمال ادواتنا القومية ، لا لعجز عن استكمالها ، ولكن لأسباب قهرية . وكنا نشعر بأن الأمم الأخرى أسبق منا فى ميادين الطيران ، ونحن أحق بأن نجاريها فى استعمال الفضاء ، كما تستعمله هى سواء بسواء . وكان يزيد فى المنا بهذا النقص ، ان الطيران واسطة سريعة للنقل التجارى يتقدم بسرعة هائلة ، ونحن مع هذا محرومون من حق الانتفاع بهذه الواسطة فى جونا الصافى ، حتى ومحرومون من تحضير ابنائنا فى مطارات خاصة بنا .

« اما وقد وصل الينا صدقى ، فان وصوله يعتبر فوزا للمصريين ، ودليلا ناهضا على امكان تكوين أمثاله من الطيارين المصريين ، وباعثا منشطا على تذليل الصعاب لانشاء اسراب من الطائرات المصرية ، لتسهيل النقل الجوى ، أسوة بما تقوم به الأمم الأخرى » .

ثم قدم اليه الف جنيه هدية من النادى ، وهو يقول له :

— هذه هدية كرمز مادى صغير لاعتراف الامة المصرية بما نلت من سبق الفضل ، فى ميدان من ميادين الحياة الجديدة .

وظل الرجل وراء الصعاب يذللها الواحدة تلو الاخرى ، حتى صدر المرسوم الملكى بانشاء شركة مصر للطيران فى ٧ مايو سنة ١٩٣٢ ، فكانت أول شركة من نوعها فى الشرق الأوسط .

ومع هذا الجهد الشاق الذى يبذله ، والذى يرهق الشاب القوى ، نراه يلبى دعوة الى حفلة تكريم فى مدينة الزقازيق فى يوم ٨ يونيو سنة ١٩٣٠ تكريما لرجل اشتهر باسرافه فى البر والاحسان ، هو عبد اللطيف حسنين وهبه بك ، ولهذا كرمه أهلها ، ودعوا طلعت حرب باعتباره شرقاويا مثله ، فلبى الدعوة وهو لا يعرف الرجل ، ولكنـه محب للخير ولفاعليه ، فوجب عليه — فى رأيه — أن يسهم فى تكريمهم . قال فى تلك الحفلة :

— « ليس أحب الى نفسى من أن أتكلم فى هذا المقـام ، لان حضرة عبد اللطيف بك حسنين وهبه ، الذى لم أتشرف بمعرفته الى اليوم ، شخصية من شخصيات البر والاحسان ، النادرة المثال فى هذا الزمان . فهو يعمل بغير اعلان عما يفعل ، اى انه يفعل للخير فى ذاته ، لا ليزهى بأحاديث الناس فى أعماله ، ثم هو يعمل فى دائرة متنوعة من أعمال البر : فهو قد أنشأ مدرستين ، وانشأ دارا للطفل والأمومة ، ودارا للاسعاف ، وملجأ لليتامى ، وملجأ لليتيمات . ووقف شيئا من اطيانه وعماراته للانفاق منها بصفة دائمة على مؤسساته الخيرية هذه ، مما يدل على أنه رجل حكيم رقيق الشعور . فهو حكيم بما أنشأ من مدارس للتعليم مقدرا نفعها فى هذه الحياة ، وبما وقف لها من أعيان تأمينا لمستقبلها . وهو رقيق الشعور لأنه راعى أولى الضعف بالرعاية ، من الطفل الى الأم الى اليتيم واليتيمة . فبارك الله فى رجل يجمع بين حصافة العقل ورقة الشعور .. ولقد كان اعجابنا به بناء على نبذة كتبت عنه فى صحيفة من صحفنا السيارة منذ ثلاث أو أربع سنين ، فساقنى اعجابى به الى ارسال كتاب اليه اثنى فيـه على عمله ومجهوده ، فرد ردا جميلا ، وبذلك تعارفنا عن بعد » .

وهكذا يقدر الرجال الرجال

***

وفى افتتـاح شركة مصر لغزل ونسج القطن بالمحلة الكبرى — أعظم شركات البنك وأكبرها من نوعها فى الشرق الأوسط — فى ٢٣ مارس سنة ١٩٣١ ، فى حفل لم تشهد المؤسسات الصناعية ، بل والبلاد ، له مثيلا ، بحضور الملك فؤاد — رحمه الله — خطب بين يديه فقال :

— « قديما كان لجدكم الاعلى ، القدح المعلى فى احيـاء الصنـاعات الأهلية ، ومن ضمنها الصناعات النسجيـة ، حتى كانت وسط النسج موزعة فى بلاد عديدة ، وكانت المحلة الكبرى من أهم هذه الأوساط ، ثم استمر المغفور له والدكم حريصا على احيـاء ما اندرس من صناعات ،

وتأييد ما بقى منها ، بدليل اشتراك مصر فى عهده فى المعارض الدولية ، وعرضها فيها المنسوجات المصرية ، ومنها منسوجات المحلة الكبرى بالذات

« ومما يزيد سرورنا أن جلالتكم تفتتحون اليوم مصنعا دار للتجربة منذ بضعة أسابيع ، فدلت تجارب العمل فيه على نجاح الغزل فى الجو المصرى ، وان لا خوف مطلقا من فشله ، وعلى نجاح النسج مما تدل عليه منسوجات الشركة ، واقبال الناس وتهافتهم عليها فى الحال لجودة صنعها ، مما جعل الشركة تفكر فى تكبير المصنع لمضاعفة الانتاج

« .. والآن نتقدم الى جلالتكم ، راجين باسم الله الرحمن الرحيم ، وباسم جلالة مليكنا المعظم ، أن تتنازلوا بافتتاح المصنع رسميا ، وأن تتفضلوا فتشرفونا بزيارته ، وزيارة شقيقه الصغير ، مصنع القطن الطبى »

وافتتح الملك المصنع وشقيقه الصغير ، وطاف باقسام كل منهما . فلما انتهت الزيارة اعرب عن اعجابه بما راى وشاهد ، وهنا طلعت حرب بك بنجاحه المطرد فى خدمة الأمة ، بانشاء المصانع ، وتنفيذ المشروعات المفيدة للوطن ، ثم قال له وهو يصافحه :

— « أنا ممتن يا طلعت باشا »

ثم صافحه مرة أخرى وقال له : « أنا متشكر كثير . مبروك يا طلعت باشا »

فكان هذا النطق الملكى ، بمثابة انعام عليه برتبة الباشوية

***

كان طلعت حرب اول من نبه الحكومة الى انشاء بنك صناعى يكون عونا لأصحاب الصناعات ، فيقرضهم حتى لا يتوقف دولاب أعمالهم

كانت الحكومة تودع مليونا أو يزيد قليلا من الجنيهات ، بنك مصر (١) ، ينفق منها على هذه القروض التى يتقدم بطلباتها اليه أربابه الصناعات ، فيقدمها اليهم بعد دراسة طلباتهم وتمحيصها ، على ان لا يتجاوز الحد الأقصى للسلفة الف جنيه يسدد على خمس سنوات بفائدة قدرها ٦٪ . ولكن طلعت راى أن هذه طريقة عرجاء ، وأولى بالصناعات

---

(١) كان أول مبلغ قررت وزارة المالية ايداعه بنك مصر ليقرض منه للصناعات الصغيرة مائة الف جنيه فى منتصف عام ١٩٢٢

ودعمها وترقيتها والأخذ بيدها ، أن يكون لها بنك مستقل . ففي تقرير منه الى وزير المالية فى عام ١٩٢٩ ، قال :

ـ « اذا كانت رؤوس الأموال التى تحتاج اليها الصناعات من أهم أسباب وجودها وحياتها ، فان تدبير الأموال اللازمة لها ، أول عمل من أعمال التنظيم القومى لاحياء الصناعات الأهلية ، واسنادها للبقاء والنجاح .. لهذا فان مصر حين تضع لها برنامجا اقتصاديا قوميا ، وحين تحدد البرنامج الصناعى داخل هذا البرنامج ، وحين تعمل على تنفيذ برنامجها الصناعى ، أو برنامجها الاقتصادى العام ، ينبغى الا تعتمد الا على قواها الذاتية ، اى على قوى أبنائها المصريين

« ولهذا فان وجود البنك الصناعى المصرى ، امر واجب لتحقيق اى برنامج قومى صناعى . والبنك الصناعى المصرى شريان يجب أن تجرى فيه الأموال ، حتى يوزعها باقتداره الفنى على الحاجات الصناعية بقدر وحساب »

ومما أذكره فى هذا الصدد ، ان المرحوم محمد السيد يسن ، منشىء صناعة الزجاج فى مصر وفى الشرق الأوسط كله ، ومنشى صناعة الأوتوبيسات وغيرها من الصناعات القومية ـ وكنت أثيرا عنده ويخصنى بقدر كبير من تقديره واعزازه ـ قال لى فى معرض حديث عن طلعت حرب ونفاذ بصيرته وشجاعته وقوته : انه لما ذهب الى البنك يطلب قرضا قدره ثمانون الف جنيه لانشاء مصنع للزجاج ، رأى قلم قضايا البنك أن الطالب ـ اى محمد السيد يسن ـ لم يقدم الضمانات الكافية لهذا القرض الكبير الضخم ، ولهذا رفض الطلب . وعلم طلعت بالأمر ، فاشبع المسؤولين عن الرفض لوما وتقريعا ، وأبان لهم عما صنع محمد السيد يسن من خدمات جلى لأمته ، وأمر باعطائه القرض بلا ضمان .. قال محمد يسن : وكان طلعت باشا يزورنى فى المصنع كل كام يوم ليطمئن الى سير العمل ، والى أننى كنت عند حسن ظنه ..

وفى مادبة العشاء التى أقيمت على الباخرة « النيل » فى يوم ١٥ يونيو سنة ١٩٣٤ ، وقد جمعت بين مصريين وأجانب ، بمناسبة ابحارها فى أول رحلة لها الى أوربا ، قال يخاطب المصريين :

ـ « هذا اليوم يوم عيد ، اتيح فيه لعلم مصر الخفاق ، أن يرفرف لأول مرة على « النيل » فوق البحار

« بالأمس ، سيرت الشركة ــ شركة مصر للملاحة البحرية وقد انشأها البنك ــ الباخرة « زمزم » لنقل الحجاج الى بيت الله الحرام ، وتسهيل الراحة لهم ، فأرضت الدين . واليوم تسير « النيل » لنقل حضراتكم الى ربوع أوربا ، فتصيبون من ديناها ما ترجون من عافية ونضرة النعيم ، وترضى الشركة بذلك الدنيا ، كما أرضت الدين

« وانا لنرجوكم اذا وقعت اعينكم على اى قصور أو تقصير فى الخدمة ، أن تذكروا انها أول رحلة ، واننا حديثون فى الصنعة ، ولكل بداية صعوبتها . كما نرجوكم أن تدلونا على كل ما تلاحظون ، حتى نصلح الخطأ ونقوم المعوج »

وفى يوم ٧ فبراير سنة ١٩٣٥ ، احتفل بتسيير الباخرة « كوثر » شقيقة « زمزم » الى جدة لنقل الحجاج ، وحضر الاحتفال الأمير عمر طوسون رحمه الله ، وتحدث طلعت باشا فقال :

ــ « كنا قد جهزنا « زمزم » بمسجد للصلاة ، واخترنا لها عالما يحاضر الحجاج فى أمور الدين وخاصة مناسك الحج ، كذلك فعلنا فى هذه الباخرة « كوثر » وزودناها بما اتسع له الجهد من أسباب الراحة والأمان .. سيجد الحجاج على كلتا الباخرتين مكتبا لبنك مصر لتبديل العملة المصرية، بالذهب أو بالريالات السعودية ، بما هو أرجح دائما لمصلحتهم . كما سيجدون أيضا فى كل باخرة محلا لبيع الاحرامات والبشاكير من صنع شركة مصر للغزل والنسج بأثمان معتدلة . كذلك وفقنا الله الى أعمال أخرى فى جدة ومكة المكرمة والمدينة المنورة ، قصدنا بها مصلحة الحجاج وأمانهم واطمئنانهم ورضاهم »

حتى اذا حل يوم ٧ مايو سنة ١٩٣٥ ، احتفل البنك بانقضاء خمسة عشر عاما على تأسيسه ، احتفالا كبيرا فى فندق الكونتننتال ، وشاركه احتفاله جميع الهيئات والمؤسسات . وكان خطيب الحفل رجل البنك ــ وهل هناك غيره ؟ ــ فقدم حسابا مفصلا عن أعمال البنك فى هذه المدة مبينا ما أنشأ من شركات ، وما أقام من مصانع ، وكيف نفذ البرنامج الذى اختطه لنفسه منذ انشائه ولم يحد عنه . وقال :

ــ « ان أمتنا التى عملت قديما للخلود ، وكتب لها البقاء فى سجل الأبد ، وتاريخ الانسانية طفل وليد .. أمتنا هذه ، ليس كثيرا عليها أن تحتفظ على مر الدهور وتعاقب العصور ، هذا البنك الذى ولد ودرج

وشب ، فى حجر نهضتها المباركة ، لتحتفل بأعياده المختلفة عيدا بعد عيد ، وليكون ابد الحياة مثابة للناس وأمنا ، يوالونه بالعطف والرعاية والاقبال والتأييد ، ويواليهم دائما بالخدمة الصادقة ، والنصيحة الخالصة ، ما استطاع الى ذلك سبيلا .. ان بنك مصر يحتل المكان الأول بين البنوك التى ترد باسمها الاقطان فى الاسكندرية . كما أصبح ، بعد البنك الأهلى المصرى ، بالنسبة لمقدار الودائع والأمانات .. لقد بلغ عدد مساهميه فى ٣١ ديسمبر سنة ١٩٣٤ ، ٩٣٥٦ مساهما بعد أن كان ١٢٦ مساهما فى السنة الأولى . وبلغت قيمة الأرباح التى وزعت للمساهمين فى مدى الخمسة عشر عاما ، ٨١٤ر٩١٦ جنيها . خص السهم الواحد اربعة جنيهات و ٤٣٠ مليما ، اى بنسبة ١١٠٪ من قيمة السهم الاسمية ، وهى اربعة جنيهات .. لقد بدأ بنك مصر بعشرين موظفا فى سنة ١٩٢٠ ، واصبحوا ٦١٦ فى نهاية سنة ١٩٣٤ . وبلغ عدد الموظفين والعمال لشركات مصر فى نهاية سنة ١٩٣٤ ، ١١٥٠ موظفا و ١٦٠٠٠ عامل .

« لكم ان تسموا بنك مصر « اعجوبة مصر » ..

وخطب فى الاحتفال احمد عبد الوهاب باشا وزير المالية ، فقال :

ـ « لو ان بنك مصر كان معهدا ماليا كسائر المعاهد التى تجعل لمصلحة المساهمين المادية الاعتبار الأول فى كل تصرفاتها ، وتعنى قبل كل شىء بما يدخل جيوب أولئك المساهمين من أرباح سنوية ، لما وجد وزير المالية دافعا كافيا لمشاطرة المبتهجين بهذا العيد أفراحهم . أما وبنك مصر مؤسسة قومية لم تقف جهودها عند حد كسب الربح للمشتركين ، بل جمعت بين المصلحة الخاصة للمساهمين ـ وهم عدد وفير من مختلف طبقات الشعب ـ وبين المصلحة العامة ممثلة فى متشعب نواحى النشاط الاقتصادى ، فانى أشعر بارتياح خاص اذ اشترك معكم فى تقدير النتائج الاقتصادية الجلى التى أسفرت عنها جهود بنك مصر ومؤسسات بنك مصر ، مما كان له أفضل الأثر فى نهضتنا الحديثة »

ومضى عبد الوهاب باشا ـ وكان من رجال الاقتصاد المصرى المعدودين ، وشغل منصب أول مراقب لحسابات البنك عقب انشائه ـ فنوه بقومية البنك : « فهو لا يفرق بين حزب وحزب ، ولا بين طائفة وطائفة .. وكان له فضل بقاء كثير من الأسر الكريمة محتفظة بأرضها وعقارها ابان الأزمة الطاحنة التى تعرضت لها البلاد ، فلولاه للقيت كثيرا من الذل والحاجة ، دون أن يطلب عونا من الحكومة ، ولو طلبه لأجيب لوقته »

لم نوه بما أسداه الى الوطن من مساهمة فى حل مشـــكلة المتعلمين العاطلين ، فقد استوعب منهم الوفا كثيرة فى عديد من مشروعاته

وختم عبد الوهاب باشا كلمته بقوله : « .. ولكن عندى أن أعظم هذه الاعمال بركة وأبعدها على الزمان أثرا ، انما هو فيما ضربه البنك للناس من مثل ، وما نصبه أمام أعينهم من قدوة : ان مجـرد قيام هذا البنك ، ومضيه فى طريق النجاح خمسة عشر عاما ، حجة ملموسة تعزز ايمان المصرى بقدرته ، وتبدد ما كان يساوره من الشك فى كفايته . فلو لم يكن لجماعة بنك مصر من الفضل على مواطنيهم غير هذا ، فحسبهم به وكفى »

ووقف المنافس الأكبر لبنـــك مصر ، السر ادوارد كوك ـ الانجليزى الجنسية ـ محافظ البنك الأهلى ، فشهد شهادة حق وصدق ، لم يسعه الا اعلانها أمام ذلك الحشد الذى ضم خيرة رجال مصر وأعلامها . قال :

ـ« أنتم تعلمون خيرا منى ما كانت عليه الأحوال هنا منذ خمسة عشر عاما ، فيما يتعلق باشتراك المصريين فى أعمال البنوك وأعمال الصناعة ، وما هى عليه اليوم . فالفرق بين الاثنين ، هو العمل الذى اجتمعنا اليوم للاشادة بتمجيده . ولكن ليس هذا كل شىء . ففى بعض الأحيان يقسم الرجال الى فريقين : أحدهما من أصحاب الاحلام والملهمين والأنبيـاء ، والثانى من الرجال العمليين . ويندر جدا أن تتألف مجمـوعة من هذين الصنفين معا . ولكن لدينا مثل هذه المجموعة هنا ، فى شخص طلعت حرب باشا الذى بث فى عقول الشباب المصرى روح احترام النفس

« لقد شق طلعت حر بباشا طريقا جديدا ، وبهذا تسنى له القيام لبلاده بخدمات عديدة لم يوفق اليها كثيرون . ان المؤسسة التى أمثلها عليها واجبـات وتبعات ، من نوع يختلف بعض الاختلاف ، ولكن فى وسعى ان أؤكد لولاة الأمور فى بنـك مصر وشركاته ، حسن نيتنا ، بل وصـدق رغبتنا القلبية فى التعاون معه ، كل فى دائرته ، للعمل فى زيادة تقدم البلاد ورفاهيتها » .

وسيجىء فى صفحات قادمة ما يثبت سوء نيته ، وصدق رغبته القلبية فى القضاء على بنك مصر ، وعلى طلعت حرب منشئه

نعود الى الاحتفال العظيم

بعد السر ادوارد كوك ، وقف هنرى نوس بك رئيس اتحاد الصناعات فقال : « ان بنك مصر جدير بالتكريم والثناء اللذين نوجههما اليه اليوم . فقد رسم الطريق لهذه النهضة ، وحقق الآمال المعلقة عليه ، فكان عمله

مكللا بالنجاح .. فنحن اذن نتنى من صميم القلوب مستقبلا حسنا . وانى باسم اتحاد الصناعات المصرى ، اشرب نخب الممثل العظيم لهذه النهضة ، حضرة صاحب السعادة محمد طلعت حرب باشا » .

واقترح عبد المجيد الرمالى ـ رحمه الله ـ عميد التجار المصريين ، أن تقوم الأمة بواجبها ، « وما واجبها الا اقامة تمثال لزعيم النهضة الاقتصادية ، يشهد بفضله ، وينطق بعمله ، ويبعث فى نفوس الأمة ، جيلا بعد جيل ، حب العمل لخير الوطن واسعاده » .

واقترح كذلك أن يكون فى كل متجر تاجر ، صورة لهذا الزعيم العظيم « الذى جعله الله هدى للمصريين ، ونورا وطنيا ملأ البلاد ثقة ويقينا ، ورسولا اتخذ له الوطنية العملية دينا ، وداعيا مصلحا تواصى بالحق وتواصى بالصبر ، فنصره الله نصرا مبينا » .

انما أتيت بهذه الفقرات من كلمات هؤلاء الخطباء ، الذين كان لكل منهم وزنه بين قبيله وعشيرته ، لأدلك : كيف كان كبار القوم ينظرون الى هذا الرجل الفريد فى نوعه ، النادر بين الرجال المخلصين .

فلما طلبت اليه مجلة « المصور » فى عددها الصادر فى ١٧ مايو سنة ١٩٣٥ ، ان يعبر لها عن تأثير هذه الحفلات فى القاهرة وفى الأسكندرية وفى غيرهما من المدن ، بانقضاء الخمسة عشر عاما على تأسيس البنك ، قال لمندوبها :

ـ « لقد قلنا كثيرا ، بل نكاد أن نكون قد قلنا كل شىء . واذا بقى لدينا ما نقوله ، فهو الشكر .. شكر الأمة كلها حكومة وشعبا ، أفرادا وجماعات ، وضيوفا كراما على مصر الخالدة . نشكر هؤلاء جميعا على ما أبدوه من مظاهر الفرح العميق ، ومباهج البشر العظيم ، بمناسبة مرور خمسة عشر عاما على تأسيس بنك مصر .

« وانه لشكر صادق تهتز به أعماق قلوبنا فى تأثر عميق . وانا نسأل الله العلى القدير ، أن يولى بنك مصر السداد والتوفيق ، ليحقق مع شركاته كل ما يستطيعه من آمال المواطنين .. ونرجو فوق هذا أن يرعى الله بتوفيقه جميع المصريين » .

***

ذهب اليه المرحوم الأستاذ محمود أبو الفتح مندوب جريدة «الاهرام» فى ذلك الأوان ، وصاحب جريدة « المصرى » من عام ١٩٣٦ ، عام انشائها ،

الى عام ١٩٥٤ ، عام مصادرتها وقتلها ، ليحدثه فى خير الوسائل لتنمية الصناعات المصرية ، فكان أهم ما قاله :

ـ « من أساليب ترويج المصنوعات المصرية ، وضع تعريفة جمركية بكيفية حامية لجميع الصناعات الأهلية ، وبكيفية مانعة استيراد أى صنف من الأصناف ، عندما تكون صناعة معينة من الصناعات قادرة على انتاج جميع مقطوعية البلاد من مصنوعاتها » الاهرام فى مارس سنة ١٩٣١ .

وهذا ما لجأ اليه طلعت حرب عندما غزت اليابان السوق المصرية بمنسوجاتها ، بأسعار رخيصة قللت من رواج منسوجات شركه مصر للغزل والنسيج ، مع أنها اجود من اليابانية . فارسل الى وزير الماليه ـ وكان المرحوم اسماعيل صدقى باشا الى جانب رياسته الوزاره ـ الأستاذ احمد نجيب سكرتير بنك التسليف الزراعى ومن أصدقاء البنك ومن خلصاء صدقى باشا ايضا ، ليبلغه رسالة منه تتضمن استنجاد الحكومه ، فان انتاج مصانع المحلة فى حاجة الى انقاذ ، بعدما غمر الانتاج اليابانى السوق بأسعار رخيصة .

فسأله صدقى باشا : وماذا تريدون ؟

قال أحمد نجيب : حماية جمركية .

كانت زيارة رسول البنك لوزير المالية فى المساء ، ففى الليلة نفسها دعا الوزير خبراء وزارته المختصين ، ودرسوا الموضوع ، واتفقوا على رفع الرسوم الجمركية على المنسوجات اليابانية . وبقى الاتفاق سرا ، الى الصباح ، فأصدر به الوزير قراره وابلغه فى الحال الى مصلحة الجمارك ، وذلك حتى لا يفيد منه مستغل .

فارسل اليه طلعت حرب يشكره ، ويعرض عليه ـ كرد للجميل ـ أن يكون عضوا فى مجلس ادارة الشركة ، فاعتذر لأنه عضو فى مجلس ادارة شركة منافسة هى شركة الغزل الأهلية . فعرض عليه أن يكون عضوا فى مجلس ادارة البنك ، فاعتذر لأنه عضو فى مجلس ادارة البنك الاهلى ، فالح عليه طلعت فى طلب اى خدمة يؤديها له ، فقال صدقى :

ـ اذا كان لا بد منها ، فوظف لىَ ، ابراهيم سيد أحمد ، من أقرباء صدقى باشا ، فى الوظيفة التى تراها مناسبة له .

فعينه طلعت ، مديرا لشركة مصر للسياحة ، فلم ينجح ، فعزله ، وأرسل الى صدقى باشا ليرشح له غيره ، فرشح له زوج ابنته ابراهيم رشيد ، وكان شابا ذكيا طموحا ، رحمه الله .

ومع رفع الرسوم الجمركية المصرية على المنسوجات اليابانية ، ظلت تتدفق على الأسواق ، غير مبالية بهذا الاجراء الحاسم الجديد ، وأفضى المسيو « يواتيه » رئيس المعهد التجارى اليابانى بالقاهرة بحديث الى مندوب مجلة « روز اليوسف » فى ١٥ مارس سنة ١٩٣٥ ، قال فيه : « ان اليابان لا تنافس المصنوعات المصرية ولا الانجليزية ، **بل تعطى الفقراء حاجاتهم بأثمان رخيصة »**

فذهب المندوب الى طلعت باشا يسأله رأيه فى هذا . قال المندوب :

ـ « فقطب الباشا وجهه ، ولمعت مقلتاه ببريق الذكاء الخارق الذى لا يبرح محدثه يلمحه فى عينيه ، وفى وجهه المهيب ، وقال وهو يتميز من الغيظ :

ـ « ان فقراء المصريين الذين يتمسح بهم كل من لا يمت اليهم بسبب ، أو تربطهم به صلة نسب ، يستجيرون بالانسانية من هذا الادعاء

« ان الفقير المصرى ، هو عمود الأمة الفقرى ، وعنصرها الأهم . وقد حفزتنا الانسانية الصادقة والوطنية الصحيحة ، لحمايته والذود عنه ، لأن المصرى اولى برعاية أخيه المصرى . فاذا قال غير المصريين : نحن نعطى الفقراء حاجاتهم بأثمان رخيصة ، كان جوابنا على دعواهم : أرونا ماذا تقدمون للفقير ؟

« انتم تقدمون له القماش المصنوع من الخامات الواطئة الرديئة المنخفضة الثمن ، وتنسجونها بأيدى عمال مكدودين لا يتقاضون شيئا يمكن ان يعتبر اجرا ، حتى لقد قيل فى صدد وفرة اليد العاملة فى اليابان ورخصها ، ان الآباء يبيعون لأصحاب المصانع فلذات أكبادهم ، ليستخدموهم زمنا معلوما ، لقاء حبات من الارز لا تقيم الأود ولا تحفظ الرمق ، لهذا تخرج المصنوعات من غير ان تتكلف شيئا يذكر ، يستحق ان يحسب له حساب

« هذا فضلا عن أن حكومة اليابان ، لا تبرح تتعهد مصانع بلادها بمختلف أساليب المعونة ، كخفضها العملة الى ما دون ربع قيمتها الأصلية ، ومدها بالمساعدات المالية العظيمة ، التى لا تقتصر الغاية المقصودة من بذلها على مجرد تشجيع الصناعات الأهلية ، بل ترمى الى قتل الصناعات فى البلدان الأخرى

« أما مصانع الشركات المصرية ، فهى لسوء الحظ ، أو قل لحسنه ، محظور عليها استعباد الأولاد فى مصانعها ، وهى لا ترضى أن تستخدم غير

القطن المصرى فى منتجاتها . اما مساعدة الحكومة اياها ، فمقصورة على مجرد التشجيع ، وفى حدود ضيقة . ومع ذلك فان ثمن « المقطع » من البفتة اليابانية يبلغ فى السوق نحو ٤٥ قرشا ، بينما يزيد ثمن « المقطع » المصرى على ذلك قروشا معدودة ، وليست هذه الزيادة فى الثمن زيادة حقيقية ، اذا لاحظنا ان « المقطع » المصرى يتحمل ستة اضعاف ما يتحمله « المقطع » اليابانى ، بحيث يوفر « المقطع » الواحد على المستهلك ، شراء « مقاطع » اخرى من الصنف اليابانى

« وآية ذلك ما شاهده وزراء الدولة وعظماؤها بأعينهم يوم زيارتهم القريبة لمصانع شركة مصر للغزل والنسيج بالمحلة الكبرى ، من ان القماش اليابانى يبدأ بالتمزق اذا وصل احتماله الى درجة ٧٠ رطلا ، بينما لا يتمزق قماشنا المصرى الا بعد أن اتصل درجة احتماله ٤٢٠ رطلا . أى أن اليابان اذا قصدت حقا ان ترعى مصلحة الفقير المصرى ، كان لزاما عليها أن تعطيه ستة « مقاطع » من بفتتها ، بثمن ثوب واحد من بفتة المحلة ، ولكنها تتقاضى منه ٢٧٠ قرشا ثمنا لبضاعة نبيعها نحن له بخمسين قرشا أو بخمسة وخمسين قرشا . فأينا يرعى الفقير ويحرص على راحته واسعاده ؟

« ومن العجيب ان جناب مدير المعهد التجارى اليابانى ، يدفع بمغالطته هذه تحت ستار الوعظ والارشاد ، فيقول : على المصريين أن يعملوا على خفض أثمان بضائعهم بتقليل تكاليف انتاجها ، قبل ان يحاربوا المصنوعات اليابانية الرخيصة ، ويكلفوا الفلاح والعامل والطبقات الفقيرة ، ما لا طاقة لهم بانفاقه ، فى سبيل شراء ضرورات حياتهم ، مما قد يؤدى الى هبوط مستوى المعيشة بينهم

« فهذا الوعظ للمصريين ، والعطف على الطبقات الفقيرة ، كلام له خبىء ودهان على وبر ، لا يستحق أن يلتفت اليه .

« ان الضريبة الآن هى ١٢ قرشا على « المقطع » اليابانى ، وينبغى ان ترفع الى ٢٥ قرشا على الأقل . فاذا رفعت الى هذا الحد ، أمكننا أن نبيع « مقطعنا » بخمسة وخمسين قرشا او بستين قرشا ، ويكون الفرق بين ما سيباع به « المقطع » المصرى ، بعد رفع الرسوم الجمركية ، وما يباع به « المقطع » اليابانى الآن ، نحو ١٥ قرشا ، « يفرق » على الفلاح قرشين فى الجلابية ، وهو فرق لا يذكر ، يوفره عن طريق عدم احتياجه لشراء جلابية كل شهر ، ويقتصد بذلك مبلغا يذكر ، فتزيد قدرته الشرائية ، ويعوض الحكومة الفرق البسيط الذى ستخسره من نقص الوارد ،

من اليابان ، عن طريق اقباله على ركوب سكة الحديد ، وارساله الخطابات ، وغير ذلك من وسائل الايراد

« وليس يخيف مصر وعيد اليابان بالامتناع عن شراء قطنها العجيب المنقطع النظير . ونحن نرد على انذار مدير المعهد اليابانى ، بنفس العبارة التى قالها فى معرض الكلام عن تهديد الانجليز ايانا باستخدام قطن غير مصرى وهى : ان الانجليز لا يستطيعون بحال الاستغناء عن القطن المصرى ، الا اذا غيروا أدوات مصانعهم ، وهذا غير مستطاع . وليس للانجليز فضل فى استيراد قطنكم ، بدليل انهم اذا وجدوا قطنا يحل محله ، ما تأخروا لحظة فى استخدامه

« ونحن نسأل جنابه : هل لليابان فضل فى استيراد قطننا ؟ وهل تستمر على شرائه اذا وجدت قطنا فى مثل جودته بثمن أرخص من ثمنه ؟

« انما يشترى اليابانيون قطننا ، لأنه بثمن القطن الأميركى الردىء »

قال مندوب « روزاليوسف » : وهنا اعتدل الباشا فى جلسته ، وقال جادا غاية الجد :

ـ « ان فى عنق المصريين جميعــا لفرضا حتما يدعوهم دعوة الحق : أن هلموا افتحوا الطريق واسعا ممهدا معبدا لازدهار الصناعات المصرية ، بالاقبال على منتجات بلادكم ، لكى تصونوا ثروتكم . ان ابناءكم لن يجدوا دواء للعطلة الا فى دور الصناعة . ومصلحتنا الذاتية قبل عاطفتنا الوطنية ، تحتم علينا تشجيع الصناعات المصرية ، اذا كان لنا كيان نخشى عليه التلف ، ووطن نذود عنه صادقين ، ونجاهد فى سبيل مستقبله صادقين . ان علينا جميعا ، شبانا وشيبا ، ورجالا ونساء ، ان نرفع علم الوطن ، ونجعل مصلحة مصر أولا وقبل كل شىء ، وفوق كل اعتبار ، كما تفعل اليابان »

ارأيت الى الرجل كيف يدفع بحرارة عن مصنوعات وطنه ؟

لقد استجابت الحكومة الى ما رأى ، فرفعت الرسوم الجمركية على المنسوجات اليابانية ، وتألفت جمعيات وجماعات نادت الى نبذ كل ما هو غير مصرى من المنسوجات انجليزيا كان أو يابانيا ، ونجحت الدعوة ، وبارت هذه البضاعة الدخيلة الرديئة فى الأسواق

***

فى أواخر ابريل سنة ١٩٣١ ، ذهب اليه محــرر مجلة « الهلال » ليسأله عن سبب نجاحه ، ثم نشر فى عدد المجلة ، الذى صدر فى أول مايو ، ما دار بينهما ، فقال :

طلعت باشا : خير ان شاء الله

انا : جئت استطلع رأيكم فى أهم العوامل التى يعزى اليها نجاحكم فى الحياة ..

فلم يجب بكلمة ، وتناول قلما من الرصاص ، وكتب شيئا فى مذكرة أمامه ، فاخرجت من جيبى ورقة وقلما ، وتهيأت لتدوين ما عساه أن يدلى به الى

فقال : ماذا تهم أن تكتبه ؟

قلت : ما تتفضلون به على ..

فقال : اترك لى وقتا أفكر فيه . وانى اعدك بان اكتب جوابى بنفسى

فاستعجلته وقت تسلم رده ، فانظرنى الى أجل قريب
وها هو ما أوصانى أن أنشره على الملأ بحروفه :

ـ « هذا سؤال تصعب الاجابة عنه لرجل من رجال الأعمال ، منصرفة جميع قواه الى انجاح الأعمال التى يقوم بها ، فهو يعمل ليصل الى النجاح، دون أن يفكر فى سر النجاح . ويقوم بالواجب عليه صباح مساء ، ويتصرف فى الأمور التى تعرض عليه ، بما يعتقد انه فى صالح العمل الذى ينصرف اليه ، ومع هذا فانى أحاول ان انتزع نفسى من وسط مشاغلى ، واخرج الى التفكير فى الاجابة عن سؤالكم :

« أول ما يتبادر الى الذهن هو انكم تقصدون بسؤالكم نجاح بنك مصر

« وجوابا عنه أقول : ان معظم السر فى نجاح بنك مصر ، يرجع الى ان الدعوة الى تأسيسه ، لم تقم على فكرة المصلحة لشخص أو اشخاص معينين ، بل قامت على فكرة عامة ، تقضى بتأسيس بنك مصر ، بمساهمين مصريين ، وبرؤوس أموال مصرية ، وبادارة مصرية محضة

« فلو ان الدعوة الى تأسيس بنك مصر قامت لمصلحة أفراد معينين ، لاحتمل أن يقوم البنك ، ولكنه كان يقوم باعتبار انه بنك « شخصى » لهؤلاء الأفراد ، وكان يعيش ما عاش هؤلاء الأفراد متفقين . أما وبنك مصر قد تأسس على أن يساهم فيه المصريون بدون تمييز ، فقد عاش ويعيش بمشيئة الله تعالى وحراسته الصمدانية ، بنكا للجميع ، وبنكا قوميا بمعنى الكلمة ، بصرف النظر عن أشخاص القائمين بادارته أو المشتركين فى أسهمه، فان القائمين بادارته افراد اعمارهم محدودة بأعمار الفرد ، والمساهمون

مصريون ، قد يكونون مساهمين اليوم ، ثم يكون غيرهم مساهمين بدلهم ، في حياتهم أو بعد طول عمرهم ، ويبقى مع هذا بنك مصر عملا قوميا قائما لمصلحة البلد ، ولمصلحة المصريين أجمعين

« فالصفة القومية التى بنى عليها البنك ، لا الصفة الشخصية ، هى سر النجاح المطرد فى أعماله ، وسر تعلق المصريين ، وحرصهم عليه ، واقبالهم على معاملته وتأييده تمام التأييد

« ولهذا ، فانى أحب أن يفهم المصريون دائما ، ان بنك مصر عمل قومى صالح فى ذاته ، بصرف النظر عن أشخاص القائمين به ، وأن نجاح هذا العمل هو المقصود بالذات أيضا . فالأشخاص زائلون ، والعمل الصالح باق ما بقى فى الأمة شعور بالحياة وستلزماتها الانشائية والدفاعية .

« والله الذى وفق الجميع الى النجاح الذى بلغه البنك حتى الآن ، يزيدهم توفيقا لابلاغ هذا العمل القومى النافع أقصى درجات النجاح »

لقد دعى طلعت حرب الى الحجاز ، دعاه المغفور له الملك عبد العزيز بن سعود ، ليقترح ما يرى فى الاقتصاد السعودى . ويومها ادخل النور فى مدينة « منى » بدينامو ، عندما رآها غارقة فى الظلام ، وكانت لم تعرف الكهرباء بعد ، وأرسل بعثة من الخبراء ـ بعد عودته الى القاهرة ـ اقترحت انشاء مدبغة لجلود الذبائح التى تذهب هدرا يوم النحر ... وهذا ما يفكرون فيه الآن فى المملكة العربية السعودية .

ودعاه يسن الهاشمى باشا رئيس وزراء العراق لزيارة بغداد ، لدرس مشروع انشاء بنك وطنى عراقى ، فلم يجد الوقت مناسبا يومذاك لهذا الانشاء .

وقبل أن أمضى فى الحديث عن شخصه وما اشتهر به ، اسجل هنا بيانا بأسماء الشركات التى أنشأها ، قبل رحيله الى لقاء ربه :

- فى سنة ١٩٢٢ أسس شركة مطبعة مصر برأس مال قدره خمسة آلاف جنيه ، وزيد فأصبح خمسين ألفا ، بعد اثنين وعشرين شهرا من تأسيس البنك .
- فى سنة ١٩٢٤ أسس شركة مصر لحلج الأقطان برأس مال قدره ثلاثون ألف جنيه ، زيد فأصبح ٢٥٠ ألفا .
- فى سنة ١٩٢٥ أسس شركة مصر للنقل والملاحة برأس مال قدره أربعون ألف جنيه ، زيد فأصبح ١٥٠ ألفا .

- في سنة ١٩٢٥ أسس شركة مصر للتمثيل والسينما براس مال قدره خمسة عشر الف جنيه ، زيد فأصبح ٧٥ الفا .
- في سنة ١٩٢٦ عمل على تمصير الشركة العقارية المصرية لتنمية زراعة قصب السكر بصفة خاصة ، واقتضى هذا التمصير تعديلا في الأغراض التى تؤديها .
- في سنة ١٩٢٧ أسس شركة مصر لنسج الحرير براس مال قدره عشرة آلاف جنيه ، زيد فأصبح ٢٥٠ الفا .
- في سنة ١٩٢٧ أسس شركة مصر للغزل والنسج بالمحلة الكبرى براس مال قدره ثلثمائة الف جنيه ، زيد فأصبح مليونا ، عدا سندات أصدرتها الشركة على ثلاث دفعات تبلغ قيمتها مليونا آخر من الجنيهات تستهلك في كل عام .
- في سنة ١٩٢٧ أسس شركة مصر لمصايد الأسماك براس مال قدره عشرون الف جنيه ، زيد فأصبح ٧٥ الفا .
- في سنة ١٩٢٧ أسس شركة مصر للكتان براس مال قدره عشرة آلاف جنيه ، زيد الى ٤٥ الفا .
- في سنة ١٩٣٠ أسس شركة مصر لتصدير الأقطان براس مال قدره مائة وعشرون الف جنيه ، زيد فأصبح ١٦٠ الفا .
- في سنة ١٩٣٢ أسس شركة مصر للطيران براس مال قدره عشرون الف جنيه زيد الى ٨٠ الفا .
- في سنة ١٩٣٢ أسس شركة بيع المصنوعات المصرية براس مال قدره خمسة آلاف جنيه ، زيد فأصبح ٨٠ الفا .
- في سنة ١٩٣٤ أسس شركة مصر للتأمين براس مال قدره مائتا الف جنيه .
- في سنة ١٩٣٤ أسس شركة مصر للملاحة البحرية براس مال قدره مائة الف جنيه ، زيد فأصبح ٢٠٠ الف .
- في سنة ١٩٣٤ أسس شركة مصر للسياحة براس مال قدره سبعة آلاف جنيه .
- في سنة ١٩٣٤ أسس الشركة المصرية لدباغة وصناعة الجلود براس مال قدره خمسة آلاف جنيه ، زيد فأصبح ٥٠ الفا .

- في سنة ١٩٣٨ أسس شركة مصر للغزل والنسيج الرفيع بكفر الدوار براس مال قدره مائتان وخمسون ألف جنيه ، زيد فأصبح نصف مليون .
- في سنة ١٩٣٨ اسس شركة مصر للمناجم والمحاجر براس مال قدره اربعون الف جنيه .
- في سنة ١٩٣٨ أسس شركة مصر لصناعة وتجارة الزيوت برأس مال قدره ثلاثون ألف جنيه .

وقد كانت وسيلته في انشاء هذه الشركات العديدة التي اسسها في هذه المدة القصيرة – من ١٩٢٠ الى ١٩٣٨ – أن يقتطع من أرباح البنك السنوية جزءا محدودا يظهر في ميزانية كل عام تحت باب « مال مخصص لتأسيس او تنمية شركات مصرية صناعية وتجارية » يساهم به في رأس مال الشركة بمقدار يكفل له الاشراف على سياستها ، ويسهم المواطنون في الباقي . وقد ذكر هذا في تقريره السنوي الى الجمعية العمومية العادية للبنك في ديسمبر من عام ١٩٢٣ ، فقال : « ان البنك رأى درس ما يفكر فيه أو يقدم اليه من المشروعات النافعة ، وتأسيس شركات بما يستطيع القيام به منها ، بالاشتراك مع الغيورين من مواطنيه الذين يرضون أن يقرضوا بلادهم قرضا حسنا ، ولا يتعجلوا الثمرة ، وما يكتتب به البنك يؤخذ من أرباحه بتخصيص مال خاص لذلك يستقطع سنويا من أرباح كل سنة حسب نتيجتها . وهذا هو أحسن خدمة تقدم للبلاد ، حتى اذا نجحت هذه المشروعات – وهي بعون الله ناجحة – تقدم بها الى الجمهور ليبتاع سهومها»

ولعله من المفيد ان أسجل هنا انه ، رحمة الله ، حينما تحدث في خطبته في يوم الاحتفال بانقضاء خمسة عشر عاما على انشاء البنك ، أوضح لمستمعيه « الحلقات » التي ربطت هذه الشركات ببعضها بعضا فقال :

– « لعلكم لاحظتم ونحن نسرد لكم شركات مصر ، ان هذه الشركات تكون « حلقات » متصلا بعضها ببعض ، دون أن يكون تأسيسها اعتباطا

« فالمطبعة والمكتبة والشركة المصرية المساهمة لصناعة الورق – وفي النية انشاؤها – حلقة .

« وللقطن حلقة تتمثل في الحلج والنقل والتصدير والتأمين والغزل والنسيج ».

« ويتصل بحلقة القطن أيضا حلقات الحرير والكتان .

« ومن النقل تكونت حلقة بين النقل فى النهر ، والنقل فى البحر ،والنقل فى الجو ، كما اتصل بهذه الحلقة ، مسألة السياحة

« ومن اتصالنا بالبحر ، نشأت حلقة أخرى ، هى « حلقة السمك » ، وما خرج منها من صناعة ازرار الصدف

« ثم الحلقة التى تربط جميع الحلقات ، وتديع عنها كل ما تم اذاعته ، ونعنى بها حلقة السينما والدعاية بها .

« ثم ان لهذه الشركات التى مر ذكرها ، منتجات طيبة ، يصح ، بل يجب ان تكون فى متناول جميع المصريين وغيرهم ، ففكر بعض كبار المصريين فى ذلك ، واتفقت كلمتهم على تأسيس شركة بيع المصنوعات المصرية .

« وقد نجحت هذه الشركة بفضله تعالى ، وتوالى انشاء فروعها بالأقاليم مما دل على أن منتجات مصر ، قد حظيت فى السوق بالاقبال الشديد » .

نعم ، ان بعض هذه الشركات قد تعثر وسقط فى الطريق ، ولكن الباقى منها ، مما تفخر به مصر وتباهى ، وفى مقدمتها شركة مصر للغزل والنسيج بالمحلة الكبرى ، وشركة مصر لنسج الحرير بكفر الدوار ، فان انتاجهما ينافس كثيرا من الانتاج الغربى ، كالسويسرى والفرنسى والايطالى واليابانى.

لقد كان بنك مصر هو الرائد الأول فى مصر فى مجال التصنيع بما انشأه من مصانع وشركات لصناعات شتى . وما أتمه فى خلال العشرين عاما الأولى من حياته ، يعد من المنجزات الاقتصادية القريبة من الخيـــال ، بل كان انشاء البنك نفسه خطوة عملية فى تمصير الجهـاز المصرفى الذى لم يتم الا بالقانون رقم ٢٢ الصادر فى ١٤ يناير سنة ١٩٥٧ ، وقد بدأ بمتصير البنك الأهلى .

ولقد أخذ بعضهم على طلعت حرب ، هذا الاكثار من الشركات، فرد عليهم بقوله :

ـ « قد يكون هناك بعض الذين يخشون هذه السرعة التى جرى عليها البنك فى تأسيس مشروعاته . ولكن أمثال هـؤلاء لا يلبثون أن يقتنعوا بان استمرار تطفل الأمة على موائد غيرها ، يعرض كرامتها للتجريح » .

فالرجل ، كان همه الأول ، أمته وعزها ومجـدها ، حتى تصبح دولة راقية تأخذ مكانها فى صف الدول الراقية الاخـرى ، غير ناظر الى مجـد شخصى ، أو ان يتحدث عنه الناس فى مجالسهم وعن مشروعاته .. أبدا ، لقـــد ظل السنوات الخمس الأولى يعمل لوجه الله ، لم يقبض راتبا ، وكان

معتزما السير فى طريقه الفريب هذا ، لولا أن المساهمين فى اجتماع جمعيتهم العمومية العادى لسنتهم السادسة ، ارغموه على أن يحدد لنفسه راتبا ، فنزل على رغبتهم ، وترك لمجلس الادارة تحديد هذا الراتب .

الرجل الذى ينزل لفلاحيه عن أرضه ، فيبيعها لهم بأقساط يسيرة حتى يشعروا بالأمان والطمأنينة ، وحتى يخلصوا فى فلاحة الارض لخيرهم ولخير أولادهم ، لا ينظر الى مجد شخصى ، انما هو ينظر الى الخير ، ذاكرا الله فى كل ما يعمل ويقدم عليه .

هذا الرجل الذى قرات سيرته الحافلة هذه فى الصفحات السابقة ، ألجأته الوزارة فى عام ١٩٣٩ التى التنازل عن عرش هذه المملكة التى اسسها وتعب فى تشييدها .. ففى ٢ سبتمبر من ذلك العام أعلنت الحرب العالمية الثانية، فتولى الناس الفزع والهلع ، وهرعوا الى البنوك ، ومنها بنك مصر ، يسحبون ودائعهم ومدخراتهم ، وهم فى حالة من الخوف لم يعودوا يذكرون معها الا أموالهم التى أودعوها هذه البنوك .

ولم يستطع بنك مصر ان يعيد الى بعضهم مدخراته ، لسبب هام ، كان حلقة من سلسلة مؤامرة ، استهدفت القضاء على طلعت حرب ، وعلى البنك معا ، ومع الأسف كانت وزارة المالية فى الحكومة القائمة يومئذاك شريكة فى هذه المؤامرة الاستعمارية . ذلك انها أوعزت الى صندوق توفير البريد الحكومى بسحب أمواله من البنك ، وان يركز سحبه على هذا البنك وحده ، دون البنوك الأخرى ، وله فيها أموال وودائع تزيد اضعافا مضاعفة على ما لدى بنك مصر . ثم سحبت الحكومة أيضا جميع ودائعها من البنك ، فوقف عاجزا امام هذا الحصار الذى ضيق عليه ، فشدد عليه الخناق . فلم يجد بدا من طلب الاقتراض من البنك الأهلى « المصرى » ، مقدما ضمانات للقرض تعد من أقوى ما يمكن تقديمه فى مثل هذه الحالة ، وفى مثل ذلك الآوان، وهو محفظته التى تضم سندات من الدين الموحد والممتاز ، وأوراقا مالية أخرى هامة، منها أوراق شركات البنك .. فرفض محافظ البنك الأهلى « المصرى» الانجليزى الجنسية ، طلب القرض بشدة وكبرياء ، وكان رفضه هذا ، عملا سلبيا غير مشرف ، مخالفا لابسط قواعد ومبادىء العرف المصرفى . ولم يستغرب هذا الرفض من الرجل ، فهو ينفذ سياسة استعمارية مسيطرة على سياسته المالية ، وهى سياسة سداها ولحمتها القضاء على كل عمل مصرى ناهض وناجح .

فما الذى يستغرب حقا ، فهو ان تقف الحكومة القائمة يومها ووزير ماليتها موقفا أنكى وأشد من موقف الرجل الانجليزى . فقد رفض الوزير وقف سحب ودائع وأموال صندوق توفير البريد ، أو ضمان الحكومة لودائع الأهلين ومدخراتهم لدى البنك .

لقد حمل الرجل العظيم نفسه وذهب الى وزير المالية حسين سرى باشا (١) فقال له :

ــ « اننا لا نرجو من الحكومة الا واحدا من ثلاثة أمور : اما ان تصدر بيانا ينشر فى الصحف بضمانها لودائع الناس لدى البنك ، أو أن تحمل البنك الاهلى على أن يقرضنا مقابل « المحفظة » كضمان للقرض ، أو أن تأمر بوقف سحب ودائع صندوق توفير البريد .

قال سرى باشا : بشرط واحد ..

فسأله طلعت باشا بلهفة : وما هو ؟

قال سرى باشا : أن تترك البنك ...

قال طلعت باشا على الفور : من الآن ، ما دام فى تركى حياة للبنك ، فلأذهب أنا ، وليعش البنك .

ثم قال سرى باشا بلهجة التقريع : مصانع المحلة الكبرى ، أى ضرورة ملحة ألجأت الى اقامتها ، وتنفق على تشييدها هذا المال الطائل ؟

فقال طلعت باشا متهكما وساخرا ومؤدبا : تندد الآن بمصانع المحلة ، وقد كنت تعمل مستشارا هندسيا لها بستمائة جنيه فى السنة ؟ لماذا قبلت العمل بها ما دامت فى نظرك قد قامت فى غير ضرورة ؟

ثم وقف وتهيأ للانصراف ، بعد أن زاد فى تقريع الوزير سرى باشا ، قائلا :

---

(١) ذكر الدكتور محمود متولى فى كتابه « الاصول التاريخية للراسمالية المصرية وتطورها » وفى الصفحة ٤٠ منه ان طلعت حرب ذهب الى وزير المالية عبد الحميد سليمان باشا . والصحيح ان وزيرها كان حسين سرى باشا ، لان وزارة على ماهر باشا التى كان سرى باشا وزيرا للمالية فيها ، ألفت فى ١٨ أغسطس سنة ١٩٣٨ واستقالت فى ٢٣ يونيو سنة ١٩٤٠ ، فخلفتها وزارة حسين صبرى باشا من ٢٧ يونيو سنة ١٩٤٠ الى ١٤ نوفمبر من السنة نفسها ، وفيها كان عبد الحميد سليمان باشا وزيرا للمالية .

ومقابلة طلعت حرب باشا لوزير المالية ، كانت فى سبتمبر سنة ١٩٣٩ ، اى حينما كان سرى باشا وزيرا لها فى وزارة على ماهر باشا

– يا حسين باشا ، أنت ما تزال صغيرا ، وعندما تتقدم بك السن ، وتكبر . وتكبر مصانع المحلة ، ستعرف قيمتها .

وادار ظهره لمحدثه السقيم ، وانصرف دون أن يجيبه .

« فلأذهب أنا وليعش البنك » ، كلام لا يقوله الا طلعت حرب ، فالبنك هو حياته ، وبحياته يحيا . هو قلبه الذى يعيش به ، ما دام ينبض ويسمع دقاته منتظمة لا اضطراب فيها ولا اختلال .. انه كل شىء فى دنياه ، هذا الصرح الذى شيده ، عز عليه أن يتهدم ، فقدم نفسه قربانا ليعيش ..

فما أعظم الرجل ! وما أعظم ما صنع !

كان هذا الحوار المؤسف ، قبل ظهر يوم ١٤ سبتمبر سنة ١٩٣٩ ، اى بعد أقل من اسبوعين من نشوب الحرب ، ذهب الرجل بعده الى مكتبه فى البنك ، ودعا أعضاء مجلس الادارة الى اجتماع « عاجل وهام » ، فهرع الاعضاء وهم لا يعلمون من الامر شيئا .. واذا بهم يفاجأون به يقدم اليهم استقالته ، بعد ما روى لهم ما جرى للبنك منذ بدء أزمة سحب المدخرات ، ثم محاولته انقاذ الموقف مع وزير المالية ، فذهبت المحاولة فى الهواء .. فحاولوا أن يثنوه عن عزمه ، فأبى .. وغادر قاعة الاجتماع ، وفى اعينهم دموع ناطقة بالحسرة والأسى ، على تنازل الملك عن عرشه هكذا ببساطة تامة ، مؤثرا حياة البنك على حياته .. ووصل الرجل الى داره ، راضيا عن نفسه وعما صنع .

كانت هناك فئة حاقدة على طلعت حرب لأسباب خاصة لم تبدها الا بعد رحيله ، اهمها انه كان يعمل دائما على كشف تلاعبها بأموال الشعب ، ومبادؤه فى جوهرها تتعارض – وبشدة – مع مبادىء السيطرة والاستغلال التى كانت هذه الفئة تسعى الى دعمها . هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى كان الاستعمار يحس بخطورة اتجاه بنك مصر نحو تصنيع البلاد ، وما يترتب على هذا من تحرير مصر اقتصاديا ، وازدياد قوتها فى الوقوف أمام رغباته وأهوائه ، ومن ناحية ثالثة كان هناك عملاء الانجليز من الحكومات التابعة للذين يستمدون وجودهم وسلطانهم من انطوائهم تحت جناح الاستعمار ، وقد كان هؤلاء يقومون بتنفيذ رغبات سادتهم الانجليز دون وازع من ضمير ، أو صحوة تدعوهم الى النظر بعين الاعتبار الى صالح الاقتصاد القومى (١)

---

(١) « التطور الاقتصادى فى مصر » للاستاذ محمد رشدى رئيس مجلس ادارة بنك مصر السابق رحمه الله – ج – ٢ – ص ٤٦ .

ولا انسى هنا ان أذكر أن المرحوم الأستاذ محمد رشـــدى حينما كان مديرا للبنك ، وقبل ان يراس مجلس ادارته ، فى سنة ١٩٤٩ ، القى محاضرة فى قاعه ايوارت التذكارية بدار الجامعة الأمريكية بالقاهرة ، عن بنك مصر ، كشف فيها عن السر الرهيب فى هذه الأزمة المفتعلة التى دبرت للبنك ولمنشئه ، فاذا به عمل وطنى جليل أراد طلعت حرب أن يقوم البنك به ، فتصــدى له البنك الاهلى ومحافظه الانجليزى ، بعون ــ مع الأسف الشديد ــ من الحاكم المصرى . اما ذلك العمل الوطنى الجليل الذى اراده ، فهو ان يتولى بنك مصر طبع أوراق النقد المصرى ، بدلا من البنك الاهلى المصرى اسما الانجليزى فعلا .

اعود الى رجلنا العظيم لاقول انه بعد اســتقالته ، بدأت التحقيقات فى سير اعمال البنك فى اثناء تولية ادارته ، فاذا به سجل مشرف له . وظلت التحقيقات الى أوائل عام ١٩٤١ ، اذ عرض موضوع دعم البنك على البرلمان بمجلسيه ــ الشيوخ والنواب ــ فى هيئة مؤتمر ، فعقد خمس جلســات سرية فى ٢٨ مايو و٢ و ٣ و ٤ و ٩ يونيو من العام نفسه . وبعــد مناقشات عقيمة ، صدر قانون الدعم ، وهو المعروف بقانون رقم ٤٠ لسنة ١٩٤١ ووضع مشروعه وزير المالية اذ ذاك المرحوم الدكتور عبد الحميد بدوى باشا ، وقد جاء فى مستهله :

« نحن فاروق الأول ملك مصر

« قرر مجلس الشــيوخ ومجلس النواب القانون الآتى نصه ، وقــد صدقنا عليه واصدرناه :

« المــادة الأولى : عملا على اداء كفالة الحكومة لاصحاب الودائع ببنك مصر ، تنفيذا لقــرار البرلمان فى ٢٨ مارس ســنة ١٩٤٠ ، وعلى تحقيــق الاغراض التى رسمها القرار المذكور ، يؤذن للحكومة أن تأخذ من الاحتيــاطى العام :

(ا) مبلغ ١٠١٫٦٦٤ر١ جنيها ، وواردا فى الاحتياطى المحبوس باسم « اموال مخصصة للسلف الصناعية وسلف الجمعيات التعاونية » ويخصص لالغاء البند الوارد بنفس الاسم وبنفس المبلغ فى خصوم بنك مصر ، وذلك فى حسابه الختامى عن السنة التى انتهت فى ٣١ ديسمبر سنة ١٩٤٠ .

(ب) سندات من دين مصر الموحد والممتاز قيمتها الحقيقية ١٫١٥٥٫٧٧٩ جنيها ، تحول لحساب توفير البريد ، لالغــاء مبلغ معادل من بند وارد فى

خصوم بنك مصر باسم « صندوق توفير البريد » ، وذلك فى حسابه الختامى عن السنة التى انتهت فى ٣١ ديسمبر سنة ١٩٤٠ .

« ويتولى البنك لحساب الحكومة ادارة بنود الرصيد التى كانت سببا فى الغاء ديونها ، وتقسم بين الحكومة والبنك ، المبالغ التى يتم تحصيلها من البنود المذكورة ، زيادة على التقدير الذى قدرت به فى الميزانية التى اعتمدت اساسا لهذه التسوية ، بقدر ثلاثة الارباع للحكومة ، والربع للبنك .

« المادة الثانية » علاوة على اعادة تنظيم بنك مصر وفقا لقرار ٢٨ مارس سنة ١٩٤٠ المتقدم ذكره ، تتخذ الاجراءات الآتى بيانها ، ويعدل طبقا لذلك نظام شركات بنك مصر ، وشركات مصر التابعة له :

١ ــ يظل رأس مال البنك بقيمته الأصلية ١٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه .

٢ ــ تنشأ الف حصة تأسيس لا تحدد لها قيمة ، وتسلم الى الحكومة على أن تكون ملكا خاصا لها ، مقابل تدخلها المالى لتعضيد البنك ، ويجوز بالاتفاق بين الحكومة والبنك ، أن تقسم الحصة الى عشرة أجزاء ، على الا تباع هذه الحصص الا للمصريين .

٣ ــ يعين مندوب للحكومة لدى البنك ، تكون اختصاصاته بوجه عام مراقبة تنفيذ أحكام هذا القانون ، والقرارات والترتيبات التى تتخذ تنفيذا له ولنظام البنك .

٤ ــ يعرض انتداب مجلس ادارة البنك لعضو أو اكثر من اعضائه للبت فى المسائل التى يعينها ، على مجلس الوزراء للتصديق عليه » .

ومن الشروط التى فرضتها الحكومة على البنك لعلاج أزمة ما كانت لتحدث لو انها لم تشترك مع الاستعمار فى احداثها :

١ ــ تصفية ما تجمع لدى البنك من اراض وعقارات .

٢ ــ عدم قيام البنك بمنشآت جديدة فى المستقبل ، وعدم التوسع فى المنشآت القائمة ، والعمل على ضم المتجانس منها بعضه الى بعض ، أو الى شركات اخرى من نوعها ، وتصفية مالا أمل فى نجاحه منها .

٣ ــ انتخاب خبراء محاسبين معروفين مصرح لهم بالاشتغال بالمحاسبة لمراجعة حسابات البنك وشركاته .

ومن العجيب والغريب معا ، أن يكون هؤلاء المحاسبون ، من الانجليز ، من موظفى البنك الأهلى ، وبرياسة محافظه السر ادوارد كوك ، عدو بنك مصر وعدو طلعت حرب من قبل . لقد وضعوا تقريرهم زاعمين فيه أن هناك ٦٢٥ر٥٢٨ جنيها خسائر محققة فى ميزانية البنك حتى نهاية سنة ١٩٤٠ ! واقترحت تكوين احتياطى يشمل هذه الخسارة ، وخسارة اخرى محتملة ، مقدارها ٣ر٥٦٥ر٩٥٦ جنيها ، هو المبلغ الباقى من الاحتياطى الذى اقترحوه وقدره ٤ر١٩١ر٤٨٤ جنيها .

انا لست بصدد نفى هذا الزعم المفترى على البنك ، وعلى ادارته فى عهد طلعت حرب ، لتشويهه وتلطيخ سمعته بالسوء ، ولا بصدد تسجيل ان البنك وزع ارباحا على المساهمين بعد سنتين من هذا الدعم ، ولابصدد تقرير ان بنك مصر كان هو البنك الوحيد فى العالم الذى بلغ احتياطيه فى عام ١٩٥٠ سنة أمثال رأس ماله ، كما جاء فى نشرة البنوك الرسمية العالمية الصادرة فى تلك السنة ، اى ستة ملايين جنيه ، فقد كان رأس ماله مليون جنيه ، فرفع البنك رأس ماله الى مليونين ، حتى لا يكون المفرد العلم فى هذه المزية الفريدة التى حققها وحده ، بفضل القواعد التى ارساها فى ادارته طلعت حرب ، لكنى مثبت هنا فقرات من محاضرة القاها الدكتور حافظ عفيفى باشا ، خليفة طلعت حرب فى ادارة البنك عقب صدور قانون الدعم ، فى ٢٤ يوليو سنة ١٩٤١ ، قال :

— ... لست اريد أن أطيل القول فى مدى الأثر الذى احدثه انشاء بنك مصر ومؤسساته فى البلاد ، فيكفى ان اشير باختصار الى الحقائق التالية :

١ — ان هذه المؤسسة قامت منذ انشائها بمهمة تعليمية كان لها شأن كبير فى حياة البلاد التجارية والمالية والاقتصادية ، اذ قد اتاحت الفرصة لآلاف الشبان المتعلمين ، وعشرات الألوف من العمال ، للتدريب بطريقة عملية ؛ على أعمال جديدة لم يألفوها من قبل

٢ — ان عدد موظفى البنك وشركاته يبلغ نحو ثلاثة آلاف موظف مصرى ، وأن عدد العمال فى هذه الشركات يبلغ اثنين وثلاثين الف عامل . وعلى ذلك تعول هذه المؤسسات أكثر من ٣٥ الفا يتناولون مرتبات سنوية تزيد على المليون من الجنيهات .

٣ — ان البنك قد ساعد مساعدة قيمة على تحسين ميزان مصر التجارى ، بما أسسه من منشئات صناعية ، تنتج مصنوعات كانت تستورد كلها من الخارج

٤ ـ ان مقدار ما يدفعه بنك مصر وشركاته الى الحكومة من الضرائب المباشرة وغير المباشرة ، ومن الرسوم الجمركية وغيرها ، لا تقل قيمته عن ٤٠٠ لف جنيه سنويا (١) .

هل كان حسين سرى باشا حينما نفخ أوداجه ، وطلب الى طلعت حرب أن يتنحى عن البنك كشرط لدعمه ، على صواب فيما دبر وفيما صنع ؟

الرد على هذا كامن فى خطاب القاه الدكتور حافظ عفيفى باشا أيضا فى ١٣ اغسطس سنة ١٩٤٤ ، فى مناسبة الاحتفال بذكرى مؤسس البنك ، فقد قال :

ـ « ان أشد الأسباب فيما أصاب البنك ، راجع الى اضطراب الحالة الدولية وقتئذ اضطرابا شديدا استمر مدة طويلة من الزمن ، وكان ينذر بوقوع حرب كبرى ، فتهافت الناس على سحب ودائعهم .. حتى قبل حصول الكارثة ـ بصورة هينة فى أول الأمر ، ولكنها انتهت بعنف شديد ، بسبب ما استولى على الناس من الهلع والجزع ، وتوقعهم وصول الحرب الى بلادهم ـ ولم يكن فى استطاعة طلعت حرب ولا غيره أن يدرأ مثل هذا الشر . على أن ما أصاب بنك مصر ، قد أصاب من قبل شركات كثيرة غيره ، **بل ان ما اصابه فى الواقع اقل بكثير مما حدث لمنشآت عديدة اخرى فى اوربا وامريكا ، نتيجة لمثل هذه الأزمات او لأخف منها . ومن الخير أن يعرف الجميع أن هذه الأزمة التى عاناها بنك مصر ، لم يكن مرجعها عيوبا أساسية تتصل بتكوينه او نظامه او بعدم خبرة القائمين بامره او بسير العمل فيه** ، وانما ترجع الى ما قدمنا من أزمة سياسية عالمية خطيرة ، والى عمليات كثيرة قام بها البنك لأصحاب الأملاك الزراعية تكبد فيها خسائر كبيرة ، نتيجة لقوانين التسويات العقارية المختلفة » .

فاذا عددنا الآثار السيئة والضارة التى أصابت اقتصاد مصر فى الصميم ، من جراء هذه الأزمة أو المؤامرة ، وجدناها بالغة الخطورة والأهمية ، فقد هدفت أولا الى زعزعة الثقة فى شخص طلعت حرب ، ثم فى الصرح الاقتصادى الكبير الذى أنشأه ، باعتباره مركز الثقل فى الاقتصاد القومى ... هذا الى أثر خطير جدا ، هو عرقلة أى نمو صناعى ، والقضاء على أهداف البنك فى المشاركة فى تصنيع مصر ، فان البنك لم يقم بأى مشروع صناعى حتى عام ١٩٥٢ ، باستثناء شركة مصر للحرير الصناعى التى

---

(١) المصدر السابق ـ ج ٢ ـ ص ٤٢

انشأها فى سنة ١٩٤٦ ، فى حين أننا نجد البنك قد أسس خمس شركات فى عام ١٩٣٨ وحـــده ، بل أسس فى أقل من عشرين عاما ، من الشركات ، ما كان يمكن أن يؤسس فى أقل من نصف قـرن من الزمان كمـا قلت من قبـــل .

اثر خطير أيضا ، هو تشتيت الأموال الطـائلة التى تجمعت لديه بعد الحرب العالمية الثانية وما تلاها من سنوات ، وقد كان ممكنا استغلالها فى التصنيع ، لو أن البنك كان حرا وماضيا فى سياسته التى كان ينتهجها فى استثمار مثل هذه الأموال . ولكنه كان ممنوعا ـ بامر الحكومة كما قرات فى صفحة سابقة ـ من القيام بمشروعات من اى نوع كان .. اخيرا ، ذلك الفراغ الكبير الذى خلقته قيود الحكومة على استثمارات بنك مصر ، فاستطاع حفنة من الانتهازيين والمتمصرين ، الدخول فى ميدان الأعمال الاقتصـادية ، غير ناظرين الا لمصالحهم الخاصة ، دو ناهتمام بمصالح البلاد (١)

هذا الى أن ما ساهمت به الحكومة لدعم البنك وهو مبلغ ٢ر٠٧ر٤٤٣ جنيها ، لا يزيد على كونه ودائع لها فى ذمته ، او لصندوق توفير البريد الموجودة فعلا بجانب الخصوم . ومعنى هذا ان مساهمة الحكومة فى «الدعم» كانت عبارة عن « قيود حسابية » ـ فى عرف خبراء البنوك ـ أى أن البنك نتيجة لقانون الدعم ، لم يتلق أية أموال سائلة جديدة أضيفت الى موارده

اما وقد عرفت الحكومة التى ائتمرت مع البنك الأهلى على طلعت حرب وعلى بنك مصر ، فوجب على أن اذكر لك لمحة فى أسطر عن هذا البنك الذى ظل مسيطرا على اقتصاد البلاد نحو ستين عاما .

* * *

انه انشىء بأمر عال فى ٢٥ يونيو سنة ١٨٩٨ ، وبالرغم من انه اعتبر « شركة مساهمة مصرية » ، الا انه كان ذا صبغة انجليزية ، فنظامه الأساسى منقول عن نظم البنوك الانجليزية ، ومجلس ادارته كله من الأجانب ومعظمهم من الانجليز ، والمحافظ ونائبه انجليزيان ، واللجنة التى تديره كان مقرها فى لندن !! حتى العقد الابتدائى للشركة ليس فيه اسم عربى واحد ! وقد خول لنفسه عملية اصدار البنكنوت ، اذ أرسل مجلس ادارته الى «نظارة» المالية فى ٢٠ مارس سنة ١٨٩٩ كتابا طلب فيه منها اذاعة منشور دورى على عواصم المديريات ـ المحافظات الآن ـ « يصرح فيه لصيارفة الحكومةبقبول

---

(١) المصدر السابق ـ ص ٤٦ ـ ج ٢

أوراق البنك الأهلى المصرى لأداء الأموال الأميريه » ووافقت النظارة على الطلب ، ونفذت المنشور ، وبهذا أصبح فعلا هو « بنك الاصدار » فى مصر

وكانت مهمته توجيه الاقتصاد القومى وفق مشيئة بريطانيا . وفى يقينى أن هذا التوجيه الاستعمارى ، كان الحافز الأول الى التفكير فى انشاء بنك وطنى ، يصلح ما أفسده البنك الأهلى ، وغيره من البنوك من اقتصاديات البلاد

وقد كان للحكومة فى مجلس الادارة مندوبان ، رأيهما استشارى ، لا قيمة له ، ولا يؤخذ به ، مهما كان نافعا صالحا

وعندما عين الدكتور عبد المنعم القيسونى مديرا مساعدا للبنك فى سنة ١٩٥٠ ، — هو الآن نائب رئيس الوزراء للشئون الاقتصادية — رأى أن التقليد الذى جرت عليه ادارة البنك فى اتصاله بالحكومة ، هو أن يحرر خطاباته الى وزارة المالية بالانجليزية ، ويرفق مع الخطاب المرسل ترجمته بالعربية ، وهو تقليد غير كريم من بنك المفروض فيه أنه مصرى ، فيجب أن تكون اللغة التى يحرر بها خطاباته الى الحكومة لغة البلاد الرسمية ، فأصدر قرارا — رغم ادارة محافظ البنك الانجليزى السير ادوارد كوك — بأن تكون رسائل البنك الى الحكومة بالعربية ، وأن يكون توقيع المحافظ عليها بالعربية أيضا ، على أن ترفق ترجمة انجليزية لكل رسالة

لم يقنع الدكتور القيسونى بهذا الصواب الذى صنع ، بل اذن لموظفى البنك من المسلمين فى أن يتركوا أعمالهم ظهر أيام الجمع مدة يستطيعون معها أداء فريضة الجمعة ، فاذا أدوها عادوا الى أعمالهم فاستأنفوها الى موعد انصرافهم العادى

ولعل كثيرين لا يعلمون ان البنوك كانت فى الماضى تعطل عطلتها الاسبوعية ، كل يوم أحد

وظل القيسونى حريصا على تنفيذ هذين التقليدين طيلة عمله مديرا لهذا البنك،من عام ١٩٥٠ الى ابريل من عام ١٩٥٤،اذ اختير وزيرا للمالية، أما التقليد الأول ، وهو ان تكون خطابات البنك الى الحكومة باللغة العربية ، فقد استمر . أما التقليد الثانى ، فقد وقف تنفيذه لأن عطلة البنوك الاسبوعية اليوم ، فى يوم الجمعة

* * *

اننى ما زلت أذكر منظر الرجل العظيم محمد طلعت حرب باشا — وكنت فى زيارته بداره بالعباسية فى أخريات أيامه — وهو « متربع » فى جلسته ، على « شلتة » ملتفا بعباءته ، وقد اصفرت عيناه من أثر مرض اليرقان الذى هده ونال منه ، وقد أخذ يشرح لى وللآخرين من الزائرين ، موضوع توقف البنك عن الدفع فى أزمة تلك السنة المشؤومة ، سنة ١٩٣٩ ، ثم انحدرت دمعتان على خديه ، وقال بصوت يفيض ألما وأسى وأسفا وحسرة :

— ما كنت أظن أن انسانا فى مصر يتناولنى بكلام غير طيب ، بعد الذى صنعته لمصر وللشرق العربى كله

واغرورقت أعيننا بالدموع تأثرا بالرجل الذى أصبح مهيض الجناح ، وقد كان نسرا جبارا محلقا فى جميع الأجواء ، بل كانت تضيق به أجواز الفضاء

فما هو الكلام « غير الطيب » الذى نوه به ولم يفصح عنه ؟

علمت فيما بعد ، انه فى بعض الجلسات السرية التى عقدها البرلمان لبحث حالة البنك وادارته تمهيدا لاصدار قانون الدعم ، تناوب المتحدثون على المنبر ، وكان منهم ابراهيم عبد الهادى باشا — كان وزيرا فرئيسا للديوان الملكى فرئيسا للوزراء — فقال عنه انه « ستافسكى مصر » (١)

ولو ان أحدا غير ابراهيم عبد الهادى قالها لعذرته ، فانه ربيب البنك كما أعلم ويعلم جميع عارفيه ، فقد عين محاميا فيه اثر تخرجه فى « مدرسة الحقوق » وظل فى حضن البنك ، حتى آثر الاشتغال بالسياسة فتركه ، بعد ان أشرقت الدنيا فى وجهه ، فهل هو العقوق ؟

ما أظن ، فما عرفنا عن ابراهيم عبد الهادى عقوقا ، لكن وفاء ورعاية للذمة ، لهذا اعتبرها زلة لسان ، وهفوة مقال ، صدرت عنه فى نشوة خطابه الحماسى فى أعضاء البرلمان ، وهو يعد من خطباء مصر المعدودين ..

---

(١) ستافسكى هذا كان من رجال الاعمال الكبار المرموقين فى فرنسا ، اختلس عدة ملايين من الجنيهات من بنك بلدية مدينة « بايون » ، فلما انكشف امره ، انتحر فى شهر يناير سنة ١٩٣٤ . قد شغلت قضيته — قضية نصبه واحتياله — الرأى العام فى فرنسا فى ذلك العام ، وكاد الاختلاف بسببها يؤدى الى حرب أهلية بين أحزاب اليمين واحزاب اليسار ، ونشبت معارك بينها فى يومى ٦ و ١٢ من الشهر نفسه قتل فيها كثيرون من الفريقين

وستافسكى من مواليد سنة ١٨٨٦ فى مدينة « سوبودكا » فى روسيا ، اى انه من أصل روسى !!

وفى ٢١ أغسطس من عام ١٩٤١ ، أى بعد صدور قانون الدعم بأقل من شهر واحد ، قضى الرجل محسورا ، فلبى نداء ربه ، فى بلدة النعناعية القريبة من دمياط ، وحمل جثمانه الى القاهرة فدفن فى مقبرة بنيت له خاصة ، بعد ما بنى لمصر وأهلها هرما من الاقتصاد ، يفخر به ويباهى أحفاد الاحفاد ، كما فخر به وباهى الآباء والأجداد

***

كان رحمه الله يكره الكذب ويمقت الكذابين كما أشرت فى بداية هذا الفصل ، وكان معاونوه من الكبار فى البنك يعلمون عنه هذا ، ويخشون أن يقف على كذبة تورط فيها أحدهم ، فيلقى منه ما يسوؤه

فى مساء يوم سبت كان على موعد مع أحمد مدحت يكن باشا رئيس مجلس ادارة البنك ، فى مكتبه . وحل الموعد ولم يصل مدحت ، أخيرا وصل بعد نصف ساعة ، معتذرا بأنه مر فى طريقه بصديق قديم مريض ، فعاده

ان طلعت يعلم ان مدحت يهوى سباق الخيل ــ وهو يكره جميع أنواع الميسر والمراهنة ويكره من يهواها ــ ولا تفوته حلبة من حلباته ، فلم يهضم الكذبة ، وغادر مكتبه الى مكتب مجاور له ، ودعا اليه سائق سيارة مدحت ، وسأله : أين كنتم ؟

قال السائق : كنا فى السباق يا سعادة الباشا ..

وعاد الى مكتبه ، حيث كان مدحت جالسا مطمئنا ، فعاد يسأله :

ــ يا باشا ، أين كنتم ؟

قال مدحت بثقة : كما قلت لسعادتك ، زرت صديقا مريضا ، وسرقنى الوقت، فتأخرت عن الموعد

قال طلعت : ألم تذهب الى السباق ؟

قال مدحت مؤكدا : أبدا أبدا ..

قال طلعت : وما رأيك اذا كان سائق سيارتك قال لى انكم كنتم فى السباق ! ــ

قال مدحت بغيظ : انه كاذب ..

قال طلعت : اذن نفصله ..

ووافقه مدحت ، وفصـل الرجل المظلوم . وبعـد يومين عاد مدحت فاعترف لطلعت بأنه كان فى السباق ، فى خلال حديث بينهما دون أن يدرى ، فقال طلعت :

ــ اذن لقد فصل السائق ظلما . أعده الى عمله ، وليكن قرار أعادته بامضائك انت ، تكفيرا عن ظلمك له ، وامنحه مكافأة تعويضا عن فصله ..

هذه واحدة ..

وهناك حادثة اخرى كان لها ضجيج ودوى فى البنك وشركاته ، فقـد اختار لادارة مطبعة مصر ، ثم لاستديو مصر ، الطيار احمد سالم ــ والممثل بعد ذلك ــ وكان أثيرا جدا عنده ، بل كان الآمر الناهى فى هذه الدولة التى اسسها طلعت حرب ، لا معقب لحكمه ورأيه ، فى أى مؤسسة من مؤسساتها

رغب يوما فى أن يأكل « الطعمية » من مطعم رجل مشهور من زمان قديم فى حى الحسين اسمه « الحلوجى » ــ وكان يعشق الأكل « البلدى » ويؤثره على ما عداه ــ فأوصى احمد بأن يجيء له غدا ببعض من هذه « الطعمية » ليأكلها مع الغداء فى فندق مينا هاوس بشارع الاهرام

وفى اليوم التالى ، وصل طلعت باشا وصفيه أحمد ، فسأله :

ــ هل اتيت بالطعمية من الحلوجى ؟

فرد أحمد بالايجاب ، وكان قد نسى شراءها ، ونهض فأسرع الى سائق سيارته المنتظر فى حديقة الفندق ، وأخرج له عشرة جنيهات ، وقال له :

ــ بسرعة جدا ، اذهب الى ميدان الجيزة ، فاشتر طعمية بعشرة قروش وخذ الباقى لك ، اذا استطعت أن تقطع المسافة فى ربع ساعة ، ذهابا وايابا

فى هذه الأثناء ، دعا طلعت باشا كبير الخدم ، وامره بأن « يسخن » الطعمية ، استعدادا للغداء ، فدهش الخادم وقال ان احمـد لم يسلمه شيئا ، فلما عاد احمد من الحديقة ، سأله :

ــ هل جئت بالطعمية معك ؟

قال جادا : نعم يا باشا

قال طلعت باشا : ولكن كبير الخدم قال انه لم يتسلم منك شيئا

قال أحمد : انه غبى لا يفهم . وناداه بغطرسة وكبرياء وقال له :

ــ الطعمية سلمتها لغيرك . قل انك لا تعلم وبس !!

وسكت الباشا . وبعد قليل عاد السائق ، ومعه الطعمية ، وهى اقراص كبيرة كالفطير ، سلمها احمد بعيدا عن رقابة الباشا الى احد الخدم

وقاما الى المائدة للغداء

وجاء الخادم بالطعمية فى « صحن » كبير . .

وسأل الباشا ، أحمد مرة أخرى :

ـ هل هذه من مطعم الحلوجى ؟

ذلك لأن طعمية الحلوجى اشتهرت بأنها حبات صغيرة فى حجم البندق . .
قال احمد بثقة : نعم يا باشا

عاد فسأله : أتقسم بحياتى

فأقسم أحمد . . وكان قسما مشؤوما عليه

لقد كانت هذه الكذبة ، هى القشة التى قصمت ظهر البعير ، كما يقولون ، فان الباشا نهض غاضبا دون أن يتناول غداءه ، وركب سيارته وحده . وفى اليوم التالى دعا سكرتير البنك المرحوم الأستاذ لطفى محمود ، وقال له :

ـ خلصنا يا لطفى يا خويا الآن من أحمد سالم

فدهش لطفى ، وهو يعرف كما يعرف الجميع مكانته من قلبه ، فروى له ما حدث . .

فقال لطفى !

ـ ولكنها يا باشا كذبة صغيرة لا تستاهل الفصل

قال طلعت : ان الذى يكذب الكذبة الصغيرة وهو يعمل فى بنك كبير وفى مؤسسات عدة ، من السهل عليه أن يكذب كذبة كبيرة ، نغرق بسببها جميعا

ولعلك تعجب حين أروى لك أنه فى يوم ما آثر هذا الفنى على محمد محمود باشا من رؤساء الوزارات السابقين ، وكان بيته من اكبر البيوتات فى مصر ، جاها وغنى ، ورثهما عن أبيه محمود سليمان باشا الذى كان رئيسا للجنة الوفد المركزية فى أثناء غياب سعد زغلول فى منفاه ، ثم فى أوربا للدعاية لقضية استقلال مصر ، وقبلها كان عضوا فى مجلس الشورى . . هذا الى أن محمد محمود ، كان من المصريين القلائل الذين أكملوا دراستهم العالية فى جامعة اوكسفورد ، وكان معتزا بنفسه اعتزازا يبلغ الى درجة الغرور ، ورأس الوزارة أكثر من مرة ، وله فى تاريخ مصر دور مشهور غير منكور

دخل يوما على طلعت حرب لأمر ما ، فوجد عنده أحمد سالم ، فسأل طلعت زائره الكبير بعد ما رحب به :

ـ خير يا دولة الباشا . اى خدمة استطيع أن أؤديها ؟

فقال محمد محمود بكبرياء عرف بها : لما يخرج الجدع ده !!

قال طلعت : انه من موظفى البنك ..

قال محمد باشا ! معلهش ، بس لما يخرج ..

قال طلعت : ماهواش خارج !!!

فانتفض محمد محمود باشا واقفا كالملدوغ ، وانصرف غاضبا محنقا ، وانقطع ما بين الرجلين الكبيرين من ود وصداقة ، الى أن رحلا الى الدار الآخرة

حادثة ثالثة ..

كان سكرتيره أحمد يحيى نجل المرحوم يحيى ابراهيم باشا ـ أول رئيس للوزراء عقب وضع الدستور فى سنة ١٩٢٣ ـ مغرما بفتاة يونانية ، ثم عزم على الزواج وهجرها ، ولكنه خاف أن تجىء الى البنك وتقابل طلعت باشا وتشكوه اليه ، مدعية ما شاءت لاحراجه أمامه ، فرأى أنه من الأفضل له أن يصارحه ، وحسنا فعل ، فقد سر من صراحته ، ومنحه مبلغا من المال هدية منه اليه بمناسبة هذا الزواج

* * *

● كان لا يحب السياسة كما مر بك ، ولا يحب لأحد من العاملين معه الاشتغال بها ، حتى انه لم يصبر على عضوية مجلس الشيوخ ، فاستقال منه بعد اشهر من تعيينه ، فذهب اليه فى مكتبه بالبنك رئيس المجلس المرحوم الأستاذ محمود بسيونى محاولا عدوله عنها ، قائلا له : أنه من العار على البلاد أن لا تكون فى مجلس شيوخها ، وقد بنيت اقتصادها

ولكنه أصر عليها ، ولم يدخل المجلس بعدها ابدا

● كان لا يحب الوشاية والسعاية ، فاذا سمع من موظف قالة سوء فى زميل له ، استبقاه ، وأمر بدعوة صاحب هذه القالة ، وواجههما ، والويل للواشى اذا ظهر كذبه وافتراؤه

● كان يتمتع بذاكرة قوية واعية ، تحفظ كل ما تسمع ، وما يجرى له ولمن حوله ، فهى سجل دقيق يدون فيه كل ما عرف وما تلقته أذناه عن موظفى البنك وشركاته ، بل وعن كبار عملائه ، مما اتاح له الوقوف على سيرتهم فى حياتهم ، ونهجهم فى العمل معه

● كان يانف من تلقيبه « زعيم مصر الاقتصادى »

● كان يعصر الليمون فى عينيه ، حاثا خلصاءه على أن يحذوا حذوه ، فان عصير الليمون يجلو العين ويقوى البصر ..!!

● لعل كثيرين لا يعرفون أن هذا الرجل الذى قضى حياته عاملا فى كل ميدان ، وفى كل حقل ، وفى كل مجال .. فى الاقتصـــاد وفى الاجتماع وفى الدفاع عن الدين .. هذا الرجل كان ميالا الى نصرة الآداب والفنون ، فقد رعى مسرح حديقة الأزبكية ، وسمى يومذاك مسرح ترقية التمثيل العربى ، لتمثل عليه المسرحيات المصرية والعربية والغنائية ، فبلغ المسرح المصرى فى ظل رعايته تلك ، شأوا ما أحوجه اليه اليوم ، ورفع من قيمة الأدباء والكتاب الى قدر ما كانوا يحلمون به ، حتى لقد كان المسرح يدفع فى الرواية الواحدة ثلثمائة جنيه لمؤلفها ، وهى تعادل فى هذا العصر عدة الوف من الجنيهات

قال لى صديقى القديم الأستاذ زكى طليمات شيخ المخرجين المسرحيين ، انه قابل طلعت حرب باشا مرتين : الأولى سأله فيها رأيه عن فرقة عكاشة التى كانت تعمل باستمرار على هذا المسرح . فقال له زكى :

ــ ان اخوان عكاشة ــ وكانوا ثلاثة أخوة هم عبد الله وعبد الحميد وزكى، اصغرهم وأجملهم ــ أبعد عن التمثيل ، بعد الأرض عن السماء

وأفاض فى هذا الرأى ، مما حمل طلعت باشا على أن يقول له فى نهاية اللقاء :

ــ انت مغرور جدا يا خويا يا زكى !!

أما المرة الثانية ، فكانت عندما أراد زكى أن يكوم مدير فرقة الكوميدى فرانسيز حينما زارت مصر فى سنة ١٩٣١ ، وكان أستاذا لزكى فى اثناء دراسته فى باريس ، ولكن يديه خاليتان من المـال ، فذهب الى طلعت باشا يسأله قرضا من البنك قدره ثلاثون جنيها ، يقيم بها حفلة كبيرة لاستاذه مدير الكوميدى فرانسيز

فسأله طلعت باشا : أتدخن الحشيش ؟

قال زكى : لا ، ولم اذقه فى حياتى

قال طلعت باشا : أتدمن الخمر ؟

قال زكى : لا

قال طلعت باشا : أتحب غانية تكلفك ما لا تطيق ؟

قال زكى : لا

قال طلعت باشا : اذن لماذا تريد هذا **المبلغ الكبير** ؟

فذكر له زكى السبب . فما كان من طلعت باشا الا ان اخرج حافظة نقوده واعطاه منها ثلاثين جنيها ، تقديرا منه لوفاء زكى لاستاذه ، ولم يقبل ردها اليه ، فجعلها هدية منه اليه . .

وقال لى المرحوم الأستاذ فؤاد فهيم (وكان من أشهر ممثلى الأوبريت ، ومثل مع مطربة عصرها منيرة المهدية ، ومع فرقة اخوان عكاشة) :

ـ فى الليلة التى توفى فيها أبى فى عام ١٩٢٢ (وكان هو الآخر ممثلا عظيما فى فرقة اخوان عكاشة) جاء الى منزلى طلعت باشا ومعه زكى عكاشة الممثل الأول للفرقة ـ وكان ذا مكانة خاصة لدى طلعت حرب ـ لتعزيتى . ثم همس زكى فى اذنى على مسمع من الباشا : لا تؤاخذنى فيما سأقوله لك فانه بالرغم من ضرورة بقائك فى مأتم أبيك ، الا أننى أطلب منك انقاذ الفرقة، حتى لا تضطر الى التوقف فى هذا المساء ، بسبب انقطاع بشارة واكيم عن تمثيل دوره فجأة ، وهو دور كوميدى مهم ، وليس أمامنا من يمثله غيرك بدلا منه

فكدت أثور عليه ، لانه يطلب منى أن أذهب لاضحاك الناس فى ليلة مأتم ابى الذى ما زلت أبكيه ، لكن أدهشنى ووقف فى سبيل ثورتى على زكى ، أن طلعت باشا وقف فى صفه ، فقال لى :

ـ وافقه يا فؤاد ، ولا تظن انك ستغضب أباك بتركك مأتمه ، فقد كان يقدس التمثيل ويعشق فنه ، ولهذا يجب الا تتخلى عن اداء الواجب عليك بانقاذ الفرقة فى هذا المساء

قال فؤاد :

ـ فلم يسعنى الا موافقتهما ، وذهبت معهما الى المسرح ، ووقفت على خشبته أضحك الناس ، وقلبى يتمزق حزنا وأسى على أبى

● زرته يوما فى مكتبه فى أواخر عام ١٩٢٩ ، فدخل علينا سكرتيره الخاص وانباه بقدوم نورى السعيد باشا ـ من رؤساء الوزارات العراقيين السابقين ومن كبار الذين اشتغلوا بالقضايا العربية ـ فهممت بالاستئذان للانصراف ، فضحك رحمه الله ، وقال : لا يا خويا خليك ، ما فيش سرى بينى وبين نورى باشا ..

وكلمة « يا خويا » كانت لازمة من لازماته .. ودخل نورى السعيد ، وقد وضع الفيصلية ـ لباس الرأس عند العراقيين قبل انقلاب ١٤ تموز (يوليو) ـ على صدره بين يديه ، واستقبله صاحب المكتب حفيا به ، ونادى سكرتيره ، فأسر اليه بكلمات ، وأمر بالقهوة ، وانا متشاغل عما يجرى ، بمطالعة صحيفة كانت فى يدى ، ولكنى متابعه بطرف من عينى . ثم عاد السكرتير بمظروف منتفخ ، وضعه فى الدرج الايمن من مكتب طلعت باشا وخرج ، وبعد حديث قصير خلال تناول القهوة انقضى فى السؤال عن الصحة والاحوال والانجال ، فتح طلعت الدرج وأخرج منه المظروف ووضعه فى جيبه ، ثم نهض ومشى بنورى باشا الى جوار النافذة ، واخرج المظروف من جيبه ودسه فى يده ، خلال حديث قصير آخر عن نجل نورى باشا الأكبر « صباح » وكان متزوجا من عائلة مصرية كبيرة .

ورأيت أن « مهمتى » قد انتهت ، فاستأذنت لانصرف ، فاذن وهو يقول لى :

ـ انت ماشفتش حاجة يا خويا ..

قلت : نعم ، ماشفتش حاجة يا باشا !!

واستضحكنا ، ومضيت الى حال سبيلى ..

وفى هذه المناسبة ، يطيب لى أن اذكر ان طلعت باشا كان قد أقرض السيد محمد على زينل .. رجل الأعمال السعودى الكبير ، والوزير السعودى للتجارة ، والسفير السعودى السابق فى القاهرة ، ثلاثة آلاف جنيه من حسابه الخاص ، ولم يأخذ منه ايصالا ولا سندا بها ، ولا يعلم بأمرها الا السكرتير الخاص لطلعت باشا الاستاذ أمين احمد . فلما صعدت روح الرجل العظيم الى بارئها ، وبعد ذيوع خبر وفاته بايام ، فوجىء أمين بالسيد زينل يدخل مكتبه ويسلمه الآلاف الثلاثة من الجنيهات ، فتسلمها منه وهو غير مصدق ، أن تكون هناك انسان فى هذا العصر ، فى مثل هذه الامانة والنزاهة والشرف .

وسلم أمين المبلغ الى الأستاذ محمد رشدى ، وكان مديرا لقلم قضايا البنك ، وهو متزوج فى الوقت نفسه من ابنة طلعت باشا ، وظل يرقى فى

وظائف البنك حتى أختير رئيسا لمجلس ادارته ، وظل فى منصبه الكبير هذا حتى توفى الى رحمة الله فى لندن فى أول يوليو سنة ١٩٦٩ اثر حادث حدث له فى الكويت وكان فى زيارتها لعمل اقتصادى يخص البنك ، ويخص بعض الدول العربية

* * *

هذا هو الرجل الذى يجتاز الشباب اليوم ، الشارع الذى سمى باسمه مؤخرا ، ثم يمرون بتمثاله (١) فى الميدان الذى يتوسط الشارع ، والمسمى باسمه ايضا . وهم لا يعرفون عنه الا أقل من القليل ... أردت ان أبسط تاريخه بعض البسط ، حتى يتخذوا منه قدوة ومثلا . فان مصر المنكوبة اليوم باحتلال بعض ارضها الغالية ، من حثالة البشر اليهود الصهاينة ، ترجو النهوض على أيديهم ، وتتمنى أن ياخذوا بيدها الى سبيل المجد والعزة والكرامة السليبة ، ولن يتسنى لهم هذا الا بالعمل الدائب لخيرها والاخلاص فيه ، وحبها حبا جما .

* * *

سئل عنه صديقه المرحوم الدكتور محجوب ثابت ، وكان من المشهورين فى ميدان السياسة ، وصديقا لجميع عظماء مصر ورجال أحزابها وأعيان العرب فقال :

ـ « كان صديقى طلعت حرب باشا طرازا فى مصر معدوم النظير ، وهو واضع الحجر الاساسى للاستقلال الحقيقى بانشائه بنك مصر وشركاته وفروعه، وبهذا أقام بالعمل الجدى المجدى ، وادى لوطنه ، ما لم يستطع الزعماء ان يؤدوا مجتمعين فى صعيد واحد ، جانبا مما أداه وحده . انك لن تستطيع ان تعبر أو تصور ، كيف ان طلعت حرب قاوم وانتصر على محاربة أصحاب الشركات والبيوتات المالية الاجنبية فى مصر ، وكيف تغلب على مثبطى الهمم من بعض المصريين .

---

(١) فى ابريل من عام ١٩٣٠ بدت فكرة لتخليد طلعت حرب ، فلم يشجعها ، فكتب الاستاذ البرت فاضل المحامى أمام محكمة الاستئناف المختلطة يقترح أن تسمى الشوارع المحيطة بالبنك باسماء مؤسسه ومساعديه مدحت يكن باشا والدكتور فؤاد سلطان بك ، فيسمى شارع عماد الدين باسم « شارع بنك مصر » ويسمى شارع ابى السباع ـ جواد حسنى الان ـ باسم طلعت حرب ، ويسمى شارعان آخران باسمى الاخرين . وقد قرات فيما مر بك ان السيد عبد الحميد الرمالى ، وكان عميدا لتجار القاهرة ، اقترح هو الاخر اقامة تمثال لرجل بنك مصر .

« وطلعت حرب ـ كما قال صديقى الاستاذ الكبير محمد كردعلى بك « الباقعة (١) فى معرفة الرجال » . انكم لا تستطيعون ايفاء طلعت حرب ما هو جدير به من التقدير وعرفان الجميل ، حتى لو اقمتم له تمثالا من العسجد . فلتقيموا له تمثالا من التقدير فى كل قلب . ليس طلعت حرب بطل الاستقلال الاقتصادى فحسب ، بل هو بطل الاستقلال السياسى أيضا . لو كان تجانبه آخر من طرازه ، لوصلت مصر الى الاستقلال الحقيقى ، وأنف الزمان فى الرغام »(٢)

وكتب عنه الكاتب المبدع فريد عصره المرحوم الشيخ عبد العزيز البشرى ، فصلا فى كتابه المسمى « فى المرآة » تناول فيه عظماء مصر بالتحليل والنقد ، فقال فى صفحة ٥٧ وما بعدها :

ـ « لو ان رجلا حدثك من عشر سنين بأن سيكون فى مصر « بنك » يقوم على أموال مصرية ، وتقوم عليه أيد مصرية ، لرددت حديثه من فورك ، الى التزيد فى التمنى والمبالغة فى التخييل ! ذلك اننا ، ولا اكتمك اشد ما ألح علينا من العلل ، اننا كنا نتكىء فى كل مهمنا على محض التمنى وعقد الآمال بما عسى ان يصنع الغير لنا ! أما ان نضطلع بعبئنا ونعالج شأننا بأيدينا ، فذلك ما لم تكن تطيقه اذهاننا ! ولقد طالت علينا هذه الحال حتى دبت الينا الظنون بأننا لا نصلح لمعالجة عمل قومى ، لا من عجز عن العمل ، ولكن من توهم العجز عن العمل ، حتى توهنت نفوسنا ، وخارت عزائمنا ، وانخذلت هممنا ، وشاع فينا ضعف الثقة ، والثقة وحدها متكأ كل ما ترى من عظيمات الأمور . واذا كنا قد عالجنا كثيرا من المشروعات القومية ففشلنا فيها ، فذلك لأننا كنا نقدر هذا الفشل ، بحكم ما ملك علينا انفسنا من ضعف الثقة . وذلك شأننا فى كل ما نتطلع اليه من مطالب الحياة !

« واذن الله تعالى لنا بالعافية ، وأحسسنا ، بعد يأس ، دبيبها فى أنفسنا فى سنة ١٩١٩ ، وهببنا أمة تطلب ما تطلب الأمم ، وتهىء كتفيها لتنهض بما تنهض به فى سبيل مجدها الامم .

« ولست اليوم بسبيل ما قام به ابطال النهضة الوطنية جملة ، ولكننى انما أطوف بالحديث اليوم حول قطعة منه وهى النهضة المالية ، وحول بطل

---

(١) اى الداهية الحذر

(٢) « الاسرار السياسية لابطال الثورة المصرية وآراء الدكتور محجوب ثابت » ـ صالح على السودان ـ ص ٢٥٨

من أولئك الأبطال ، وهو طلعت حرب . وهيهات أن أصف قدر هذا الرجل الفاتح ، بأبلغ ولا أصدق من انه أقام لمصر « بنكا » عظيما يقوم على أموال كلها مصرية ، وتقوم عليه أيد كلها مصرية ، وما شاء الله كان ...

« واذا كان طلعت قد أقدم على هذا كله بعد اذ تخاذل الناس ، وأصبحنا ولا تظن نفس بنفس خيرا ، فقد رأيت مبلغ ما تسلح به هذا الرجل من عزم وثقة ، حسبهما ان ملآ كل هذه النفوس عزما وثقة .

« واذا كان طلعت حرب قد أفاد فى سبيله بنهضة سنة ١٩١٩ ، واستغل اشتعال النفوس بالوطنية ، وتنادى الناس بالعمل على أسباب القومية ، فقد أضاف الى العزم حزما ، وجمع الى الثقة والاقدام بصيرة وعلما ، ذلك انه عرف كيف يتخير اسعد الساعات واكفأها لنجاح مشروعه العظيم .

« لم يكن نجاح بنك مصر مقصورا على ذلك المدى الذى تدور فيه منافع البنوك ، ولكن كان له نجاح أوفى وابلغ ، هو انه بث فينا الثقة ، وردنا فى جليلات الاعمال الى انفسنا ، واقنعنا بالحس الصادق أننا فى مجال العمل ، غير أهل للخذلان ولا للفشل .

« وبعد : فطلعت حرب ، وان لحقته السن ، ما برح له عزم الشباب : حضور ذهن ، وقوة تصور ، ومتانة ذاكرة ، وجودة راى ، وصبر وجلد على معاناة كل ما يليه من أعمال جسام .

« واذا كان فى بعض طلعت حرب مالا يعجب بعض الناس ، فلأنهم لم يفهموه . واذا كان فيه مالا يجمل بالرجل العظيم ، فذلك أيضا من خلال الرجل العظيم ..

« وان تعجب لشىء فى شأنه ، فالعجب كله أنه عضو فى مجلس الشيوخ، تعرض عليه ميزانية الدولة ، وتعرض عليه كل المرافق المالية والاقتصادية فى الدولة ، فيجول فيها لويس فانوس ، ويصول فيها الشيخ حسن عبد القادر ، ويضرب فيها شيخ العرب يسن أبو جليل بجرانه ، وطلعت حرب مدير بنك مصر وابو المشروعات المالية والاقتصادية فى مصر ، لا تؤثر عنه فيها طول « الدورة البرلمانية » كلمة واحدة !!

« ولعل هذا انه يريد أن يربأ بنفسه ، أو بعبارة أخرى ، يريد أن يربأ ببنك مصر وملحقاته ، عن أى نزاع سياسي على العموم ، أو حزبى على الخصوص ، طلبا للسلامة ، وايثارا للعافية »

وخير ما اختم به هذا الفصل عن الرجل العظيم ، مقال يدل على وفاته ، نشرته له جريدة « ايجبت » بالفرنسية ، فى ١٣ يوليو من عام ١٩٠٥ اثر وفاة المغفور له الأستاذ الامام محمد عبده ، يرثيه به ، فقال :

« لقد خسرت مصر والعالم الاسلامى خسارة كبرى بموت الشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية ، وسيبكى خسارة هذا الرجل جميع المسلمين على اختلاف بلادهم ومذاهبهم ، فانه كان من اكبر رجال الاسلام الذين كانوا يتمنون ارجاعه الى مجده السابق .

« نشا الشيخ محمد عبده نشأة رجل عادى ، فانه ولد من نحو ستين سنة فى محلة نصر بمديرية البحيرة ، وتلقى دروسه الأولى بالجامع الاحمدى بطنطا واتمها فى الجامع الأزهر المشهور ، ثم صار أستاذا لنفسه . وبما كان فيه من النهم فى العرفان ، انكب على الدروس والمطالعة بقوة يندر وجودها فى غيره ، وامكنه بما أوتيه من ثبات العزيمة وقوة الادراك التى لا يمترى أحد فى سموها ، ان يصير الى ما رآه الناس فيه وعرفوه منه ، اعنى محيط علم حى ، فكان برهانا محسوسا على ما يكون لعزيمة الانسان من سعة الامكان ، ولا سيما اذا عززتها قوة الجنان . وجملة القول ان الشيخ محمد عبده كان هو المربى لعقله والمنشىء لادراكه . وكان يخيل للعارف باحوال هذا الشيخ فى جهاده المستمر ان ام المسائل التى كانت تشغله وادعاها الى اهتمامه ، هى الدين الاسلامى الذى كان يريد اصلاحه ، لا بادخال مذاهب جديدة أو عبادات أخرى فيه ، ولكن بتنقيته وتجريده من الاوهام والآراء الفاسدة التى أدخلها عليه الجهل أو مقتضيات السياسة ، وجعله بالجملة ، كما كان قبل تشويه الجهل اياه ، الدين الحنيفى الذى كان يعلمه لأمته النبى صلى الله عليه وسلم .

« وقد كان للشيخ محمد عبده حساد ينقصونه ، كما كان لغيره من كبار المصلحين وارباب العقول السامية ، فلم يذروا تهمة الا الصقوها به بلا سبب ، ولا دسيسة ولا وشاية ولا قذفا الا رموه به من غير ما ذنب ، ولكن ذلك لم يعقه عن المداومة على سلوك نهجه غير كال ولا وان ، حتى انتهى امره بان ألزم حساده والجاهلين به ، كما الزم خصومه واعداءه ، احترام آرائه وافكاره .

« وهو وان كان قد صرعه الموت قبل ان يذوق لذة اتمام عمله الشاق الذى فرضه على نفسه ،، قد أوضح السبيل الى اتمامه ، وخلف عملا نافعا باقيا .

« وقد كان لمعاشرة الشيخ محمد عبده للشيخ جمال الدين الافغانى الذى هو اكبر فيلسوف شرقى معروف ، تأثير ظاهر فى عقله . فكانت معاشرته لهذا الفيلسوف الذى كان هو نفسه الثانية ، مبدأ طموح نفس الشيخ محمد عبده الى الافكار التى صارت من ذلك العهد غرضه الذى يعيش من اجل بلوغه ، الا وهى اصلاح الدين الاسلامى ، واحياء وطن الاسلام البعيد الاطراف ، وتجديد وحدته وعظمته .

« وكان يستعين ويستهدى فى هذا العمل الشاق بقوة يقينه .

« ومن غريب الاتفاق أن نفس العلة التى أودت بالمرحوم الشيخ جمال الدين وهى السرطان ، هى التى اختطفت منا الشيخ محمد عبده .

« ولما قامت حوادث الفتنة العرابية ، كان الشيخ محمد عبده متقلدا فى نظارة الداخلية عمل محرر الجريدة الرسمية ، فظن ان الوقت قد حان للبدء فى تنفيذ خطته الواسعة فى الاصلاح ، فسلك سبيل الفتنة بقلب سليم ، لما كان يلوح له من خلوها من الاغراض الشخصية فى بدايتها ، ثم اضطر آخر الامر الى أن يجاهد فيها بعض الرؤساء ويقاوم طرقهم الملتوية الدالة على اطماعهم ، لان افكارهم لم تكن مطابقة لامنيته المجردة من كل شوب ، وهى مصلحة الوطن والدين .

« وكان جزاؤه على مخالطته لرؤساء الفتنة ان حكم عليه بالنفى ، ولما راى خيبة آماله اذ ذاك لجأ الى سوريا . غير انه لم يكن ممن يسهل عليهم الاستكانة للغلب ، فلم يلبث أن استأنف جهاده السلمى لبلوغ أمنيته . ولما عين استاذا فى المدرسة السلطانية ، كان يعلم فيها آداب اللغة والبيان وغيرها من الدروس العربية ، وهذا غير دروس تفسير القرآن التى كان يلقيها فى المساجد .

« ثم دعاه السيد جمال الدين الى باريس ، فكان يعينه على تحرير « العروة الوثقى » ، ولما عاد الى سوريا استأنف دروسه التى لا يزال السوريون يحفظون لها أجل ذكر .

« ما حل الشيخ محمد عبده فى مكان الا ترك له فيه معجبين بعلمه وفضله ، وأينما نزل صار كل من دانوه أحبابه وأصدقاءه .

« ولما عفا عنه الخديوى توفيق باشا عاد الى مصر ، فرجعت اليه جميع المحبات القديمة مع احترام كافة الناس وتبجيلهم ، ثم لم يلبث أن نوه به فضله وولعه الشديد بخير بلاده ، للقائمين بالامر ، فعين بعد قليل قاضيا فى المحاكم الابتدائية ، ثم مستشارا فى محكمة الاستئناف . وكان مع

وجوده فى هذا الميدان ، ميدان العداله الفسيح ، ولا يزال يحس بأنه محرج، وانه لا بد له من ميدان أوسع واجل منه ، اى لا بد له من الطرق التى يستعين بها على بلوغ الغرض الذى يعيش من أجله ، باذلا فى ذلك جهده ، وذلك الفرض هو اصلاح الدين . وكان يعتمد حينئذ فى الوصول اليه على وسيلة كان يلوح له انها هى القادره على رفع ذلك البناء ، وتلك الوسيلة هى الازهر . تولدت فى ذهنه فكرة توجيه الاصلاح فى هذا السبيل الجديد ، فكان يريد أن يجعل الأزهر واسطة فى هداية العالم الاسلامى وتبصيره بدينه، وان يجرد هـذا الدين مما يحول دون معرفته من الصعوبات ومن الآراء الفاسدة التى حشاه بها الجهل . وللوصول الى هذه الغاية ، فكر فى أن ينشىء له مجلسا اى محكمة عليا دينية — ان صح تسميتها كذلك — لادارة شؤونه وبث نور العرفان فى عقول الأمة لمصلحة الاسلام الكبرى ، وهى غاية نبيلة جليلة ، وبفضل عنايته شكل المجلس ، وكان هو من اعضائه وكذلك الشيخ عبد الكريم سلمان صديقه من الصغر الذى كان موافقا له فى آرائه وافكاره .

« وقد حصل له بتشكيل هذا المجلس ، الأمل ببلوغ غايته بلا عائق ، فانشأ يجدد ما رث من اصول الدين ، وينفخ فى المسلمين روح العرفان ، ويرشدهم الى العلوم والفنون وجميع الامور الجليلة والافكار العظيمة التى كانت فى سالف الأيام زينة الخلفاء .

« وانه ليسوؤنا ان نقول انه مع مساعدات المخلصين التى تيسر له الحصول عليها ، لم تأت النتيجة مطابقة لما كان يرجوه تمام المطابقة ، فقد قام روح معاكس له ، فعوق العمل الكبير الذى كان يباشره بكثير من النزاهة والاخلاص والاقدام ، نوعا من التعويق .

« وهو على بذل جل همته فى تحصيل الغبطة والسعادة للعقول ، لم يغفل السعى فى تحصيل الراحة والرفاهية للابدان ، فلم ينس الفقراء والبائسين ، لعلمه حق العلم ان البؤس فى الامم مدعاة الى اضمحلال العقول ، فأسس الجمعية الخيرية التى كان هو روحها الذى به تقوم . والفضل فى بقاء هـذه الجمعية ونجاحها راجع الى همته التى لا تغفل ، واخلاصه الذى لا يتغير .

« ولما عينته الحكومة مفتيا للديار المصرية ، اثبت فى هذا المنصب أيضا كفاءته للقيام به . وكان من مقتضيات توليه ان صار له حق الجلوس فى مجلس الشورى ، فكان عضوا فى كل لجنة من لجانه ، وكان هو المرشد الثقة لرفقائه فى بحث جميع القوانين واللوائح أو اعدادها .

« وكان فى مجلس الأوقاف الأعلى هو المدافع عن الحقوق والأصـول المقدسة التى بنيت عليها .

« وقد كان فوق ما تقدم كما قلنا ، شديد الحب لوطنه ، مخلصـا فى اسلامه . واذا كان قد وجد له عيابون قادحون ، ربما كان عيبهم مبنيا على الحكم بالظواهر ، فان مادحيه والمعجبين به أوفر منهم عددا وهم ينصفونه ويعرفون له قدره .

« وسيذكر من عاشروه أو دانوه فقط ، جميل محاضرته ، وحسن تلطفه، وجاذب ابتسامه الدال على سلامة طويته . بل انه كان يعظ اصـدقاءه ويوصيهم بلين الجانب والتلطف ، وكان له فى ذلك كلمة تؤيد هذه الوصية وهو قوله : انك لتصطاد من الذباب بملعقة من العسل ، أكثر مما تصطاده ببرميل من الخل »

« وكان الشيخ محمد عبده نهما فى الاطلاع والتعلم ليكون أصوب حكما واسد رأيا ، ولذلك ساح كثيرا فى بلاد أوربا وبلاد المشرق ، باحثا اينما حل عما عساه ينفع للعمل الجليل الذى ابتدأه . وكان يدرس غير متشيع الى مذهب ، آخذا بضروب الحضارة والاخلاق عند جميع الامم ، بحرية الفكر وجولان فى الرأى يندر وجودهما فى هذه الايام . وجوابه البليغ على مقالات المسيو هانوتو فى الاسلام ، دليل على أننا سائرون فى سبيل التقدم ، فقد كشف هذا الجواب النقاب عن سعة علمه واطلاعه وتسامحه الذى استطاع أن يدهش النـاس به لوقوعه فى جانب التهجم الذى حصل من المسيو هانوتو .

« وقد ترك كتابات كثيرة تيسر للمطلع عليها أن يجـد فى جميعهـا ، المبادىء التى كان يسير عليها فى حياته ، وهى الآن مبادىء تلامذته الذين تتبعوا طريقته ، وسيتنافسون فى حفظ ذكراه .

« انى كنت اعرف الرجل معرفة ذاتية ، فأنا اشد تأثرا لفقده ممن لم يعرفوه ، ومثل غيرى من معارفه الكثيرين فى هذا التأثر ، فقد كان شديد الحب لوطنه ووطننا . وفى هذا المقام أرفع له واجب المدح مع مزيد الحزن والاسف على فراقه ، وأرجو أن يوجد فى هذه البلاد التى بث فيها كثيرا من الأفكار الصالحة الشريفة ، عقول وهمم اخرى تستـأنف السـير على النهج الواضح الذى اختطه لها .

« بينما كنت أخط هذه الأسطر ، اذ تلقيت رسالة برقية من بلدة « اسيا » ببلاد بلجيكا ، تنعى لى الدكتور سدنى سميث ، وهو موسر أمريكى واسع الادراك والفكر ، محب للاسلام ، ومعجب بالشيخ محمد عبده الذى كان من أصدقائه .

« لا تقع مصيبة وحدها ، فقد انطفأ نبراسا هذين العقلين فى يوم واحد ، وهما على تباعدهما فى المنشأ ، قد تقاربا بالاشتراك فى الأفكار والآراء .

« وسيدنى سميث هذا الذى جمعتنى واياه الألفة الأكيدة ، كان هو الاستقامة المجسمة ، وكان له عندى فوق ذلك الخصيصة الكبرى ، وهى محبته لبلادى ودينى وذوده عنهما ، فانه كان تعلم كيف يعرف الدين الاسلامى ، ولهذا ترانى أجد وقع مصابه مضاعفا . وليس فى وسعى أن أمدحه باكثر من اشراكه فى السلام الذى اهديه من قلبى الحزين الى فقيدنا الذى هو نفسه كان يطريه ويعجب به كثيرا »

***

وبعد :

الا فليرحم الله طلعت حرب ، ولينبت من بنى مصر نبتا من طرازه ، فى رجاحة عقله ، واصالة وطنيته ، وقوة عزيمته ، واخلاصه لعمله ، وايثار مصلحة الوطن العليا ، على كل مصلحة سواها ، ولو كانت مصلحته هو نفسه ، كما صنع وافتدى البنك بشخصه ، ليبقى .

وسيظل طلعت حرب أيضا ـ وليس البنك وحده ـ باقيا فى ضمير هذه الأمة قمة شامخة ، ونبراسا لأجيالها ، جيلا بعد جيل .

المراجع

التطور الاقتصادى فى مصر	للاستاذ محمد رشدى
الاصول التاريخية للرأسمالية المصرية وتطورها	للدكتور محمود متولى
نقابات التعاون الزراعى فى مصر وأوربا	للاستاذ عبد الرحمن الرافعى
بنك مصر بين الرأسمالية الوطنية	للاهرام الاقتصادى
والتحول الاشتراكى	تقديم الاستاذ أحمد فؤاد
تذكار طلعت حرب	للدكتور ابراهيم عبده
رجال المال والأعمال	للمقتطف
مجموعة خطب طلعت حرب	أصدرتها مطبعة مصر
فى المرآة	الشيخ عبد العزيز البشرى
مذكرات شخصية للمؤلف	

الشيخ عبد المجيد اللبان زعيم الإسكندرية

منهجه فى التربية: الحوار المهذب

كان مرتبه فى الشهر ١٠٠ مليم

أعاد إلى الإسكندرية مصريتها فى جميع المجالات

قدوة حسنة فى الوطنية والشجاعة والصراحة

اعتقلت السلطات العسكرية البريطانية المحتلة ، سعد زغلول وصحبه ، محمد محمود باشا واسماعيل صدقى باشا وحمد الباسل باشا ، عصر يوم السبت ٨ مارس من عام ١٩١٩ ، بسبب اصرارهم على السفر الى باريس — حيث يعقد مؤتمر الصلح بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى — للمطالبة بحق مصر فى الاستقلال التام ، وباتوا ليلتهم فى الثكنات الانجليزية بقصر النيل — مكانها اليوم مقر الجامعة العربية وفندق هيلتون النيل — وفى اليوم التالى سيقوا الى بور سعيد بقطار خاص برح القاهرة قبل الظهر ، ومنها حملتهم باخرة انجليزية الى جزيرة مالطة ، وقد اختارتها السلطات الغاشمة المحتلة معتقلا لهم ومنفى .

فى صباح اليوم التالى ٩ مارس ، اعتقلت هذه السلطات وطنيا آخر فى العاصمة الثانية ، الاسكندرية ، هو الشيخ عبد المجيد اللبان المدرس بمعهد الاسكندرية الدينى ، لانه عقد اجتماعا سياسيا فى داره فى مساء اليوم السابق ندد فيه بما اقدمت عليه السلطات البريطانية من اعتقال سعد وصحبه ، فاعد له فى الطابق العلوى من قسم بوليس « باب شرقى » معتقل ، زود بماء للوضوء وبسجادة للصلاة ، وبمجموعة نفيسة من كتب العلم والدين ..

لقد كانت السلطات البريطانية تعرف بواسطة جواسيسها وعيونها ، الصلة بين الشيخ اللبان وبين زعيم الثورة سعد زغلول — وسيجىء فى صفحات مقبلة ، انهما كانا صديقين قبل الثورة بسنوات طوال — وتحتفظ له بملف ضخم يحوى انباء نشاطه السياسى ، ومواقفه الجريئة فى مناهضة السياسة الانجليزية خلال الحرب العالمية .

وفى صباح يوم ٧ ابريل ، اى بعد شهر ، افرجت هذه السلطات عن الشيخ ، وفى عصر ذلك اليوم — أى بعد ساعات من الافراج عنه — اصدر

اللورد اللنبى نائب ملك انجلترا فى مصر ، وحاكمهـــا المطلق ، المتصرف فى أمرها ، لا معقب لحكمه ولا راد لمشيئته .. أصدر منشورا وزع فى أرجاء القاهرة ، وفى جميع أنحاء البلاد ، جاء فيه :

« بالاتفاق مع حضرة صاحب العظمة السلطان ، أعلن أنه لم يبق حجر على السفر ، وان جميع المصريين الذين يريدون مبارحة البلاد ، تكون لهم هذه الحرية . وقد قررت علاوة على هذا ، ان كلا من : سعد زغلول باشا واسماعيل صدقى باشا ومحمد محمود باشا وحمد الباسل باشا ، يطلقون من الاعتقال ويكون لهم كذلك حق السفر » .

فمن هو الشيخ عبد المجيد اللبان ؟

ان لمصر ابناء بررة ، خدموها أجل الخدمات ، فى صمت وسكون ، دون اعلان عن أنفسهم ، او توجيه الانظار الى ذواتهم ، أو ضجيج حول أسمائهم ، لانهم انما يبذلون ما يبذلون من جهـــد وصحة ومال ، وكل عزيز وغال ، فى سبيل الله والوطن ، خالصا من المباهاة والفخر والزهو .

خدموا وطنهم ، ومضوا الى ربهم ، فلم يعرف كثير من مواطنيهم فى مصر ، او اخوانهم فى الوطن الأكبر ، الوطن العربى ، عنهم شيئا .

من هؤلاء المخلصين الصامتين ، هذا الذى اتحدث عنه . وأروى للناس سيرته ، وما أعطرها من سيرة ، بين سير المجاهدين الاتقياء الشرفاء .

فى مدينة جرجا بالصعيد ، كانت تقيم أسرة « اللبان » . ومنذ أكثر من قرن من الزمان ، كانت الأسرة تعمل فى التجـارة بين الوجهين : البحرى والقبلى . لكن فريقا منها سافر الى الوجه البحرى ، واســتقر فى قرية « سنديون » التابعة لمركز فوه بمديرية الغربية ــ هى الآن تابعة لمحافظة كفر الشيخ ــ ومن هذا الفريق كان الحاج ابراهيم اللبان ، يحيا حياة هادئة رغدة ، فقد حباه الله الغنى والجاه والمنزلة الحسنة بين اهلها ، عاملا فى التجارة وفى الزراعة معا .

وفى يوم ١٤ يوليو من عام ١٨٧١ ، رزق الرجل الطيب ، وليـــدا سماه « عبد المجيد » حتى اذا اكتمل نموه ونضج عقله ، ألحقه ب « كتاب » الشيخ عيد ، فحفظ القرآن الكريم ، وتعلم القراءة والكتابة ، وأخذ يعاون والده فى أعماله ــ تجارية كانت أم زراعية ــ راضيا بهذه الحياة الوادعة الهادئة ، قانعا بما يفىء الله عليه وعلى أبيه من رزق وفير ، وخير كثير ، فاذا أشرف على السابعة عشرة من عمره ، عزف عن هذه الحياة ، طامحا الى حياة أرقى وانفع ــ فى نظره ــ متأثرا فى هذا بحادثين صغيرين رآهما ، فوقعا من نفسه وقعا عظيما .

لقد رأى والده ينحنى على يد شيخ شاب فيقبلها ، محتفلا به مرحبا ، لأنه نال شهادة « العالمية » من الأزهر الشريف ..

ففكر وقدر ، أيكون لهذه الشهادة من النفاسة والقداسة ، ما يدفع والده المسن الوقور ، الى تقبيل يد هذا الشاب ؟

ثم ...

بعد أيام رأى الاهالى وقد تركوا أعمالهم ، وهجروا منازلهم ، وخلفوا وراءهم حقولهم ، وهرولوا جماعات وأفرادا الى مسجد القرية ، ليستمعوا الى موعظة دينية يلقيها شيخ من شيوخ الأزهر ، اسمه الشـيخ الحداد ، فتحلقوا من حوله ، ملقين اليه آذانهم وأفئـدتهم ، فى خشوع وسكون واعجاب . فاذا انتهى من موعظته ، تسابقوا الى تقبيل يده ، وفى اطراء وعظه والثناء عليه والدعاء الى الله أن يزيده علما وتشريفا .

فما لعبد المجيد وهذه الحياة الريفية التى يحياها فى القرية ؟ ولم لا يسعى الى الأزهر ينهل من نهر علمه ، حتى يغـدو شيخا عالما مبجلا ، كهذين الشيخين ؟

لكن فتانا ، كان من عمد الأسرة ، يحمل من مسئولياتها العبء الاكبر ، فهل يرضى والده اذا فاتحه فى هذا الذى جاش بصدره ، أن يدعه يسلك هذا الطريق الذى اختار ؟

نعم . لقد كان الوالد سعيدا عندما حدثه ابنه برغبتـه فى الالتحاق بالأزهر ، وأمده بالنصح والرشاد ، وزوده بالدعوات الصالحات .. وأصبح عبد المجيد طالبا ازهريا ـ فى عام ١٨٨٨ ـ يجلس فى حلقة هـذا الشيخ ، وينتقل الى درس ذلك العالم . وكلما تقدمت به السنون فى طلب العلم ، زاد نجمه اشراقا ، وزادت مكانته لدى أساتذته وزملائه من الطلاب ، فقد تفوق فى العلوم التى يدرسها جميعا ، وعكف على الادب يدرسه كذلك ، فأتقن الكتابة والخطابة ، وشارك فى الحياة الاجتماعية ، فكان دائب الاتصـال بميادينها ، وكذلك برز بين أقرانه ..

حتى اذا حل عام ١٣١٨ هـ ـ أى بعد ثلاثة عشر عاما قضاها طالبا ـ رأى فى نفسه ـ وكان قد بلغ الثلاثين ـ القدرة على التدريس بالازهر ، وعلى النجاح فى « العالمية » ، وكانت يومذاك من ثلاث درجات : أولى ، وثانية ، وثالثة ، طبقا لقانون صدر فى عهد الخديوى اسماعيل فى عام ١٨٧٢ ، لتنظيم الازهر .

فلأدع شيخ الازهر ، الشيخ سليم البشرى ، يتحدث عن امتحان عبد المجيد ، فى « اعلان من مشيخة الجامع الازهر » ، الى حضرة الشيخ عبد المجيد اللبان بن ابراهيم بن محمد الشافعى مذهبا ، من ناحية سنديون بمديرية الغربية .

« انه بناء على المكاتبة المقدمة من حضرتكم الى مشيخة الازهر بطلب امتحانكم واذن لكم بالتدريس بعد ذلك ، قد استعلم ممن يوثق به فى مثل ذلك ، من حضرات افاضل العلماء المدرسين بالازهر ، فشهدوا بتلقيكم العلوم، واهليتكم واستعدادكم لتدريسها بالأزهر ، وبحسن سيرتكم وسيركم، ثم عقد لكم مجلس من حضرات الاساتذة الافاضل : الشيخ حسن داود والشيخ محمد طموم المالكيين ، والشيخ محمد بخيت والشيخ محمد راضى البحراوى الحنفيين ، والشيخ محمد حسن الابريرى والشيخ سليمان العبد الشافعيين ، وامتحنتم بحضورنا فى يوم الأربعاء ٧ ربيع الأول سنة ١٣١٨ ، فى الاحد عشر علما المعينة بقانون الامتحان ، الصادر عليه الأمر العالى بتاريخ ٢١ رجب سنة ١٣١١ نمرة ٢ ، وأديت من حضراتهم الشهادة الانتهائية باستحقاقكم للدرجة (الثالثة) ، طبقا للمنصوص فى المادة الثامنة من ذلك القانون . فلهذا كله قد اذناكم بالتدريس فى الجامع الأزهر وفوضنا لكم تدريس الكتب من علم النحو على التدريج لغاية شرح ابن عقيل ، ومن بقية العلوم ما يضاهى تلك الكتب حسب ما يناسب درجتكم ، وبذلك صرتم من مدرسى الازهر الشريف . ولما كتب لنظارة الداخلية بتاريخ ١٢ ربيع الأول سنة ١٣١٨ نمرة ٥٠٢ للعرض عن ذلك منها على الحضرة الخديوية ليصدر « البيورلدى » العالى ـ هو ما يعبر عنه اليوم بالمرسوم ـ بالدرجة التى تحصلتم عليها من لدن المراحم السنية ، وردت افادتها بتاريخ ٣ جمادى الثانية سنة ١٣١٨ نمرة ٦١٥ ، ومعها « بيورلدى » عال باسم حضرتكم مؤرخ ٢٤ جمادى الأولى سنة ١٣١٨ ، مؤذنا بانكم من ارباب الدرجة (الثالثة) ، وهاهو مرفق مع هذا لحفظه عندكم . وقد نبهنا بقيد ذلك فى دفاتر الجامع الازهر ، حفظا لما صار . ونسأله تعالى التوفيق لاقوم طريق ، وحسن الختام بجاه المصطفى عليه الصلاة والسلام » .

تحريرا فى ١٥ جمادى الثانية سنة ١٣١٨

الفقير سليم البشرى المالكى
خادم العلم بالأزهر
(ثم ختم الشيخ)

فماذا جاء فى « البيورلدى » :

هو مؤلف من ستة أسطر كتبت بخط الرقعة ـ مائلة من الشمال الى أعلا ، وبين كل سطر وآخر بياض نحو خمسة سنتيمترات ، وفى اعلاها الى اليمين ختم بالحبر الأزرق للخديوى « عباس حلمى » ، واليك نصه :

« المدرس الفاضل والعالم الكامل حضرة الشيخ عبد المجيد اللبان الشافعى بن ابراهيم بن محمد ، من سنديون غربية ، زيد فضله وكماله .

« ورد لدينا شهادة من حضرة شيخ الجامع الأزهر ، ذروة الأعلام ، بأنه صار امتحانكم بمجلس مشكل من حضرات السادة الافاضل القادة : الشيخ محمد بخيت والشيخ محمد راضى البحراوى الحنفيين ، والشيخ سليمان العبد والشيخ محمد حسين الابريرى الشافعيين ، والشيخ حسن داود العدوى والشيخ محمد طموم المالكيين ، وانهم شهدوا لكم بما تلقيتموه من العلوم والفنون ، بالبراعة والاتقان ، واستحقاقكم الدرجة الثالثة بين العلماء ذوى الفضل والعرفان . ولما كان السعى فى كسب المعارف من شرف الهمة، سيما علم الشريعة الذى يعظم به قدر الأمة ، ومن موجبات النجاح فى تزكية الاخلاق وكمال الصلاح ، وكان مرضيا لدينا تجملكم بأوصاف الوقار ، واستعدادكم بموجب من التشكر والفخار ، اصدرنا هذا المرسوم ، معلنا بالدرجة الثالثة ، معنونا بالافضال ، باعثا لكم على الاجتهاد فى الترقى الى

٢٤ جمادى الأولى سنة ١٣١٨

وتعتبر المدة التى قضاها الشيخ طالبا أزهريا حتى فاز بالعالمية ، وهى ثلاث عشرة سنة ، مدة قصيرة قياسية ، اذا قيست بما كان يقضيه الطلبة فى تلك الأيام ، فان بعضهم كان يظل طالبا ربع قرن أو يزيد . .

وكان من أساتذته : الشيخ محمد البحيرى فى فقه الامام الشافعى ، والشيخ سليم البشرى فى التفسير والحديث ، والاستاذ الامام الشيخ محمد عبده فى البلاغة والتفسير أيضا .

أما العلوم الحديثة ، فقد تلقاها عن محمد ادريس بك مدرس الرياضة بدار العلوم العليا ، واسماعيل على بك صاحب كتاب « الجغرافيا الازهرية » والشاب حسن صبرى الذى وصل بعد ذلك الى منصب رياسة الوزارة فى ٢٧ يونيو من عام ١٩٤٠ ، وظل شاغله الى أن توفى فى يوم ١٤ نوفمبر من العام نفسه ، وهو يلقى خطبة العرش فى مجلس النواب .

واليكم صورة فوتوغرافية للمرسوم أو « البيورلدى »

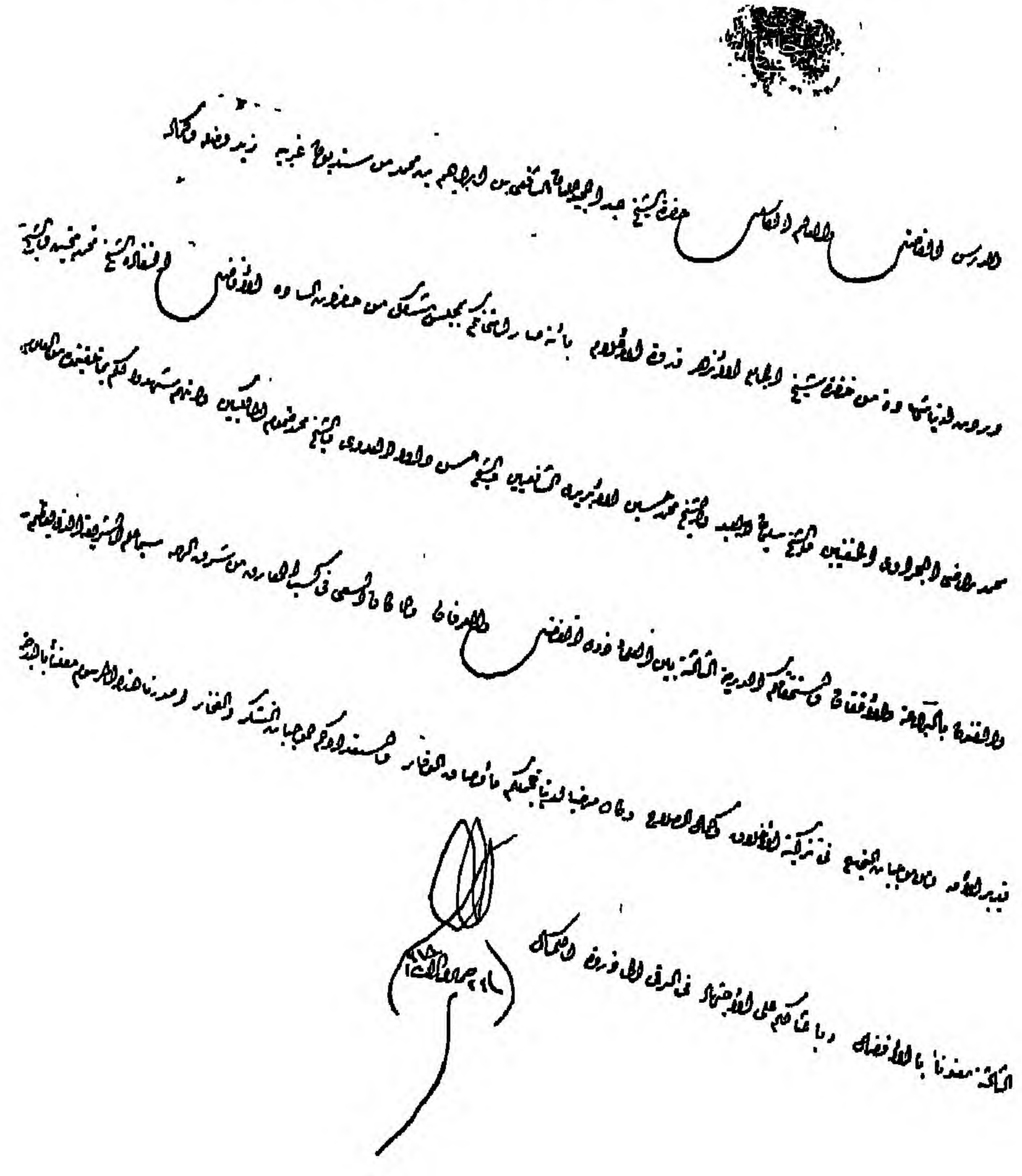
المدرس الفاضل والعالم الكامل حضرة الشيخ عبد المجيد [illegible] ابراهيم [illegible] زيد فضله وكماله

[illegible] الفاضل [illegible] الشيخ [illegible]

[illegible] من حضرة شيخ الجامع الازهر قدوة الاعلام [illegible]

[illegible] الشيخ محمد [illegible] الشيخ حسن [illegible] الشيخ محمد [illegible]

[illegible]

[illegible] الفاضل [illegible]

[illegible]

[illegible]

ولعله من المفيد أن أذكر انه فى عام ١٢٨٢ هـ أرسلت رياسة الحكومة الى مشيخة الأزهر تسألها عن العلوم التى تدرس فيه ، لتبعث بيانا بها الى لجنة معرض باريس . فقالت المشيخة : ان ما يدرس من العلوم هو «الفقه والاصول والتفسير والحديث (رواية ودراية) والتوحيد والنحو والصرف والمعانى والبيان والبديع ومتن اللغة والعروض والقافية والحكمة الفلسفية والتصوف والمنطق والحساب والجبر والفلك والهيئة » .

ثم قالت المشيخة : « هذه هى العلوم المتداولة فى الأزهر ، يقرأها العلماء لطلبتهم بحسب مراتبهم ، وما عداها كالهندسة والطبيعة والموسيقى والتاريخ وغيرها ، يقرأونها لمن لهم اقتدار على تداولها ، الا أن المشتغل بها قليل لعدم رغبة الطلبة فيها » .

وكان كثير من العلماء يجيدون العلوم العقلية والطبية وغيرها ، زيادة على العلوم الدينية واللغوية . اذكر منهم على سبيل المثال الشيخ احمد عبد المنعم الدمنهورى المتوفى سنة ١١٩٢ هـ . فقد جا فى سند أجازته ما ملخصه : انه تلقى فى الأزهر العلوم الآتية ، وله تآليف فى كثير منها ، وهى : الحساب والميقات والجبر والمقابلة والمنحرفات وأسباب الأمراض وعلاماتها وعلم الاسطرلاب والزيج والهندسة والهيئة وعلم الارتماطيقى وعلم المزاول وعلم الأعمال الرصدية وعلم المواليد الثلاثة وهى الحيوان والنبات والمعادن وعلم استنباط المياه وعلاج البواسير وعلم التشريح وعلاج لسع العقرب وتاريخ العرب والعجم .. !

كان النظام الذى يسير عليه الازهر ، منذ أصبح مدرسة جامعة ، نظاما سهلا ، يكاد يكون فطريا ، أساسه التقوى ، وقوامه احترام الدين وأهله .

وكان شيخ الجامع الازهر هو المرجع الأعلى لمن فيه ، من أصغر طالب ، الى اكبر عالم . كلمته هى العليا ، واشارته حكم ، وقوله الفصل فى كل ما يختلف عليه . يوزع الاحباس والهبات ، ويجيز العلماء والمدرسين . وكان اذا أشكل عليه أمر استشار فيه أكابر العلماء .

وكان الطالب يدخل الازهر مختارا بلا قيد ولا شرط ، ويختلف الى من أراد من العلماء لتلقى العلم عنه ، ويبقى بين جدرانه ما شاء ان يقيم . فاذا آنس من نفسه علما كافيا ، وملكة يتمكن بها من افادة غيره ، استأذن أساتذته ، وجلس للتدريس فى المكان الذى يجده خاليا ، ويعرض نفسه على الطلبة ، فاذا لم يجدوا فيه الكفاية انفضوا من حوله ، واذا وجدوه على علم استمروا فى تلقيه عنه .. عندئذ يجيزه شيخ الازهر نهائيا .

فلم يكن للازهر قانون ينظم الدراسة بنظام معين ، فلما كثر الطلاب وتقدمت الدراسة وتنوعت العلوم كما رأيت ، واتسع نطاق الأزهر ، مست الحاجة الى سن قوانين وأنظمة لضبط كل هذا ، فصدر أول قانون للازهر فى عهد الخديوى اسماعيل باشا فى سنة ١٨٧٢ء ، وقد اشرت اليه فى صفحة سابقة ، وكان شيخ الأزهر وقتذاك ، الشيخ محمد العباسى المهدى .

* * *

ما كاد نبأ نجاح الشيخ عبد المجيد وفوزه بالعالمية يذيع ، حتى اقبل عليه الطلبة راجين منه ان يقرأ لهم دروسهم ويلقنهم علومهم ، فنهج فى القائها نهجا جديدا لم يألفه الازهريون ، من دقة فى العرض ، وسهولة فى الشرح ، محللا معضلات الكتب الأزهرية فى يسر مقبول . وسلك فى الوقت نفسه مسلكا تربويا عماده الحوار المهذب ، سعيا وراء الحقيقة ، مما لم يكن للازهر به عهد ، فاتسعت حلقة درسه ، وأصبحت فى صف حلقات دروس كبار الشيوخ من أساتذته ومعلميه ، اذ كانت تضم المئات من الطلبة المصريين والعرب من جميع أقطار الاسلام .

ولعل حادثة عرضت له فى أثناء طلبه العلم ، هى التى مالت به الى سلوك هذا المسلك التربوى الذى حبب فيه الطلبة وقربه الى قلوبهم . ذلك أن جدلا ثار بينه وبين استاذه الامام الشيخ محمد عبده ، فى درس التفسير حول « القضاء والقدر » ، غضب بسببه الامام فأقصاه عن حلقة درسه .. لكنه لم يلبث أن دعاه الى منزله بالمطرية ، وأعرب له عن رضاه عنه وعن تقديره له ، بعد أن تبين له ان هذا الجدل البرىء ، لم يكن بتحريض من خصومه ، وكان خصوم الامام يومذاك لا يحصى لهم عدد .

ظل الشيخ اللبان فى القاء دروسه عامين ، لم يفيض عنهما راتبا ! ! بعدهما قررت له المشيخة مائة مليم فى الشهر ، أى والله عشرة قروش لم تزد ! ثم أخذ هذا الراتب — ان كان يستحق أن يوصف بهذا — يزيد ويزيد ويزيد ، حتى أصبح خمسة وسبعين قرشا ، مع أنه كان يدفع أجرا لسكنى منزله ، مائة وعشرين قرشا !! ولقد سمعته وهو يتحدث عن أيامه تلك ، انها كانت أسعد أيام حياته ..

بعد أربع سنوات أخر ، درس فيها — وفى العامين السابقين ، أى فى ست سنوات — لطلبته كتاب « الاشمونى فى النحو » ، وكتاب « العقائد النفسية » فى التوحيد ، وكتابا فى الفقه .

وكان من تلاميذه فى تلك المرحلة ، الشيخ عبد المجيد سليم الذى شغل منصبى الافتاء ومشيخة الأزهر ، والشيخ فتح الله سليمان الذى كان رئيسا للمحكمة الشرعية العليا ، وغيرهما من أعلام الشيوخ .

فى ذلك الأوان كان الاسكندريون يطالبون الحكومة بانشاء معهد دينى فى مدينتهم ، فانها ، كما يرون ، أحق به من مدن طنطا ودسوق وأسيوط ، التى كان فى كل منها معهد يسير على النظام القديم للازهر ، فلبت الحكومة طلبهم وانشأت معهدا فى مدينتهم فى سنة ١٩٠٦ ، أرادت ان تجعل منه نموذجا لاصلاح التعليم الازهرى على نحو جديد، يجمع بين خصائص القديم والحديث معا ، فاختارت له مشيخة الازهر صفوة ممتازة من العلماء الشبان النابهين ليطبقوا النظام الجديد ، فكان شيخنافى طليعة من اختيروا لهذه المهمة الخطيرة الجليلة ، واختاره اخوانه ليكون قاضيا يفصل بين الطلاب اذا تخاصموا ..

كانت الاسكندرية تعانى نقصا نسبيا فى الثقافة الدينية والعربية ، وفى حاجة ملحة الى قبس من هـــذه الثقافة يضىء مجتمعها ، فلم يكن بها من مصادر الثقافة العامة غير ثلاث مدارس اميرية ، وبعض المدارس الأهلية المتواضعة ، ومن مصادر الثقافة الدينية والعربية لم يكن بها سوى معهد دينى صغير هو « جامع الشيخ » يتعلم فيه عدد محدود من الطلبة ، كانوا يعملون بعد مغادرتهم له اثر انتهاء حلقات دروسهم ، أئمة بمساجدها ، أو مدرسين للعربية فى مدارس بعض الجاليات الأجنبية ، التى لم يكن يعنيها اشتراط ثقافة معينة فى مدرس العربية بها .

ولهذا أثلج صدور السكندريين ظهور الشيوخ والطلبة فى شوارع المدينة بزيهم الدينى ، وبدأ المجتمع السكندرى يتفاعل معهم ويمتزج بهم .

فى ذلك الحين نهض مصطفى كامل بدعوته الوطنيـة الى الآفاق شتى ، وانعقدت للشيخ معه ومع زملائه من رجال الحزب الوطنى ، صلات وثيقة نمت وترعرعت فيما بعد ، لا سيما صلته بكل من الشيخ عبد العزيز جاويش وعبد اللطيف الصوفانى بك .

فماذا كان عليه المجتمع السكندرى فى مطلع هذا القرن ؟

أو بعبارة اكثر شمولا : كيف كان حال الاسكندرية عاصمة القطر الثانية فى ذلك الأوان ؟

فى ظل السيطرة البريطانية والامتيازات الأجنبية ـ التى سعى الوفد المصرى الى الغائها فى مؤتمر دولى عقد فى مدينة « مونتريه » بفرنسا فى عام ١٩٣٧ وكان رئيس الوزارة مصطفى النحاس باشا ـ استطاع الاجانب الاستيلاء على ثروات البلاد وخيراتها ، واختار معظمهم ميناء الاسكندرية ميدانا لنشاطهم ، فهى ميناء الاستيراد والتصدير ، وهى مقر بنوك التجارة والاستثمار والتسليف ، وهى الى جانب هذا ، موطن الأكثرية العظمى من أبناء جنسهم .

وفى نهاية القرن الماضى وأوائل هذا القرن ، أصبحت مصائر الأمور فى الثغر المصرى ، فى يد الجاليات الأجنبية ذات النفوذ المالى والتجارى والصناعى . وكان الاجانب يهيمنون على الهيئات النيابية المحلية التى تملك سلطة التشريع فى الشئون البلدية والمحلية، اذ كان لهم معظم المقاعد فى «القومسيون البلدى» ـ المجلس البلدى بعد ذلك ـ وكان الاختصاص القضائى السائد فى المعاملات التجارية والعقارية للمحاكم المختلطة ، واكثر قضاتها من الاجانب ، وكانت سلطات الأمن والبوليس بيد الحكمدار الانجليزى ، وكذلك الشان فى مصالح البريد والجمارك و « الكورنتينات » ـ ومقرها جميعا فى الاسكندرية يومذاك ـ فان جميع مديريها وكبار موظفيها من الأجانب أو من المتمصرين .. حتى الوظائف الدنيا ، مثل محضرى المحاكم المختلطة وكتابها ومفتشى الترام ومحصلى ضرائب البلدية واجور الماء والكهرباء ، كان مرتزقة الاجانب ينافسون المصريين عليها ! !

وكانوا يستغلون بورصتى العقود والاوراق المالية لصالحهم ، دون المصريين !!

كان لتلك الجاليات أنديتها الخاصة بها ، وجمعياتها الخيرية والثقافية ، ومدارسها ومعاهدها لتثقيف أبنائها ، وزادت بعض جمعياتهم الخيرية ، فانشأت مدارس داخلية مجانية ، وملاجىء لليتامى والمحرومين ، وقبلت أبناء فقرائها فى مدارسها بالمجان .

ولم يكن للوطنيين من المدارس الأميرية غير مدرسة ابتدائية واحدة ، واخرى ثانوية بحى راس التين ، ثم انشئت المدرسة العباسية الثانوية فيما بعد ، فكانوا يضطرون الى ارسال أبنائهم الى تلك المدارس الأجنبية المتعددة ، رغم ما كان يسود مناهجها الدراسية من إنحراف دينى وقومى معا .

كان لاولئك الاجانب معظم المبانى العالية والعمارات الشاهقة ، ولهم قصورهم التى يعيشون فيها عيشة الأثرياء المترفين ، بل الأمراء الناعمين ، وهى قصور ما يزال بعضها قائما الى اليوم ، تميزت بها الاسكندرية على غيرها من المدن . اما استغلال المرافق العامة كالنور والماء والمواصلات، وتجارة الصادر والوارد ، فقد كانت : اما ملكا لافراد منهم ، أو احتكارا لشركاتهم . وكان المساهمون فى هذه الشركات واعضاؤها ومديروها وكبار موظفيها منهم ، ولهم النفوذ المطلق فى البورصتين ، الأوراق المالية والعقود ، يحركون الاسعار فيهما صعودا او هبوطا لمصلحة اسهمهم وتجارتهم .

كانت مكاتبهم التجارية تملأ اهم شوارع المدينة ، وهى تعمل فى تصدير محصولات البلاد ، واهمها القطن عماد الثروة الأهلية ، وتستورد كل ما يحتاج اليه القطر من مواد ضرورية استهلاكية أو كمالية ، وتنقلها الى داخل البلاد ... كانت مخازنهم مليئة بالسلع العادية وبالسلع الفاخرة ... كان تجار التجزئة منهم يزحمون الشوارع والحارات والأزقة ، يبيعون للمواطنين اكثر ما ياكلون ويشربون ويلبسون .. كان بعض هذه الجاليات يتجر فيما هو محرم شرعا ، أو ممنوع قانونا ، فمنهم عصابات تحترف الاتجار بالمخدرات وبالرقيق الابيض .. كانت لهم اساليبهم البارعة فى التهريب ، يمارسونها بعون من قناصلهم المشتركين معهم ، وبمساعدة جهاز البوليس الذى يشرف عليه الانجليز .

ومع أن الاسكندرية لم تكن بلدا سياحيا من الدرجة الأولى يومذاك ، فقد غصت بمجموعة من فنادق الدرجة الممتازة ، فى مقدمتها فنادق « كلاريدج » و « ماجستيك » و « وسافواى » .. هذه الفنادق الفخمة كانت مرتعا للهوهم واعبثهم ، ومجالا فسيحا لحياتهم المترفة الناعمة ، لا تضارعها حياة الساكنين من الأغنياء على شواطىء فرنسا وايطاليا .

كانت لهم صحافة عالية الصوت تخدم مصالحهم ، وتدافع عن امتيازاتهم . من هذه الجرائد اليومية : « البورص اجبسيان » و « الريفورم » و « البروجريه » و « الاجبشيان جازيت » و « الفاردى الكسندرى » و « المساجيرى » و « تاخودروموس » و « جورنال دى كير »، وغيرها من الصحف الاسبوعية والشهرية عدا جريدة عربية لأسرة متمصرة هى اسرة رشيد شميل ، احتكرت بنفوذهم نشر اعلانات المحاكم المختلطة ذات الأجر المرتفع ، نحو أربعين عاما ، فاقتنى أصحابها العمارات ، واسهموا مع الأجانب فى الشركات !!.

ارايت ؟

كان للاجانب فى الاسكندرية ، دولة داخل الدولة ، ونادرا ما كنت تسمع اللغة العربية واللجهة المصرية فى شوارعها وطرقاتها ومنتدياتها ، المزدحمة باولئك الضيوف الثقلاء ، والذين لا يتحدثون الا بلغاتهم وبلهجاتهم ، وبرطانتهم .. !!

أما أصحاب المدينة ، فكانوا مبعدين عن كل نشاط مالى أو اقتصادى أو صناعى يجرى على أرضهم .. يعيش الغنى منهم على ايراد ثابت محدود من ريع بعض العقارات القديمة ، أو من ادارة واستغلال الاملاك الموقوفة على أسرهم ، أو من مزاولة بعض النشاط التجارى الثانوى . أما غيرهم من أبناء الطبقة الوسطى ، فيعملون فى الوظائف الصغيرة جدا فى مصالح البريد والجمارك « والكورنتينات » و « القومسيون البلدى » وكانت ممارسة الاعمال التى تشبه أعمال السخره فى الميناء وفى المرافق الاخرى ، فى ايدى « معلمين » يستخدمون فيها عددا كبيرا من الكادحين النازحين من الصعيد الى الاسكندرية ، فى طلب القوت .

وكانت اقامة الوطنيين مركزة فى الاحياء الوطنية القديمة ، فالأعيان والتجار والموظفون يقيمون بقسم الجمرك ، واصحاب الحرف وعمال النقل والشحن فى مينا البصل وميناء الاسكندرية يسكنون فى قسم كرموز ، الى أن تيسر للقادرين من الاهالى الانتقال الى قسم محرم بك أو ضاحية الرمل ، عند ما بدأ العمران يمتد اليها .

هذه هى الحال المؤلمة المحزنة التى كانت عليها الاسكندرية ، عندما وصل اليها الشيخ عبد المجيد اللبان ، للتدريس فى معهدها الدينى الجديد فى عام ١٩٠٦ ، ورأى الأهالى يطوون جوانحهم على الذل والمسكنة مكرهين ، يحاولون تحطيم هذا الحصار الذى فرضه عليهم الاستغلال الاجنبى الجشع الشره ، ليأخذوا مكانهم الطبيعى فى مدينتهم ، فلا يقوون . وحاولوا عبثا أن يحققوا لأنفسهم حياة كريمة ، تقوم — فى القليل — على المساواة بينهم وبين هؤلاء الوافدين الطامعين .

تشمر الشيخ عن ساعده ، واقبل على معاونتهم لتحقيق هذه الآمال ، بايمان وعزم صادقين . فعمل أولا على هدم ما يقوم بين السياسة ورجال الدين من حواجز ، وشرع يشاطر الأهلين كفاحهم فى سبيل اصلاح مدينتهم ، ثم كفاحهم فى تحرير الوطن من المحتل ، مع كفاحهم لاسترداد المدينة من ايدى هؤلاء الغاصبين من الاجانب . وكان للشيخ من ثقافته

العلمية الواسعة ، ومن اتصالاته العديدة بكثير من المواطنين المخلصين ، ومن شجاعته الأدبية النادرة ، ما أهله ليحتل مقام الصدارة والتوجيه ، فى كل نضال نهض به شعب العاصمة الثانية فى جميع الميادين والمجالات ، فاصبح فيما بعد ، زعيم الاسكندرية ، أو شيخ السكندريين .

كانت أول خطوة خطاها فى هذا السبيل ، ان جعل من داره الكبيرة التى اشتراها فى صميم الاحياء الوطنية ، مقرا لندوات سياسية وثقافية ودينية ، تضم كبار العلماء واعيان المدينة وموظفيها ومثقفيها من ذوى المهن الحرة كالأطباء والمحامين والتجار وغيرهم ، هادفا بهذا الى ايجاد رابطة وثيقة بينهم جميعا ، بالتعرف على بعضهم بعضا ، ثم بالتعاون على خير المدينة واهلها . وكان يحضر بعض هذه الندوات من يفد على الاسكندرية من رجال العلم والسياسة والادب من القاهرة .فى هذه الندوات كانت تعرض المشكلات المحلية أو العامة للمناقشة ، فاذا انتهى النقاش الى رأى معين فى مشكلة ما محلية ، كلف كل فريق من الحاضرين بحل ما يتصل به من جوانبها . ثم خطا الشيخ خطوة ثانية ، فأسس « جمعية ارشاد الخلق الى الحق » لدعوة الناس الى التمسك بالدين والعمل باحكامه فى امور دنياهم وآخرتهم ، وكانت امور الدنيا تشمل الواجبات الوطنية المفروضة على كل مصرى ، وما هو مطلوب منهم بذله فى سبيل استقلال الوطن .

لقد ضمت هذه الجمعية مع اعضائها من العلماء ، اعضاء من جميع الطوائف ـ وكان من وعاظها ودعاتها تلميذه الشيخ عبد المجيد سليم ـ وكانت توضع لها فى كل اسبوع برامج مفصلة تشمل اسماء المحاضرين وموضوعات المحاضرات ومكان القائها ، كان بعضها يلقى فى المساجد الكبيرة فى مساء بعض الايام وعقب صلاة كل جمعة ، والبعض الآخر كان يلقى فى سرادقات فسيحة يدعى اليها ابناء المدينة دعوة عامة ، ولم يكن المحاضرون او الخطباء من العلماء وحدهم ، بل كان منهم المحامون والمثقفون ثقافة عالية من الموظفين والادباء .

ثم خطا الشيخ خطوته الثالثة ، فاتجه الى ميدان البر والاحسان المنظم ، بعد ما هاله نشاط الأجانب فى جمعياتهم الخيرية وبرهم بطوائفهم ، فاسس « الجمعية الخيرية لسكان قسم الجمرك » ، كمثال لما يجب ان تقوم عليه جمعيات البر فى كل قسم من اقسام المدينة ، وعلى غرارها تاسس فى معظم الاقسام جمعيات مماثلة ، فكانت أول جمعية من نوعها فى مصر .

ولم يكن الغرض من تأسيسها جمع المال — ولا سيما فى شهر رمضان — وتوزيعه على المحتاجين ، أو المساعدة فى تعليم أبناء المدينة الفقراء ، أو توزيع الكسى عليهم فى المناسبات والاعياد فحسب ، بل كان همه الأول من تأسيسها ، هو تدريب الشعب على أعمال البر المنظم ، واشاعة حبه فى النفوس .

ولايزال بعض هذه الجمعيات قائما يؤدى رسالته بنجاح إلى اليوم

ماذا كانت نتيجة هذه الخطوات الثلاث ، لا سيما الخطوتان الأوليان ، اللتان كان لهما دور كبير فى ثورة سنة ١٩١٩ الخالدة ؟

اسمع ياسيدى ..

الف محمد سعيد بك رئيس نيابة الاسكندرية — وكان من رواد ندوات الشيخ ومن أعضاء جمعيته ، ثم كان رئيسا للوزارة مرتين الأولى فى عهد الخديوى عباس حلمى فى ١٣ فبراير سنة ١٩١٠ الى ٥ ابريل سنة ١٩١٤ والثانية فى عهد السلطان أحمد فؤاد فى ٢٠ مايو سنة ١٩١٩ الى ٢٠ نوفمبر من السنة نفسها — رابطة من الأهالى للقيام بالاصلاح الداخلى الذى يتطلع اليه السكندريون ، والسعى للفوز بحقوقهم المشروعة .. فأسسوا أولا ناديا لهم سموه « النادى الخديوى » ليكون مقرا لاجتماعهم ، بعد ما احتل الأجانب فرع نادى محمد على بالمدينة . ثم أسسوا « جمعية العروة الوثقى » لنشر التعليم بين أهل الثغر ، فانشأت بعض المدارس الابتدائية والثانوية ، ثم مدرسة محمد على الصناعية ، وملجأ الايتام الصناعى فى حى الشاطبى .

وهكذا شعر المواطنون للمرة الأولى ، بانه قد اصبحت لهم مؤسسات خيرية وتربوية مصرية تضارع مثيلاتها من المؤسسات الأجنبية .

واذ جنى المواطنون ثمر تضافرهم ، نظموا صفوفهم لخوض غمار انتخابات « القومسيون البلدى » ، لشغل كراسى الملاك ودافعى الضرائب ، لينضموا الى زملائهم الوطنيين المعينين بحكم وظائفهم ، ففاز ممثلوهم فى الانتخابات ، ولهذا قوى الرأى الوطنى فى « القومسيون » ، واستطاع الاعضاء الوطنيون أن يحدوا من تجاهل الاجانب ، حق الاحياء الوطنية فى مشروعات الاصلاح والتعمير .

ثم خطوا خطوة اخرى ، لكنها واسعة ، فتعاونوا على اصدار جريدة يومية تكون صوت الاسكندرية الناطق عن أهلها ، أمام طغيان الامتيازات الاجنبية ، سموها « الأهالى » .

وكان هناك فريق من شباب الموظفين ، نجحوا فى اسلوب انتهجوه ، هو الالتحاق بالوظائف مهما كانت صغيره ، ثم متابعة الدراسة الليلية للفوز بالشهادات العالية ، ثم السعى الحثيث الدؤوب لشغل المناصب اللائقة بمؤهلاتهم الجديدة ، وقد وفقوا كل التوفيق فى اسلوبهم هذا ، ووصل بعضهم الى مناصب المديرين فى الجمارك وفى البريد ، منهم المرحومون : محمد فهمى عبد المجيد بك ـ والد الاستاذ عصمت عبد المجيد مندوب مصر فى الامم المتحدة ـ وحسين فهمى بك وفد ولى وزارة المالية فى ١٥ يناير سنة ١٩٤٩ فى وزارة ابراهيم عبد الهادى باشا ، وعبد الرازق ابو الخير بك ، وعبد الرحمن زهدى بك .

ثم فكر محمد سعيد بك فى انشاء ناد للموظفين ، فانشأ « نادى موظفى الحكومة » ، ولم يلبث اعضاؤه ان انضموا الى القائمين بحركة الاصلاح الداخلى لمدينتهم ، ومن هذا النادى ، انبثقت « جمعية المواساة الاسلامية » المشهورة بمستشفاها العظيم .

اما التجار المصريون ، فانشأوا أول غرفة تجارية لهم ، فكانت نواة اصلاح وتجديد فى الميدان التجارى ، ثم صدرت جريدتا « التجارة » و « الجريده التجارية المصرية » ، لخدمة التجارة الوطنية .

ارأيت ماذا فعلت ندوات دار الشيخ اللبان وجمعيته « ارشاد الخلق الى الحق » ، فى شباب الاسكندرية واهلها ؟

لقد اعاد الرجل الى المدينة مصريتها ، بعد أن عراها منها الاجانب ، فى كل مجال ، وفى كل ميدان .

نعم ، لقد مصرها من جديد ، وبث فى اهلها روح الثقة بالنفس ، والاعتداد بالحق ، والشجاعة والاصرار فى طلبه .

ولم يصرف السكندريين اهتمامهم بالاصلاح الداخلى لمدينتهم ، عن القيام بدورهم فى معركة الاستقلال ومحاربة المستعمر ، بل ان هذا الاهتما زادهم خبرة فى نضالهم ، جعلت دورهم فى المعركة الكبرى حاسما وف

ومنذ قيام حركة مصطفى كامل الى شبوب ثورة سنة ١٩١٩ التى قاده الزعيم العظيم سعد زغلول ، ادت الاسكندرية الواجب عليها فى ميدان الجهاد الوطنى بصدق واخلاص ، قدرهما فيها مصطفى كامل ، فجعل منها منبرا أعلن من فوقه مبادىء حزبه الوطنى من خلال خطاب سياسى ضاف القاه فيها فى يوم ٢٢ اكتوبر سنة ١٩٠٧ .

فى تلك الحقبة ، صدرت بالاسكندرية ، الى جانب جريدة « الأهالى » التى كان يحررها الاستاذ عبد القادر حمزة ــ وهو من أعلام الصحافة فى ثورة ١٩١٩ الذين تفخر بهم مصر وتعتز ، فقد انتقل الى القاهرة وأنشأ بها جريدة « البلاغ » ناطقة باسم الوفد المصرى ــ جرائد « الأمة » ورأس تحريرها الاستاذ محمد الههياوى من فحول الكتاب الذين انجبهم الأزهر الشريف ، و «الشعب المصرى» ورأس تحريرها الاستاذ سعد اللبان النجل الأكبر للشيخ ، و « وادى النيل » ورأس تحريرها الأستاذ محمد الكلزة . ومع انها كانت تصدر كلها فى وقت واحد ، هو الصباح ، الا انها كانت واسعة الانتشار .

***

ميدان آخر جليل الخطر ، اسهم فيه الشيخ بجهوده ، وناضل فيه ماوسعه النضال الكريم الشريف ، دفاعا عن الدين وعن شريعة المسلمين

ففى الربع الأول من هـذا القرن ، بدت فى المجتمع المصرى ظاهرتان خطيرتان :

الأولى : موجة الالحاد التى حمل ميكروبها بعض العائدين من الخارج بعد ما اتموا دراساتهم ، متأثرين بآراء فجة استهواهم بريقها ، ودعايات مسمومة لبعض المستشرقين انطلى عليهم زيفها ، فأخذوا ينشرون هـذه الدعايات فى الصحف ، ويذيعونها فى الأندية المشبوهة فى محاضرات معبأة بالشك فى الاسلام وفى نبى المسلمين عليه الصلاة والسلام ، فتصدى لهم المؤمنون بدينهم ، الواعون حقيقته ، داعـين هـؤلاء الشـبان المفتونين الى العودة الى دينهم القويم ، خير دين انزل على خير نبى .. كانت مقالات الشيخ اللبان تحتل صدر صحيفة « الأهالى » ، مكان مقالها الافتتاحى ، فى كل صباح ، والمفتونون يردون على ما يكتب ، فيـأخذ بتلابيبهم ، حتى الزمهم الحجة ، فصلح حالهم ، وعادوا مسلمين ، بل من أفضل المسلمين تقى وورعا وايمانا .

وهنا لابد لى من أنوه بما كان من عمل مشكور للانبا يؤانس ــ بطريرك القبط الارثوذكسى فيما بعد ــ فقد آزر الشيخ ووقف الى جانبه ، حينما انتهزها بعض القبط فرصة ، فحاولوا النيـل من الاسلام ، حتى خبفت الفتنة ان تشيع بين المسلمين وبين اخوانهم الاقباط ، لكنهما بتضافرهما ، حفظا وحدة الأمة من التصدع والانهيار .

الثانية : تمثلت فى ذلك النشاط الجرىء الذى كان يبديه المبشرون الأجانب ، بما يصدرونه من مؤلفات تتناول بالنقد وبالتجريح كثيرا من المسائل الدينية الحساسة عند المسلمين ، كمسائل الميراث وتعدد الزوجات ، وتجاوز بعضهم الى الطعن الصريح فى الاسلام والمسلمين ، فى عظاتهم الاسبوعية فى كنائسهم ، وتجرأ آخرون فاستهووا بختلهم وخداعهم شبابنا وشابات من ذوى الفهم السقيم والعقل المريض ، فحولوهم من الاسلام الى المسيحية .

لم يقف الشيخ وزملاؤه العلماء متفرجين ، بل هبوا لمقاومة هذه الظاهرة الخبيثة ، بالرد على ترهات المبشريين والوعاظ الخادعين ، لانقاذ ضحايا الجهل والفقر من أيديهم ، بعد أن اشتروا منهم أنفسهم ودينهم بدراهم معدودات .

وكان العلماء ينتظرون مؤازرة من الحكومة لاخماد هذه الفتنة الجامحة، فلما لم تفعل ، أعلنوها صراحة فى بيان صريح شديد ، كان أول من وقعه شيخنا اللبان : « انه اذا لم يكف المبشرون عن التغرير بالضحايا من ضعاف العقيدة ، فان علماء الاسلام ، وقد التزموا حتى هذا الوقت الصمت ، احتراما لمبادىء الاسلام التى تقرر حرية العقيدة لأهل الكتاب .. سينزلون الى الميدان ، وحينئذ يعلم المبشرون لمن ستكون الغلبة ، وسيهزم حقنا باطلهم ، وسينصرنا الله عليهم ، ولينصرن الله من ينصره ، ان الله لقوى عزيز » .

وكان لجماعة « ارشاد الخلق الى الحق » دور فعال فى هذه المحنة التى وقى الله الاسكندرية ، ومصر كلها ، شرها ، فكان اعضاؤها من العلماء يغشون مجتمعات المبشرين ويناظرونهم ويفندون مزاعمهم ، ويكشفون زيف تخرصاتهم أمام الجميع ، حتى أخمدت الفتنة ، وسكنت حركة المبشرين ، وعادوا الى صوامعهم ، مؤثرين المسالمة على ما تورطوا فيه من شر بعد كفاح مرير ، لكنهم فى الوقت نفسه ، ارسلوا الى الخديوى والى حسين رشدى باشا « رئيس النظار » شاكين باكين ، فدعا رشدى باشا الى مقابلته ، شيخ معهد الاسكندرية ، الشيخ أبو الفضل الجيزاوى — شيخ الأزهر فيما بعد — وحدثه فى الأمر بلهجة عنيفة ، مؤنبا العلماء فى شخصه على تكدير صفو الضيوف الأجانب !

فأجابه الشيخ الجيزاوى بصوت عال صارخ بالاحتجاج ، قائلا له :

ـ ان أمركم لعجيب يا باشا ! تتركون المبشرين يعيثون فى أرضنا فسادا ضد ديننا الحنيف ، ثم تحظرون على العلماء أن يهبوا لنصرة دينهم ، هذا ما لا ينبغى أن يكون ..

وغادر مكتب رئيس النظار غاضبا .

ورفع الامر الى الخديوى ، فطلب مقابلة رئيس هذه الجماعة التى تصدت للمبشرين ، جماعة « ارشاد الخلق الى الحق » ، فذهب اليه الشيخ اللبان ومعه اربعة عشر كتابا مما نشره المبشرون طعنا فى الاسلام وأهله ، مما كان له تأثير قوى وحسن فى نفس الخديوى ، فقال لرشدى باشا :

ـ لا تتعرض للعلماء ، دعهم يؤدوا الواجب عليهم نحو ديننا ، ما دام هذا الاداء فى حدود القانون .

وذاع أمر هاتين المقابلتين فى الناس جميعا ، فارتفع شان الجماعة ، وشد من ساعدها ، وشجعها على العمل بدأب ونشاط فى تثقيف الأهالى وتعليمهم ، واكد السكندريون زعامة الشيخ لمدينتهم ، بوفود احتشدت بها داره ، معترفين بفضله ، شاكرين جهوده فى سبيلهم ، وكلما زادوه اقبالا ، زادهم عملا وجهدا ، وبذل لهم من وقته وصحته ، ماخلد له فى الاسكندرية ذكرا عطرا لن تمحوه الأيام .

وتقديرا من أولى الأمر لجهوده ، صدر قرار بتعيينه عضوا بمجلس ادارة المعهد فى ٥ أكتوبر ١٩١٣ .

وفى اغسطس سنة ١٩١٤ اندلعت الحرب العالمية الأولى ، واعلنت الاحكام العرفية بمصر ، وفرضت بريطانيا حمايتها عليها كما هو معروف ، وتحرجت الأمور ، وساور القلق النفوس ، وازداد السخط على البريطانيين لعسفهم وطغيانهم ، فقد اشتطوا فى تسخير موارد البلاد لخدمة مجهودهم الحربى ، وازدادوا عسفا فجندوا العمال والفلاحين واستخدموهم فى أعمالهم المدنية ، بعدما غصبوا خيولهم وحميرهم ، واستولوا على محصولات البلاد الزراعية واقوات الشعب لتموين جيوشهم .

وكما يعلم القارىء ، انضمت تركيا الى المانيا ضد انجلترا وحلفائها ، فكان من الطبيعى ان يؤيد المصريون تركيا وناصروها ، لما كان بربطهم بها من صلات مشهورة ، غير منكورة ، ولانهم كانوا يريدون الخلاص من الاحتلال الانجليزى ، على يد المانيا وحليفتها تركيا .

وقدر الترك : أنه اذا لم يستطيع المصريون أن يقدموا لهم فى هذه الحرب العالمية المساعدات التى الفوها منهم ، فى حروبهم ، وكانت تتمثل فى مساعدات مادية تجمع من تبرعات سخية ، وخدمات صحية يؤديها الهلال الاحمر المصرى ، كما حدث فى حربهم مع ايطاليا فى ليبيا ، ومن قبل فى حربهم مع اليونان والصرب والبلغار ، وهى الحرب المعروفة بـ « حرب البلقان » .. فان فى استطاعتهم أن يقدموا لدولة الخلافة الاسلامية من المساعدات ما هو اكثر تأثيرا فى الحرب ، من المعونة المادية .. ان حركة شعبية مضادة يقوم بها المصريون ، سوف تضر بالمجهود الحربى البريطانى وتلحق به أفدح الضرر ، ومن شأن حركة كهذه أن تفيد تركيا أعظم فائدة ..

فأعلن سلطان تركيا وخليفة المسلمين الجهاد ، واذاع بيانا حضهم فيه عليه ، لانه جهاد فى سبيل الله ، وتأييد لدولة الخلافة الاسلامية فى حربها المقدسة ، وطلب منهم التطوع فى جيشها ، أو مدها بالمساعدات ، أو الثورة على اعدائها فى بلادهم . ووزع هذا البيان فى جميع اقطار العالم الاسلامى ، ووصلت منه الى مصر الوف من النسخ ، رغم الرقابة المفروضة على المطبوعات ، الداخل منها أو الخارج ..

وخافت بريطانيا أن تلبى مصر النداء ، فترفع علم الجهاد وتثور عليها ، فتفسد عليها أمرها ، وهى فى حرب ضروس ، ولم يكن باستطاعتها أن تصنع فى مصر شيئا تفتت به تأثير هذا البيان ، فكلفت قاضى قضاة السودان ، العالم المصرى المرحوم الشيخ محمد مصطفى المراغى — شيخ الأزهر فيما بعد — ان يرد على البيان بفتوى دينية تقعد بالمسلمين عن تلبية نداء خليفتهم ، فنهض الشيخ بالتكليف ، فأفتى بأن زمن الجهاد الدينى — فى رايه — قد انتهى ، وزاد فقال « أن باب الجهاد فى الفقه الاسلامى ليس من أبوابه الأصيلة ، وان أحكام الجهاد وضعت استجابة لنزوات الملوك والخلفاء لأغراض سياسية وحربية ، وليس لها أصل فى الدين ، ولولا خوف الائمة من بطش الخلفاء بهم ، ما كتبوا حرفا فى باب الجهاد » !

ونشرت جريدة « السودان » فى الخرطوم ، هـــذه الفتوى ، وطبعت السلطات البريطانية الوفا منها وزعتها فى البـــلاد الاسلامية التى يحكمها الانجليز وحلفاؤهم ، ونشرتها يومذاك فى مصر جريدة « المقطم » وحدها .

عندئذ زلزل الرأى العام ، وغضب العلماء وهاجوا ، لما فى الفتوى من افتراء على الأئمة ، وتشكيك صريح فى حكم من احكام الدين ، وكتب الشيخ اللبان مقالا مسهبا فند فيه هذه الفتوى « السياسية » ، بل حطمها ، ودفع عن الأئمة والعلماء الضعف والاستخداء فى أمور دينهم ، وأبان كيف تعرض بعضهم للسجن وللتعذيب على يد بعض الخلفاء ، لينزلوا على رأيهم الباطل فى محنة القول بخلق القرآن ، وأوضح حقيقة الجهاد فى التشريع الاسلامى وما تستند اليه أحكامه من الادلة .. وارسل المقال كعـــادته الى جريدة « العلم » التى كان يصدرها الحزب الوطنى بعد تعطيل « اللواء » ، فأعاده اليه صديقه الاستاذ أمين الرافعى رئيس التحرير ومعه كتاب رقيق قال له فيه : ان نشر هذا المقال معناه تعطيل الجريدة ، واعتقال الكاتب والناشر، ومحاكمتهما عسكريا .

ولكن أحد تلاميذ الشيخ ، هو المرحوم الشيخ عبد الحميد النحاس ، وكان من الأدباء والشعراء البارزين فى ثورة ١٩١٩ ، تحمس لنشر المقال ، فنسخ بخطه صورة منه وذيله بامضائه وبعث به الى « الجريدة » ، فضبطت رقابة البريد المقال ، واعتقل مرسله ، وحاول المحققون العسكريون الانجليز أن يعرفوا منه الكاتب الحقيقى للمقال ، لأنه غير معقول أن يستطيع شاب فى مثل سنه كتابته ، فأصر على أنه هو كاتبه ، فقرروا نفيه الى مالطة ، فسيق اليها وبقى بها أربع سنوات ، حتى انتهت الحرب فاطلق سراحه .

وما لبثت السلطات البريطانية أن عرفت من عملائها ، صلة الشـــاب بالشيخ ، وتردده على داره ، فوقفوا على السر الذى عنـــه يبحثـــون ، فوضعوا الشيخ تحت الرقابة العسكرية الخفية طوال مدة الحرب

ومن الطريف أن الشيخ كشف بالصدفة أمر هذه الرقابة ، وعرف أشخاص المكلفين بها . ففى صباح باكر وهو فى طريقه الى مسجد أبى العباس ليلقى فيه درسه اليومى ، اقترب منه شاب ــ كان يلحظه دائما قريبا منه ــ وقبل يده ورجا منه الصفح والمغفرة ! فسأله عن أمره ، فقال انه « المخبر السياسى » الجديد المكلف بمراقبته ، وكان له زميل قام بالمراقبة قبله ، فقد طفليه واحدا بعد الآخر ، فى خلال ثلاثة أشهر ، « فاعتقد أن هـــذا انتقام من الله لقيامه بهذا العمل ضد فضيلتكم ، فاستقال من البوليس

السياسى ، وعينت بدلا منه منذ اسبوعين . واليوم اصبح طفلى الوحيد مريضا ، واخاف أن أفقده ، فقررت أن اطلعكم على أمرى ، راجيا منكم الصفح والمغفرة » !!

فطيب الشيخ خاطره ، ونصحه بأن يكون أمينا فيما ينقله من اخباره، وله بعد ذلك أن يطمئن الى رضاه عنه وعطفه عليه . وشفى الطفل باذن الله ، وبقى هذا « المخبر » ألزم للشيخ من ظله ، بل كان يحمل عنه ما قد يشتريه فى طريقه من سلع ، أو حافظة كتبه واوراقه ، وكثيرا ما دعاه الى الغداء على مائدته

لقد ارادت هذه السلطات البريطانية أن تنفى الشيخ الى مالطة ، فاوعزت الى القائمقام أحمد فؤاد بك من كبار رجال ضباط القلم السياسى، بتعقبه وكتابة تقرير ضده ، على أساسه ينفذ النفى . وكتب التقرير وعاد الى بيته مهموما ، فسأله صهره والد زوجته ابراهيم رفعت باشا عن سر همه ، فانبأه بما حدث وزاد فقال له انه غير مطمئن الى ما كتبه ، فنهره وقال له : الا تعلم اننا - الشيخ وانا - كشقيقين يحب كلانا صاحبه الحب كله ويرجو له كل خير ؟ ذلك لأن زوجتى - حماتك - ابنة الشيخ طموم - تعتبر نفسها من أبناء الشيخ للصلة القوية التى كانت تربطه بوالدها . فاذهب واكتب تقريرا آخر ، سد فيه كل المسالك والثغرات التى يمكن أن ينفذوا منها الى سبب لنفى الشيخ . وصنع احمد فؤاد ما أرشده اليه صهره ، ومزق التقرير الأول ، وقدم التقرير الثانى ، فلم يجد الانجليز فيه من الأسباب ما يبرر النفى ، فعدلوا عنه

ولقد حدث فى سنة ١٩١٠ حادث كان الأول من نوعه ، اذ أصدر الشيخ سالم السحراوى قاضى المدينة الشرعى ، حكما بفرض نفقة على زوج لزوجتين له ، فأطلق الرصاص من مسدس ، كان يخفيه فى جيبه ، على القاضى ليقتله وهو فى مجلس القضاء ، ونشرت الصحف الحادث ، فكان مثار تعليقات وآراء حول دوافعه وأسبابه ، وألح بعضهم على « ناظر الحقانية » - وكان سعد زغلول باشا - أن يصدر تشريعا يحرم به تعدد الزوجات ، أو وضع قيود تحد من هذا التعدد ، حتى لا يتكرر مثل هذا الحادث ، ولمز بعضهم الشريعة الاسلامية فى بعض ما كتب . فانبرى الشيخ اللبان مدافعا عن الشريعة السمحة ، ونشر مقالا فى جريدة « المؤيد » عنوانه « لا تستظهروا على الاسلام » فند فيه آراء أولئك

الكتاب ، مظهراً زيفها وباطلها ، ثم أوضح وجهة نظر الاسلام فى اباحة التعدد .. كل هذا فى بيان شاف رصين ، وحجة ساطعة وأسلوب مقنع ، وطلب الى الوزارة الا تصغى الى هؤلاء الصائحين بالفساد والعبث ، فلا تقدم على تقييد الأحكام الشرعية ، لأن فيها سعادة الناس جميعا لو كانوا يعقلون

كانت هذه المقالة اول اتصال للشيخ بالصحافة .. قراها سعد فأعجب بها . ودعا صاحبها اليه ليتعرف عليه ، فكان هذا أول لقاء بين الرجلين ، أعجب فيه كل منهما بأخيه

ولما قام سعد قومته الكبرى فى سنة ١٩١٩ ، كان الشيخ فى مقدمة الذين وقفوا الى جانبه ينصرونه ويؤيدونه ، فكان بيته فى الاسكندرية « بيت الامة » ، فيه عقدت الاجتماعات الوطنية ، وفيه ألفت اول لجنة مركزية للوفد مثلث فيها طبقات الشعب جميعا . ولهذا حينما خلى الانجليز سبيله ، فى اليوم الذى خلوا فيه سبيل سعد وصحبه من مالطة ، غادر المعتقل الى بيتسه فى موكب شعبى كبير ، وتألفت فى انحاء الثغر مظاهرات ضمت الألوف تهتف بالاستقلال وبحياة مصر وبحياة سعد وبحياة الشيخ ، كانت بداية العمل الثورى الكبير الذى نهض به الشعب السكندرى فيما بعد

وفى العام الأول من الثورة ــ عام ١٩١٩ ــ وبعد هبوبها بأشهر قلائل ، وسعد يجاهد فى أوربا ويناضل ويرفع صوت مصر مطالبا باستقلالها التام ، حدثت فى الاسكندرية فتنة عمياء بين الأرمن والوطنيين ، سقط فيها عشرات القتلى من الفريقين ، كالفتنة التى حدثت فى القاهرة فى الوقت نفسه

فاستغل أعداء الوطن هذه الفتنة أشنع استغلال ، والقوا فى روح الأقليات والأجانب أنهم معرضون للانتقام والأذى من المصريين ، وخشى الأرمن على انفسهم ، فجمعوا جموعهم فى كنيستهم ، واحتموا بها فى حراسة جند من الانجليز ، ومد الشيطان راسه وقودا للفتنة .. وهنا ظهر الشيخ اللبان فى الميدان ، ليقد راس الشيطان ، وليطفىء نيران الفتنة ، فدعا قساوسة الأرمن وبطارقتهم وكبراءهم الى الاجتماع فى داره ، فلبوا الدعوة والفزع يأكل افئدتهم ، فأمنهم الشيخ على انفسهم وعلى طائفتهم ، قائلا لهم : ان الوطنية المصرية أجل وأكبر من أن تحقد على مصرى مهما كان

اصله او ملته . ثم غادر الدار وهو يتوسطهم ، فطاف بهم المدينة ، وزار معهم كبراءها واهل الثقة فيها ، فزادوا من اطمئنان الارمن . وبهذا اجتثت جذور الفتنة ، وهدات المدينة تماما . ثم صورت صورتان : صورة للعلماء مع زعماء الامن ، وصورة لهم مع قساوستهم ، كرمز لاتحاد عناصر الامة .

وكان عبد الخالق مدكور باشا — كبير تجار العاصمة يومها — فى طريقه الى اوربا سنتئذ ، فاودعه الشيخ اللبان هاتين الصورتين ليسلمهما الى الزعيم سعد زغلول فى باريس .. واجتمع سعد بأعضاء لجنة ملنر فى لندن قبل مجيئها الى مصر ، وعلى لسان اعضائها الح الانجليز فى طلب حماية الاقليات ، واحتجوا بفتنة الارمن فى الاسكندرية ، فأراهم سعد الصورتين ، فافحمهم ولزمتهم الحجة

لهذا لم يفت سعدا ان يذكر هذا الصنيع للشيخ ، فيشكره عليه فى اول خطبة له بالاسكندرية فور عودته من الخارج

ووصلت لجنة ملنر الى القاهرة بعد ظهر يوم الأحد ٩ ديسمبر سنة ١٩١٩ ، ونزلت فى فندق سميراميس ، فأثار وصولها هياجا واضطرابا ، وتالفت المظاهرات ضدها فى جميع أنحاء البلاد ، سقط فيها مئات من المصريين ، صرعى وجرحى ، واحتجت جميع الطوائف على قدومها ، حتى السيدات المصريات اجتمعن فى دار البطريركية المرقسية واصدرن بيانا شاركن فيه طوائف الأمة الاحتجاج ، والفن مظاهرة كبيرة سارت من دار البطريركية الى شارع كامل (الجمهورية الآن) فميدان الأوبرا فشارع عابدين ، حيث اعترض طريقهن الجنود البريطانيون ، طالبين منهن التفرق ، فصوبوا البنادق الى صدورهن ، فازددن اصرارا على المضى بمظاهرتهن حيث يردن . فخجل الانجليز ، ودعوهن ، فسرن فى بعض الشوارع والجمهور يحييهن وينضم اليهن ، ثم تفرقن بارادتهن

وبعد ثلاثة اسابيع من وصول اللجنة ، اصدرت بيانا بمهمتها ، قالت فيه ان اللجنة اوفدت من قبل الحكومة البريطانية بموافقة البرلمان البريطانى ، للتوفيق بين امانى الامة المصرية ، والمصالح الخاصة التى لبريطانيا العظمى فى مصر ، مع المحافظة على الحقوق المشروعة لجميع الاجانب القاطنين فى البلاد

ثم قالت اللجنة : « ونحن على يقين من انه يمكن الوصول الى هذا الغرض مع توافر حسن النية من الجانبين . واللجنة ترغب رغبة صادقة فى أن تكون العلاقات بين بريطانيا العظمى ومصر ، قائمة على اتفاق ودى يزيل أسباب الاحتكاك ، ويمكن الأمة المصرية من صرف كل مجهوداتها الى ترقية شؤون البلاد فى ظل أنظمة حكم ذاتى »

لقد لقى هذا البيان استياء من جميع الهيئات وطوائف الأمة بلا استثناء ، فرد عليه الوفد المصرى ، ورد عليه الحزب الوطنى ، ورد عليه امراء البيت المالك فى يوم ٣ يناير سنة ١٩٢٠ ببيان اختلفت فيه الآراء ، وقد قالوا فيه ،

ـ « أبناء مصر ، مواطنينا الأعزاء

« يوم اقتضت الارادة الصمدانية ايداع مصير مصر ، بين يدى من كان خالق مصر الحديثة وخادمها ، منقذ المصرى ومرشده ، الا وهو جدنا الأكبر وسيدنا الأعظم المرحوم محمد على الأول ، وجمعت القدرة الالهية فى شخص هذا البطل العظيم الحكمة والشجاعة فى أعماله ، مع الصدق والولاء نحو مصر ، فجعلت المشيئة الربانية أن يعقب هذا الشخص الجليل، ذرية تقطن هذه الأرض الطاهرة ، مغمورة بنعمها .. فرض الله علينا بهذا خدمة مصر واخواتنا المصريين ، والسير على اثر جدنا الأكبر لتحقيق آماله الشريفة ، ولتتميم أعماله النافعة لبلادنا ، والمطالبة بحقوق مصر والمصريين. وحيث ان الأمة المصرية الشريفة ، التى هى سبب عظمتنا ، وشوكتنا وفخارنا ، قد قامت بالواجب عليها قياما يجعل لها ولنا أعظم منزلة نتفاخر بها فى العالم بأسره ، وبما انه لم يبق من جميع طبقات امتنا العزيزة ، طبقة الا نادت بأعظم صراحة وأجلى بيان ، مطالبة بحقوقها الشرعية المقدسة والحقة ، فقد جئنا نحن أولاد محمد على ، لا لنشارك امتنا فى أمانيها ومقاصدها فقط ، بل لنضم صدورنا الى صدر أفرادها ، ونجعل أيدينا فى أيديهم ، حيث أننا لسنا الا روحا واحدة ، حتى نكون جسما لا يبتر ، وقوة لا تقهر ، فنطالب بحقوق وطننا ، نطالب بحقوق أمتنا ، نطالب بحقوقها الشرعية ، نطالب باستقلال مصرنا استقلالا تاما مطلقا ، بلا قيد ولا شرط »

ووقع على هذا البيان الأمراء : عمر طوسون وكمال الدين حسين ومحمد على ابراهيم ويوسف كمال واسماعيل داود ومنصور داود

وأرسلوا فى اليوم نفسه مذكرة الى اللورد ملنر رئيس اللجنة ، تضمنت ما جاء فى البيان

وبعد اربعة ايام ، وبعد ما ثار لغط وجدل ونقاش حول هذا البيان مع صراحته ، نشرت « الاهرام » حديثا دار بين الأمير طوسون وبين الشيخ اللبان ، قال فيه :

ـ « لما كانت الأمة المصرية تحفظ لسمو الأمير الجليل عمر طوسون باشا ، آثاره النافعة فى خدمة البلاد ، وتقدر جهاده الصادق فى سبيل تحقيق أمانى الوطن ، وتعترف له بالسبق فى سبيل المكرمات وتعضيد المشروعات النافعة ، وكانت كل دعوة تصدر من سموه تقابل من الأمة بالاهتمام اللائق بمقامه الكريم ، كان لبلاغ حضرات أصحاب السمو الأمراء الأخير ، حركة فكرية ظهر اثرها على صفحات الجرائد ، وعلى ألسنة الخطباء ، وتناول بعض الكتاب البلاغ للنظر فى اسلوبه ومعناه ، وفى الظروف التى صدر فيها ، بعناية كبير كادت تبعد بهم عن النظر فى مشروع الاتفاق ، وتحول بعض الجهود المهمة عن الاتجاه النافع.

« ولما كنت اعتقد ما يعتقده كل مصرى ، من أن وفرة اخلاص سمو الأمير وشغفه الزائد بان تنال البلاد حقوقها كاملة ، هما اللذان حملاه على التقدم بهذا البلاغ الى الأمة ، ورأيت بعض الناس قد بعدوا عن فهم المراد من هذا البلاغ ، انتهزت فرصة عودتى الى الاسكندرية ، والتشرف بزيارة سمو الأمير ، فحادثت سموه فيما يقصده حضرات أصحاب السمو الأمراء من هذا البلاغ ، الذى فهم منه بعض الناس انه قصد به التأثير فى الراى العام لحمله على خطة معينة . فاجابنى حفظه الله بانه يقدر جهاد العاملين حق قدره ، وتسره نهضة الأمة واحتفاظها بحقوقها . وانه وان كان رأيه الخاص الذى يتمسك به كل التمسك ، هو وجوب حصول البلاد على حقوقها كاملة غير منقوصة ، فهو يحترم راى الأمة ، لانه راى الجماعة التى يتحتم احترام رايها ، وان بلاغ الأمراء انما هو مجرد ابداء لرايهم كأفراد مصريين يودون لأمتهم نهاية الكمال ، وانه لا يقصد به التأثير فى الرأى العام أو تحويل اتجاهه ، وان كل رأى تراه الأمة فهو يحترمه ويجله ، وان شعاره سيظل دائما النهوض بمصر والعمل لابلاغها السعادة التى يجب أن يتمتع بها الشعب المصرى العريق ، وان هذا المعنى هو الذى تشير اليه خاتمة بلاغنا ، حيث اسندنا الأمر فى النهاية الى الأمة ، وجعلنا لها الكلمة العليا فى مشروع الاتفاق

« فشكرت لسموه هذا الاخلاص السامى ، وتلك الغيرة المحمودة ، واستأذنته فى اذاعة هذا ، حتى يدرك جمهور الأمة المرمى الحقيقى الذى قصد من هذا البلاغ ، فاذن سموه بذلك وأقره

« تلك هى العاطفة الجليلة التى دعت حضرات أصحاب السمو الامراء الى التقدم بابداء رأيهم الذى هو غاية الاخلاص ونهاية الرغبة الأكيدة فى خدمة البلاد ، مع احترام راى الجماعة والنزول على حكمها . وذلك مظهر من أجل مظاهر الديمقراطية الصحيحة ، نضيفه مأثره أخرى الى مآثرهم الخالدة

« فالى الشعب المصرى الناهض الذى يقدر اخلاص العاملين وجهاد المجاهدين قدره ، والى الأمة المصرية الكريمة الراغبة فى الحياة الحرة ، أعلن هذه الحقيقة الناصعة ، احقاقا للحق وازهاقا للباطل ، سائلا المولى عز وجل أن تنجح مقاصدنا ، وان يديم هذا التساند والتعاضد بين الأمة وامرائها العاملين الأحرار ، وان يوفق الساعين لخلاص البلاد الى أقوم سبيل انه سميع مجيب »

***

ولقد ساهم الشيخ فى معارضته لمشروع لجنة ملنر ، فى اجتماع كبير عقد فى دار البلدية وخطب فيه كثيرون ، كان آخرهم شيخنا الجليل ، فنهض معارضا المشروع ، مبديا عليه « تحفظات » ، كان أول من نادى بها ، وتبناها المفاوضون فيما بعد

ان خواطر المصريين لم تهج لقدوم اللجنة الى القاهرة ، بل لقد فزعت يوم أعلنت لندن نبأ تاليفها فى يوم ٢٢ سبتمبر سنة ١٩١٩ ، فعمت مظاهرات الاحتجاج القطر كله ، من الاسكندرية الى اسوان، وفقد الانجليز وعيهم ، فأطلقوا رصاصهم على المتظاهرين ، فقتلوا مئات من الشباب والفتيات والشيوخ ، راحوا ضحية جنون المستعمر وفقدانه عقله ووعيه

وفى يوم الجمعة ٢٤ اكتوبر تزعم الشيخ اللبان مظاهرة كبرى خرجت من مسجد أبى العباس المرسى عقب صلاة الجمعة ــ وقد أم فيها المصلين ــ وانضم اليها الأهالى حتى بلغ عدد السائرين فيها نحو عشرين الف متظاهر، ساروا فى شوارع المدينة ، هاتفين بالاستقلال التام أو الموت الزؤام ، صائحين بسقوط لجنة ملنر ، فتصدى لهم رجال البوليس المصرى ، ثم

الانجليز بفصيلة من جيشهم ، اعملت رصاصها فى الوطنيين العزل ، فسقط خمسة قتلى ونحو عشرين جريحا ، عدا بعض ضباط البوليس الذين اصابتهم جروح ايضا

كان لهذه الفعلة صدى قوى فى أنحاء البلاد ، فاستقال محافظ الاسكندرية حسن عبد الرزاق باشا ، ودعا الشيخ اللبان أعيان المدينة وكبراءها الى اجتماع فى داره ، حيث وقعوا مذكرة شديدة باحتجاجهم على استعانة رجال البوليس المصرى برجال الجيش الانجليزى ، وذهب بها وفد منهم الى محمد سعيد باشا فى داره ، وكان فى الاسكندرية يومذاك ، فاعتذر عن عدم مقابلتهم ، فأرسلوا اليه برقية احتجاج صارخ على هذا الاعتذار

وكان الوفد مؤلفا من الشيخ اللبان والأستاذ محمد صادق أبو هيف والأستاذ محمد حسين العرارجى والدكتور أحمد عبد السلام والشيخ عبد الحميد احمد باشا واليوزباشى أحمد نبيه قيودان

وتضمنت المذكرة هذه الطلبات :

١ ــ سحب الجنود البريطانيين من المدينة
٢ ــ الافراج عن جميع المعتقلين فى الحوادث التى حدثت
٣ ــ التحقيق لمعرفة من المسؤول عن دعوة فصيلة الجيش البريطانى
٤ ــ اباحة حرية الاجتماعات
٥ ــ اعانة عائلات القتلى
٦ ــ نقل مأمور قسم الجمرك واحالته الى مجلس تأديب

* * *

فلنكمل الشوط مع الشيخ فى مراحل حياته الحافلة

لأمر ما ألغى القسم العالى بمعهد الاسكندرية فى عام ١٩٢٣ ، فنقل مدرسا بالقسم العالى بالأزهر ، فمفتشا عاما للمعاهد ، فرئيسا لقسم الوعظ ، فشيخا للقسم الثانوى ، ثم شيخا للقسم العالى

فى تلك السنة ، صدر الدستور المصرى ، واجريت الانتخابات لأول برلمان مصرى ، فرشح نفسه لعضوية مجلس النواب عن دائرة « عزب أبو مندور » بمديرية الغربية ، ففاز بها ، واشترك فى النادى السعدى ــ نادى الوفديين انصار سعد زغلول ــ ودفع خمسين جنيها هى قيمة الاشتراك السنوى فى النادى ، كما يرى فى الصورة الزنكوغرافية التالية لايصال المبلغ

النادي السعدي

شركة مدنية رأسمالها المدفوع ... مقسمة الى ...

حصة قيمة كل حصة ٥٠ جنيه مصري

تأسس بموجب قانون النادي المصدق عليه من الجمعية العمومية

بتاريخ ٢٧ مايو سنة ١٩٢١

مستند بمبلغ ٥٠ جنيه قيمة حصة واحدة

باسم حضرة صاحب الفضيلة الشيخ عبد المجيد اللبان

نمرة ...

تحريراً في ٢٩ ... سنة ١٩٢١

رئيس النادي — امين الصندوق

* * *

وفى ١٩ سبتمبر سنة ١٩٢٦ صدر أمر ملكى بتعيينه عضوا فى مجلس ادارة الأزهر .

وفى ٤ ديسمبر سنة ١٩٢٩ صدر أمر ملكى بتعيينه شيخا لمعهد الاسكندرية ، وكان شيخه شيخا لعلمائها

وفى ٣ اغسطس سنة ١٩٣٠ صدر أمر ملكى ثالث بتعيينه عضوا فى هيئة كبار العلماء ، مع الانعام عليه بكسوة التشريفة العلمية من الدرجة الأولى .

وفى هذا العام بدا لبعض المثقفين من اخواننا القبط أن يحاولوا التصغير من شأن الاسلام ، وتحقير تعاليمه ومبادئه ، فى محاضرات القوها فى بعض الأندية ، وكادت أن تكون فتنة طاغية جارفة ، واذا بالشيخ اللبان يرسل الى غبطة بطريرك الأقباط الأرثوذكس ، الكتاب التالى ، انقله بحروفه !

« حضرة صاحب الغبطة الحبر الجليل ، الانبا يؤانس بطريرك الأقباط بمصر

« أهديك التحية اللائقة بمقامك ، وارجو لك ما تحب من الصحة والعافية ، وبعد : فانى أكتب اليك فى موضوع خطير يهمنا جميعا . وانا

ممن يقدرون فيك صفات الرجال ، ويعتقدون أنك ممن يزنون الحوادث بميزان الحكمة والتبصر

« لقد عملنا سويا أيام كنا بالاسكندرية على اتحـاد عنصرى الأمة العزيزة ، وكان لعملنا أثره فى مصلحة الطائفتين : الاسلامية والقبطيـة ، فجنت البلاد من وراء هذا الاتحاد ، ما حفظ كرامتها وأبقى على نهضتها . وانه لمن دواعى الأسف الشديد لدى ، ان أرى اليوم فريقا متهوسا ممن ترعاه الكنيسة المرقسية ، يعمل على هدم ما بناه العقلاء ، ويدبر الحملات الطائشة ضد الاسلام ، دين الدولة الرسمى ، معرضا بذلك قضية الوطن لأعظم الاخطار ، فان أكبر ما أخشاه أن يقابل المسلمون عمل هؤلاء المفترين بمثله ، بل لا أنكر عليك ان من بينهم من حدثته نفسه فعلا بذلك ، وهم برد كيد المعتدين ، رغم ما يأمر به ديننا فى مثل هذا الشأن ، اذ يقول الله فى نهى المؤمنين عن سب آلهة المشركين : « ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله ، فيسبوا الله عدوا بغير علم »

« وثق انه لولا ما تعلمه من شدة معارضتى ، لنزل الى ميدان العمل كثير ممن جاشت نفوسهم وثارت عواطفهم ، غير مكترثين بالعواقب

« والراى عندى ان خير الطرق لاطفاء الفتنـة واعادة الصفـاء الى النفوس ، أن تقوموا من جهتكم بما يفهم هؤلاء المعتدين وغيرهم ، أن فى عملهم خروجا عن حدود اللياقة ، وتعاليم المسيح عليه السلام ، فانها تحرم الافتراء والكذب خصوصا على الأديان المقدسة

« يا صاحب الغبطة : هذا كتاب صاحبك القديم ، بدعوك به الى أن تقوم بقسطك من العمل على دوام الصفاء بين الفريقين ، فان الأمة فى حاجة اليه ، فى هذا الوقت الذى تجتاز فيه أشد مراحل حياتها خطورة . وانى لأود ان اعلم منك برجوع البريد ، ما اعتزمت عليه ، والسلام على من اتبع الهدى

« وختاما تقبلوا احتراماتنا »

١٨ العقدة سنة ١٣٤٨

١٧ ابريل سنة ١٩٣٠

عبد المجيد اللبان

بالاسكندرية

* * *

هذه هى الوطنية فى اسمى معانيها ، وهذا هو حب الوطن فى أروع صوره .

لم يطلب احد من الشيخ أن يصنع شيئا ، ولكنه يدافع من غيرته على بلاده وعلى دينه ، كتب الى البطريرك هذا الكتاب العظيم

لقد طلب منه الشيخ ان يرد عليه برجوع البريد .. فهل ابى البطريرك طلبه ؟

نعم . فلقد أرسل رده عليه فى ١١ برمودة سنة ١٦٤٦ : الموافق ١٩ ابريل سنة ١٩٣٠ ، وقد قال له فيه : ما انقله هنا بحروفه أيضا :

« حضره صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد المجيد اللبان

« أهديك تحياتي وسلامى ، وأتمنى لك كل صحة وقوة ، وبعد : فقد جاءنى كتاب فضيلتك ، واشكر لك صادق ودك وحسن ظنك . والواقع ان هذا الموضوع الذى كتبت لى عنه ، يهمنى كما يهمك ، فانا أحرص الناس على وحدتنا الوطنية ، التى تعبنا معا ، فى الاسكندرية ، فى توثيق عراها ، وبذل كثير من أبناء العنصرين جهودا شريفة فى سبيل توطيد دعائمها ، فاذا وجد فرد أو أفراد يعملون لهدم هذه الوحدة المقدسة بالطعن فى الدين الاسلامى الذى هو دين اخواننا ومواطنينا الكرام ، وتقوم الأدلة على اثبات جرمهم ، فانهم يكونون من شر الجناة على الوطن ، وانا أول من يستنكر عملهم ، ويستفظع جريمتهم بلا جدال ، فان الدين المسيحى لا يجيز هذا الاعتداء على الاطلاق ، بل هو بالعكس يحض على محبة الاعداء ، فكيف بالمسلمين وهم اخواننا فى الوطن ، وشركاؤنا فى سراء الحياة وضرائها ، وتجب علينا محبتهم واحترامهم واجلال دينهم ؟

« على انه قد يهم فضيلتك ان تعرف ان الشخصين اللذين اتهما أخيرا بالطعن فى الدين الاسلامى ، وباتا رهن المحاكمة ، وفضيلتك تشير اليهما بالطبع فى كتابك ، ليسا من الأقباط الأرثوذكس كما ظننت ، وليس معنى ذلك ان أى طائفة أخرى من الطوائف المسيحية تبيح الطعن فى الاسلام ، فان الدين الذين ندين به ، هو بعينه الذى تدين به تلك الطوائف وهو يأمرها كما يأمرنا بالمحبة والسلام ، وينهاها عن كل ما يخالفهما ، ولا سيما اذا كان جارحا لاقدس العواطف ، وأعنى بها العاطفة الدينية

« وكن على ثقة يا فضيلة الأستاذ ، انه لا يجرؤ على الطعن فى الاسلام وهدم الوحدة الوطنية من الأقباط الأرثوذكس الذين هم تحت رئاستنا ،

ومن غيرهم من الطوائف الأخرى ، الا احد اثنين : اما مدخول فى عقله لا يقدر عاقبة فعله ، أو مدسوس على المسيحيين محرض من فئة مغرضة لاثارة فتنة ، والقانون لكليهما بالمرصاد

« وانما كتبت لك هـذا لتكون على يقين لا يخالطه ريب ، من انى استهجن كل الاستهجان ، الاقدام على الطعن فى الدين الاسلامى الكريم ، وانا عالم ان جميع ابنائى الاقباط الأرثوذكس يقرون كل كلمة مما فى كتابى هذا

« وتقبل شكرى واحترامى »

يؤانس

بابا وبطريرك الكرازة المرقسية

وكما قال البطريرك فى كتابه ، فان المتهمين بالطعن فى الدين الاسلامى، دعيا للتحقيق معهما واحيلا الى المحاكمة ، والحمـد لله فقد خيب الله املهما ، ولم تقم الفتنة التى كانا يبغيانها

اعود الى الشيخ فاقول انه صدر امر ملكى رابع فى ١٢ يونيو سـنة ١٩٣١ بتعيينه شيخا لكلية أصول الدين ، وكان قد صدر القانون رقم ٤٩ لسنة ١٩٣٠ بانشائها ، وبدات الدراسة بها فى ٣ اكتوبر سنة ١٩٣١ ، وافتتحها الملك فؤاد رسميا فى يوم الثلاثاء ٢٨ مارس سنة ١٩٣٣ — ١٢ ذو الحجة سنة ١٣٥١ هـ

ففى صباح ذلك اليوم ، ازدحمت ساحة الكلية — وقد اتخذت دارا لها مدرسة الخازندارة بشبرا التى شيدتها خديجة هانم بنت محمد راغب اغا معتوق الخديوى عباس الأول، واوقفتها فى سنة ١٩١٢ — سنة ١٣٣٣هـ على دراسة الدين والقرآن — بالعلماء والوزراء والشيوخ والنواب والكبراء، فى انتظار الملك لافتتاحها رسميا فى الساعة الحادية عشرة قبل الظهر

ووصل الملك ، واستقر به المقام بعد مراسم الاستقبال فى السرادق المعد للاحتفال ، ووقف بين يديه شيخ الأزهر فضيلة الشيخ محمد الاحمدى الظواهرى ، فخطب خطبة ضافية قال فيها :

— « ... العناية يا مولاى بالأزهر الشريف ، هى العناية بالدين الاسلامى وبالمسلمين اينما كانوا وحيثما وجدوا ، فهو قلب الاسلام النابض،

وعلمه الحفاق ، ومصباحه الوهاج ، الذى تعاقبت عليه الأجيال والقرون ، وهو يرسل أشعة الايمان والتقى ومكارم الأخلاق الى مشـارق الأرض ومغاربها ، وهو كعبة العلوم الدينيـة والعربيـة التى تحج اليها الوفود الاسلامية من جميع القارات ، ليتفقهوا فى الدين ولغة القرآن الكريم ، وينشروا ذلك فى قومهم اذا رجعوا اليهم

« ولقد كان من اجل مظاهر هذه العناية الملكية ، ان اشرتم باعادة تنظيم الأزهر على وجه يحقق آمال المسلمين فيه ويتناسب مع تاريخه المجيد ، ويعد خريجيه للقيام بالواجب الملقى على عاتقهم فى هذا العصر ، على احسن وجه ويجعلهم رجالا عاملين فى أسرة العلم ، ذوى عقلية راجحة ، ملمين بما ينبغى أن يعلم من المعارف وشئون الحياة ، كى يستعينوا بما وصلت اليه العلوم والفنون فى تقدمها ، على كشف ما جاء فى القرآن الكريم والحديث الشريف ، من حقائق تكلم عنها الاسلام ، قبل أن تعرض فى الناس بأكثر من ثلاثة عشر قرنا .

« ولقد عودكم الله التوفيق فى جميع اعمالكم ، فاصدرتم جلالتكم القانون رقم ٤٩ لسنة ١٩٣٠ ، وافيا بهذه الاغراض السامية ، مع المحافظة على صبغة الازهر الدينية والعربية .

« وكان من أكبر مزايا هذا القانون ان انشأ كليات : أصول الدين ، والشريعة ، واللغة العربية ، وجعلت ابوابها مفتحة لجميع الطلاب المسلمين على اختلاف جنسياتهم ، واستدرك ما كان فى القوانين السابقة من نقص فى مواد التعليم على اختلاف مراحله ، فجعل من مـواد الدراسة فى الكليات : تاريخ التشريع الاسلامى ، ومقارنة المذاهب ، وفن الحديث دراية ورواية ، وآداب اللغة العربية وتاريخها ، وفقه اللغة ، وتاريخ الامم الاسلامية ، وعلم النفس ، والفلسفة مع الرد على ما يكون منافيا منها للدين ، وما الى ذلك من مواد لم تكن تدرس فى القسم العالى من قبل » .

الى أن قال :

« ... وهذه يا مولاى كلية أصـول الدين التى غايتها تخريج الوعاظ والمرشدين ، وتحقيق قوله تعالى : « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخـير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » .

« وقد اجتمع فى هذه الكلية ، الى أساتذة التوحيد والتفسير والحديث ، أساتذة علم النفس والأخلاق والفلسفة والتاريخ وسنن الله الكونية ، يتعاونون

على تزويد الطلاب بما يعدهم للقيام بواجب الوعظ والارشاد على اتم وجه يليق بهذا العصر » .

ثم بدأ الملك زيارة بعض فصول الدراسة ، واستمع الى ما يلقى فيها من محاضرات ، وانتهى الى مكتب شيخ الكلية ، الشيخ اللبان : فكتب فى دفتر الزيارات كلمة أعرب فيها عن اعجابه بما رأى وبما سمع . ثم القى الشيخ كلمة بين يديه ، قال فيها :

ـ « أحمد الله تعالى اليكم ، وأسأله جل شأنه دوام النعمة عليكم ، وارفع الى مقام جلالتكم اسمى آيات الحمد والاجلال : واخلص معانى الشكر والاعتراف بالجميل ، على تفضلكم بافتتاح كلية أصول الدين ، احدى مظاهر النظام الحديث للازهر الشريف .

« وان الأزهر المعمور الذى ظل منار العالم الاسلامى عشرة قرون كاملة ، يبعث النور فى جوانبه ، وينشر الهداية والارشاد فى أقطاره ، والذى يسر بفضل رعايتكم أسباب العلم لأبنائه ، ومهد سبيل الثقافة الاسلامية للوافدين منهم على مصر ، ليعتز اليوم بهذه الزيارة المباركة ، ويعتبرها تكريما للرسالة العظمى التى يؤديها للمسلمين .

« فاذا وقف اليوم بين يدى جلالتكم شيخ كلية أصول الدين واساتذتها وموظفوها وطلابها ، يرفعون الى جلالتكم آيات الشكر على ما أوليتموهم من الشرف الرفيع بهذا العطف السامى ، فانما يقفون ومن ورائهم كافة الأمم الاسلامية التى نصرت دينها ، وعمرت مساجدها ، ونشرت كتابها ، وقمت حارسا عليه ، يرددون جميعا آيات الشكر لجلالتكم على ما تبذلون فى خدمة الاسلام وتثبيت قواعده ، واعلاء كلمته ، ويبتهلون الى الله تعالى أن يحفظ لمصر مليكها المؤمن ، ملاذ المسلمين وقبلة آمالهم ومعقل رجائهم .

« وها هى كلية أصول الدين التى ارجو ان تؤدى مهمتها بما يرضى الله تعالى وينال عطفكم ، ينتهز رجالها فرصة هذا اليوم السعيد ، ليعاهدوا جلالتكم على أنهم لا يدخرون جهدا فى سبيل القيام بواجبهم الذى اضطلعوا به لخدمة دين الله ونشر تعاليمه » .

وكان من عادة الشيخ ان يلقى خطابا فى اليوم الاول من كل عام دراسى ، يتخذه الاساتذة والطلبة نبراسا ينير لهم السبيل الى ما ينفعهم ويعود عليهم وعلى الدين وعلى المسلمين بالخير والنفع .

ولبث الشيخ عميدا للكلية التي جمعت طلبة من شتى الاقطار الاسلامية، الى أن أحيل الى التقاعد ، لكنه ظل هاديا ومرشدا الى الحق والى الطريق القويم . الى أن دعاه الله الى جواره الكريم فى ١٣ نوفمبر من عام ١٩٤٢ ، فلبى الدعوة راضيا مرضيا ، مخلفا رسالتين فى الأخلاق الدينية ، ورسالة فى السيرة النبوية ، وكان قد شرع فى وضع كتابين فى التفسير والأصول ، ولم يتمهما لصعود روحه الى بارئها الأعلى .

ولعله من المصادفات الغريبة ، انه وهو المجاهد الوطنى كما رايت ، ان يلقى ربه فى يوم تاريخى فى حياة مصر ، بل هو مفتاح ثورتها الكبرى ، ثورة ١٩١٩ : هو اليوم الذى ذهب فيه سعد زغلول وعلى شعراوى وعبد العزيز فهمى الى المعتمد البريطانى مطالبين بالاستقلال ، وكان يوم ١٣ نوفمبر سنة ١٩١٨ ، وكان يطلق عليه « عيد الجهاد الوطنى »

وارى واجبا على قبل أن أضع القلم ، أن اذكر له حادثين هامين يدلان على شجاعته فى ابداء رايه ، وهى خصلة ما أحوج علماءنا اليها فى هـــذا العصر .

الأول : بعد ما نجح الانجليز فى اثارة الشريف حسين على الحكم التركى، وانسحبت الجيوش التركية من البلاد العربية الخاضعة له ، نصبوه ملكا على الحجاز ليكون أداة طيعة لتنفيذ سياستهم فى المنطقة العربية ، ثم فكروا فى دعم مركزه فجعلوا منه خليفة للمسلمين ، واقترحوا على حلفائهم وعلى الحكومات الخاضعة لسلطانهم ، مبايعته بارسال وفود من علمائها الى مكة فى موسم الحج تعلن فى اثنائه هذه المبايعة فى حفل دينى كبير يقام فى المدينة المقدسة ، فطلبوا الى السلطان حسين كامل ــ الذى نصبوه سلطانا على مصر تحت حمايتهم فى أولى أيام الحرب العالمية الأولى ــ تأليف وفد دينى لهذا الغرض . فطلب السلطان الى المرحوم الشيخ محمد بخيت مفتى الديار المصرية لذلك العهد ، أن يختار له عالما يجمع الى علمه ورعا و « ديبلوماسية » ولباقة ، ليرأس الوفد المصرى ، فرشح له الشيخ اللبان قائلا للسلطان : انه خير العلماء صلاحية لهذا الأمر .

ودعى الشيخ لمقابلة السلطان فى قصر رأس التين بالاسكندرية ــ وكان قد عرف بأمر هذا الوفد ومهمته من صديقه الصحافى الكبير المرحوم الاستاذ أمين الرافعى ــ فلبى الدعوة ــ فدار بينهما الحوار القصير التالى أدونه كما سمعته من الشيخ نفسه :

السلطان : أنا طول عمرى أتوقع أن تقوم لى بخدمة كبيرة ، وقد آن الاوان لتقوم بهذه الخدمة . أريد منك أن تذهب على رأس وفـــد الى مكة لمبايعة الحسين خليفة .

الشيخ اللبان : وانا كذلك كنت اتطلع الى فرصة تسنح لى لأخدم فيها عظمة مولانا السلطان ، ولكن يؤسفنى ان صحتى فى الوقت الحاضر لا تساعدنى على السفر ، وقد قرر لى الأطباء ذلك . الى هذا فان دينى يمنعنى من مبايعة خليفة نصبه غير مسلمين ، هم الانجليز . ان الخليفة يجب أن يكون مستقلا وقادرا على حماية نفسه والدفاع عن رعيته ، والحسين غير مستقل ، فهو محمى من الانجليز ، ولا يستطيع الحماية ولا الدفاع .

السلطان : طاوعنى ، وخليك تحت « البنديرة » (أى العلم) .

الشيخ : لا استطيع .

السلطان : قم ، يظهر ان دماغك ناشفة !!

وانصرف الشيخ راضيا عما صنع . وبعد اشهر قليلة ذهب السلطان ليصلى الجمعة فى جامع أبى العباس المرسى ، وكان الشيخ من الحضـور ، واتفق ان جلسته جاءت خلف السلطان مباشرة ، فالتفت اليه وقال له :

— يا شيخ عبد المجيد ، وجدت لك بلد توافق صحتك ، وهى اسيوط!

فقال الشيخ : اى بلد أؤدى فيها عملى ..

فلماذا اختارت الحاشية الدساسة ، مدينة أسيوط لينقل اليها الشيخ؟

لان معهد اسيوط لم يكن به سوى السنة الاولى الابتدائية ، والشيخ كان يدرس لطبة السنة النهائية أو السنة الثانيـة عشرة كما يسميهـا الأزهريون ، ومعنى هذا الانتقاص من قدر الشيخ الجليل .

لكن الله لم يرد به الا خيرا ، فظل كما هو بمعهد الاسكندرية ، لأن السلطان بعد هذا الحديث فى المسجد ، مرض اياما انتقل بعدها الى رحمة الله .

اما الحادث الثانى ، فتمثل فى ذلك الحفل العظيم الذى دعا الشيخ الى حضوره فى مستهل عام ١٩٣٠ فى أرض الجمعية الزراعية الملكية — المعارض اليوم — بالجزيرة « للاستماع الى خطاب هام » ولبى الدعوة اليه الوف من الأزهريين والمثقفين من جميع المعاهد والطبقات والطوائف ، فخطب فيهم خطابا شديدا محتجا فيه على ابعاد الشيخ المراغى — رحمه الله — عن مشيخة الأزهر بلا سبب — وكان اللبان مرشحا ليخلفه — وأعلن انه كمصرى وكرجل دين يعتز بكرامته ، لا يقبل أن يعامل شيخ الأزهر وشيخ الاسلام هذه المعاملة التى يأباها الحر الكريم ، واقترح على الحاضرين ، وكانوا عدة الوف ، ارسال برقية احتجاج الى ولاة الامر ، فوافقوا على اقتراحه ، وارسلت البرقية ، وتلقاها المسئولون ، فعدلوا طبعا عن ترشيحه ، وعينوا بدلا منه المرحـوم الشيخ محمد الاحمدى الظواهرى .

ومع هذا كان دعاة الفرقة والسعى بالعداوة والبغضاء بين المتحابين ، يذيعون ان كلا من الشيخين : اللبان والمراغى خصم لصاحبه ، بسبب تلك الفتوى التى ورد ذكرها . ولكنى أشهد الله انى ما سمعت من كليهما الا كل خير وحسن فى أخيه ، بل لقد كان المراغى يتلقى العزاء فى وفاة الشيخ اللبان مع أنجاله . وهو مكلوم ، موزع القلب حسرات ، على صديقه الذى رحل وخلفه وحيدا .

فاذا أردت أن أزيدك حديثا عن الشيخ قلت : لقد شملته عناية الله فزادته بسطة فى العلم والجسم ، وسعة الرزق والجاه ، لا يمارى ولا يداجى ، يقول الحق فى جلاء ووضوح وصراحة ، متواضع ، يحترم الصغير ويوقر الكبير ، عاش للناس أكثر مما عاش لنفسه ، لم يضق صدره بصاحب حاجة ، بل يبدو سعيدا اذا قضاها له وانصرف سعيدا مسرورا ، وكان مع تقدم سنه يحمل قلبا فتيا ، وعزما قويا ، تحلى برجولة كاملة عاملة ، كان دائبا على عمله منصرفا اليه ، فلم يغب عن مكتبه فى الكلية طوال سنوات عمله بها ، الا أياما تعد على أصابع اليدين .

انعم الله عليه بذرية صالحة ، فأنبتها نباتا حسنا ، ونشأها تنشئة كريمة ، وجهد فى تعليمهم وتثقيفهم ، حتى كان منهم الوزير والسفير والقاضى والمربى الكامل الفاضل .

لقد انجب طيب الله ثراه ، الأستاذ سعد اللبان — رحمه الله — من وزراء المعارف والأوقاف السابقين ، والدكتور ابراهيم اللبان — مد الله فى عمره — عميد دار العلوم العليا الأسبق ، ومحمد الشافعى اللبان — رحمه الله — القاضى السابق وأول رئيس لمجلس ادارة بنك الائتمان العقارى بعد أن رأس مجالس ادارات بنوك أخرى ، ومحيى الدين اللبان — رحمه الله — وكيل قلم قضايا الاوقاف السابق ، وكمال اللبان — رحمه الله — مستشار السفارة المصرية فى لندن السابق ، ومحمد عبد الشافى اللبان — مد الله فى عمره — وكيل وزارة الخارجية وسفير مصر فى سويسرا السابق .

***

وبعد : فانى لأرجو أن أكون قد جلوت صفحة رجل كريم ، عاش لوطنه ولدينه ، عزيز الجانب ، موفور الكرامة ، لم يسع الى شهرة ، ولم يبغ الا رضى الله ورسوله .. راجيا أن يتأسى بسيرته شيوخنا وعلماؤنا الأجلاء .

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى هَدَانَا لِهَذَا
وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ
صدق الله العظيم

الثمن ٢٥٠ قرشا